

أثر الثقافتين الفرنسية والانجليزية

في مصر

منذ ابتداء النهضة الحديثة حتى قيام الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥

تأليف

ليلى سليمان نجار

رسالة قدمت لنيل درجة استاذ في الآداب

الى دائرة اللغة العربية

الجامعة الاميركية في بيروت

شباط ١٩٦٥

تعريف

تمتد فترة هذا البحث من مطلع القرن التاسع عشر وتشمل قرنا وربع القرن • وهي فترة غنية باحداثها السياسية والاجتماعية والثقافية وتشكل بدء دخول الثقافة الغربية الى المشرق العربي سواء في مصر او في لبنان ، وهما النافذتان الاساسيتان اللتان عبرت الثقافة الغربية منهما •

وهذا البحث يدرس المؤثرات الغربية التي دخلت الى مصر مع مطلع القرن الماضي فكانت سببا في تغيير اساليب الحياة وطرق التفكير وتوسيع آفاق المعرفة • وكان لها اثر في الحياة السياسية القومية ، وفي الحياة العقلية والادبية خاصة •

والمتصدى لمعالجة هذا الموضوع لا بد ان يقرأ كتباً عامة حول هذه الفترة لمعرفة جوهرها العام وتطور احداثها التاريخية سياسية واجتماعية ليتمكن من فهم التيارات التي هبت عليها واثرها في الحياة العقلية ، ووضعها في إطارها الصحيح ، من هنا ، كانت القراءات التي شملها الاستعداد لهذا البحث واسعة جدا •

دارس هذه الفترة يجد ان المؤثرات الغربية بدأت تدخل الى مصر مع مطلع القرن الماضي عن طريق التعليم الذي تعهدته الدولة ، واخذت تغير اساليبه واهدافه لتنسجم مع متطلبات الحضارة الحديثة ، وقد وجدت مثلها العليا بذلك في اوروبا وخاصة في فرنسا

ولم يكن التعليم ، وما يتعلق به من ارسال بعثات علمية الى الخارج واستقدام معلمين احانب وما الى ذلك ، المؤثر الرئيسي في ادخال الثقافة الغربية الى مصر فحسب ، بل كان المجال الذي برز فيه الاثر الغربي بشكل ملموس ، اعني بذلك ان التعليم كان وسيلة لادخال الاثر الغربي ، ومتأثرا بهذا الاثر نفسه في الوقت نفسه ، فطوال الثلثين الاولين من القرن الماضي كان التعليم المظهر الاساسي للحياة العقلية ، والمرآة الاولى لانعكاسات الاثر الغربي ، وقد كان ذلك طبيعيا لان التعليم هو الخطوة الاولى لتوعية الشعب وتوجيهه الوجهة الثقافية الجديدة ، ولا بد ان تمر فترة من الزمن قبل ان تنعكس اثار الجديد وافاقه المفتوحة ، في الحياة العقلية للشعب • لذلك كان اي اثر غربي في مصر يلمس من خلال

التعليم والتأثير الغربي فيه طوال الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر .

وهكذا مثل التعليم دور المؤثر والمتأثر معا .

من هنا كان لا بد ان ندرس التعليم في هذا الاطار ، وقد درس التعليم عديد من الباحثين من حيث هو حركة مستقلة ، ومن حيث ظهوره في مجال الغربية والانظمة التعليمية ، ومن حيث نموه على يد الدولة او على ايد خاصة لكن التعليم من حيث هو حامل للآثر الغربي الى مصر متأثر به ومؤثر في حضارة البلاد ، ومن حيث هو المجال الاول للصراع الثقافي الانجليزى الفرنسى ، لم يكن موضع دراسة محدودة . ومع ذلك فلا بد من الاستعانة بالكتب التي ألفها الباحثون عن التعليم لاستنتاج الآثر الغربي منها وكان لا بد من زيارة مكتبات مصر ;

كدار الكتب المصرية ومكتبة جامعة القاهرة ومكتبة معهد البحوث والوثائق التربوية ومكتبة وزارة التربية والتعليم حيث يوجد مصدر اساسي عن حركة التعليم البريطاني في مصر هو تقارير دوقلاندلوب الذى كان مسؤولا عن التعليم طيلة ثلاث عشرة سنة ايام الاحتلال ، وهذه التقارير غير منشورة حتى الان . واهمية هذه التقارير تكمن في انها تعكس الصراع الثقافي بين فرنسا ، التي كانت قد مكنت جذورها الثقافية في مصر ، وانجلترا التي وعت اهمية التأثير الثقافي فبدأت تحارب الآثر الفرنسي .

لكن التعليم لم يكن وحده سبيلا لحمل الثقافة الغربية الى مصر ، فقد رافقه عامل آخر منذ نشأته ، هو عامل الترجمة التي كانت في البدء مساعدا للتعليم على اتمام مهمته ونصرا من عناصر النهضة العلمية العملية فقط ، ولكنها ما لبثت ان تطورت لتصبح ترجمة ادبية استطاعت ان تنقل الى مصر روائع الفكر الغربي ، واتسعت حقولها حتى شملت مجالات عديدة من ادب وفكر سياسي واجتماعي وغير ذلك .

وازدهرت حركة الترجمة في فترة ازدهار الصحافة المصرية فكان المجالان يساعد الواحد الآخر ويكمله احيانا . لكن اتساع حركة الترجمة واعتمادها على الصحافة ادى الى نشوء الترجمة الشعبية التي وان اسهمت في تعريف المصريين الى الروائع العالمية في طريق تبسيطها ونشرها ، الا انها احيانا كانت عاملا سلبيا في تأخير تطور الذوق الفني وتجميده .

ولكن الترجمة بالرغم من ذلك كانت سبيلا رئيسيا آخر لدخول الثقافة الغربية الى مصر ، وقد كانت علامة مساعدة للتعليم من جهة ونتيجة له من جهة اخرى .

وهكذا كانت الترجمة والتعليم السبيلين الاولين لدخول الثقافة الغربية الى مصر ، وقد نشأت عنها عدة عوامل مساعدة ومكملة ، في طبيعتها الطباعة والصحافة ، وهي عوامل اساسية هامة جدا في اكمال صورة النهضة .

بعد دراسة هذه المؤثرات الاساسية ، وجدت انه من الضروري القاء بعض الضوء على انعكاساتها في الحياة العقلية بمصر ، ذلك انه نتج عن هذه المؤثرات غليان سياسي فكري وعلمي وتطور اجتماعي وتحول ادبي . لذلك كان لا بد من القاء الضوء على بعض هذه المظاهر وعلى الحركة الفكرية العامة المتأثرة بالغرب لعل الدراسة تصبح بذلك قاعدة مفيدة للانطلاق لدراسات متخصصة في كل مظهر من المظاهر التي ولدها دخول الثقافة الغربية ، على حده .

من هنا كان الباب الثالث من هذه الدراسة بحثا في بعض المعالم الرئيسية للمظاهر الفكرية العامة التي تأثرت بالثقافة الغربية . فجا استعراض المناخ الفكري الذي ولدته الحضارة الغربية ، وما نشأ عنها من دخول آراء جديدة متأثرة بالمفكرين الليبراليين الفرنسيين . ثم ما نشأ بعد ذلك من صراع بين القديم والحديث فسي مختلف الحقول .

ثم جاء استعراض سريع للفنون المستجدة والفنون القديمة التي تطورت بعد ان انعكست مظاهر هذا التطور في الادب .

وتوضيحا لتأثر ادباء مصر ابناء هذه الحضارة الجديدة ، والحضارة القديمة معا ، اخترت بعض اقوالهم لايضاح تأثرهم وتغيير مفاهيمهم الادبية عما افترضه مصر من عهودها السابقة ، بالرغم من ان التأليف الادبي حتى نهاية فترة البحث بقي غريبا اذا قورن بما صدر بعد ذلك طوال الثلاثينات .

في كل ذلك كان لا بد من الالتفات الى تيارين غربيين اتفقا حيناً وتصارعا
حيناً آخر، فأذا في حركة التعليم اتجاهات فرنسية وأخرى انجليزية ، وكذلك
في الترجمة وفي الادب .

فهرست المحتويات

فهرست المحتويات

صفحة

فهرست المحتويات	أ - ب
مقدمة	ج - هـ
تمهيد - تبشير دخول الثقافة الغربية الى مصر
الفصل الاول : ملامح الحياة الثقافية في مصر قبيسل	
الحملة الفرنسية	١ - ٥
الفصل الثاني : أثر الحملة الفرنسية	٦ - ٢٢
الباب الاول - التعليم وأثره في نشر الثقافة الغربية في مصر	٢٣ - ١٦٢
الفصل الاول : الثقافة الفرنسية في مصر	٢٤ - ١٠٣
عصر محمد علي	٢٤ - ٥٦
خلفاء محمد علي	٥٧ - ٥٨
عصر عباس	٥٩ - ٦٥
عصر سعيد	٦٥ - ٧٢
عصر اسماعيل وبداية عصر توفيق	٧٣ - ١٠٣
الفصل الثاني : الثقافة الانجليزية في مصر	١٠٤ - ١٦٢
الأثر الانجليزي قبل الاحتلال	١٠٤ - ١١٣
السياسة التعليمية في بداية	
الاحتلال واصطدامها بالاتجاه	
الفرنسي	١١٤ - ١٥٣
خلاصة في التعليم وأثره في نشر الثقافة الغربية في مصر	١٥٤ - ١٦٢
الباب الثاني - الترجمة وأثرها في نشر الثقافة الغربية في مصر	١٦٣ - ٣٠٩
الفصل الاول : الترجمة من الفرنسية	١٦٤ - ٢٢٧
مقدمة	١٦٤ - ١٦٦

صفحة

عصر محمد علي	١٦٧ - ١٨٥
الترجمة من الفرنسية منذ عصر اسماعيل	١٨٦ - ٢٢٧
الفصل الثاني : الترجمة من الانجليزية	٢٢٨ - ٢٧٨
مقدمة : سمات الترجمة من الانجليزية	

بوجه عام	٢٢٨ - ٢٣٨
ترجمة القصص	٢٣٩ - ٢٥٦
ترجمة المسرحية	٢٥٦ - ٢٦٣
ترجمة الشعر	٢٦٣ - ٢٧٠
ترجمة النثر غير القصصي	٢٧٠ - ٢٧٨
خلاصة في أثر الترجمة في نقل الثقافة الغربية الى مصر	٢٧٩ - ٢٨٧
الفصل الثالث : الوسائل المساعدة	٢٨٨ - ٣٠٩
الطباعة	٢٨٨ - ٢٩١
الصحافة	٢٩١ - ٣٠٤
عوامل اخرى	٣٠٤ - ٣٠٩

الباب الثالث - لمحة عن أثر الثقافتين في الادب المصرى

الحديث	٣١٠ - ٤٥٤
الفصل الاول : ظهور الأثر الغربي في الجو الفكري العام	٣١١ - ٣٣٨
الفصل الثاني : أثر الثقافة الغربية في الفنون الادبية	٣٣٩ - ٣٧١
الفصل الثالث : أقطاب المدرسة الحديثة	٣٧٢ - ٤٥١
مقدمة	٣٧٢ - ٣٧٤
أقطاب الاتجاه الفرنسي	٣٧٥ - ٤٣٣
أقطاب الاتجاه الانجليزى	٤٣٤ - ٤٥١
خلاصة في أثر الثقافة الغربية في الادب المصرى الحديث	٤٥٢ - ٤٥٤
كتشاف المراجع	٤٥٥ - ٤٦٩

مقدمة

هذه دراسة في المؤثرات الثقافية قصد بها تتبع دخول الثقافة الغربية الى مصر ، وتبين الاسس التي قامت عليها والمجاري التي سلكتها ، حتى نهاية الربع الاول من القرن العشرين ، وذلك بغية وضع اساس وطيد تقوم عليه دراسة الادب العربي الحديث في فنونه الراسخة الاصيلية ، وما لحقها من تطورات وتجديد بسبب تلك المؤثرات ، وفي فنونه الوافدة المستجدة ، وما اتخذته لها من اشكال وصور في رحلتها عبر اوربا الى الشرق ، وما طرأ عليها من تطور نتيجة هذا اللقاء بين الثقافتين العربية والغربية . وكان لا بد لي ، فضلا عن ذلك ، من تقديم انموذج يصح ان تقوم عليه مثل هذه الدراسة ، ويبين اتجاهاتها وهي في حالة فعل وتأثير ، فاخترت نفرا من الادباء الذين تأثروا بهذه الثقافة الوافدة ، والمحت الى خطوط هذا التأثير ومعالمه .

وانقسم البحث بين يدي ، تبعاً لذلك ، الى ثلاثة ابواب رئيسية ، خصصت الاول منها لدراسة التعليم ، باعتباره الوسيلة الكبرى لدخول هذه الثقافة ، ونموها وتمدداتها على ارض مصر ، وجعلت الثاني للترجمة ، وهي الوسيلة الثانية بعد التعليم ، لدخول الثقافة الغربية ، ممثلة في نتاج مفكرها وادبائها . اما الباب الثالث فقد جعلته للتمثيل وحسب ، فمسي ان انطلق منه ، او ينطلق منه فيرى لدراسة الادب العربي الحديث في مصر ، على ضوء تلك المؤثرات التي بينت .

ولقد بذلت جهدي لتخرج هذه الدراسة بالمستوى الجامعي اللائق الذي يجسم فيه الطالب ما افاده من دراسته التخصصية قبل مرحلة التخرج . ولذا

جعلت هي الاول ان اجمع كل ما يتيسر لي جمعه من المراجع ، التي تعينني على تصور مثل هذا البحث المتشعب الاطراف ، وعلى تمثله ، على الشكل الاوفى ، وعلى اخراجه بالصورة العلمية اللائقة . فبحث في مكتبات بيروت ، وخاصة مكتبة الجامعة ، وسافرت الى مصر ثلاث مرات ، استدركت فيها ما فاتني من مراجع ، مطبوعة ومخطوطة ، وقابلت نفرا من المعنيين بمثل هذه الشؤون .

ولما اكملت مراجع البحث ومادته بين يدي ، بدأت في الدراسة والتصنيف والتفريع ، ثم اخذت في الكتابة ، فوجدت ان الموضوع ، الذي بدا لي واضح المعالم للوهلة الاولى ، يطوى تحت هذا الوضوح غموضا وتشعبا . فالمؤثرات الثقافية لا يكفي لدراستها ان تتبع من خلال المؤسسات الفاعلة في نقلها ، بل ينبغي ايضا ان يدرس اثرها من حيث التغير الذي تحدثه في عقلية الشعب وفي تفكيره ، وفي حياته بوجه عام . ولذا كان لا بد لي من تتبع صورة هذا التغير ، وابرازه في مواضع من الابواب والفصول والخواتم . على ان مثل هذا الجهد ، لا يصح ان يبذل في نطاق الادب وما اليه وحسب ، بل ينبغي ان يتفرغ المختصون ايضا لدراسته من خلال علوم اخرى مساعدة ، او مشاركة ، كعلوم الاجتماع والنفس والاقتصاد وما الى ذلك . على انني اديت قسطي في ذلك ، بالقدر الذي استطعت ، واترك لزملاء آخرين ، ممن اختصوا بمثل تلك العلوم ، ان يتتبعوا الموضوع كلاً في حقل اختصاصه .

وفي الختام لن اتذمر من اتساع نطاق البحث ، ولا من تشعب موضوعاته ، ولا من كثرة مراجعه ومصادره ، فبحسبي انني افدت من كل هذا ثقافة وعلماً ، وبحسبي انني مهدت لنفسي السبيل لدراسات اخرى مقبلة ، لم يكن من الممكن ان اقدم عليها ، او افكر فيها ، لولا انه اتيج لي مثل هذه الدراسة التي كانت بالنسبة لي تجربة ثقافية ، بل هزة منيفة تناولت الاصول والفروع ، يقيس

علي بعد هذا ، ان أمضي قدما لابني علي ما أسمت ، وأفيد مما مهد لي من
سبل الافادة ، وهي كثيرة ، واني لأرجو ذلك مخصصة وهذه هي غاية مثل هذه
الدراسة الجامعية التمهيدية ، فيما أتصور .

ولا يسعني بعد هذا الا أن أتقدم بالشكر لكل من أمان علي تحقيق
هذه الدراسة استاذنا كان أو باحثا أو مؤلفا ، فمنهم جميعا أفدت ، واليه
أهدى جهدي في هذه الدراسة ، التي لولاهم لم تكن شيئا .

تمهيد

تباشير دخول الثقافة الغربية الى مصر

الفصل الاول

ملاح الحياة الثقافية في مصر قبيل الحملة الفرنسية (١)

يتفق علماء الاجتماع على ان الحضارة التي تبقي منظوية على نفسها لا تتفاعل مع غيرها يصيبها الجمود وتضعف .

هكذا تواجهنا مصر في أواخر القرن الثامن عشر قبل ان يبدأ اتصالها مع اوروبا ، ذلك الاتصال الذي أدى الى دخول الثقافة الغربية اليها . فقد أصاب مصر ، أبان الحكم العثماني - كما أصاب فيها من البلاد العربية - ركود عام أثر في تطور حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية . ويظهر ان الصلات العلمية بين مصر واوروبا كانت غائبة طوال عصر المماليك الذي امتد حتى الحملة الفرنسية على مصر ، فلم نعثر على أثر لمعهد تعلم فيه اللغات الاجنبية

(١) رجعت في هذا الفصل الى المراجع التالية :

- احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨ .

- جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥١ .

- دور بك ، التعليم العام في مصر .

Dor Bey, L'Instruction Publique En Egypte, Paris, Lacroix, 1872.

- هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية في مصر الحديثة ،

J. Heyworth-Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt, London, Luzac, 1938.

- يعقوب ارتين ، التعليم العام في مصر .

Yacoub Artin, L'Instruction Publique En Egypte, Paris, 1890.

للمصريين . أضاف الى ذلك ان الاجانب الذين كانوا بمصر آنذاك كانوا يعيشون في احياء خاصة (١) .

ولقد كان التعليم في مصر ، في القرن الثامن عشر ، في حالة تدهور وانحطاط حتى ان الكثير من المكتبات التي كانت تضمها المساجد والمدارس أخذ يختفي ويندثر (٢) . وكان الكتاب وحدة النظام التعليمي واساسه في هذا العصر ، ولم يكن الغرض الاساسي منه سوى " تحفيظ اطفاله القرآن ، وليست القراءة والكتابة الا وسيلتين تساعدان على حفظه ... اما مبادئ الحساب فقد يتعلمها ان شاء عند " قباني " القرية أو من احد اصحاب حوانيتها (٣) . هذا الكتاب الذي كانت غايته الاولى تحفيظ القرآن والذي لم يعن حتى بالقراءة والكتابة الا كوسيلتين لحفظ القرآن ، كان هذا الكتاب مواد النظام التعليمي الذي يعد الشبان لدخول الازهر ، مركز التعليم العالي في ذلك العصر .

وفي الازهر يتعلم الطالب الذي خرج الكتاب قواعد النحو وشيئا من المنطق والعروض والبلاغة . وبعد ان يقطع هذه المرحلة ، يبدأ في شرح

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ،

(دار الفكر العربي ، ١٩٥١) ، ص ١٨٥ .

(٢) ج . هـيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية في مصر الحديثة ، ص ١٦ .

J. Heyworth-Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt, (Luzac & Co. London, 1938), p.16.

(٣) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، (مكتبة

النهضة المصرية ، ١٩٣٨) ، ص ١٣ .

الاحاديث النبوية وتفسير القرآن ودراسة مذاهب الفقه ، ويتخرج الطالب بعد ذلك شيخا . .

هذا الاسلوب في التعليم ، سواء في المستويات الاولى أو في مستويات التخصص ، وهذه الموضوعات المحدودة التي كان المنهج التعليمي يشتملها أسهمت اسهاما رئيسيا - مع غيرها من العوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية التي تخرج من نطاق بحثنا - في تجميد الحركة التعليمية والعلمية وبالتالي الحركة الثقافية العامة في البلاد . فاذا كانت مصادر المعرفة جامدة محدودة فالنتائج لا بد ان تكون ضيقة ضعيفة .

ثم ان شيخ الازهر كانوا في بادئ الامر يملون محاضراتهم على طلابهم املاء . وكانت هذه المحاضرات تجمع في كتب * تكون في مجموعها ، النتاج الفكري لهذه الفترة . وقد بدأ الشيخ ، في الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية على مصر ، أي في أواخر القرن الثامن عشر ، يعتمدون على ما ألفه أسلافهم فيشرحون النص الأساسي أو يشرحون شرحه احيانا . وهذا بدوره عمل على تجميد الحركة الثقافية .

^{١٧} هـيوري هيورث - دن ان ما زاد في اهمال الحركة العلمية والتعليمية في مصر خلال هذه الفترة المبلغ المالي الكبير الذي كان عليها ان تدفعه لتركيا ، ولولا ذلك لبقى المال في مصر ، ولربما استخدم في تطوير التعليم . ويضيف هيورث - دن الى ذلك عاملا رئيسيا آخر هو ان الصراع المستمر بين المالكين والأتراك وقف عائقا في سبيل تطور الحركة التعليمية (١) .

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٥ - ١٦ .

وقد انعكست هذه الأوضاع جميعا في التأليف الادبي فتركز معظمه على التعليقات والحواشي ، ولم نعرف كتابا قيما ظهر في مصر خلال الفترة السني سبقت الحملة الفرنسية مباشرة .

ولم ينحصر أثر الجمود في الانتاج الادبي بل تأثر الاسلوب أيضا فقيدت الجملة بالمحسنات البديعية وأصبح السجع الثقيل جزءا ملازما للكتابة الادبية ، وما علينا الا ان نعود الى مؤلفات العصر حتى نتبين ذلك (١) . وعندما خرج الاسلوب الادبي عن تعقيداته ومحسناته ولجأ الى التبسيط غرق في العامة المضطربة ، ولعل أبرز مثل على ذلك اسلوب الجبرتي في تاريخه " عجائب الآثار " (٢) وهو وليد الجو الثقافي الذي سبق الحملة الفرنسية .

أما الشعر فقد أصابه الجمود في معانيه ومبانيه ، اذ انحصرت الموضوعات في المدح والثناء والتعزية والتمنئة ، وقيدت الابيات فوق قيود الوزن بقيود البديع والمحسنات اللفظية (٣) ، حتى أصبحت محاولات الكتابة ، شعرية أو نثرية ، أشبه بالرياضة العقلية منها بالتأليف الصادر عن نغم الكاتب أو الشاعر .

هذه نظرة خاطفة الى حالة مصر الثقافية قبيل أواخر القرن الثامن عشر ، تلك الحالة التي كان لا بد ، للخلاص منها ، من هزة عنيفة تؤدي الى الاتصال الحضارى مع أوروبا ، هذا الاتصال الذي عرفته مصر بشكل مفاجئ عن طسريق الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ .

(١) من ادباء هذا العصر : اسماعيل الخشاب ، عبد الله الشرفاوى ، حسن العطار .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار .

(٣) من شعراء هذه الفترة : السيد علي درويش ، محمد شهاب الدين ، الشيخ

اسماعيل العطار .

ولا يعني هنا من هذه الحملة ومبرراتها واسبابها سوى انها كانت أول
هزة أصابت مصر ، ومقدمة لفتح باب الحضارة الغربية عليها . واذا كانت
فرنسا قد اضطرت الى الانسحاب من مصر بعد حوالي ثلاث سنوات فانها
عرفت كيف تدخل بطريقة أعمق أثرا وأمتن اساسا بعد خروجها وانسحابها .

الفصل الثاني

أثر الحملة الفرنسية

بعد ان قضت مصر زهاء ستمائة سنة في سباتها استيقظت على دوي المدافع الفرنسية . ففي اليوم الاول من تموز سنة ١٧٩٨ وصل الاسطول الفرنسي الى شواطئ الاسكندرية يقف نابليون بونابارت وجيشه وفرقة من العلماء والباحثين مع معداتهم الكاملة .

تغلب الفرنسيون على الماليك ودخلوا مصر ففضوا فيها ثلاث سنوات خرجوا بعدها بسبب ظروف سياسية أثبت السلطان التركي والماليك وبريطانيا وسكان مصر أنفسهم لمقاومة الاحتلال الفرنسي . وسنصرف النظر عن الظروف السياسية والعسكرية للحملة ، لاننا معنيون بالآثر الثقافي الذي تركته في مصر .

المجمع العلمي المصري :

حمل بونابارت معه الى مصر نخبة من علماء فرنسا وباحثيها في ذلك العصر بينهم مونج (Monge) وبرتوليه (Bertholet) وكونت (Comte) وغيرهم كثيرون . وتجسدت أعمال الحملة الفرنسية العلمية في انشاء المجمع العلمي المصري (L'Institut d'Egypte) الذي كان له نشاطات مختلفة في الحياة الثقافية في مصر .

ولا بد لنا هنا من ان نتناول أعمال هذه المؤسسة بالبحث سوا منها ما انساب الى الحياة المصرية وآثر فيها ، أو ذلك الذي تجلّى في الاهتمام العلمي المجرد الذي أبداه العلماء الفرنسيون .

أسس نابليون المجمع المصري في ٢١ آب عام ١٧٩٨ وقسمه الى فروع
عدة فكان هنالك : (١) فرع الرياضيات . (٢) فرع الفيزياء .

(٣) فرع الاقتصاد السياسي . (٤) فرع الآداب والفنون .
واتجهت أعمال المجمع نحو ثلاثة اهداف رئيسية ، الاول : أن ينشر علوم اوربا
وفنونها في مصر . والثاني : أن ينظم جميع الابحاث والمنشورات المتعلقة
 بالتاريخ وبطبيعة الارض والمنتجات الزراعية . والثالث : ارشاد الحكومة فـي
المسائل التي تستشيرها فيها (١) .

أما الهدف الاول فقد انحصر في حدود ضيقة ، بسبب الظروف العسكرية
وضيق الوقت ، حتى اننا رأينا الحملة الفرنسية تخرج من مصر وقد حملت معها
معلومات كثيرة عن البلاد وفرت لها مادة لاصدار كتاب " وصف مصر " (Description d'Egypte) الذي أعده علماء الحملة ، دون ان تترك أثرا ثقافيا واضحا
في البلد الذي استخرجت منه تلك المعلومات . لقد اقتصر اهتمام العلماء على
البحوث التاريخية والكنوف العلمية والآثرية ، ولم يتج لهم من الوقت ما يمكنهم
من نشر نتائج بحوثهم بين ابناء البلاد نفسها .

صحيح ان المجمع المصري لم يكن ليستطيع ان يصنع الاعاجيب في مصر
وهي على ما هي عليه آنذاك من التأخر في مختلف وجوه العلم والثقافة ، ولكننا

(١) جمال الدين الشبال ، تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ،

(دار الفكر العربي ، ١٩٥٠) ، ص ٦٦ .

ولويس براهيه ، مصر من ١٧٩٨ الى ١٩٠٠ ، ص ٤٤ .

Louis Brehier, L'Egypte de 1798 a 1900, (ed. Combet & Cie,
Paris, Librairie Furne, 1900), p.44.

لم نلمس في جميع ما اطلعنا عليه من اعمال المجمع المصرى سوى الحرص على خدمة العلماء أنفسهم وتزويدهم بما يفيدهم في ابحاثهم - واذا أنصفنا قلنا خدمة العلم - دون أن تهدى أبناء البلاد الى الطريق الذى يجب ان يسلكوه نحو هذا العلم ونحو استخراج امكانات بلادهم المختلفة .

على ان المجمع العلمي المصرى يبقى ، برغم هذا ، من اخطر الاعمال الثقافية التي رافقت الحملة ، فقد جمع العديد من الاختصاصات : كان هنالك المختصون بالهندسة والفلك والرياضيات والمعادن وطبقات الارض والطب والجغرافيا والميكانيكا والآداب والفنون والآثار والترجمة والطباعة العربية والفرنسية . كذلك كان للمجمع مكتبة واسعة حوت آلاف الكتب التي جيء بها من فرنسا ، والكتب التي جمعت من مصر .

وما كاد بونابارت يستقر في القاهرة حتى أمر بارسال البعثات العلمية الاستكشافية الى مختلف انحاء البلاد فتوجهت كل بعثة تبحث في اختصاصها . ويقول لويس برهيه ان علماء الحملة فكروا بشق قناة السويس ليسهلوا الوصول الى الهند وقد قاموا من أجل ذلك بدراسات وأبحاث كثيرة (١) .

وقد وقعت أزمات واضطرابات عدة خلال اقامة الفرنسيين في مصر ، ولكن العلماء تابعوا تنفيذ برامجهم الدراسية وأبحاثهم ، وكانت نتيجة هذه البحوث ان صدر كتاب " وصف مصر " الذى وضعه العلماء بعد انسحاب الفرنسيين وأدخلوا فيه جميع ما وصلت اليه بحوثهم في الفترة التي قضاها في وادي النيل .

(١) برهيه ، مصر من ١٢٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

فأعمال المجمع العلمي المصري انحصرت في فائدة علماء المجمع أنفسهم ولم تتعد ذلك الى نشر الرسالة العلمية في أوساط الشعب في مصر ، أو في أوساط المثقفين منهم على الأقل ، إلا في حالات نادرة لا تتعدى الافراد ولا تستطيع خلق جو ثقافي معين متأثر بالفرنسيين . ولا بد من الإشارة هنا الى ان عددا قليلا من المصريين اتصلوا بالعلماء الفرنسيين ولكن اتصالهم لم يؤثر في نتائجهم العقلي وبالتالي لم يكن تأثيرهم ليرك أثرا في الحياة العقلية أو المادية في مصر . ولعل ذلك يعود الى اسباب عديدة منها قصر الوقت ونوع العلاقة التي ربطتهم بالحملة واستعدادهم الثقافي الاساسي للتأثر والتأثير . فبسبب قصر الوقت انحصر التأثير الفرنسي بالقصور ولم يستطع ان يدخل الى أعماق هؤلاء العلماء لأنه لم يكن عميقا بدوره وقد انحصر فسي الغالب في العلاقات السياسية : فقد رأى الفرنسيون فائدة كبرى فسي استخدام الشيوخ وجعلهم صلة الوصل بينهم وبين الشعب ، فشكلوا ديوانا خاصا من أبرز الشيوخ برئاسة الشيخ عبد الله الشرفاوى . ولكن هؤلاء الشيوخ الذين اتصلوا بعلماء الحملة الفرنسية لم يكونوا مؤهلين ثقافيا لأن يلعبوا دور القادة الفكرين ويوظفوا شعبا طالت فترة ركوده الفكرى ، رغم المركز المرموق الذى كانوا يتمتعون به ، فقد كان منهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ، واسماعيل الخشاب الذى اتصل بالمستشرقين ، والشيخ حسن العطار . ثم ان اتصال هؤلاء الشيوخ العلماء بالفرنسيين أوصلهم الى مناصب مسؤولة ولعل نوع هذه العلاقة بالفرنسيين أثار شكوك المصريين فيهم وأبعد امكانية التأثير بهم . فالجبرتي قين عضوا في الديوان ايام كليبيير (Kleber) ، والخباب أصبح أميناً لمحفوفات الديوان ايام مونو (Menou) كما أصبح رئيسا لتحرير جريدة "التبیه" (L'Avertissement) التي أنشئت عام ١٨٠٠ ، وكانت تعنى " بأعمال الديوان والحكومة الفرنسية ونشر الاخبار الداخلية

والخارجية وبعض المقالات في الفنون والعلم والاخلاق (١) .

ولعل من اسباب ذلك أيضا ما ذكره هيورث - دن من انه كان من الطبيعي ان يزور المصريون عن المؤسسات الفرنسية لأن الحملة كانت عملا عدوانيا فمؤسساتها اذا مشكوك فيها وغير مستحبة (٢) . ويؤيد هذا القول ما ورد في تاريخ الجبرتي من استنكار بلغ احيانا حد الاشتمزاز من أعمال الفرنسيين التي لم يألفها المصريون من قبل (٣) .

ولا بد لنا هنا من الإشارة الى ان علماء المجمع العلمي أثاروا فضول المصريين في بادئ الامر ولكن هذا الفضول لم يبلغ حد الرغبة في التعلم والاقتراب من الفرنسيين ، فقد تبع بعض الاهالي العلماء في تنقلاتهم وأبحاثهم ولكنهم سرعان ما انصرفوا عنهم الى حياتهم الخاصة تاركين هؤلاء العلماء غارقين وحدهم في أبحاثهم (٤) .

وهكذا كان الاتصال العلمي بين الفرنسيين والمصريين سطحيا في أكثره . وقد كان العلماء المصريون يزورون مختبرات الفرنسيين ومكثبتهم فيرحب بهم الفرنسيون ويتجولون معهم في أرجاء المجمع يجرون لهم التجارب الكيميائية

(١) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٢٩ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٩٧ .

(٣) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، (القاهرة ،

١٢٣٦ هـ) ج ٣ ، ص ١٠ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٠١ ، ١٤٣ ،

١٤٦ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ٢١٤ .

(٤) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ١٧ .

أحيانا ويطلعونهم على مختلف الكتب والمخطوطات أحيانا أخرى (١) . وفي وصف الجبرتي لهذه الزيارات حديث عن المكتبة والمختبر وفرف التصوير وما الى ذلك . وقد لاحظنا ^{من} هذا الوصف ان ترحيب العلماء الفرنسيين " بزملائهم " المصريين لم يكن دافعه الرغبة في الافادة العلمية بل كان المقصود به ايها المصريون بقوة الفرنسيين الخارقة وقدرتهم العقلية . وفي وصف الجبرتي لتجربة كيميائية بسيطة أحدثت انفجارا في المختبر ما يؤيد ذلك . ويظهر ان الفرنسيين كانوا يصلون الى غايتهم فيثيرون اعجاب المصريين وتعجبهم :

يقول الجبرتي : " ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان ان بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوعة بها بعض المياه المستخرج . فصب فيها شيئا من الكأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من فبار ابيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل انزعجنا منه فضحكوا منا " (٢) . ويقول ايضا في نهاية وصفه لاحدى التجارب الكيميائية " ولهم فيه أمور واحوال وتراكيب غريبة لا تسعها عقول أمثالنا " (٣) .

أليس في ملاحظة الجبرتي هذه تفسير لاحجام المصريين عن محاولة الافادة من الفرنسيين وتوقف فضولهم عند حد متابعتهم في تجوالهم ومراقبتهم عن بعد ثم الانصراف السريع عنهم الى الحياة اليومية العادية ؟ ألا تصور لنا

(١) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٢٣ .

(٢) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

تلك العقلية التي ترى انها محدودة لا تستطيع ان تبلغ مستوى متقدما من المعرفة والعلم لانها تشعر بنقص اساسي فيها ويتفوق طبيعي عند غيرها فتصرف عن متابعة الاعمال الكبيرة الى الحياة العادية اليومية ؟

حركة الترجمة في عهد الحملة الفرنسية ١

واذا انتقلنا الى حركة الترجمة التي أنارتها الحملة الفرنسية في مصر وجدنا انها انحصرت في البدء بعملية الترجمة الرسمية ، ذلك ان الفرنسيين كانوا بحاجة الى مترجمين دائمين يكونون صلة وصل بينهم وبين المصريين فينقلون الاوامر ويترجمون المنشورات ومحاضر الدواوين كما يقومون بدور الترجمان في الاحاديث .

وتشير الكتب التاريخية الى ان نابليون بونابارت جاء ببعض الاسرى من جزيرة مالطة قاموا بدور الترجمة في البدء ، وعندما أسس الديوان طلب الى اعضائه ان يعينوا لهم اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية (١) .

لقد كان للمترجمين الرسميين ايام الحملة مركزهم الخطير ، فقد كانت الترجمة الرسمية الصلة الوحيدة التي استطاع الفرنسيون ان يستعملوها ليتصلوا بالمصريين .

وتعرضت حركة الترجمة في عصر الحملة الفرنسية الى صعوبات عديدة ، ذلك انها ~~حركة~~ كانت اجتهادية بحثا لأن المعاجم كانت مفقودة . ويظهر ان المسؤولين عن الحملة أرادوا تطوير حركة الترجمة التي كانت مسألة حيوية

(١) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٤٥ .

بالنسبة لهم فأخذوا يعدون بعض الاقباط لتعلم الفرنسية ؛ ولكن هذا العمل لم يترك أثره في مصر لأن القسم الأكبر من هؤلاء الذين تعلموا الفرنسية رحلوا مع الحملة عندما ارتحلت فلم يكن الا لعدد قليل منهم دور في الحركة الثقافية التي نشطت في مصر في أوائل القرن التاسع عشر (١) .

غير ان عملية الترجمة الرسمية لم تنحصر في هؤلاء وحدهم ، فقد كان هنالك ، بالإضافة الى الاسرى المالتبيين الذين أشرنا اليهم ، فئة من المترجمين الفرنسيين من الذين يعرفون اللغة العربية ومن هؤلاء فانتوره (Venture) وجوبير (Jauper) ، وهذا الاخير هو تلميذ المستشرق دى ماسي (De Sacy) ، وغيرهما . كذلك كانت هنالك فئة المترجمين السوريين الذين كانوا قد بدأوا ينزحون الى مصر في اوائل القرن الثامن عشر هربا من اضطهاد البشوات العثمانيين ، ومن هؤلاء القس روفائيل واليام فخر وغيرهما من المترجمين السوريين .

أما المصريون فقد اتصل الاقباط منهم اتصالا وثيقا بالفرنسيين ، وقد أشرنا الى ان الفرنسيين أخذوا يعلمون بعضهم اللغة الفرنسية . ومن أشهر المترجمين الرسميين اليام بقطر الذى ألف معجما عربيا فرنسيا ، ولكنه ارتحل عن مصر مع الحملة الفرنسية . وقد كان له دور في ما بعد في ترجمة بعض الوثائق وتحقيق بعض الاسماء الواردة في المصورات الجغرافية التي كان الفرنسيون يعدونها لطبع كتاب " وصف مصر " . (٢)

(١) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٦١ .

و الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٦٢ .

ولم تترك هذه الترجمة الرسمية أثرا ثقافيا في مصر لأن غايتها كانت إدارية لا تخرج عن هذا الحقل إلى الحقول التعليمية والثقافية والفكرية . وبالإضافة إلى ذلك فإن النصوص التي بقيت من الترجمة الرسمية في عهد الحملة ضعيفة ركيكة أقرب إلى العربية العامية منها إلى الفصحى (١) . ولعل من أسباب ذلك أن الذين عتوا بهذه الترجمة لم يكونوا متمكنين من اللغة العربية ، هذا إلى أن العصر الذي بدأت فيه الترجمة كان عصر انحطاط ثقافي عام ، وكان الأسلوب العربي فيه يعاني من التكلف والضعف والركاكة .

لكن الترجمة في عهد الحملة الفرنسية لم تقتصر على الترجمة الرسمية إذ عني المجمع العلمي المصري بشي* من الترجمة العلمية ، وكان المستشرق الفرنسي جان مارسل (Jean Marcel) يقوم بالدور الأكبر فيها بمساعدة الأب انطون روفائيل المخلصي وهو العضو الشرقي الوحيد في المجمع العلمي . وأسهم في حركة الترجمة العلمية هذه عدد من المستشرقين ، غير جان مارسل ، يساعدهم عدد من المترجمين السوريين . غير أن الاضطرابات الكثيرة والفاقل المستمرة جعلت نتائج هذه الترجمة ضئيلا ومحسورا ، ثم انقطع وهو ما يزال في بداية الطريق . أضف إلى ذلك إن معظم ما ترجم في هذه الفترة كان من العربية إلى الفرنسية وليس العكس فقد كان بين الكتب القليلة التي ترجمت أيام الحملة وطبعت على مطبعتهما : وصايا لقمان الحكيم (Fable de Loqman, surnomme le sage) التي طبعت بالعربية ومعها ترجمتها الفرنسية ، ومحضر محاكمة سليمان الحلبي الذي طبع بالفرنسية والعربية والتركية تحت عنوان " مجمع التحريات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبي قاتل صاري وعسكر العام كليبير بمصر

(١) أورد جاك تاجر نماذج من هذه الترجمات مع أصولها في ص ١٣٥ -

١٥٣ من كتابه ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، (دار

المعارف بمصر ، ١٩٤٥) .

القاهرة بمطبعة الجمهور الفرنسي .
(Recueil des pieces relatives a la procedure et au jugement de Solyman
al-Halaby, assassin du General en chef Kleber).

كذلك صدرت اجرومية للغة العامية من وضع جان مارسل
(Grammaire arabe ^{vulgaire} a l'usage des Français et Arabes).
وصدرت رسالة في مرض الجدري من تأليف كبير اطباء الحملة " ديجنيست " (Desgenettes) طبعت بالفرنسية والعربية . (١)

يعتقد ~~المعروف~~ جمال الدين الشيال انه لو قدر للحملة الفرنسية ان يطول
عمرها في مصر لنشطت هذه الحركة (أى حركة الترجمة العلمية والرسمية)
وأثمرت وآت أكلها (٢) ، ولكن الترجمة في عهد الحملة لم تستطع ان تترك
أثرا ، فقد توقفت بعد خروج الفرنسيين ولم تعد الى الحياة الا في عهد
محمد علي حين كانت عودتها على أسس جديدة ولغايات مختلفة .

ولعل الاسس والغايات التي بدأت الترجمة من أجلها في عهد الحملة
كانت واحدة من العقبات التي وقفت في طريق استمرارها وفي سبيل تأثيرها في
الحياة الفكرية المصرية . فلقد كانت الغاية الاساسية من الترجمة في البدء
ادارية بحتا ، وانحصرت في ترجمة المنشورات والاوامر والمحاضر . اما علماء المجمع
فلم يكونوا معنيين بنشر الثقافة الاوروبية في مصر وترجمة التراث الاوروبي الى
العربية بقدر ما كانوا معنيين باستخراج المعلومات عن مصر نفسها ودراسة
احوالها الطبيعية والفكرية والاجتماعية .

وعندما بدئ بالترجمة العلمية انحصرت هذه الترجمة في بضعة كتب لم

(١) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٨١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٠ .

يكن لها أثر فعال ، كما ان أكثرها كان لفائدة الفرنسيين أنفسهم . وقد رأينا ان الترجمة لم تكن الى العربية بل منها في أكثر الاحيان ، أو انها لم تكن ذات فائدة علمية هامة ؛ من ذلك مثلا ، وصايا لقمان الحكيم ، واجرومية اللغة العامية ، والرسالة في مرض الجدري التي كانت تهم الفرنسيين بالدرجة الاولى ، وترجمة محضر محاكمة سليمان الحلبي التي ما كانت سوى وثيقة تاريخية أراد الفرنسيون الاحتفاظ بها في لغتهم .

لم تؤد الترجمة اذا دورا فعّالا في الحركة الفكرية في عهد الحملة الفرنسية وزاد من عدم فاعليتها انها لم تعمر طويلا ، فبانسحاب الحملة من مصر توقفت حركة الترجمة وكأن مبرراتها ومسبباتها قد توقفت . ولم يكن ما ترجم في عهد الحملة سوى مقدمات بدائية في تعريف المصريين الى باب حيوى يمكن الولوج منه للافادة من التراث الاوربي بشكل واسع .

الصحافة :

أما في حقل الصحافة فقد انشأت الحملة الفرنسية جريدتين فرنسيتين واحدة سياسية Le Courrier d'Egypte (بريد مصر) ، وكانت تصدر كل أربعة ايام وهي الصحيفة شبه الرسمية للحملة ، والثانية علمية هي La Decade Egyptienne أى انها تصدر مرة كل عشرة أيام وتشر أبحاث المجمع العلمي ومناقشات أعضائه . ولكن هاتين الصحيفتين كانتا للفرنسيين فقط لانهما كانتا تصدران باللغة الفرنسية وقد تضمنتا مقالات عن الشؤون المصرية التي كانت موضع عناية علماء الحملة . لذلك فان هاتين الصحيفتين لم تؤثرا بأى شكل على الحركة الثقافية في مصر لأنهما كانتا بعيدتين كل البعد عنها ولم يكن القصد منهما سوى افادة الفرنسيين أنفسهم ، وقد توقفتا بانتهاء الحملة .

الطباعة :

وترتبط بقضية الترجمة والصحافة مسألة الطباعة، فقد انشأت الحملة الفرنسية الفرنسية مطبعة عرسية فرنسية أحضرها نابليون الى مصر من مطبعة البروباغندا (Propaganda) في روما وقد سميت هذه المطبعة بالمطبعة الاهلية * وهي أول مطبعة أنشئت في مصر في العصر الحديث * (١) . وأطلق على هذه المطبعة أيضاً اسم " مطبعة الجمهور الفرنسي " وقد رأينا الإشارة الى هذا الاسم في محضر محاكمة سليمان الحلبي .

ويرى هيورث - دن ، ان هذه المطبعة لم تطبع شيئاً يفيد المصريين لأنها طبعت ، بالإضافة الى البيانات التي أصدرتها الحملة ، حوالي عشرين مطبوعاً كلها لفائدة الفرنسيين (٢) . ثم ان المطبعة لم تعمر طويلاً اذ توقف عملها بانتهاء الحملة .

التعليم :

أما التعليم فقد كان حظه في عهد الحملة الفرنسية بسيطاً جداً اذ فتحت الحملة مدرسة لابناء الفرنسيين ، ويذكر هيورث - دن انه كان في نيتها انشاء مدرسة للرسم ولكن المشروع لم ينفذ ، كما انه قامت دراسة حول فتح مستشفى مدني يستعمل مدرسة للطب يتعلم فيها ابناء المصريين ، ولكن هذه المدرسة كانت تتطلب من تلاميذها معرفة الفرنسية لذلك روى ان تلحق بها مدرسة ابتدائية تعلم فيها مبادئ الآداب والعلوم بالفرنسية ولكن هذا

(١) عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ،

(٣ اجزاء ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٢٨) ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ٩٩ .

المشروع لم ينفذ أيضا . (١)

هيورث -

ويعلق أدن على عدم تنفيذ المشروع بقوله ان الفرنسيين لم يكونوا متفائلين بنتائجه (٢) .

* * * *

تقلصت اذا أهم أعمال الحملة الفرنسية عن مصر عندما تقلصت الحملة نفسها وانسحبت غير تاركة وراءها سوى أثر ضئيل فتح امام أعين البعض ابواب أفق أبعد من مصر وحضارتها المنكفئة على ذاتها ، ولكن الظروف لم تسمح لهم ، بالعمل الفعال الا عندما جاء محمد علي وأشرع أبواب مصر لتستقبل حضارة أوروبا عامة وفرنسا خاصة .

يقول لويس برهيه : " ان فرنسا هي الاولى تاريخيا في الاسهام في ايقاظ مصر واظهارها للعالم المتمدن " (٣) . ويقول أيضا " يكفي ان نستعرض أعمال العلماء الفرنسيين حتى نجد انه ليس من المبالغة في شيء ان نقول ان الحملة الفرنسية قد فتحت مصر للحضارة الاوروبية . ولم يستطع الفرنسيون استبقاء مصر مستعمرة لهم ولكن السنوات القليلة التي قضوها فيها كانت كافية لأن تترك أثرا كبيرا في هذه البلاد . فمع الاحتلال الفرنسي نستطيع أن نجد القواعد الاساسية لجميع التغيرات التي حدثت ، اذ منذ ذلك الحين تحطمت قوة المماليك وأرسل العلماء الفرنسيون بأعمالهم وأبحاثهم الاسس العلمية لكل تجديد سوف يقوم به اللاحقون " . (٤)

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) برهيه ، مصر من ١٧٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٣١١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٦٥ .

هذا ما يراه لويس برهيه الفرنسي في أثر الحملة الفرنسية في مصر ،
ولكن هيوث - دن الانجليزى يرى عكس هذا الرأى تماما ، فهو يقول فسي
كتابه عن التعليم في مصر ان الحملة الفرنسية لم تقدم شيئا للمصريين وان ما
قدمته من مؤسسات علمية وأبحاث ودراسات كان لفائدة الفرنسيين أنفسهم وليس
للاهلالي ، كما انه من الطبيعي ان يزور المصريون عن المؤسسات الفرنسية لأن
الحملة كانت عملا عدوانيا ، فمؤسساتها اذا مشكوك فيها وغير مستحبة (١) .
وبالاضافة الى ذلك فان هيوث - دن يرى ان التعليم في مصر قد تأثر
سلبيا بالاحتلال الفرنسي ، فشلت الحياة المدرسية وقام الفرنسيون باعدام بعض
العلماء وترك بعضهم القاهرة الى الضواحي والقرى وفقد الازهر مركزه خاصة
بعد محاولة المصريين الثورة على الفرنسيين (٢) .

ويتفق اسماعيل القباني مع هيوث - دن في أثر الحملة الفرنسية الثقافي
في مصر انه يقول انه " لا يمكن القول ان عامة الشعب استطاعت ان تكون
فكرة حقيقية واضحة عن تلك المدنية (أى المدنية الفرنسية) أو انها اعجبت
بها أو حتى قدّرت أى مظهر عرفته منها " (٣) . ولكن القباني يضيف مقتربا
من رأى لويس برهيه : " ... ولكن ليس هنالك من شك في ان قوة رجال
نابليون وتنظيمهم وقيادتهم ، كل ذلك ترك أثره في عقول فئة من الزعماء
المصريين بينهم الجندى الطموح اللاحق محمد علي " (٤) .

(١) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

(٣) اسماعيل القباني ، مئة سنة من التعليم في مصر ، ص ٥ .
Ismail el-Kabbani, A Hundred Years of Education in Egypt, (Cairo, 1948),
p. 5 .

(٤) المرجع نفسه .

أما تقويم الجود (Elgood) لآثر الحملة في مصر فقد أوضحه في كتابه "انتقال مصر" حيث يقول : " أن الاحتلال الفرنسي للبلاد ترك فيها أثرا لا يزول ، فطرق الادارة الفرنسية لا تزال تسيطر على حكومة مصر ، وأساليب تفكير الفئة المثقفة من المصريين تتأثر تأثرا شديدا بأساليب التفكير الفرنسية " (١) . ويضيف ان ما تركه الفرنسيون في مصر خلال ثلاث سنوات فقط هو من أضخم ما يمكن انجازه في هذه الفترة القصيرة (٢) . هكذا يرى الجود ، ولكننا نرى ان ذلك ينطبق بشكل أصح على الفترة التي تلت الحملة الفرنسية ، وعلى الاخص مصر محمد علي عندما أصبح الاتصال بفرنسا أوسع انتشارا وأعق تأثيرا من الحملة نفسها ، كما سنرى .

هكذا اذا كان أول اتصال لمصر مع اوربا بواسطة الحملة الفرنسية ، ولكن الظروف السياسية التي رافقت الحملة وسبققتها كشفت بين طياتها عن تباشير اتصال مصر بدولة اوربية اخرى ، كانت تطمح هي أيضا في السيطرة على مصر ، مترقبة الفرصة الملائمة لذلك .

يقول عبد الرحمن الرافعي : " ان الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنارع الذي قام بين فرنسا وانجلترا على الفتح والاستعمار . ذلك التنارع الذي يرجع مهده الى القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طورا جديدا بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية " (٣) . ولعل الحملة الفرنسية كانت أول مظهر عملي حديث تجلّت فيه المنافسة بين انجلترا

(١) ل . الجود ، انتقال مصر ، ص ٤٥ .
L. Elgood, The Transit of Egypt, (London, 1928), p. 45 .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٦٣ .

وفرنسا حول مصر ، ويرى الرافعي " . . . ان التنازع بين انجلترا وفرنسا هو المحرك الاول للحملة الفرنسية وان الغرض النهائي منها كان الوصول الى الهند " (١) .

وقد شعر الانجليز بخطر استقرار الفرنسيين في مصر وبدأوا مقاومتهم منذ أن علموا بتوجه الحملة من مرسيليا نحو الاسكندرية ، ووصول الاسطول البريطاني الى الاسكندرية قبيل وصول الحملة الفرنسية في محاولة لصدّها معروفة ، ولكن ارتدّ الانجليز عن الساحل المصري في تلك المحاولة فقد أعادوا الكرة بعد ثلاث سنوات خرجت على أثرها الحملة الفرنسية من مصر على بواخر الانجليز .

هل نستطيع اذا ، ان نعزو انحصار الاثر الثقافي للحملة في فئة قليلة وانحصاره عن مصر بسرعة دون أن يترك أثرا عميقا الى التدخل البريطاني ؟

قد يكون لتدخل الانجليز المستمر أثر ضئيل في ذلك ، فلويس برهيه يشير بمرارة الى ذلك التدخل قائلا ان الانجليز لم يتركوا " أى جهد فني سبيل اخراج الفرنسيين من مصر ولعلمهم أيضا كانوا منذ ذلك الحين قد بدأوا يفكرون في ان يأخذوا مكان الفرنسيين " (٢) . ولكن السبب الرئيسي يعود بالاكتر الى طبيعة الحملة وطبيعة العمل الثقافي الذي قام به مجمعها العلمي . وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق .

لقد كان جهد العلماء موجها بالدرجة الاولى الى الاستقصاء والبحث في مختلف شؤون تلك البلاد التي وجدوا فيها مستعمرة جديدة غنية . وكان

(١) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) برهيه ، مصر من ١٢٨٩ - ١٩٠٠ ، ص ٦٢ .

على النهضة الحديثة عندما جاءت على يدى محمد علي باشا ان تبني الاسس
الاولية قبل ان تستطيع قطف ثمارالاتصال الحضارى ، ذلك لأن هذه الاسس
كانت مفقودة ؛ واذا كان قد بدى بوضعها أيام الحملة فقد انحسرت بانحسار
الحملة نفسها غير تاركة وراءها سوى باب مفتوح استطاع بعض قادة مصر أن يروا
من خلاله ان هنالك ، عبر البحار ، حضارة متقدمة متطورة يستطيعون الافادة
منها .

الباب الاول

التعليم وأثره في نشر الثقافة الغربية في مصر

الفصل الاول

الثقافة الفرنسية في مصر

عصر محمد علي : (١٨٠٥ - ١٨٤٨) :

اتجاه محمد علي نحو ايطاليا ثم تحوله نحو فرنسا : في الثامن عشر من تشرين الاول سنة ١٨٠١ غادر الجنرال مونو الاسكندرية فكان آخر الراحلين من اعضاء الحملة الفرنسية في مصر .

وبدأت القوى المتعددة تتصارع لتثبيت نفوذها في وادي النيل فهناك المماليك والانجليز من جهة والدولة العثمانية من جهة ثانية . وشارك الشعب في مصر في هذا الصراع حتى تمت له الغلبة باختيار محمد علي الالباني واليا عليه .

وفي تموز من سنة ١٨٠٥ وصل فرمان السلطان الذي يأمر بتولية محمد علي " حيث رضي بذلك العلماء والرعية " (١) .

وكان على محمد علي ان يسعى الى التخلص من أعدائه ، ويعتبر لويس برهيه السنوات ما بين ١٨٠٦ و ١٨١١ سنوات التمهيد لحكم محمد علي والتخلص من الاتراك والانجليز والمماليك (٢) .

ويتفق معه ~~المستشرق~~ جمال الدين الشيال في هذا الرأي ، اذ يعتبر عام ١٨١١ بدء الحركة الاصلاحية التي قام بها محمد علي (٣) . فبعد ان انتصر

(١) امين سعيد ، تاريخ مصر السياسي ، (دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ٤٦ .

(٢) برهيه ، مصر من ١٢٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٩٥ .

(٣) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٦ .

على المماليك في مذبحه القلعة في تلك السنة وصار أولادهم منكاً له أراد أن يبدأ باصلاح الجيش . وكان الجيش خليطاً من ممالك وشراكسة وألبان ، وكان لمحمد علي اطماع سياسية تتجه الى " احياء العالم العثماني " (١) فوجد ان هذه الاطماع لا يمكن ان تتحقق الا اذا نظم الجيش والاسطول وفقاً لما هو متبع في اوريسا .

من هنا جاء الدافع الاول لحركة الاصلاح العلمية الواسعة التي قام بها محمد علي ، اذ اتفق المؤرخون على ان عناية محمد علي بالجيش واصلاحه وتطويره ليقوم على أسس حديثة كانت نقطة الانطلاق في الاندفاع نحو آفاق اصلاحية جديدة .

ولكن ما هي السبل التي سلكها محمد علي في برنامجه الاصلاحى ، والى أين توجه في طلب المساعدة في سبيل تحقيق هدفه البعيد ؟

لم يكن في مصر من يستطيع القيام بعبء النهضة التي خطط لها محمد علي ، وخاصة أن آفاقه كانت قد تفتحت الى مجالات أبعد من مصر فرأى قوة اوروبا قائمة على أسس واضحة من الحضارة ، فأراد أن يقتبس ما استطاع من هذه الاسس وينقلها الى مصر وفائته الاولى من ذلك عسكرية سياسية . وكان هذا الاتصال بالغرب أول اتصال فعلي حديث أدى الى التفاعل العقلى والمادى مع اوروبا وترك أثره في مصر الحديثة . ويشكل هذا الاتصال الاول البداية القوية لعصر النهضة الذى نضجت ثماره في عصر اسماعيل . واذ كانت حدة اندفاعه قد خفت في أيام عباس وسعيد فلقد استطاع أن يكون قاعدة متينة لبناء النهضة التي نضجت في العصور التالية .

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٧ .

وتطلع محمد علي الى اوربا فاتجه بادئ بدء نحو ايطاليا . ولعل اختياره لاطاليا قد تأثر بعدة عوامل يورد ~~المكتبر~~ جمال الدين الشيبال بعضها ، فيذكر ان العلاقات التجارية بين مصر وايطاليا بقيت قوية طوال القرون الوسطى ، كما انه كانت هنالك جاليات ايطالية في الموانئ المصرية ، وكانت اللغة الايطالية أكثر اللغات الاجنبية شيوعا فكان عامة الناس في الموانئ يعرفون الايطالية كما ان الايطاليين كانوا يعرفون العربية (١) .

ويرى هيورث - دن في تحليل اتجاه محمد علي الى ايطاليا انه تأثر ببعض الايطاليين الذين كانوا يحيطون به ، ولكنه لا يلبث ان يقول : " ولعل الاختيار وقع على ايطاليا لانها لم تكن بعد سوى تعبير جغرافي وبالتالي لم تكن سيطرتها لتخشى " (٢) .

ويحاول ~~المكتبر~~ جمال الدين الشيبال مرة اخرى تحليل هذه الظاهرة ، أى ظاهرة عدم اتجاه محمد علي الى فرنسا في بدء حركته الاصلاحية ، فيشير الى ان محمد علي لم يتجه الى فرنسا بادئ بدء لأنه كان قد اشترك في معارك لاجراجها من مصر ، ومع انه تسلم أمور مصر بعد عهد الفرنسيين ، وشعر بأهمية حضارتهم ، الا اننا نستطيع ان نقول انه ربما كان لا يزال متخوفاً منهم . كما ان الجالية الفرنسية قد قل عددها بعد خروج الحملة من مصر فلم يتجه اليها محمد علي في البدء مع انه اتجه اليها بعد قليل ولعدة عوامل (٣) .

(١) الشيبال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٢ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٠٥ .

(٣) الشيبال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٢ .

اما لويس برهيه فيشير الى عدم اتجاه محمد علي نحو انجلترا ويعتزل ذلك بالحملة التي قام بها الانجليز على مصر عام ١٨٠٢ (١) عندما كان محمد علي قد أخذ يسير خطوات واسعة في سبيل تثبيت كلمة مصر . ولكن الحملة أخفقت وانسحب الانجليز . يقول لويس برهيه : " لقد تركت هذه الحملة أثرها في نفس محمد علي وهي تسهم في تفسير العداء والتحدى اللذين أظهرهما محمد علي ضد انجلترا طوال حياته " (٢) .

ومهما تكن الاسباب التي ذكرت في تفسير اتجاهات محمد علي فان ما يعنينا هنا هو الاتجاهات نفسها ، وما تركته من آثار ثقافية في مصر . وسنتعرض فيما يلي لمظاهر الاتصال الثقافي مع ايطاليا ومدى الأثر الذي تركه .

كان أول عمل اصلاحي قام به محمد علي انشاء مدرسة حربية في القلعة لابناء المماليك لأنه أراد أن يبدأ باصلاح الجيش . وأهم ما يلفت انتباهنا هنا هو ان اللغات العربية والتركية والايطالية كانت تعلم بالاضافة الى الفنون الحربية . ويعتقد ~~المستشرق~~ الشيال ان اللغة الايطالية تكون بذلك أول لغة اوروبية تدرس بمدارس محمد علي (٣) . ويرى ~~المستشرق~~ عزت عبد الكريم هذا الرأي أيضا (٤) .

وعندما بدأ محمد علي بارسال بعثاته الى اوروبا في السنوات الاولى من حكمه توجه الى ايطاليا فأرسل اليها بعثته الاولى عام ١٨٠٩ ، وأوفد الثانية

(١) نقصد بها حملة الجنرال فريزر (Frazer) .

(٢) برهيه ، مصر من ١٢٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٩٨ .

(٣) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٢ .

(٤) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٦٥٦ .

عام ١٨١٣ وتعلم افراد هاتين البعثتين فن سبك الحروف والطباعة خاصة ، وبناء السفن ونظم الحكم وبعض الفنون العسكرية . ولم يكتف محمد علي بذلك بل استدعى من ايطاليا معلمين للمدارس وضباطا لتدريب الجيش واستقدم منها الكتب التي ترجمت الى العربية والتركية واستورد منها آلات الطباعة .

وتوالى البعثات العلمية الى ايطاليا بين سنة ١٨١٣ وسنة ١٨١٦ وكانت غايتها درس بعض العلوم والفنون وخاصة الطباعة . وفي سنة ١٨٢١ أسست مطبعة بولاق وطبع فيها أول كتاب عام ١٨٢٢ وهو قاموس ايطالي-عربي وضعه الراهب روفائيل وانتهى طبعه عام ١٨٢٣ (١) .

وانشأ محمد علي سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية سماها المدرسة التجهيزية الحربية في قصر العيني ، وكان تلامذة هذه المدرسة يعدون لدخول المدرسة الحربية ، لذلك فقد كان عليهم ان يدرسوا اللغة الايطالية ، كما ان أكثر اساتذة هذه المدرسة كانوا ، يومذاك ، من الايطاليين (٢) .

هكذا اذا اتجه محمد علي كليا الى ايطاليا في المراحل الاولى من اصلاحاته .

وبقي الايطاليون وحدهم يجولون في ميدان الثقافة في مصر حتى حوالي عام ١٨٢٠ حين التقى محمد علي باشا بدروفيتي (Drovetti) قنصل عام فرنسا الذي أسدى اليه نصائح عدة في الشؤون الحربية والفنية فاعجب به الباشا (٣) .

(١) أبو الفتوح رضوان ، تاريخ مطبعة بولاق ، (المطبعة الامريكية بالقاهرة ،

١٩٥٣) ، ص ٤٤٦ .

(٢) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، (دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٧ - ١٩٥٨) ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٣) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ١١١ .

ويبدو ان نتيجة هذا الاعجاب كان استقدام بعثة حربية فرنسية لتدريب الجيش المصرى وقد رأس هذه البعثة الجنرال بويه (Boyer) .

ويظهر ان البعثة الفرنسية ووجهت بالنفوذ الايطالي في مصر ، فقد كتب بويه رسالة الى صديقه جومار (Jomard) - وقد كان عضوا سابقا في المجمع العلمي - ضمنها تأثره من وضع اللغة الفرنسية في المرتبة الثانية والايطالية في المرتبة الاولى (١) . وذكر بويه أيضا انه وجد ادارة الشؤون في مصر كلها في أيدي ايطاليين وان اللغة الايطالية وحدها تعلم في المدارس الحربية ولا يترجم سوى الكتب البسيطة التي وضعها الايطاليون وان مدرسي الرياضيات واللغات والفنون والعلوم كلهم ايطاليون . وأشار الى البعثات العلمية فقال : " وفي كل عام يرحل الى ايطاليا ثلاثون أو أربعون شابا ليتعلموا علومها وفنونها والى بيزا يتجهون حتى في دراسة الفنون الحربية " (٢) . ويشير بويه في رسالته أيضا الى ان الوالي (أى محمد علي) يظهر دهشته لهذا التفوق الايطالي ، وانهم (أى الايطاليين) ليبثون في ذهنه المخاوف من ناحية الفرنسيين الخادعين ، أما من ناحية الايطاليين فيجب الا يخشى شيئا " (٣) .

وقد واجهت بعثة بويه مصاعب عدة ، منها ما يراه هيورث - دن من ان محمد علي لم يزل يعتمد اعتمادا كبيرا على الايطاليين الذين لم يكونوا معنيين بتطبيق الاساليب الفرنسية ، بالرغم من قرار محمد علي استخدام

(١) تجد الإشارة الى هذه الرسالة في : -

عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) والشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٣ .

(٣) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٩١ .

(٣) المرجع نفسه .

الفرنسيين وأساليبهم . وقد انتقد بويه محمد علي بمرارة لأنه أرسل جنوده الى مدارس حرية ايطالية (١) .

ويشير هيورث - دن أيضا الى المؤامرات الدائمة بين الايطاليين والفرنسيين من جهة وبين الفرنسيين اعضاء بعثة بويه والمستخدمين القدماء من جهة اخرى وبين الاتراك والاجانب ككل من جهة ثالثة (٢) .

هذه الاسباب مجتمعة اضطرت بعثة بويه الى تقديم استقالتها عام ١٨٢٦، وقبلها محمد علي لأنه " أراد الاجانب مستخدمين لا أسيادا " ورأى خطر الموظفين ذوى المراتب العالية أمثال بويه (٣) .

وأشار كلوت بك (Clot) رئيس البعثة الطبية في تقرير قدمه سنة ١٨٣٢ الى الدكتور بورنج (Bowring) مبعوث الحكومة الانجليزية في مصر انه حين أتى الى مصر كانت الادارة الصحية بأيدي الايطاليين، وان مئة وخمسة من اطباء والصيادلة في الجيش والمستشفيات العسكرية كانوا من الايطاليين ، اما الباقون، وعددهم تسعة وأربعون طبيا وصيدليا، فكانوا من الفرنسيين والانجليز والالمان والبولنديين والاسبان (٤) .

استمر النفوذ الايطالي مسيطرا في مصر حتى سنة ١٨٢٠ حين بدأ نفوذ الفرنسيين يتسرب شيئا فشيئا . وما ان جاءت سنة ١٨٢٥ حتى بدأ

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١١٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٩٠ .

تحول محمد علي عن ايطاليا الى فرنسا يظهر للعيان . فهل ترك هـذا الاتصال الثقافي بايطاليا أثره في مصر ؟

يقول عزت عبد الكريم * . . . والى ايطاليا أرسل محمد علي بعوثه الأولى فلا ريب في أنهم حين عادوا حملوا معهم الى وادى النيل بذور الثقافة الإيطالية * (١) . ولكن هذا الأثر الإيطالي على ما يبدو لم يتج له ان يعمق ويتأصل لأن فترة التأثير الإيطالي التي استمرت منذ حوالي ١٨٠٩ الى حوالي ١٨٢٥ لم تكن طويلة بشكل يسمح لهذا التفاعل الثقافي ان يترك أثره أو أن يصمد امام التيار الذى نتج فيما بعد عن اتصال مصر بفرنسا . أضف الى ذلك ان غاية محمد علي العسكرية وتحسين الجيش حصرت هـذا التأثير الى حد ما، فلم يشمل سائر انحاء الحياة الشعبية في مصر الا بما كان يمت الى الجيش بصلة . ولما فتح الباب امام الفرنسيين لم يكتفوا بأن ينشروا نفوذهم الثقافي بل سعوا الى القضاء على النفوذ الثقافي الإيطالي اكي يحتلوا هم مركز الصدارة . ونجح الفرنسيون في سعيهم فأخذوا يحتلون مركز الإيطاليين الثقافي شيئا فشيئا ، وألغى تدريس اللغة الإيطالية في المدارس وأبعد كثير من الضباط والمدرسين الإيطاليين ، ثم عين الدكتور كلوت بك ناظرا لمدرسة الطب وأصبح معظم المدرسين فيها من الفرنسيين يلقون محاضراتهم بلغتهم ويوصون بترجمة الكتب الفرنسية * (٢) . وألغيت البعثات الى ايطاليا وأصبح أكثرها يتوجه الى فرنسا وعدل عن الترجمة عن الإيطالية الى الترجمة عن الفرنسية . وفي عام ١٨٣٦ ألفت لجنة لتنظيم المدارس وكان اعضاءها من الفرنسيين أو من الذين تلقوا علومهم في فرنسا فلم يكن غريبا ان تقتبس النظم الفرنسية .

(١) عبد الكريم، تاريخ التعليم ، ص ٩٠ .

(٢) جان تاجر ، حركة الترجمة ، ص ٢٠ .

امام هذا التيار لم يستطع النفوذ الايطالي الصمود فأخذ يذوب ويضمحل دون ان يترك أثرا فعّالا في الثقافة المصرية، بل لقد ضعف شأن الايطالية ، في أواخر عصر محمد علي ، حتى قلّ من يعرفها . ويعزو الشيال اسباب نجاح فرنسا في القضاء على النفوذ الايطالي واحتلال مكانه الى ان الطوائف الاولى من الايطاليين لم تكن من العنصر الممتاز في حين كان الفرنسيون الذين التحقوا بخدمة محمد علي ، على قلتهم ، من أحسن العناصر . وقد كان بينهم الكولونيل سيف (Seve) (سليمان باشا فيما بعد) وكلوت باشا . ثم ان فرنسا كانت تسعى الى محمد علي برجالها وعلمائها وضباطها سعيا " لانها كانت تعتبره منقّذا ومتما لما بدأت هي في عصر الحملة من اصلاحات " (١) .

وفوق ذلك كله فان مركز فرنسا في البحر الابيض المتوسط ونفوذها الدولي ونشاط الفرنسيين أنفسهم ، تجارا أو موظفين ، كل ذلك أسهم في انكماش النفوذ الايطالي وحلول النفوذ الفرنسي مكانه .

يقول لورد كرومر معللا اقبال المصريين على الثقافة الفرنسية : " وهكذا حصل الفرنسيون على بداية قوية في مصر لم يخسروها بعد ذلك " (٢) . ويقول الشيال : " وسيكون لفرنسا أثرها الملحوظ ، فستظل مصر طوال القرن التاسع عشر مصطبغة بالصبغة الفرنسية في شتى نواحيها التفكيرية " (٣) .

ولكن محمد علي لم يقصر معاملته مع أوروبا على فرنسا وحدها ، وهو وان كان قد وضعها في المرتبة الاولى ، الا انه أراد الافادة من كل دولة

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٤ .

(٢) لورد كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٦٤٢ .

The Earl of Cromer, Modern Egypt, (London, Macmillan & Co., 1911), p.642

(٣) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٤ .

في الحقل الذي امتازت به . وسرى فيما بعد انه أرسل بعض بعثاته الى
انجلترا والنمسا وألمانيا .

البعثات العلمية والتعليم في عصر محمد علي : اتجه محمد علي اذا نحو
اوربا ليقتبس منها نظمها واساليبها ويأتي بعلمائها وفنييها وادارييها
ليساعدوه في نهضته الجديدة ، ولكنه لم يكن يريد الاكثار منهم لأنهم لا
يعرفون طبيعة البلاد وما تحتاج اليه ، كما انهم يجهلون عاداتها واحوالها ،
هذا فضلا عن انهم كانوا يكلفون الدولة نفقات كبيرة بمرتباتهم العالية خاصة
وان كثيرين منهم كانوا يجهلون اللغة العربية مما اضطر محمد علي الى تعيين
المترجمين .

ومع ذلك لم يكن محمد علي ليستطيع ان يستغني عن خدمة هؤلاء
الاجانب ، ولكنه أراد أن يخفف من استخدامهم ما استطاع ، فاتجه الى اعداد
المصريين للنهوض بأعباء هذه النهضة الواسعة التي أراد . وقد اتبع محمد
علي في ذلك أساليب عدة من الترجمة الى ارسال البعثات العلمية الى
الغرب ثم انشاء المدارس في مصر .

وقد كانت جميع هذه الاساليب مرتبطة بعضها بالآخر ، فحركة الترجمة
المنظمة بحاجة الى المترجمين الكفيا ، لذلك كان لا بد من ارسال البعثات
العلمية الى الخارج ، ولكن هذا الاسلوب أيضا لا يستطيع ان يكون وحده
الطريق الى نهضة شاملة في البلاد ولا بد اذا من فتح المدارس التي
تستوعب أكبر عدد ممكن من الطلاب .

ويجب ألا ننسى الطباعة التي كان لها دور كبير في نشر الكتب المترجمة
وتيسيرها لطلاب المدارس .

لجأ محمد علي الى البعثات العلمية منذ ان بدأ يخطط لحركة النهضة الحديثة وعرف ان الاجانب لا يستطيعون فهم متطلبات مصر كأبنائها . فعمد الى ارسال المصريين في بعثات للتخصص ونقل ما يجدون فائدة من نقله الى العربية حتى اذا عادوا تسلموا المهام التي كان الاجانب يتولسون أمرها .

ويحدد جمال الدين الشيال غاية محمد علي من ارسال البعثات ويصنفها في أربعة أهداف : أولها ان يكون لمصر جيل من الاساتذة والعلماء تلقوا العلم الأوروبي في مهده وبلغته ليحلوا محل الاجانب ، وثانيها ان يصبح أعضاء البعثات مترجمين اكفاء للترجمة عن الغرب ، وثالثها انه أراد ان يسلك أسرع السبل للنهوض بمصر ، واخيرا لأن الاجانب لم يكونوا أكفأ عناصر بلادهم دائما ، وكانوا يحاولون اطالة خدمتهم دون ان يكونوا متحمسين لتلقين فنونهم للمصريين (١) .

لقد كان لهذه البعثات العلمية الى الخارج أثرها في التوجيه الثقافي في مصر ، ذلك ان أكثر خريجي البعثات لعبوا دورا كبيرا في حركة النهضة وأصبح عدد منهم موضع ثقة الوالي بل انه جعل بعضهم من مستشاريه . ولا ينحصر أثر أعضاء البعثات ايام محمد علي في عصره فقط بل اننا سنشهد أثرهم ايام نضوج النهضة في مصر في عصر اسماعيل ، لذلك فان التوجيه الذي تلقاه أعضاء هذه البعثات والبلاد التي توجهوا اليها ليتقنوا فنونها ، كان لها أثر كبير في سير الحركة الثقافية وخاصة الحركة التعليمية التي كانت اساس النهضة في عصر محمد علي وما بعده .

بدأ إرسال البعثات منذ اوائل حكم محمد علي . وقد اتجه أولها ، كسائر نشاطات النهضة ، نحو ايطاليا . ويختلف الباحثون في تحديد السنة التي ذهبت فيها أولى البعثات وفي تحديد اعضاءها ، وان كانوا يتفقون في انها توجهت نحو ايطاليا . فميراث - دن وجمال الدين الشيال يتفقان في ان البعثة الاولى أرسلت عام ١٨٠٩ الى ايطاليا (١) ، بينما يرى عزت عبد الكريم والامير عمر طوسون ان أول بعثة توجهت الى ايطاليا أيضا ولكن ذلك كان سنة ١٨١٣ (٢) .

أما البعثة الثانية فلا اختلاف حول تاريخ ايفادها إذ يجمع الباحثون على ان ذلك كان عام ١٨١٨ ، ومنهم من يرى انها اتجهت الى فرنسا (٣) ، في حين يعتقد فريق آخر انها ، كما بقتهما ، توجهت الى ايطاليا (٤) . ولعل مصدر هذا الخلاف يعود الى ان عثمان نور الدين ، أحد اعضاء هذه البعثة الذين كان لهم شأن بالغ في حركة النهضة الاولى ، لم يحصر نفسه بايطاليا كما فعل نقولا مسايكي - أحد اعضاء البعثة الاولى وقد تسلم فيما بعد مسؤولية مطبعة بولاق - بل لقد مكث نور الدين خمس سنوات في بيسا (Pisa) أو ليغورن (Leghorn) ثم انتقل بعد ذلك الى باريس حيث قضى عامين

-
- (١) هيروث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ١٥٧ .
و الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٩٦ .
(٢) الامير عمر طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ، (مطبعة صلاح الدين ، الاسكندرية ، ١٩٣٤) ، ص ٢٠ .
(٣) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، هامش ص ٢١ .
و عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
(٤) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٢١ .

قبل ان يعود الى مصر (١) . ومن هنا فان عثمان نور الدين لم يكن ممثنا
يمثلون التيار الايطالي وحده لأنه كان احد السابقين الى التخصص في فرنسا .

أما في الفترة الواقعة بين عام ١٨١٨ وعام ١٨٢٦ فيشير هيورث - دن
الى ان محمد علي ، على ما يبدو ، قد ركز اهتمامه في الانفاذ من البعثات
التي جاءت من فرنسا ، كبعثة بويه وغيرهما ، وأهمل ارسال البعثات المصرية
الى الخارج (٢) . ولكنه عاد سنة ١٨٢٦ الى ارسال بعثاته . ويعتقد
هيورث - دن ان هذه الخطوة كانت تغيرا مفاجئا في سياسة محمد علي وانها
تصادف تاريخ هبوط حماسه لبعثة بويه ورغبته في التخلص من خدمات
الاوربيين (٣) .

عاد محمد علي سنة ١٨٢٦ اذا الى ارسال البعثات العلمية ، فأرسل
أكبر بعثة الى فرنسا أتبعها ببعثات متفرقة بين عامي ١٨٢٦ و ١٨٣٢ . ولن
نورد خلاف الباحثين حول ما اذا كانت بعثة ١٨٢٦ هي أولى البعثات
الموفدة الى فرنسا ، فقد سبقت الإشارة الى خلافهم حول وجهة بعثة ١٨١٨ ،
وهو أحد الامثلة على الاختلاف في التأريخ لبعثات محمد علي . ونحن ، وان
كان لا يعنينا ان نحقق في صحة مصادر كل من هؤلاء الباحثين او ان نرجح
رأيا على رأي ، اذ ان ما يهمنا في الدرجة الاولى انما هو تعيين الوجهات
التي توجهت اليها البعثات لنحدد تأثيرها في ثقافة اعضائها ، رغم ذلك فان
تحديد التواريخ التقريبية يلقي بعض الضوء على سياسة ارسال البعثات وتحولاتها.

(١) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ١٠٥ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٥٧ .

(٣) المرجع نفسه .

ويؤخذ ما ذكره عزت عبد الكريم (١) والامير عمر طوسون (٢) انه بين عامي ١٨١٣ و ١٨٤٨ أرسلت الى اوروبا أربع عشرة بعثة ، بينها واحدة الى ايطاليا - وهي الاولى - وثلاث الى انجلترا وحدها ، احداها للتخصص في الفنون البحرية عام ١٨٣٢ ، والثانية للتخصص في الميكانيكا والعلوم السياسية عام ١٨٤٧ ، والثالثة بعثة النجارين في أوائل عام ١٨٤٨ . وأرسلت ثماني بعثات الى فرنسا لدراسة الفنون والعلوم المختلفة ومنها الترجمة والتاريخ والرياضيات والطب وغيرها . وهناك أيضا بعثة طبية أرسل قسم منها الى النمسا والقسم الآخر الى فرنسا ، وبعثة صناعية أرسلت عام ١٨٢٦ اشتملت على ثمانية وخمسين مبعوثا ووزعت بين فرنسا وانجلترا والنمسا ، وقد كانت حصة فرنسا أكبر الحصص ان أرسل اليها أربعة وثلاثون تلميذا بينما أرسل الى انجلترا عشرون والى النمسا أربعة .

ومهما يختلف الباحثون في تعيين وجهة البعثات العلمية الاولى أو تحديد اعضائها أو غير ذلك من التفاصيل التي تتعلق بها ، فانهم يتفقون جميعا على ان فرنسا كانت مقصد أكبر البعثات وأكثرها . ولذا ، فعندما عاد رجال البعثات كان الاتجاه الفرنسي في التخطيط للحركة التعليمية وللترجمة مسيطرا على سائر الاتجاهات .

ولم يكن أثر بعثات محمد علي مقصورا على ايامه ، كما ذكرنا قبلا ، بل ان أكثر أعضاء هذه البعثات قد قام بدور اساسي في النهضة الشاملة في عصر اسماعيل .

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٢) طوسون ، البعثات العلمية ، ص ١١ .

وليس من شأننا ان نحصر اسماء جميع الذين ارسلوا في البعثات الاولى ،
ولكننا يجب ان نذكر اولئك الذين كان لهم يد عظيمة في سير النهضة ، خاصة
اولئك الذين أسهموا في تخطيط هذه الحركة وتوجيهها .

في طليعة هؤلاء رفاعراف الطهطاوى ، ورفاعة اختير بالاصل اما لبعثة
عام ١٨٢٦ الكبرى ولكنه ما ان وصل الى فرنسا حتى أراد ان يستفيد من
هذه الفرصة فلم يقتنع بالوظيفة المعهودة اليه بل أخذ يطلع على مختلف
العلوم التي استطاع الوصول اليها في فرنسا فكان " أنبغ اعضاء البعثة ثم زعيم
النهضة العلمية في عصر محمد علي " (١) . وطلب اليه ان يتخصص بالترجمة مما
اضطره الى توسيع آفاق ثقافته حتى يلم بالعلوم والفنون المزمع ترجمتها . وعاد
رفاعة من فرنسا عام ١٨٣١ وعين فور عودته مترجما بمدرسة الطب وكان قد جمع
ثقافة واسعة وقرأ في التاريخ والجغرافيا والرياضيات والمنطق والفلسفة والقوانين
والادب والاجتماع وعلم المعادن والفنون الحربية . وقد " أراد ان ينقل كل ما
قرأ الى العالم الاسلامي لانه تألم للفرق في الحضارة والتقدم بين العالم
الاسلامي المتأخر والعالم المسيحي الناهض " (٢) .

شغل رفاعة بالجغرافيا وطلب الى محمد علي ان يسمح له بتأسيس
مدرسة لتعليم التاريخ والجغرافيا ، فكان له ما أراد وانصرف الى التعليم وأخذ
يترجم الكتب الجغرافية الى العربية ، وكان هو ناظر هذه المدرسة التي اعتبرها
الباحثون احدى خطوتين مهدتا لمدرسة اللسان (٣) . ولما أسس مدرسة

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

(٣) الخطوة الثانية هي مدرسة الادارة .

الالسن عام ١٨٣٥ ألغيت هذه المدرسة ورفيقتها ، أى مدرسة الادارة ، وعين رفاعه ناظرا لمدرسة الالسن الجديدة وبدأت حركة الترجمة تزدهر وتقدم نتائجها لمصر . وسيكون لنا عودة ، أكثر تفصيلا ، الى رفاعه ومدرسة الالسن في فصل الترجمة .

لكننا لا نستطيع ان نترك رفاعه بعد هذه اللمحة السريعة قبل ان نشير الى انه عام ١٨٤٠ عهد اليه بتنظيم صحيفة " الوقائع المصرية " والاشراف على تحريرها ، وقد أحدث فيها أثرا كبيرا وتطورا ملموسا فنظمها وبوبها وطبّـور اسـلوبها .

وأخر عهدنا برفاعة ، في القسم الاول من عصر النهضة هو عام ١٨٤٣ ، عندما تولى الخديوى عباس الاول الحكم ، فأرسل رفاعه الى الخرطوم ليعلم في مدرسة ابتدائية . فضعف قلم الترجمة بغياب مؤسسه وراعيه ، وتفرق رجاله . لكن رفاعه عاد ليقوم بدور آخر في هذه النهضة التي كان له فضل كبير في دفعها . ولكن عودته لن تكون قبل عصر اسماعيل حين برز اسهامه في حقل الترجمة الاهلية . ومن أشهر تلاميذ رفاعه الذين تركوا أثرا ملموسا في النهضة ابو السعود افندى ، الذى انشأ أول صحيفة وطنية شعبية هي صحيفة " وادى النيل " التي كان لها أثر كبير في التمهيد للحركة الوطنية في عهد اسماعيل ، وقد خلف استاذ رفاعه في آخر ايامه فكان ناظرا لقلم الترجمة (١) .

والعالم الآخر من تلامذة رفاعه هو صالح مجدى الذى تربو ترجماته

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٥٣ .

ومؤلفاته عن خمسة وستين كتابا (١) .

ومن الذين قاموا بدورهم في عصر محمد علي ، عثمان نور الدين الذي أشرنا اليه قبلا ، وهو أول مبعوث مصرى الى أوروبا وقد أسهم عثمان — نور الدين اسهاما فعّالا في حقل الترجمة، كما انه لعب دورا استشاريا كبيرا لدى محمد علي ، وأول منجزاته هو تنظيم الكتب التي أحضرها معه من فرنسا عام ١٨٢٧ وبذلك " تكوّنت أول مكتبة في عصر محمد علي في قصر ابراهيم باشا في بولاق " (٢) .

تمنى عثمان على محمد علي ان يلحق به بعض التلامذة والاساتذة ليعلمهم الهندسة والعربية والتركية والايطالية فكان له ما أراد عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ . يقول الشيال : " وكانت هذه مدرسة بولاق أول مدرسة نظامية أنشئت في عصر محمد علي " (٣) . وعثمان نور الدين ، وان كان قد توجّه في البدء الى ايطاليا ، الا انه كما ذكرنا جال في بلدان اوروبية اخرى وخاصة فرنسا ، لذلك كان الاثر الذي تركه مستمدا من فرنسا أكثر من ايطاليا . وهو، وان كان قد علّم تلاميذه الايطالية في مدرسة بولاق، الا انه أشار على محمد علي ان ينشئ مدارس حرية على اساس فرنسي ، فأنشأ سنة ١٨٢٥ قرب القاهرة مدرسة سماها " مدرسة اركان حرب " وكان أكثر اساتذتها من الفرنسيين وكان رئيسها فرنسيا وهو بلانا (Planat) (٤) .

ويعزو جمال الدين الشيال الفضل في ارسال البعثة العلمية الكبرى الى

-
- (١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٥٧ .
 - (٢) المرجع نفسه ، ص ٩٦ .
 - (٣) المرجع نفسه ، ص ٩٦ - ١٠١ .
 - (٤) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٠ - ٢١ .

باريس عام ١٨٢٦ الى عثمان نور الدين ويقول انه اتصل بأحد علماء الحملة الفرنسية وهو المسيو جومار فأقنعه هذا بوجوب ارسال البعثات لاعادة الصلة الثقافية بين مصر واوروبا (١) .

ومن الذين تركوا أثرهم في هذه النهضة ارتين بك الارمني والد يعقوب ارتين باشا الذى كان له فيما بعد أثر ملموس في حياة مصر التعليمية . ويذكر عمر طوسون (٢) انه أحد اعضاء البعثات العلمية الى فرنسا وقد عاد منها عام ١٨٣١ ، وفي عام ١٨٣٥ عيّن مديرا لمدرسة الادارة والترجمة التي أسست في القلعة ، ثم ما لبث ان اختير عضوا في المجلس الاعلى للحكومة ، وفي العام التالي أصبح عضوا في مجلس ديوان المدارس ، وهو المجلس الذى كان يخطط للحركة التعليمية في مصر ، ولم ينحصر أثره بذلك ، بل لقد أصبح عام ١٨٣٩ سكرتيرا خاصا لمحمد علي .

وهناك خسرو بك ، أخو ارتين ، الذى تلقى علومه في فرنسا أيضا وعمل سكرتيرا خاصا لمحمد علي وابراهيم وعباس الاول (٣) . وليس بوسعنا ان نحصر جميع الذين كان لهم أثر في هذه النهضة ، كما اننا لا نستطيع ان نشير الى جميع الذين عملوا مستشارين لمحمد علي ، انما ينبغي ان نلاحظ ان جميع الذين دخلوا في خدمة الوالي وخاصة المستشارين منهم ، كانوا ذوى ثقافة فرنسية ، كرفاعة وارتين بك وخسرو بك ومحمد البيومي المهندس ، أو على الأقل ذوى اتجاه نحو الثقافة الفرنسية كعثمان نور الدين . ولعل في ذلك تفسيراً لسيطرة الثقافة الفرنسية واستمرار سيطرتها وتطورها ، حتى بلغت شأوها في عصر

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ص ٣٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

اسماعيل بالرغم من توقف اندفاعها وترجمتها في عصر عباس الاول ، خاصة اذا لاحظنا ان أكثر الذين وجهوا الحركة التعليمية والثقافية في عصر اسماعيل كانوا من رجال بعثات محمد علي الى فرنسا ولعل أشهرهم علي باشا المبارك كما سنرى في حينه .

يقول هيبورث - دن ان كثيرا من الفضل يرجع الى فرنسا نتيجة لاتجاه محمد علي اليها ، ولكن هذا لم يكن صدفة فقد أرسل الباشا رجاله الى فرنسا ليحصلوا على بعض المؤهلات التي تمكنهم من مساعدته في تنظيماته العسكرية . وقد أفاد جدا من حماسة الفرنسيين لمشروعه وأراد أن يستغلها الى أبعد حدود ولكنه " لم يكن يهتم لأى رابط ثقافي بين فرنسا ومصر " (١) . نعم ان الباحثين يتفقون على ان محمد علي لم ينصرف الى فرنسا انصرافا كليا وغير واع بل أراد ان يفيد من الاوروبيين الآخرين ما يتقنونه من فنون وعلوم ، لذلك رأيناه يرسل بعثات الى النمسا وانجلترا ويستقدم رجال الصناعة البريطانيين ليشرفوا على الصناعة التي أنشئت في مصر . على ان هذا كله لا ينفي ان الاثر الفرنسي في العصر الاول للنهضة فاق كل أثر آخر حتى صبح الجو العام للحركة العقلية .

ولكن عمل القائمين على هذه الحركة لم يكن سهلا وقد ووجهوا بمصاعب عدة قبل أن يزرعوا البذرة التي استطاعت ان تثمر في عصر اسماعيل .

يقول ألفرد ملنر في كتابه " انجلترا في مصر " : " في هذا القرن (أى التاسع عشر) استطاعت مصر ان تبقي في اوربا حوالي الستئة تلميذ على نفقة الدولة ، وفي مصر نفسها كانت المدارس تفتح وتغلق ثم تفتح مرة

(١) هيبورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٥٩ .

ثانية من أجل نشر التعليم الاوروبي ، وقد كان العلماء يدخلون الى المدارس قسرا وعندما يدخلون كانوا يتلقون رواتب حتى يبقوا ، وذلك لأن المصريين ، حتى في طبقاتهم العليا لم يقدروا قيمة التعليم الاوروبي حتى عصر اسماعيل عندما أخذ التعصب الديني ضد هذا التعليم بالانحسار (١) .

والحقيقة ان ما لمسناه من عدم اقبال المصريين على التعليم في بداية عصر النهضة لم يكن تعصبا دينيا بقدر ما كان نفورا من الجندية وخوفا منها ، وقد رأينا ان حركة التعليم بدأت من أجل نهضة الجيش وتطويره ، بالاضافة الى ذلك فان الشعب في عصر انحطاطه وسيطرة المماليك والأتراك أخذ ينفر من كل عمل تقوم به الدولة ويحاول الهرب منه والابتعاد عنه ما استطاع . وقد كان التعليم في يد الدولة وكانت هذه تريد ان تدفع بعجلته الى الامام مهما كلف الامر فلجأت الى القسوة حينا والى الافراء احيانا ، ولم يكن عدم اقبال المصريين على التعليم سوى عقبة واحدة في طريق الدولة ، فما كادت تتغلب عليه وترسل بعثاتها الى اوربا ثم تعود هذه البعثات حتى لقي اعضاؤها عقبات جديدة . ففي البلاد أترك يحتلون وظائف في الدولة قبل اعضاء البعثات وفيها اوروبيون خافوا من منافسة اعضاء البعثات وقد تنقفوا في اوربا بغية تسلّم مناصبهم ومسؤولياتهم ، لذلك فان اعضاء البعثات قبلوا بالكراهية والمنافسة والمعاكسة عندما عادوا مما عرقل الكثير من أعمالهم في بدء نشاطهم الفعلي وحال دون تنفيذ بعض مخططاتهم .

ولكن اختصاصهم وتدريبهم ساعدهم على تسلّم مسؤوليات أوصلتهم الى مراتب عالية ، وقد رأينا ان عددا منهم أصبح من مستشاري الوالي .

(١) ألفرد ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

Alfred Milner, England in Egypt, (3rd. ed., Edward Arnold, London, 1893), pp. 367 - 368 .

يقول هيورث - دن ان اعضاء البعثات هم الذين شغلوا المراكز الحكومية " وبذلك خلقوا طبقة في المجتمع - مهما كانت قيمتها - نستطيع ان نسميها بالارستقراطية المثقفة " (١) . ولا بد من ان نشير ، ونحن فسي معرض الحديث عن العقبات ، الى ان الكثيرين من اعضاء البعثات استخدموا في غير اختصاصهم عندما عادوا الى مصر ، أو انهم كانوا يكلفون بأمر اضافية اخرى تصرفهم عن توجيه الجهد الاكبر الى حقل اختصاصهم مما أخر عجلة التقدم الى وقت ، ويلبل عمل المختصين .

ولكن بالرغم من جميع العقبات فان سياسة ارسال البعثات العلمية الى الخارج تطورت حتى اصبحت " ظاهرة واضحة في سياسة التعليم المصرية " (٢).

التعليم : والتعليم الداخلي مجال آخر من مجالات هذه النهضة الحديثة بل لعلم المجال الاوسع ، فعملية ارسال البعثات العلمية الى الخارج لم تكن كافية ، لأن عدد الذين يرسلون في بعثات ، مهما ارتفع ، يبقى محدودا خاصة عندما تكون نهضة الشعب في أول طريقها .

وما يستوقفنا في حركة التعليم هذه هو انها كانت مجالا آخر انعكس فيه أثر الاتصال المصري باوروبا والاقتباس عن حضارتها ، بل لعلنا نستطيع أن نقول ان الحركة التعليمية هي أهم ما يوضح هذا التأثير وأكثر ما يترك أثره في العقلية العامة .

وقد تميزت هذه الفترة بانشاء عدد كبير من المدارس ثم اقبال بعضها

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦٩ .

أو تحويل بعضها الى مدارس من نوع آخر أو نقل بعضها من مركز الى مركز
وفق مقتضيات الحاجات العامة للحركة التعليمية الشاملة في عهدها الاول . ولن
نتعرض الى موضوع فتح المدارس وأنواعها وعددها ومدرسيها أو طلابها الا بقدر
ما نلمس في هذه الناحية أو تلك اتصالا بالغرب وحضارته وتأثيرا لهذا الاتصال
في الحركة التعليمية .

يعتبر مؤرخو التعليم في مصر المدة ما بين عام ١٨١١ وعام ١٨٣٦ **الدور الاول** من نشأة التعليم الحديث . وقد تميزت هذه الفترة بانشاء
المدارس التجهيزية والخصوصية والمكاتب الابتدائية وقد كانت جميع المدارس
تابعة لديوان الجهادية وهذا ما يظهر بوضوح الرابطة القوي في ذهن محمد
علي بين الحركة التعليمية ونهضة الجيش . ولم تكن للمدارس في ذلك الدور
لوائح تنظم سير عملها وكان لكل مدرسة في أول تأسيسها مدير اجنبي أعطي
استقلاله التام في ادارة المدرسة التي يرئسها . لذلك فقد بدا النفوذ
الفرنسي واضحا في الحركة التعليمية ، وقد كان في البدء - كما أشيرنا
سابقا - ايطاليا ثم تحول الى فرنسا . ويجد الدكتور عبد الكريم قاسم
مشتركا بين الأمتين فيقول ان التعليم اتجه " نحو الأمتين اللاتينيتين
المطلتين على البحر الابيض المتوسط " (١) .

ويعتبر هيوث - دن الفترة ما بين عام ١٨٣٤ و ١٨٣٧ مرحلة
انتقالية تمت فيها التطورات المختلفة أو ما يطلق عليه المؤلف اسم
" المؤامرات " التي أدت الى انشاء مجلس شورى المدارس الذي تحول في ما
بعد الى ديوان المدارس (٢) .

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٨٩ .

(٢) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ٢٠٦ .

وقد كان تشكيل هذا المجلس - مجلس شورى المدارس - عام ١٨٢٦ بأمر من محمد علي أول محاولة جادة لضبط التعليم ، إذ كانت الاصلاحات وأنشاء المدارس تخضع ، قبل هذا التاريخ ، لارادة الوالي الذى كان يعمل بنصيحة عثمان نور الدين بالدرجة الاولى (١) .

ومنذ تأسيس هذا المجلس بدأت المدارس تنشأ الواحدة تلو الاخرى ، وكانت جميعها لا تزال تحت مراقبة ديوان الجهادية .

وما يسترعى انتباهنا هنا هو ظروف تشكيل المجلس الذى يقال انه شكل بناء على اقتراح ارتين بك الذى أشرنا الى ثقافته الفرنسية ومركزه عند محمد علي ، ولكن هيبورث - دن يعتقد ان فكرة انشاء المجلس كانت مشتركة بين السانسيمونيين (Saints Simonites) (٢) وتلامذة البعثات ، وأكثرهم ذوق ثقافة فرنسية ، ثم نقلها ارتين الى الوالي بوصفه سكرتيره (٣) .

ولعل انشاء هذا المجلس كان بداية استقلال الحركة التعليمية وانفصالها عن ديوان الجهادية .

يقول ألبير ميتان في كتاب " تحول مصر " : " وبهذا التاريخ يبدأ انشاء المدارس الرسمية بحق ، باتباع الاساليب الاوروبية والتعليم الفرنسي " (٤) .

(١) هيبورث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ١٩١ .

(٢) اتباع سان سيمون الفكر الفرنسي الذى دعا الى اقامة دولة صناعية يحكمها العلم .

(٣) هيبورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٩١ .

(٤) ألبير ميتان ، تحول مصر ، ص ١٦٠ .

Albert Metin, La Transformation de L'Egypte, (Felix Alcan, ed., Paris, 1903).

وسيطرت الثقافة الفرنسية في المجلس نفسه ، فقد كان بعض اعضاءه من الفرنسيين الذين كانوا اما مديرين لبعض المدارس الخصوصية أو موظفين في الحكومة المصرية وبعضهم من المصريين الذين أتوا علومهم في فرنسا . ويذكر أمين سامي باشا نفرا من اعضاء هذا المجلس بينهم مصطفى مختار بك رئيسا وكياني بك وارتين بك ورفاعة بك واسطفان بك وبيومي افندي - وجميعهم ذوو ثقافة فرنسية يذكروهم الامير عمر طوسون في البعثات التي ذهبت الى فرنسا - أما الفرنسيون فقد كان منهم كلوت بك ولامبير (Lambert) وهامنا (Hamnat) ودوزول (Dozol) وفارين (Varene) (١) .

أعيد تنظيم التعليم عام ١٨٤١ بعد الاتفاق المصري العثماني عام ١٨٤٠ وتخفيض عدد الجيش ، وقد رأى بعض الباحثين في التعديلات التي طرأت في التنظيم الجديد نكسة في الحركة التعليمية لما أصاب المدارس الابتدائية وبعض البرامج (٢) . ولكن ما يهمنا هنا هو ان الاثر الفرنسي بقي مسيطرا كما كان في تنظيمات عام ١٨٣٦ . يقول هيوث - دن : " منذ أواخر عام ١٨٤٢ بدأ الاثر الفرنسي يظهر وبدأت الاساليب الفرنسية في التربية والتعليم والتدريب تطبق بالرغم من اعتزال بويه وبالرغم من ان الموظفين الايطاليين لم يقلل عددهم " (٣) .

وأهم ما نلاحظه من التأثير الفرنسي في تنظيم التعليم هو تقسيمه الى ثلاث مراحل : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية ، تعد كل مرحلة طلابها للمرحلة التالية . ويورد عزت عبد الكريم عددا من وجوه الشبه بين نظامي التعليم في

(١) سامي ، التعليم في مصر ، ص ٩ .

(٢) راجع عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ١٢٠ .

فرنسا وفي مصر . منها ان التعليم وظيفة الدولة وهي تشرف عليه وتوجهه —
الوجهة التي تراها ، والمركبة تسود الادارة فتتشابه المعاهد المختلفة في
التنظيم والمناهج ، وأهم من ذلك ان ما يسميه " بالروح الكلاسيكية " تسود
المناهج فلا تترك الا فراغا بسيطا للمواد الاجتماعية والتربوية (١) . ولكنه
يضيف ان التعليم الحديث في مصر ، وان اكتسب نظامه من الغرب ، الا ان
روح التربية الشرقية كانت تلازمه وتصبغه بصبغة كلاسيكية خاصة ، وان تأثير
النظم الفرنسية التعليمية ، وان يكن ظاهرا ، الا ان مصر بظروفها الخاصة —
السياسية والحربية والاقتصادية كانت مستعدة لقبول هذه النظم والتأثر بها (٢) .

هذا بشكل عام هو التأثير الغربي في الادارة التعليمية ، ولا بد لنا
من ان نتعرض لشؤون بعض المدارس الهامة لنلمس هذا التأثير عن كثب .
وتجب الاشارة هنا الى ان الأثر الاوربي ، والأثر الفرنسي على التحديد ، لم
ينحصر في التعليم الرسمي رغم أنه قد دخل من الباب الواسع عن طريق
الحكومة . وقد كان لبعض البعثات الاجنبية والمدارس الخاصة أثر في ادخال
الحضارة الاوروبية سنشير اليه فيما بعد :

افتتح محمد علي عددا كبيرا من المدارس المختلفة من أجل نشر التعليم
عام فكانت هنالك المدارس الابتدائية لتعليم الحساب واللغة العربية ومدارس
تحضيرية لتعليم اللغة التركية والرياضيات والرسم والتاريخ والجغرافيا ، وكذلك
كانت هنالك مدارس للاختصاص مثل مدرسة الصنائع والمدارس الحربية على
أنواعها ومدارس الطب بأنواعه ومدارس الزراعة واللغات وموسيقى الجيش والصنائع
والفنون (٣) .

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٧٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

(٣) أورد هذا التصنيف لويس برهيه في " مصر من ١٧٩٨ - ١٩٠٠ " ، ص ١١٥ .

وفي عام ١٨٣٤ أنشئت مدرسة الادارة الملكية لاعداد موظفي الحكومة عام ١٨٣٤ كانت دراسة الطلاب تقتضي دراسة اعدادية سابقة " قوامها اللغة الفرنسية وعلم الحساب ومبادئ الهندسة والجغرافيا " (١) .

وكانت أول محاولة للتعليم العالي في مصر ، كما يرى هيورث - دن ، المدرسة التي انشأها عثمان نور الدين ورئيسها بلانا ، وكانت تسمى " مدرسة الرجال " (٢) أو " مدرسة أركان حرب " ، ويضيف المؤلف انه يبدو ان هذه المدرسة اتبعت نظاما فرنسيا بحتا، وكانت أول مدرسة أتبعت هذا التنظيم، كما ان اللغة الفرنسية فيها كانت اللغة الاساسية (٣) .

ولو تتبعنا تاريخ مدرسة اللسن منذ نشأتها عام ١٨٣٥ عندما كانت تدعى بمدرسة الترجمة لوجدنا ان اللغة الاوروبية المسيطرة فيها كانت الفرنسية، ويظهر ان اللغة الانجليزية قد درست بعض الوقت في المدرسة كما يشير الى ذلك جمال الدين الشيال وجاهك تاجر ولكن الاثنين يتفقان على ان التشديد كان على دراسة الفرنسية والعربية (٤) .

وجاءت تنظيمات ١٨٤١ التي كان من نتيجتها أن ألحقت المدرســــــــة التجهيزية بالقاهرة بمدرسة اللسن وتقرر تدريس اللغة الفرنسية فيها ابتداء من الفرقة الرابعة " وبذلك كانت الفرنسية أول لغة اوروبية تقررت دراستهــــــــا بالمدارس الثانوية بمصر " (٥) .

-
- (١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٣٢٧ .
(٢) هكذا تسميها المراجع العربية وقد أطلق عليها هيورث - دن اسم Staff College
(٣) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ١١٩ .
(٤) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٤٠ .
وتاجر ، حركة الترجمة ، ص ٣٢ .
(٥) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٢٣٢ .

واذا انتقلنا الى المدارس الأكثر تخصصا كمدارس الطب والهندسة والحربية والزراعة وغيرها وجدنا ان الثقافة الفرنسية كانت الثقافة المسيطرة في كل منها .

ففي عام ١٨٢٧ أسست مدرسة الطب برئاسة كلوت بك وهو فرنسي استدعي بالاصل ليكون طبيبا ورئيسا لجراحي الجيش المصري . ويشير الشيال الى جهود كلوت بك وسعيه الى القضاء على سيطرة ايطاليا واحلال فرنسا محلها . وقد انشأ قسما لتعليم الفرنسية في مدرسة الطب نفسها حتى يستطيع الطلاب ان يدرسوا الطب في نصوصه الاصلية بعد ان كان التعليم بالمدرسة يسير بواسطة المترجمين لأن جميع الاساتذة كانوا من الاوروبيين ومعظمهم من الفرنسيين . وفي عام ١٨٣٢ سعى كلوت الى ارسال بعثة من الطلبة المتقدمين الى فرنسا أيضا ليتخصصوا فيها (١) .

أما مدرسة الولادة التي كانت تابعة لمدرسة الطب فكانت تحت سيطرة كلوت بك أيضا وأشرفت عليها طبيبة فرنسية هي الآنسة جوليت جاءت بعدها الآنسة غسو الفرنسية أيضا .

وفي عام ١٨٢٨ طلب محمد علي الى الحكومة الفرنسية ان ترسل له طبيبين بيطريين فأرسلت هامون (Hamont) وبريتو (Pretot) اللذين أنشئت على أيديهما مدرسة الطب البيطري ، ومن هنا يتضح الأثر الفرنسي في هذه المدرسة أيضا . ذلك انها أخذت ، منذ عام ١٨٣٦ ، تدرس الفرنسية لطلابها .

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٢٢ .

ولا يشذ تعليم الهندسة عن القاعدة ، ولكن هذا التعليم مرّ بأطوار عديدة ، فكان الأثر الايطالي سائدا في الدور الاول ثم سيطر الأثر الانجليزي وبعد ذلك تسلم رئاستها بيومي افندى ، أحد اعضاء البعثات الى فرنسا فسيطر الأثر الفرنسي .

والجدير بالذكر انه لم يكن هنالك مدرسة هندسة واحدة وانما مدارس عدة تشأ كل واحدة منها وفق مخطط معين ، ولكن المدرسة الكبرى أنشئت عام ١٨٣٤ على غرار مدرسة الهندسة بباريس .

واذا انتقلنا الى المدارس العسكرية ، وهي بيت القصيد في عناية محمد علي بالتعليم ، وجدنا ان الساعد الأيمن لمحمد علي في نهضته العسكرية كان الكولونيل سيف ، احد اعضاء جيش نابليون ، الذي عرف باسم سليمان باشا . وقد سيطرت الثقافة الفرنسية على جميع هذه المدارس باستثناء المدارس البحرية التي كان طلابها يتلقون الانجليزية لاتجاههم في هذا الحقل نحو بريطانيا .

وقد استعان محمد علي بفرنسا أيضا لانشاء مدرسة الزراعة والمدارس الصناعية ومنها مدرسة الكيمياء ومدرسة المعادن وغيرها . وكانت اللغة الفرنسية تدرس في جميع هذه المدارس وبرز الأثر الفرنسي حتى في مدرسة الموسيقى العسكرية التي استوردت آلاتها من فرنسا واستقدم معلموها من هناك كما ان تلاميذها كانوا يؤدون القطع لأمهر الموسيقيين الفرنسيين والاطاليين .

واذا استعرضنا المدارس الهامة في عصر محمد علي استعراضا سريعا وجدنا ان المدرسة التجهيزية كان يرئسها عثمان نور الدين الذي تأسس

بالثقافة الفرنسية ثم مصطفى بهجت وهو من اعضاء البعثة الكبرى الى فرنسا
عام ١٨٢٦ .

ورئيس مدرسة الطب البشرى كلوت بك وهو فرنسي ثم الدكتور دورفينيـو
(Durvigneau) والدكتور بيرون (Ferron) وهما فرنسيان أيضا ، كذلك كان
مديرو كل من مدرسة الولادة والطب البيطرى والزراعة والهندسة والكيمياء ومدرسة
اسوان الحربية ومدرسة اركان الحرب ومدرسة السوارى ومدرسة الموسيقى العسكرية ،
كان مديرو هذه المدارس الرئيسية كلهم من الفرنسيين وعندما لا يكون المدير
فرنسيا ، كما كان الامر في مدرسة الطبوجية ، كان يعاونه احد الفرنسيين أو
اعضاء البعثات الى فرنسا .

ومن هنا فان الأثر الفرنسي في مدارس الحكومة بدأ مسيطرا واضحا أخنى
أى أثر اوروبى آخر حاول التسرب الى الثقافة المصرية ، حتى طبع عصر محمد
علي بالسيطرة الفرنسية التامة .

أما المدارس فقد كان لها أثر أيضا في الاهمال الثقافي مع اوروبا . ففي
النصف الاول من القرن التاسع عشر بدأت حركة الجماعات الدينية الاوروبية
نشاطا تبشيريا واسعا في الشرق ، وحوالي عام ١٨٤٤ انشأ الآباء العازاريون
أول مدرسة لهم بالقاهرة وكانت هذه " فاتحة لنشاط الاساليات الدينية
المختلفة من كاثوليكية وبروتستانتية ومن فرنسية وايطالية وانجليزية وامريكية
والمانية واسكتلندية في مصر " (١) .

وفي عهد محمد علي بالذات بذلت محاولات عدة لانشاء مدارس مستقلة

(١) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

عن الحكومة اما من قبل افراد أو من قبل بعثات تبشيرية ، ومن هذه المدارس مدارس الارمن الذين كانوا " أول من أنشأ من الطوائف الاهلية المستوطنة بمصر مدارس على النظام الاوروبي " (١) ، ومدارس اليونان ومدارس اليهود ، وقد انشئت عام ١٨٢٩ مدرسة اللغات بالموسكي وكانت تدرس فيها الفرنسية والعربية والايطالية .

وافتتحت البعثات الاوروبية عددا من المدارس وقد كانت البعثات الكاثوليكية عامة والفرنسية خاصة أنشط البعثات الاوروبية في مصر . وممن المدارس التي أسست في عهد محمد علي مدرسة الميزريكور (Misericorde) أو الرحمة المجانية لجمعية ديفيل دو لا شاريتة الفرنسية (De Ville de la Charite) ومدرسة سيدات الراعي الصالح التابعة لجمعية الراعي الصالح . وفي عام ١٨٤٧ أسست جمعية الفير مدرسة كاترين بالاسكندرية التي يشير هيورث - دن الى ان محمد علي أهدى كنيستها أرضا واسعة فبدأ رهبان الفرنسيسكان ببناء دير وأصبحت كنيستهم كنيسة القديسة كاترين ، ويقول هيورث - دن : " تكمن أهمية هذا التقدم الديني في أن هذه الكنيسة أصبحت كنيسة جميع الكاثوليك اللاتين في الاسكندرية وبالتالي أصبحت نقطة الانطلاق لتأسيس التدريس الديني الثقافي للطائفة الكاثوليكية ومركزا للتأثير الفرنسي " (٢) . ويضيف ان الحكومة الفرنسية لم تدع فرصة اهداء محمد علي الأرض لكنيسة القديسة كاترين وأنشأ دير الفرنسيسكان ففوتها ، فأرسلت في عام ١٨٤٠ الاب اتيان (Etienne) يرافقه عدد من الآباء الحازارين ويدعمهم جيزو (Guizot) رئيس الوزارة الفرنسية . وكانت مهمة الاب اتيان كما يراها هيورث - دن تقضي بأن يقوم " بدعاية لمحمد علي بين الموارنة في سوريا " (٣) . وقدر محمد علي خدمات الاب

(١) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ١٣ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ٢٧٦ .

(٣) المرجع نفسه .

الفرنسي فمخ العازاريين قلعة قديمة قرب كيسة القديسة كاترين فأسسوا مدرسة مجانية عام ١٨٤٧ . ويورد هيورث - دن نقلا عن اميتشي (Amici) ان هنالك مدرسة اخرى افتتحت في السنة نفسها أو في السنة التالية هي مدرسة الفرير (Pensionnat des Freres) . لكن الاقبال عليها لم يكن كبيرا بسبب غلاء أمتاطها (١) .

اما راهبات الشاريتيه (Filles de la Charite) فقد انحصر عملهن بالتمريض وان كن قد استطعن ان يدرن مدرسة للبنات وميتما ، ولكن جمل جهدهن كان موجها نحو التمريض .

هذه هي المدارس ذات الاتجاه الفرنسي التي أنشئت في عصر محمد علي . ولكن البعثات لم تنحصر في هذا الاتجاه فقد كان هنالك بعثات انجليزية لعبت دورها في مصر فقد أرسلت جمعية التبشير الكسبية (Church Missionary Society) ارشالية الى مصر عام ١٨٢٦ وبدأت عملها التعليمي بين الاقباط هناك ، ويقول هيورث - دن ان أكثر اعضاء هذه البعثة كانوا من الالمان الا ان الانجليز كانوا يمولون الارشالية ، ويضيف ان هذه البعثة تركت العمل في مصر منذ عام ١٨٤٨ ولم تستأنف نشاطها الا في الفترة ما بين عام ١٨٨٢ وعام ١٨٨٤ . ولكن الارشالية البروتستانتية الامريكية حلت محلها منذ سنة ١٨٥٤ . ويبدو ان تلك البعثة الانجليزية قد تركت أثرها في مصر لأن هيورث - دن يشير الى ان محمد علي كان يستخدم خريجي مدارسها وانه كان هنالك حوالي مئتين من خريجها في خدمته (٢) .

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ .

هذه هي بشكل عام بعض المدارس غير الحكومية التي افتتحت في مصر في عهد النهضة الاولى . ويدرج هيورث - دن هذه المدارس وفق أهميتها فيعتبر ان المدارس الفرنسية الكاثوليكية تأتي بالدرجة الاولى ، تتلوها مدارس الارساليات الانجليزية ثم المدارس التي أنشأتها الجماعات المحلية المختلفة (١) .

فالمدارس الفرنسية الكاثوليكية كانت تمثل اهتمام فرنسا - رسميا - في بحثها عن وسيلة تجعلها تسيطر على مصالح الكاثوليك الروحية والثقافية ليس فقط في مصر بل في الشرق كله . وهذا التسرب كان نتيجة تطبيق واسع لروح الامتياز الذي تستطيع فرنسا بموجبه ان تعتبر نفسها حامية جميع الكاثوليك . وقد شجع هذا التطور تعاون محمد علي التجاري مع فرنسا وانصالحه السياسي بها وتسامحه الديني ، ولقد جاءت البعثات الكاثوليكية لتلقى طائفة كبيرة نامية بحاجة الى ارشاد روحي وثقافي (٢) .

أما البعثات الاخرى ، كالارساليات الانجليزية ، فلم تكن مدارسها تتمتع بمساعدة الحكومة ولا بمساعدة منظمة من قبل الكنيسة شأن مدارس الكاثوليك ، ولقد جاءت الارساليات الانجليزية بناء على رغبة خاصة لافادة الاقباط الذين لم يفهموا ذلك بل نظروا الى الارسالية بكثير من الشك (٣) . أضاف الى ذلك ان البعثات الالمانية والانجليزية والامريكية كانت جديدة في الشرق ولم يكن لها ما يربطها به أو يساعدها على التغلغل في أوساطه مثل البعثات الكاثوليكية . يقول هيورث - دن : " وهكذا استطاع الفرنسيون ان يحصلوا على بداية لم يخسروا أثرها بعد ذلك " (٤) .

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ الترجمة ، ص ٢٨٢ .

(٢) المرجع نفسه . ~~مكتلة~~

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع نفسه .

هذا ما لمسناه في عصر محمد علي وسيطرة الاتجاه الثقافي الفرنسي الذي سيبقى مستمرا ، وان مرّ بفترات تقلص وضعف ، حتى عهد الاحتلال البريطاني لمصر عندما يصبح الصراع بين الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية على أشده وبخاصة في الحركة التعليمية .

ولكن الاحتلال لم يستطع ان يقضي على الثقافة الفرنسية التي كانت أعمق من ثقافته جذورا في مصر ، فكان لهذه الثقافة أثرها في الحركة الادبية التي نشطت ما قبل الاحتلال في عصر اسماعيل بشكل عام وبعد الاحتلال في اوائل القرن العشرين بشكل خاص . ولئن لم تثمر الثقافة الفرنسية في عهد محمد علي ثمارا فكرية واتجاهات ادبية فما ذلك الا لأن مصر كانت لا تزال في أول درجة من سلم النهضة ، وما الحركة في عصر محمد علي الا بداية زرع البذور التي بعثت جذورها عميقا في الارض بشكل لم يستطع معه الاحتلال البريطاني ان يمحو الثقافة الفرنسية^{عليه} مقاومته المقصودة لها . ولذلك نتج لدينا ، عندما أثمرت حركات الاصلاح الثقافي والعلمي ، اتجاهان قويان هما اتجاه الثقافة الفرنسية واتجاه الثقافة الانجليزية الحديثة العهد نسبيا .

لم يكن هنالك في عهد محمد علي اذا حركة ادبية تذكر أو حركة فكرية سوى الحركة التعليمية وما يترتب بها من ترجمة وطباعة وبعثات وتنظيم وجهت كلها لخدمة اغراض الوالي العملية . ولذلك فان أثر للثقافة الغربية في عهد النهضة الاولى - عهد محمد علي - وحتى عهدي عباس وسعيد وبعض من عهد اسماعيل ، يجب ان يلتبس في الاتجاهات التعليمية التي تشكل قاعدة النهضة الفكرية عامة ، والادبية خاصة ، وتقرر اتجاهاتها .

خلفاء محمد علي (١٨٤٨ - ١٨٦٣)

بعد ان اعتزل محمد علي الحكم عام ١٨٤٨ خلفه ربيبه ابراهيم الذي توفي بعد ذلك بقليل ، فخلفه عباس الاول الذي حكم حوالي ست سنوات لم تحظ بالكثير من التقدير في رأى عدد كبير من المؤرخين . وقد خلف عباسا سعيد باشا الذي استمر حكمه من عام ١٨٥٤ الى ١٨٦٣ ، وكان أحسن حالا من حكم عباس في بعض نواحيه ، الا انه لم يستطع ان يقبل حركة النهضة التي بدأت في عصر محمد علي من كبوتها ، وكان لا بد لنا ان ننتظر نهاية حكمه عام ١٨٦٣ ، حين تولى اسماعيل باشا حكم مصر فعادت حركة النهضة الى زخمها . وحكم اسماعيل ، وان كان قد جاء بالولايات على مصر في نواح عديدة ، الا انه كان عصر النهضة الذهبي الذي أنضج الثمار وألقى البذور لاسـتمرار الحركة التعليمية في مصر . وقبل ان ننقل الى التحدث عن هذه الفترة الهامة من تاريخ النهضة في مصر ، لا بد لنا من ان نعرض عرضا خاطفا لعمود ابراهيم وعباس وسعيد لنتتبع خط التطور التاريخي بين قمتي هذه النهضة . ولن تشمل دراستنا لهذه العصور سوى بعض المظاهر الهامة التي أثرت في توجيه الحركة الفكرية بشكل أو بآخر ، وقد أشرنا الى ان وجهة الحركة الفكرية في مصر ، في بداية نهضتها ، انحصرت في التعليم وملحقاته ، وقد همد غلبان هذه الحركة في العصور المشار اليها الا في مظاهر بسيطة في حقل أو في آخر .

كانت ردة الفعل ضد حركة محمد علي الإصلاحية قد بدأت قبيل عهد عباس الذي وصفه أكثر الباحثين بعهد التجمد ، فبعد انسحاب ابراهيم باشا من سوريا وتوقيع معاهدة لندن عام ١٨٤٠ التي يقضي احد بنودها بتخفيض

عدد الجيش المصرى ، فترت هممة محمد علي في الحركة التعليمية قليلا . وليس ذلك غريبا ونحن نعلم ان اساس النهضة التعليمية في عصره كان الجيش والغاية الاولى من ورائها هي تقويته وتنظيمه على أسس مستقاة من العقل الاوروبي المتقدم .

وقد كان لابراهيم باشا أثر كبير في حمل محمد علي على اقبال كثير من المدارس واهمالها واتجهت سياسة الدولة نحو الاقتصاد في النفقات . يقول هيورث - دن ان العقد الممتد من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٥٠ يشكّل منعطفا في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في مصر ، لأن محمد علي كان منذ سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٨٤٠ قد أخذ يطور البلاد ويستعمل وارداتها من أجل الحرب ، فافتتح المدارس للجيش والبحرية والادارة ، ولكنه لم يفسح للمصريين مجالا ليقيموا لأنفسهم مشروعات مستقلة خاصة ، فلم ينشأ أى طبيب مصرى قيادة خاصة مستقلة ولم يحاول المصريون منافسة الاوروبيين في الصناعة والتجارة . وفي عام ١٨٤١ انهار نظام محمد علي ، فما كان من المصريين الا ان عادوا الى نمط الحياة التي كانوا عليها قبل هذا النظام ، ولم يكن الوالي قد اتخذ أى احتياطات لتنمية البلاد في أوقات السلم تنمية طبيعية ، حتى نظام التعليم في المسجد كان قد انهار في فترة العجلة والاسراع لبناء الجيش (١) .

هكذا اذا كانت السنوات الاخيرة من حكم محمد علي والاشهر القليلة التي تولى فيها ابراهيم باشا مقدمة لركود في حركة النهضة استمر طـوال عصرى عباس وسعيد .

عصر عباس : وجاء عصر عباس الاول الذى يتفق عدد كبير من الباحثين امثال جمال الدين الشيال وعزت عبد الكريم وعبد الرحمن الرافعي ولويس برهيه وغيرهم على انه لم تكن له ميزة تلفت الانظار ، وانه كان يكره الحضارة الاوروبية والعناصر التقدمية ، كما يعتقد بعضهم - عزت عبد الكريم مثلا - ان سياسته كانت تقوم على تسفيه جهود محمد علي ، لذلك أبعد رفاة ومحمد بيومي الى السودان بحجة تأسيس مدرسة ابتدائية .

والجدير بالذكر هنا ان بين جميع الباحثين الذين اطلعنا على مؤلفاتهم في هذه الفترة لم يدافع عن عباس الاول سوى هيورث - دن ، الذى يحاول أن يبرز حقيقة تعرف اليها من خلال دفاتر دار المحفوظات ، كما يقول ، فيحاول ، بعنف وشدة ، أن يرد الاتهامات التي توجه الى عباس في انه جاء يهدم ما بناء محمد علي . ويرى هيورث - دن ان اصحاب هذا الرأى ينسون ان أكثر المدارس كانت قد أقفلت في عهد محمد علي وابراهيم وقبل ان يتولى عباس الحكم ، بل ان كثيرا منها كان في أسوأ حال عندما جاء عباس ، حتى الجيش نفسه كان مفككا بعد عودة ابراهيم من سوريا (١) .

ويشير هيورث - دن الى ان عباسا كان يكره الاوروبيين ويبتعد عن مجتمعاتهم ، ويعتدل ذلك برغبة عباس في الحد من تدفق الغرب وتسربه الى مصر . ولا يتوقف في دفاعه عن عباس هنا بل هو ينحى باللائمة على الاوروبيين أنفسهم فينقل رأيا لبيل سان جون (Bayle St. John) ورد في مقال له وجاء فيه : " لنكن صريحين ، فالأوروبيون أساءوا الى مصر أكثر مما قدموا لها من خير ، في أى مجال أسهموا فيه باستثناء التجار منهم " (٢)

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨٩ .

كما يشير الى رأى عبدالرحمن الرافعي في كتابه عصر اسماعيل حيث يذكر ان عباسا كان حكيما عندما قُتل من نشاط الاوروبيين ، وان السمك الحديدية التي انشاها كانت أنفع بكثير وأقل خطرا من برنامج الفرنسيين لشق قناة السويس (١) .

ويصف المؤلف عصر عباس بأنه العصر الذي أتيح للبلاد خلاله الاستقرار والهدوء الضروريان بعد الارهاق الذي أصابها اثناء عهد محمد علي (٢) .

هذه الآراء وجدنا هيوث - دن يوردها دفاعا عن عباس وعصره . وما دنا في معرض الحديث عن الدفاع فلا بد ان نذكر ما أورده عمر طومسون عند الكلام عن البعثات العلمية في عصر عباس ، يقول : " . . . فهو من هذه الجهة لا يعد مقصرا ولا يصح رميه بشل حركة التعليم في اوربا ولا وصفه بالغنى عن هذا الضرب من الثقافة التي كانت مصر ولا تزال في حاجة الى التزود منها " (٣) .

ويقول أيضا " . . . وشعرت فرنسا بانصراف هذا العاهل عن الانجاء اليها خصوصا بعد ما زحى عن مناصب الحكم في بلاده أكثر الاجانب وبخاصة الفرنسيين ، فجاء ذكره على السنة مؤرخيها مشوبا بالقدح خاليا من المدح - على اننا لسنا بصدد الدفاع عن حكم عباس الاول ، رحمه الله ، من جميع نواحيه ، وانما فرضنا ان نجلو هذه الناحية فقط وقد رأينا انها نقية بيضاء " (٤) .

(١) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٢٩١

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٣) طومسون ، البعثات العلمية ، ص ٤١٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٤١٨ .

هذا رأى المدافعين عن عباس اما الذين اعتبروا عصره عصر جهود
فمنورد آراء بعضهم .

يقول جرجي زيدان " توقفت هذه الحركة الفكرية المباركة في زمن عباس
وسعيد (١٨٤٩ - ١٨٦٣) لأنهما كانا راقبين في الحرية عن مساوها
وأقفلت أكثر المدارس المصرية وغيرها من عوامل هذه النهضة " (١) .

ويقول عبد الرحمن الرافعي ان عباسا لم يكن له ميزة تلفت الانظار سوى
كونه حفيد محمد علي (٢) ، ويرى عزت عبد الكريم ان سياسته قامت على تسفيه
جهود محمد علي (٣) .

وما يعنينا في هذا الجدل حول قيمة عصر عباس هو الاتجاه الذى قد
يكون وراء هذا التناقض في الحكم عليه . فجميع الباحثين ، حتى اولئك الذين
يدافعون عن عباس ، يظهرون ان الحركة العلمية قد تجمدت ولم يكن لعصره
دور في تطور حركة النهضة الحديثة في مصر ، ولكن الاختلاف يأتي في تقدير
اسباب هذا التجمد .

ولم نكن لنورد هذه المناقشات حول عصر عباس لولا ان الاسباب التي
دفعنا اليها تلقي نورا على اتجاه نقافي معين يبرز لأول مرة منذ بداية عصر
النهضة ، فسياسة عباس على ما يبدو كانت تميل عن فرنسا ويورد هـيورث - دن
ان القنصل العام الانجليزى في مصر المستر موراى (Murray) كان مــــن

(١) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٢) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(٣) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في مصر من نهاية حكم محمد
علي الى اوائل حكم توفيق ، (٣ اجزاء ، وزارة المعارف العمومية ، مطبعة
النصر ، ١٩٤٥) ، ج ١ ، ص ١٢ .

الأصدقاء المقربين إلى الوالي ، وقد استطاع هذا بواسطة الصديق الانجليزي ادخال التلفزيون والسكك الحديدية إلى مصر (١) ، ولعل في ذلك ما يظهر سبب اندفاع هيوث - دن في الدفاع عن عباس الأول .

وفي الاقتباس الذي أخذناه عن عمر طوسون والذي جاء فيه ان فرنسا شعرت بانصراف عباس عنها ، لذلك ورد ذكره مشوبا بالقبح على المسببة مؤرخيها ، ما يؤيد هذا القول .

المهم اذا في كل ذلك هو ان عصر عباس كان عصر توقف في مجرى الثقافة التي كانت مصر تقتبس منها وتتطور على أيديها ، ومع ان الاتجاه نحو انجلترا لم يترك أثرا واضحا ، الا انه يلقي ضوءا على رغبة الانجليز في الحلول مكان الفرنسيين في أول فرصة مناسبة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى ان عباس اتجه أيضا نحو ألمانيا ثم إيطاليا خاصة في حقل الطب ، ولكن لم يكن حظ أي منهما أكبر من حظ الثقافة الانجليزية ، وسنبين ذلك عندما نتعرض للحركة العلمية في عصر عباس .

عندما تولى عباس الحكم أخذ يعيد تنظيم المدارس فبدأ بالمدارس الابتدائية ثم انتقل إلى المدارس الحربية ثم خلق مؤسسة جديدة أسماها مدرسة " المفروزة " يعتقد هيوث - دن ان الغاية من انشائها كانت تعليم الاقتصاد وتركيز الادارة وتنسيق الدروس (٢) ، وخاصة انها كانت تضم قسما

(١) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٢٨٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

ابتدائيا واعداديا وحربيا وفرعا للمدرسة المدنية والحربية . ونتيجة لهذا التنظيم الجديد ألغيت مدارس عدة أهمها في مجال بحثنا مدرسة الألسن ، وأبعد ناظرها رفاة الى السودان . وقد كان من الممكن أن تسهم هذه المدرسة في تثقيف الشعب المصرى لو انها عمرت لأن المواضيع التي كانت تترجمها كانت قريبة الى ذهن القارئ العادى وفهمه ، ولكنها ألغيت بعد موت محمد علي وتشتت خريجوها في النكسة التي أصابت النهضة في عهد عباس وسعيد (١) .

وفي عام ١٨٥٢ كان قد بقي في مصر أربع مدارس هامة هي المفروزة ومدرسة العمليات والمهندسخانة والطب ولا بد ان نشير هنا الى ان رجلا انجليزيا تسلم ادارة مدرسة العمليات في هذا الوقت ، كما ان كلوت بك الفرنسي كان قد استقال من مدرسة الطب منذ عام ١٨٤٩ فاستعان عباس بالالمان ، وكان قد ضاق بالاطباء الفرنسيين كما يرى عزت عبد الكريم ، ولكن هؤلاء اعترفوا في تقريرهم عن المدرسة ان اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة في مصر في ذلك الحين واقترحوا تدريسها في جميع فرق المدرسة وان يتمكن منها الطلبة المبعوثون الى اوربا (٢) .

ولكن عباسا عاد يضيق ذرعا بالاطباء الالمان فتحول عنهم الى ايطاليا غير ان ذلك كان قبل موته بثلاثة أشهر فلما تولى سعيد عاد كلوت بك .

اما البعثات العلمية في عصر عباس فلم يتوجه أكثرها الى فرنسا كما

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٢٢٨ .

(٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ٨٦ .

كانت الحال في العصر السابق . ويقول هيورث - دن في هذا الصدد ،
متابعا خطته في الدفاع عن عباس ، ان عباسا لم يكن يرى من الضروري ارسال
جميع البعثات الى فرنسا بل أراد ان يرسل كل بعثة حسب موضوع اختصاصها
الى البلاد التي تتفوق في هذا الموضوع أو ذاك . فأرسل بعثات الى مدارس
الطب في ألمانيا والنمسا ، والهندسة في إنجلترا ، ويضيف ، متفقا بذلك مع
عمر طوسون ، ان ثلاثة طلاب فقط أرسلوا الى فرنسا ايام حكم عباس . كما
يتفقان أيضا في ان عباسا لم يكن شديد العناية بالمدارس العسكرية كما كان
محمد علي ، ولذلك لم يوجه أية بعثة لدراسة الفنون العسكرية وألغى المدارس
العسكرية بباريس (١) .

ولن ندخل في تفاصيل البعثات العلمية في هذا العصر انما يجب ان
نشير الى ان مجموع الطلاب الذين ذهبوا الى فرنسا كان ، وفق ما أورده
عزت عبد الكريم (٢) خمسة عشر طالبا بينهم طلاب بعثة الفلك الثلاثة التي
ذكرها كل من هيورث - دن وعمر طوسون ، اما البعثات العلمية الى غير فرنسا
فبلغ عددها خمسة وثلاثين طالبا .

ولوانتقلنا الى الحركة العلمية بشكل عام ، لوجدنا ان الانتاج الثقافي
يكون منعزلا في عصر عباس . يقول هيورث - دن " ان الاطباء والمترجمين
المصريين الذين كانوا يعملون بقوة وعزم ايام محمد علي ويترجمون المؤلفات
للعربية ، قد أخذوا اجازة فلم يكدهم يظهر ترجمة واحدة خلال حكم عباس .

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٠٢ ،

و طوسون ، البعثات العلمية ، ص ٥٢٦ .

(٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

ولقد كان العمل بحاجة الى يد قوية حتى ينجح ولم يكن عباس قادرا على ممارسة هذه القوة " (١) .

ولا يسعنا ان نترك عصر عباس دون ان نشير الى التعليم الخاص ، فقد تابع الكاثوليك نشاطهم الثقافي فأعاد الفرنسيون بناء كنيستهم سنة ١٨٥٢ في الموسكي وبنوا واحدة اخرى في بولاق . وفي سنة ١٨٥٤ وسع الرهبان القاثمون بشؤون مدرسة الفرير اعمالهم وامتدوا من الاسكندرية الى القاهرة .

ووصل المرسلون الاميريكيون من اعضاء البعثة البرسبتيرية الامريكية (The American Presbyterian Mission) لأول مرة الى مصر ففتحو مدرسة عام ١٨٥٤ ، اما الارسلات الانجليزية فيبدو ان عملها لم يتقدم .

وفي عام ١٨٥٤ قامت الجالية اليونانية بالاسكندرية بانشاء مدرسة للبنات واخرى للصبيان ومكتبة .

أما الاقباط فقد جاءت أول محاولة لتطويرهم على يد البطريك سيريل الرابع الذي أنشأ مدارس جديدة للاقباط وحاول لأول مرة ادخال الاساليب الأوروبية اليها ، وذلك بعد ان أخفقت المحاولات المتعددة لادخال الاساليب التربوية الغربية في ان تؤثر فيهم ، فقد كانت لهم كتاباتهم الخاصة ومدارسهم الابتدائية الدينية " (٢) .

عصر سعيد : اغتيل عباس في الثالث عشر من شهر تموز سنة ١٨٥٤ وخلفه عنه سعيد رابع أولاد محمد علي . وقد عرف سعيد بعهد

(١) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٠١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٠٩ .

استقراره وتقلب آرائه وتخطت هذه الصفة الشخصية حياته اليومية الخاصة الى اتجاهاته في الحكم وتسيير شؤون الدولة . وأصاب المنشآت العلمية شي من هذا التقلب ، فلم يصدر انشاء المدارس ولا الغاؤها عن خطة معينة أو هدف واضح ، ولم تكن بعض المدارس تعمر أكثر من سنوات قليلة ، لا تستطيع خلالها ترك أى أثر في الحياة الثقافية . وقد عرض عزت عبد الكريم ^(١) للمدارس التي افتتحت وأقفلت في عصر سعيد بصورة توضح هذه الظاهرة وتشير الى القلق الذى كانت الحركة التعليمية تعانيه في ذلك العهد . فالمدرسة الحربية بالقلعة السعيدية أنشئت عام ١٨٥٢ وأقفلت عام ١٨٦١ . والمدرسة الحربية في الاسكندرية ألغيت عام ١٨٦١ . كذلك مدرستا الطب والولادة ألغيتا في أواخر ١٨٥٤ ثم أعيد افتتاحهما عام ١٨٥٦ ولكنهما دخلتا في فترة اضطراب وعدم استقرار حتى نهاية عصر سعيد . ويعقب عبد الكريم على ذلك بقوله :
" . . . ومن ذلك ترى ان أكثر مؤسسات سعيد التعليمية اما ان تلغى في سنة ١٨٦١ أو تكاد تحتضر . . . وهكذا ينتهي حكم سعيد وليس في مصر من المدارس الحكومية سوى اثنتين المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية ومدرسة الطب بالقاهرة " (٢) .

ولا تهملنا معرفة ما انشئ وما أقفل من مدارس في عهد سعيد انما نريد ان نشير الى بعض الظواهر التعليمية التي تجلّت في ذلك العهد والتي تشير الى عودة الأثر الفرنسي بعد ان حاول عباس الاقلال من شأنه والاستعانة بدول اوربية غير فرنسا أو بالاضافة اليها ، ليقفل من شأن أثرها ويضعفه . هذا الاتجاه ، في عصر سعيد ، يظهر لنا في اعادة رفاعة الطهطاوى مستشار

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

محمد علي وصاحب الفضل الاول في الحركة التعليمية بشكل عام وحركة الترجمة ومدرسة الألسن بشكل خاص ، وكان عباس قد أرسله الى السودان ، كما ذكرنا ، بحجة انشاء مدرسة ابتدائية هناك . ولكن سعيدا استدعى رفاعة كما أعاد ابراهيم ادهم باشا وهو من رجال البعثات الاولى الى فرنسا . وتسلم رفاعة ، اثر عودته ، ادارة " مدرسة الحربية " التي فتحها سعيد في القلعة كما تسلم ادارة مكتب الترجمة ومدرسة المحاسبة ومدرسة الهندسة المدنية . وتشير عودة رفاعة الى عودة رجالات محمد علي وأثرهم في الحركة التعليمية في مصر ، وبالتالي عودة الأثر الفرنسي الى البروز ، فرفاعة وابراهيم ادهم من أقوى ممثلي هذا الاتجاه . ولكن سعيدا ما لبث ان حل ديوان المدارس سنة ١٨٥٤

بعد عودة رفاعة وفصل جميع التلاميذ الذين كانوا دون العاشرة وألحق الصالحين الكبار بالجيش . ثم قام بحل المدارس المتعلقة بالديوان كمدارس المبتدیان والتجهيزية والمهندسخانة والطب . ورغم ذلك لم يأس ابراهيم ادهم ورفاعة من مصير التعليم وقد حاولا ان يتابعا رسالة محمد علي فوضع ابراهيم ادهم مشروعا لمتابعة مكاتب الملة التي كان قد بدى بها في عصر ابراهيم ، وساعده في ذلك رفاعة . ولم يكن لهذه اللائحة أى أثر في عصر سعيد ولكنها تشكل اساسا لنهضة مصر التعليمية في المستقبل على ما يرى عبد الرحمن الرافعي فهو يقول : " . . . ووضع هذه اللائحة - أو على الاصح مشروع اللائحة - يؤرخ عصرا جديدا في تاريخ نظريات التربية والتعليم في مصر ، حقا لم يكن لها من أثر علمي في الحركة التعليمية في ذلك الوقت ، ولكنها تقرر مبادئ خطيرة ستحدد القواعد التي ينهض عليها مستقبل التعليم والثقافة في مصر " (١) . ومن أهم هذه الاسس ان اتصال مصر بالحضارة الأوروبية يفرض عليها اعادة النظر في نظامها التعليمي وتغيير المحور الذي يدور عليه

(١) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

التعليم الشعبي وهو الكتاب ثم الازهر .

ومما يشير الى تأثير رفاة في توجيه التعليم نحو المصدر الذي استقى هو منه ، الحادثة التالية : امتحن رفاة تلامذة المدرسة الحربية في الاسكندرية بحضور أدهم باشا وقرر بعد ذلك زيادة العناية باللغة الفرنسية ، على اساس ان المصدر الذي يجب ان تستقي المدرسة منه موادها هو الثقافة الفرنسية (١) .

ومن مظاهر عودة الانثر الفرنسي عودة كلوت بك ، مدير مدرسة الطب الذي كان قد استقال في عهد عباس ، وقد أعاد تنظيم المدرسة متطلبا من التلامذة معرفة الحساب ومبادئ الهندسة واللغة الفرنسية ، وفي حال تعذر وجود طلبة تتوافر فيهم الشروط ينبغي وضع مدرس خاص لكل من هذه المواد الثلاث . والجدير بالذكر ان الحساب والهندسة كانا يدرسان خلال السنتين الاوليين وان الفرنسية كانت تدرس في جميع سني المدرسة (٢) .

أما البعثات العلمية فقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان سعيد باشا قد أرسل بعثات علمية الى اوربا أو لم يرسل ، كما اختلفوا في عدد المبعوثين ، وان اتفق أكثرهم على المسألة الاولى فقد استمر الخلاف بينهم على المسألة الثانية . فجرجي زيدان (٣) مثلا يحدد عدد المبعوثين بأربعة عشر تلميذا وكذلك يفعل أمين سامي (٤) في حين يعتقد عمر طوسون (٥) ان عدد المبعوثين

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ٢١٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(٣) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٥٢٦ .

(٤) سامي ، التعليم في مصر ، ص ١٦ .

(٥) طوسون ، البعثات العلمية ، ص ٤٩٠ .

بلغ ٤٨ شخصا موزعين على ثلاث بعثات : اثنتين منها الى فرنسا وواحدة الى النمسا . اما عزت عبد الكريم (١) فيعتقد ان عدد الطلاب الذين أرسلوا الى اوروبا بلغ تسعة وستين طالبا توجه سبعة وخمسون منهم الى فرنسا واثنا عشر الى ميونيخ بألمانيا . من هذا نستنتج ان سعيدا لم يهمل البعثات العلمية كليا الى اوروبا كما يبدو ، وانه أعاد الاهتمام بإرسال البعثات الى فرنسا الذي كان قد ضعف في عصر عباس الى حد بعيد . ويشير هيورث - دن (٢) الى ان سعيدا أعاد تأليف لجنة تشرف على دراسة اعضاء البعثات في فرنسا ، مما يشير الى ان عدد الطلاب هناك كان كبيرا لدرجة تستوجب تأليف مثل هذه اللجنة . ولكن ذلك لا يعني ان الحركة الفكرية أو التعليمية عادت الى نشاطها في عهد سعيد ، بل لقد ظلت على جمودها كما ظهر لنا عند الحديث عن المدارس الحكومية والترجمة . وحتى حركة البعثات العلمية بقيت محدودة متفرقة وموزعة لم يتركز نقلها في مكان معين ، كما حدث أيام محمد علي عندما كانت فرنسا مركز الثقل ، بحيث يمكن لاءضاء هذه البعثات ان يكونوا اتجاهها موحدا ومنسجما يوجه الاتجاه الفكرى والثقافى في البلاد .

غير ان هنالك ظاهرة هامة في عصر سعيد كان لها أثرها في التعليم في مصر منذ ذلك الوقت ، تلك هي ظاهرة نشاط التعليم الخاص .

يقول هيورث - دن : " يشكل حكم سعيد باشا منعطفا في تاريخ المدارس الأوروبية في مصر ، ففي خلال السنوات التسع هذه نجد تقدما ملحوظا من قبل جميع الفئات من فرنسية واسكتلندية وانجليزية وأمريكية ويونانية وإيطالية وقبطية ، وبالتالي فان هذه الفترة تعتبر فترة تثبيت ثقافى بالنسبة

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٢٤ .

لجميع الفئات غير المسلمة * (١) .

ويقسم هيورث - دن الفئات التي نشطت في حركة التعليم الخاص الى ثلاثة اقسام : منها ما كان تبشيريا دينيا بحثا مثل الفئات الاسكتلندية والانجليزية والامريكية ، ومنها ما كان نتيجة نمو المجتمعات المختلفة بمصر وشعور هذه المجتمعات بحاجتها الى المدارس الخاصة ومنها ما كان عملا تجاريا غايته الاستثمار التجاري (٢) .

ويبدو ان المدارس الفرنسية الخاصة نمت وتطورت في عصر سعيد باشا أكثر من غيرها . ويعزو هيورث - دن هذا التطور الى ثلاثة اسباب رئيسية : أولها ميول سعيد باشا نحو الفرنسيين ، ثم نمو الفئات المسيحية في مصر واقبالها على مثل هذه المدارس ، ثم الاستغلال السياسي الذي كانت فرنسا تقوم به في مصر فاستعملت أكثر المؤسسات الدينية لبث ثقافتها (٣) .

ولم ييخل الوالي على البعثات الاجنبية فقدم لها المساعدات كي تفتح مدارسها . وقد جاء في المؤلف التاريخي التي تناولت عصر سعيد انه فتح اعانات سنوية لراهبات الراعي الصالح ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ، كما انه وهب البعثة الامريكية بناء "لتنش" مدرسة لها . وعندما أنشأت الحكومة الايطالية أول مدرسة في الاسكندرية منحها اعانة مادية حتى اتفق أكثر الباحثين على ان عنايته بالتعليم الاجنبي فاقت عنايته بالتعليم الحكومي ، وقد فسر ذلك كل من عزت عبد الكريم وجاهك تاجر بأنه من " المتناقضات " التي

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٣٠ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه .

عرفت في شخصيته (١) .

ويورد هيورث - دن لائحة بالمدارس غير الحكومية توضح نشاط التعليم الخاص وتقدمه مقابل خمول التعليم الحكومي (٢) .

ولن نتعرض هنا الى تفصيل ما افتتح من المدارس المحلية الخاصة ، بل نكتفي بالاشارة الى ان أكثر هذه المدارس ، على ما يبدو ، كانت تسير على النظام الاوروبي وانها جميعا كانت تعلم اللغة الفرنسية وان عددا قليلا منها كان يعلم الانجليزية والاطالية مع الفرنسية بالاضافة الى لغة الفئة التي انشأت المدرسة كالمقبطية أو العربية أو اليونانية (٣) .

وقد كانت البعثة الكاثوليكية أهم البعثات التبشيرية الأوروبية ، وأهم مدارس هذه البعثة مدرسة الفرير التي أنشئت في أواخر عهد عباس وازدهرت في عهد سعيد عندما منحها سنة ١٨٦٠ قطعة أرض وسط القاهرة حيث بنت مدرسة وألحقت بها كنيسة . ويقول هيورث - دن في هذه المدرسة : " وهكذا نشأت مدرسة لعلها لعبت الدور الأعظم في حقل التربية في مصر بفضل تشجيع سعيد باشا وكرمه " (٤) . وكان للكاثوليك مدارس أخرى ولكن لم يكن لها ما كان للمدرسة الأولى من الأهمية .

ولن نتحدث هنا عن البعثات الأمريكية والانجليزية لأننا سنعود إليها

-
- (١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٤٥ .
و تاجر ، حركة الترجمة ، ص ٧٦ .
 - (٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٣٩ .
 - (٣) راجع في ذلك ، هيورث - دن ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٠ - ٣٣٩ .
 - (٤) المرجع نفسه ، ص ٣٣١ .

عندما نتحدث عن تاريخ دخول الثقافة الانجليزية الى مصر .

هكذا مرت الحركة التعليمية والنهضة الحديثة في مصر خلال عصرى عباس وسعيد بفترة خمول من جهة واضطراب وقلق من جهة اخرى . ونستطيع ان نعتبر عصر عباس عصر تراجع بالنسبة للثقافة الفرنسية ، وعصر تسرب للثقافة الانجليزية ، ولكن نشاط النهضة في عصر عباس لم يترك أثرا في سير الحركة التعليمية ، لذلك عادت الثقافة الفرنسية تحجب الثقافة الانجليزية في عصر سعيد ، وان لم يكن هذا العصر بدوره قد خطا خطوة فعلية في طريق التقدم الفكرى والتعليمي .

ولما جاء عصر اسماعيل بعد خمس عشرة سنة من هذا التقدم البطي ، احيانا ، والتجمد احيانا اخرى ، عادت الثقافة الفرنسية والاثر الفرنسي عامة الى البروز بشكل واضح طوال الست عشرة سنة من هذه المرحلة الرئيسية الثانية من مراحل النهضة المصرية .

عصر اسماعيل ، وبداية عصر توفيق : (١٨٦٣ - ١٨٨٢)

في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٨٦٣ خلف اسماعيل سعيدا ، وبدأ عهد جديد من عهود النهضة في مصر يشكل بدءا لمرحلة مستقلة فسي كثير من نواحيه واستمرارا لما بدأه محمد علي في بعض نواحيه الاخرى .

ولن نتعرض في هذا الفصل الى كل ما حدث من تقلبات ومصاعب في عصر اسماعيل ، فقد تعرضت مصر في هذه الحقبة من تاريخها الى قلق واضطراب ، وخضعت لديون باهظة بدأت في عصر سعيد وازدادت في عصر اسماعيل نتيجة تطرف الخديوى في البذخ والترف . وكان من نتيجة هذه الديون انشاء صندوق الدين ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر وتأليف لجنة تحقيق اجنبية لفحص شؤون الحكومة المالية والادارية ، ثم تعيين وزيرين اوروبيين في الوزارة المصرية . وتغلغل نفوذ الاجانب عامة في مرافق البلاد ، وانتهت السلسلة بالخضوع الكامل للسيطرة البريطانية عندما تم احتلال مصر سنة ١٨٨٢ .

ويجب ألا ننسى انه في خضم صراع الحكومة المصرية مع الدول الدائنة قامت في مصر ثورات واضطرابات استمرت في عصر توفيق وكانت أشهرها ثورات الجيش عام ١٨٧٩ التي أوصلت عرابي الى مركز حساس ومتنفذ وكانت أحد العوامل التي أدت الى تنازل اسماعيل عن عرش الخديوية لابنه توفيق .

ولو أردنا التحدث عن الصراع السياسي والاضطراب الاقتصادي الذى حدث في عهد اسماعيل لطال بنا الحديث وخرجنا عما نحن فيه من دراسة لتاريخ دخول الثقافة الغربية الى مصر . ولكن لا بد لنا من ذكر ظاهرة هامة

جدا ، هي ان هذا الاضطراب بوجهيه السياسي والاقتصادي ، وان يكن قد اثر في سرعة تطور الحركة الثقافية الا انه لم يقف في طريقها ، وتميز عصر اسماعيل ليس بالفوضى والاضطراب فحسب بل بأنه عصر نهضة مشرقة آتت أكلها بعد ان كانت البذور الاساسية قد زرعت في عصر محمد علي ، فعصر اسماعيل من الناحية الثقافية ، يشكل مرحلة رئيسية هامة من مراحل تطور الثقافة الحديثة في مصر ، بل لعله أهم هذه العصور من ناحية نتاجه وأكثرها أثرا في المراحل التي تلتها .

في هذا العصر تتعدد مظاهر الحركة الفكرية والنهضة العلمية ، وتخرج عن النطاق الذي انحصرت ضمنه ايام محمد علي ، وهذا طبيعي لأن حركة النهضة قد بدأت تنشر وتشعبت أغصانها الى مجالات عديدة في حقول الانتاج الثقافي والفكري بشكل عام ؛ فقد بدأت ^{الصحافة} تحتل مكانها في الحياة الفكرية الاجتماعية الحديثة ، وبدأت الحركة الادبية تعطي نتاجها ، كما توسعت حركة الترجمة لتشمل حقولا أبعد من حقول التعليم المدرسي المباشر . وظهر في مصر ادباء ومفكرون كان لهم أثر بعيد في تطور الحركة الفكرية العامة . أضف الى ذلك ان المدارس الخاصة ركزت أقدامها بثبات في مصر وكان لها أثرها أيضا في توجيه ثقافة بعض قواد الفكر في وادي النيل .

وستتناول هذه المجالات في فصول لاحقة بعد أن نعرض للمجالات التقليدية لحركة النهضة الحديثة التي بدأت في عصر محمد علي .

الادارة التعليمية ومستشارو اسماعيل : بدأ اسماعيل حركة الاصلاح التعليمي بإحياء الادارة المستقلة للمدارس وهي ديوان المدارس الذي كان قد ألغي في عهد سعيد . ففي السادس والعشرين من شهر كانون الثاني عام

١٨٦٣ أصدر اسماعيل أمرا باعادة تشكيل ديوان خاص للمدارس وعهد بإدارته الى ابراهيم أدهم باشا ، وكان أدهم باشا قد عاصر هذا الديوان منذ انشائه في عهد محمد علي وعصر عباس ووائل عصر سعيد . وتشكل الديوان في الشهر الاول من تكوينه من ابراهيم أدهم باشا مديرا ورفاعة رافع الطهطاوى رئيسا لقسم الترجمة وعلي علوى ويوسف رحمي من الذين خدموا في الديوان منذ انشائه في عهد محمد علي . وكان هنالك أيضا حسين صالح وحسين صدقي كمعاونين ، كذلك عين علي مبارك ناظرا لمدرسة المبتديان وعلي ابراهيم ناظرا للمدرسة التجهيزية . وما كاد أدهم باشا يتولى مسؤولية الديوان حتى باشر بفتح المدارس تنفيذا لارادة اسماعيل ومنها مدرسة المبتديان والتجهيزية بالعباسية ومدرسة المبتديان بالاسكندرية . ولكن مدة ادارته لم تطل ، فخلعه في السادس والعشرين من شهر تموز من السنة نفسها محمد شريف باشا الذى تم على يده فتح عدد من المدارس الجديدة . وبعد محمد شريف باشا تعاقب على مديرية ديوان المدارس عدد من المسؤولين كان لهم دور اساسي في تقدم حركة التعليم في مصر وفي توجيهها .

وكان لكل من هؤلاء المديرين - بطبيعة منصبه - أثر في توجيه الحركة التعليمية في مصر ، ولكن بعضهم كان له أثر أوسع مدى وأعمق تأثيرا من غيره . ولعل قصر المدة التي كان يقضيها المدير في منصبه بالاضافة الى امكاناته الشخصية واندفاعه والظروف العامة هو الذى جعل هذا التفاوت في الاسهام في النهضة التعليمية واضحا . ومن القائمة الطويلة باسماء مديري الديوان في عصر اسماعيل نستطيع ان نشير الى ثلاثة اسماء بشكل خاص لعبت دورا هاما في توجيه التعليم . في طبيعة هذه الاسماء علي باشا مبارك الذى لعب دورا اساسيا في حركة النهضة يوازي الدور الذى لعبه رفاعة رافع الطهطاوى في عصر محمد علي بل لعله يفوقه من ناحية الاثر الذى تركه في حقل التعليم ،

فطبيعة النهضة ونضوجها في عصر اسماعيل مكنت علي باشا مبارك من الاسهام اسهاما أبعد أثرا من اسهام رفاة .

ولن يكتمل البحث اذا لم نتحدث عن دور علي باشا مبارك واتجاهاته بشيء من التفصيل ، لذلك سنعود اليه بعد قليل .

أما الاسمان الآخرا اللذان كان لهما أثر في النهضة التعليمية فهما محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وشنشير الى دور كل منهما في حديثنا السريع عن الاصلاحات التي قاما بها .

هذا ولا نستطيع ان نهمل الدور الذي قام به رفاة رافع الطهطاوى ، فهذا الدور وان لم يكن رئيسيا بقدر ما كان في عصر محمد علي الا انه دور هام وخاصة ان رفاة قد تولى قلم الترجمة وهو من أهم دعائم النهضة ، كذلك هنالك علي باشا ابراهيم الذى لعب دورا هاما بصفته رئيسا لقوميسيون ١٨٨٠ الذى شنشير اليه فيما بعد .

وقبل ان ننتقل الى دراسة المراحل التعليمية المختلفة في عصر اسماعيل لا بد من الاشارة الى مظاهر تشير الى أثر الثقافة الغربية في ديوان المدارس . فقد شكل الديوان من أقلام وهيئات مختلفة أشهرها قلم الوقائع وقلم الترجمة ومجلس المعارف الذى شكله شريف باشا والقوميسيون ومجلس المعارف الاعلى ، ولا يعنينا هنا من هذه الاقلام والهيئات سوى الاثر الفرنسي الذى تجلّى في بعضها . فمجلس المعارف الذى شكله محمد شريف باشا عندما تولى ادارة الديوان كان يرئسه مسبيريك (Maspers) ناظر المدارس الحربية وهو فرنسي كما كان في عضويته فرنسيان مسيو فيدال (Vidal) مسيو كيونيو مدرّس الفرنسية بمدرسة المشاة وهو سكرتير المجلس . ومن المصريين كان هنالك علي بك مبارك وفائق المهندس وهما من ذوى الاتجاه الثقافي الفرنسي . (وكان من

اختصاص هذا المجلس وضع جداول الدروس واصل التعليم والتدريس واجراء التعديلات في هذه الجداول) . فطبيعي اذا ان يكون اتجاهه نحو النظام الفرنسي ، الا ان هذا المجلس ألغي في أواخر عهد شريف باشا بالديوان عام ١٨٦٨ .

وفي عام ١٨٨١ صدر أمر عال بتشكيل مجلس المعارف الاعلى وقد كان عدد اعضائه أربعة وعشرين عضوا بينهم أحد عشر من المصريين وثلاثة عشر من الاجانب . اما المصريون فقد كان أكثرهم ممن يمثل الاتجاه الفرنسي أمثال علي باشا مبارك واسماعيل بك الفلكي .

واما الاجانب فقد كان أكثرهم من الفرنسيين أمثال : مسيو ديـرول (D'Airoles) ولارمي (Larmee) باشا ، ومسيو ماسيرو (Maspero) وفاليردو بك (Gaillardot) ومسيو موجل (Mougel) وجيجون بك (Guigon) ومسيو مونتان (Montant) وسبيتا بك (Spitta) ومسيو برنارد (Bernard) وفيدال بك ، وهكذا فان الأثر الفرنسي كان واضحا في تشكيل المجلس .

أما قلم الترجمة فيكفي ان نعلم ان رفاعة رافع الطهطاوى ولي رئاسته وان عمله الاساسي كان ترجمة القوانين الفرنسية التي طبقت في المحاكم في ذلك العصر حتى ندرك ان الأثر الفرنسي قد سيطر عليه هو أيضا .

مراحل الاصلاحات التعليمية في هذا العصر : يقسم عزت عبدالكريم النظام التعليمي في عصر اسماعيل الى اربع مراحل رئيسية ويقول ان هذه المراحل حددتها معالم بارزة وارتبطت كل من هذه المعالم باسم احد الرجال البارزين .

الذين خلدوا لهم في تاريخ التعليم في القرن الماضي أقوى الأثر . (١) .
وهذه المراحل هي :

- ١- المرحلة الانشائية الاولى وهي ترتبط باسم محمد شريف باشا من عام ١٨٦٣ الى عام ١٨٦٥ .
- ٢- مرحلة التوجيه القومي وترتبط باسم علي مبارك باشا وتمتد بين سنتي ١٨٦٧ و ١٨٦٨ .
- ٣- مرحلة الاصلاح الاولى وهي مرتبطة باسم مصطفى رياض باشا وتمتد من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٧٤ .
- ٤- واخيرا مرحلة الاصلاح الثانية وترتبط باسم علي ابراهيم باشا وتتحصر بين سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨١ ، أى في بداية عصر توفيق .

وسنبني عرضنا لهذه الفترات على مقدار بروز الثقافة الاجنبية في كل منها .

المرحلة الانشائية : (١٨٦٣ - ١٨٦٥) : لم تأت المرحلة الانشائية في نظام التعليم ايام اسماعيل باشا بتغيير جذري . وقد رأى الباحثون في تاريخ التعليم في مصر ان النظام التعليمي ارتكز على المبادئ والمناهج التي وضعها نظام محمد علي باشا . غير اننا نلاحظ في هذه المرحلة وعيا لدى المسؤولين عن النظام التعليمي بضرورة وضع سياسة واضحة للتعليم تسير وفق مخططات مدروسة وترتبط بين التعليم الحكومي والاهلي (٢) .

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤ .

فهذه المرحلة اذا هي مرحلة الاعداد بالنسبة للمراحل التي جاءت بعدها ، ولا تتصف بأى منهج خاص كان له أثره الفعلي في تطور نظام التعليم .

وترتبط هذه المرحلة الانشائية باسم محمد شريف باشا الذى امتدت رئاسته لديوان المدارس طوال هذه المرحلة والمرحلة التي تليها . وهي ، وان لم يكن لها تأثير مباشر في تطور نظام التعليم ، تشكل المنطلق الذى اندفع منه هذا النظام ، أى انها تظهر الاتجاه الثقافي الذى توجه نحوه . واسم محمد شريف باشا يدل على هذا الاتجاه ، فهو من اعضاء بعثة ١٨٤٤ الى فرنسا التي أرسلها محمد علي لدراسة الفنون الحربية ، فمن الطبيعي اذا ان يكون لثقافته العالية أثرها في اتجاهه الثقافي وبالتالي في توجيهه التعليمي . ولعل اختياره لعلي باشا مبارك وكيلا لديوان المدارس في أيام رئاسته له ، يظهر أيضا اتجاهه نحو استخدام من تعلموا على النظام التعليمي الفرنسي .

وهكذا فالنظام التعليمي في عهد اسماعيل اتجه منذ بدايته نحو فرنسا وسنرى انه استمر على ذلك في مختلف المراحل التالية .

مرحلة التوجيه القومي؛ (١٨٦٢ - ١٨٦٨) : استمرت رئاسة محمد شريف باشا لديوان المدارس طوال المرحلة الثانية من مراحل النظام التعليمي ، وهي الفترة المعروفة بمرحلة التوجيه القومي ، غير ان بروز علي باشا مبارك في هذه الفترة والدور الرئيسي الذى قام به كوكيل لديوان المدارس واسهامه الفعال في تطوير نظام التعليم يجعل هذه المرحلة مرتبطة باسمه أكثر من ارتباطها باسم محمد شريف باشا رئيس الديوان .

في هذه المرحلة التعليمية تمت اصلاحات هامة وتغييرات اساسية فسي نظام التعليم في مصر . وهي ، على قصرها ، تشكل مرحلة اساسية كان لها أثرها في الاتجاهات التعليمية في عصر اسماعيل .

ففي هذه المرحلة وضعت لائحة رجب ١٢٨٤ (٧ تشرين الثاني ١٨٦٨) وهي ترمم الخطوط العامة للتعليم في مصر ، وتنظم انشاء المدارس الابتدائية ومواردها المالية والدخول اليها وهذه أول خطوة نحو تنظيم حقول التعليم وتنسيقه . وما يهمنا في هذا المجال من لائحة رجب هو الاتجاه الثقافي الذي سيطر على اللجنة التي أصدرتها . فقد شكلت لجنة رجب في أكثرها من الموظفين والعلماء فكان هناك رفاعة رافع الطهطاوي ناظر قلم الترجمة ، وقد سبق ان رأينا الدور الذي لعبه رفاعة وثقافته الفرنسية في عصر محمد علي ولاحظنا اتجاه أثره في النهضة نحو فرنسا . وكان هنالك أيضا عبد الله بك السيد وهو من تلامذة مدرسة الألسن في عهد محمد علي وقد " اختير منها للسفر الى فرنسا للاخصاء في علوم الادارة الملكية (الحقوق) فأتسم دراسته بها في نحو ست سنوات ثم عاد الى مصر ، وألحق بقلم ترجمة ديوان المدارس مع المرحوم رفاعة بك . استمر في هذا القلم حتى تأهل لأن يخلف رفاعة بك في رياسته فخلفه وظل رئيسا له لمدة طويلة " (١) .

فعبد الله بك السيد اذا من الذين تثقفوا في فرنسا وأقام فيها ست سنوات كما انه لعب دورا رئيسيا في حركة النهضة في عصر محمد علي وكان تلميذا لرفاعة وخلفا له كما اشترك في ترجمة جزء من قانون نابليون تحسنت اشراف رفاعة (٢) . وهو يشكل دعامة رئيسية من دعائم الاتجاه الفرنسي في

(١) طوسون ، البعثات العلمية ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥١ .

الثقافة في مصر . وهنالك ايضا اسماعيل الفلكي ناظر المهندسخانة ، وهو من رجال البعثات ايام الخديوى عباس وقد توجه الى باريس عام ١٨٥٠ للتخصص في الرياضيات والفلك (١) . وهنالك ايضا محمود الفلكي وهو ايضا من اعضاء البعثات ، بل من نوابغها في عصر عباس ، وقد توجه ايضا الى فرنسا لدراسة العلوم الفلكية والرياضيات في البعثة التي كان اسماعيل الفلكي احد اعضائها (٢) . وكانت لجنة رجب تضم كذلك الشيخ عبد الهادى الابيارى من العلماء والشيخ اسماعيل الجلي مفتي الاوقاف سابقا وهما وحدهما من ذوى الثقافة الاسلامية .

ومن هنا يتضح ان العنصر الفعال في اللجنة كان عنصر المثقفين ، وهم جميعا من اعضاء البعثات الى فرنسا . فالتخطيط الثقافى كان اذا في ايدى الاتجاه الفرنسى يسيره كيفما شاء .

وعلى رأس هؤلاء المخططين كان علي باشا مبارك . يقول عزت عبيد الكريم : " وواضح ان علي مبارك منذ دخل الديوان وكيلا في سبتمبر سنة ١٨٦٢ اصبح القوة المحركة في الديوان ، وهو الذى رسم السياسة التي نصب مديرا للديوان ليشرف عليها " (٣) . ويقول هيورث - دن : " كان علي باشا مبارك المسئول الاول عن جميع التطورات والتقدم الذى حصل في حقل التربية في عصر اسماعيل " (٤) .

بدأ علي باشا حياته الرسمية في عهد اسماعيل بأن عين ناظرا لمدرسة

(١) طوسون ، البعثات العلمية ، ص ٤٤٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥١ .

(٣) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٤) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٦٢ .

المبتديان ثم نقل ناظرًا للقناطر الخيرية ولكنه بقي يرأس امتحانات المدرسة الحربية والمدرسة التجهيزية . ثم ألحق بمعية اسماعيل عام ١٨٦٦ . وعندما أقرّ مجلس شؤون النواب لائحة رجب كتب علي مبارك رسالة ومشروع لائحة لتنظيم المكاتب الأهلية واصلاحها ، وقدمها الى الخديوى الذى احالهما بدوره الى لجنة دراسية ، وبعد ذلك بأشهر عين الخديوى اسماعيل علي باشا مبارك وكيلًا لديوان المدارس - وكان مديره آنذاك شريف باشا - وحينئذ شكل علي باشا لجنة رجب التي اشرفنا اليها . وبعد ان أقرت لجنة رجب اللائحة التي قدمها علي مبارك باشا عين مديرا لديوان المدارس لينفذ لائحته (١) .

ولم يقتصر اثر علي باشا مبارك على هذه المرحلة من تاريخ التعليم في مصر ، فقد عاد الى رئاسة ديوان المدارس بعد ان نقل منه لفترة بضعة اشهر تولى خلالها مكانه مصطفى بهجت باشا - وهو من اعضاء بعثة ١٨٢٦ الهندسية الى فرنسا - وفي هذه المرة الثانية مكث مدة سنة وثلاثة اشهر . وعندما تولى رئاسة الديوان الامير حسين باشا كامل من عام ١٨٧٢ الى عام ١٨٧٣ عمل علي مبارك مستشارا له " وكان يوقع اكثر الاوراق " مما يسدل على بقاء اثره في توجيه السياسة التعليمية (٢) . ولم يكن هذا آخر عهده بديوان المدارس ~~بديوان المدارس~~ فقد عاد الى رئاسته مرة ثالثة في اواخر عصر اسماعيل وبقي فيه حوالي ثمانية اشهر .

فعلي باشا مبارك الذى كان " راس السياسة التعليمية " (٣) هو في

-
- (١) يقول ~~المذكور~~ عزت عبد الكريم في هذا المجال ان لائحته علي باشا مبارك غير موجودة لدينا ولذلك لا نستطيع ان نعرف مدى التعديلات التي ادخلها القوميسون عليها .
- (٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ١١١ .
- (٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١١١ .

طلبة الذين وجهوا هذه السياسة نحو الاساليب الفرنسية والعقلية الفرنسية في التربية ، وليس غريبا اذا ان يسيطر الاتجاه الفرنسي في اللجان التي شكلها - وأبرزها قوميسيون رجب سنة ١٢٨٤ - وعقلية اللوائح التي وضعها .

ومن المهم ان نذكر ان الفترة التي تفصل هذه المرحلة من مراحل التعليم عن المرحلة التالية التي ارتبطت باسم رياض باشا ، كانت خاضعة لتأثير علي باشا مبارك . ذلك انه ، كما ذكرنا ، بقي مستشارا للامير حسين باشا كامل الذي ولي رئاسة ديوان المدارس بين فترتي رئاسة علي باشا مبارك الثانية للديوان ورئاسة مصطفى رياض باشا . أضف الى ذلك انه بعد فترة رئاسة علي مبارك الاولى للديوان تولى الرئاسة مصطفى بهجت باشا وهو من اعضاء بعثة عام ١٨٢٦ الهندسية الى فرنسا واول المهندسين في عصر محمد علي ، لذلك فان العقلية الفرنسية في التربية لم تنقطع بل استمرت طوال هذه المدة .

مرحلة الاصلاح الاولى : (١٨٧٣ - ١٨٧٤) : في الخامس عشر من شهر آب عام ١٨٧٣ عين مصطفى رياض باشا للمرة الاولى رئيسا للديوان المدارس واستمرت رئاسته للديوان تسعة أشهر فقط ولكنه رسم خلالها خطة اصلاحية تركت أثرها سنوات طويلا . وكانت الخطة ترمي الى تحسين المنشآت العلمية القائمة أكثر مما ترمي الى التوسع (١) .

وشهدت الفترة التي تولى فيها رياض باشا رئاسة الديوان ، وهي الفترة المعروفة بمرحلة الاصلاح الاولى - وتستمر من ١٥ آب ١٨٧٣ حتى ٢٤ أيار

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ٦٧ .

عام ١٨٢٤ - حركة ناشطة في وضع اللوائح المنظمة لمختلف شؤون المدارس، وكانت اعدادا لاكتمال النظام التعليمي في عصر اسماعيل الذي بلغ أوجه عام ١٨٢٥، كما يتفق على ذلك أكثر مؤرخي التعليم في هذا العصر (١). وتميزت هذه الفترة خاصة بتحويل الاساس الذي كانت تقوم عليه الحياة المدرسة " من ثكاث تقوم الدولة بكل ما يتطلبه طلبتها مقام اهليهم الى معاهد خارج—ية يؤدى فيها اهليهم الى الحكومة بعض ما تتكلفه لابنائهم من نفقات التعليم والادوات والكتب المدرسية لقد أصبح التعليم بذلك ليس نشاطا حكوميا فحسب وانما هو نشاط تشترك فيه الحكومة والامة جميعا " (٢) .

وقد كان هذا تغيرا جذريا في العقلية التي تسير التعليم ، مما جعله جزءا من المجتمع ونابعا منه أكثر مما هو مفروض عليه من علي .

ويطالعنا اسم مصطفى رياض باشا على رأس الحاملين في هذه الفترة التاريخية من نظام التعليم ؛ الا ان رياض باشا ، وان كان المشرف المباشر والمحرك الاول للحركة التعليمية في هذه الفترة ، لم يعمل منفردا بل لقد استعان بعدد من المصريين المثقفين وبالأجانب الذين اختبروا التعليم فسي مصر ، ومن أهم هؤلاء دور بك وكان رئيس التفتيش في المعارف آنذاك ، وعلي باشا ابراهيم ناظر المعارف في تلك الفترة .

ودور بك سويسرى الجنسية استخدمه اسماعيل باشا بعدما كتب كتابا حول التعليم في مصر دعا فيه الى زيادة العناية بالتعليم القومي . وقد أعجب

(١) من أبرز هؤلاء : عزت عبد الكريم وهيورث - دن .

(٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ١٢ .

به اسماعيل باشا وعينه لرئاسة التفتيش بديوان المدارس . ودور بك ، بحكم أصله السويسرى ، يمثل تيار الثقافة اللاتينية المنسجمة مع التيار الثقافى والتوجيهى فى حقل التعليم فى مصر حتى ذلك الحين .

وقد اشترك دور بك اشتراكا فعليا فى رسم المناهج الدراسية التى صدرت عام ١٨٧٤ ، وكان عضوا فى أكثر اللجان التى عهد اليها وضع اللوائح ورسم الخطط ، وكان له أيضا دور هام فى حركة الاصلاح الثانية التى سنتحدث عنها فيما بعد .

اما علي باشا ابراهيم الذى لعب الدور الرئيسى الثانى فانه من اعضاء بعثة الطوبجية الى فرنسا عام ١٨٤٤ ، وهو اذا كغيره ممن سبقه يمثل التيار الفرنسى فى التوجيه الثقافى فى مصر .

قام علي باشا ابراهيم بتقديم مذكرة الى مجلس النظارة يدعو فيها الى اصلاح التعليم ، ويعتقد عزت عبد الكريم ان دور بك هو الذى كتبها أصلا بالفرنسية ثم ترجمها علي باشا ابراهيم الى العربية (١) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه اللائحة صدرت اما عن تفاعل هذين العنصرين الهامين فى تلك الفترة أو عن احدهما ، وقد كانا منسجمين فى الاتجاهات التثقيفية والتعليمية . وعلى أثر هذه المذكرة أصدر مجلس النظارة قرارا بتأليف لجنة لدراس حالة التعليم فى مصر ، واقترح وسائل اصلاحه وتطويره . ولكن رياض باشا أبعد الى ديوان آخر بعد بضعة أشهر ، وتوقف الاصلاح الذى رسم خطته علي باشا ابراهيم ودور بك ، وكان علينا ان ننتظر عام ١٨٨٠ عندما تولى علي باشا

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ١ ، ص ٨٢ .

ابراهيم رئاسة ديوان المدارس وبدأت حركة الاصلاح القوية من جديد . وقد كان لدوربك أيضا دور اساسي فيها .

وقبل ان ننتقل الى المرحلة الاخيرة من مراحل التعليم في هذا العصر وهي المعروفة باسم مرحلة الاصلاح الثانية نشير الى ان المراحل المختلفة التي مرّ بها التعليم بين فترتي الاصلاح الاولى والثانية لم تكن مراحل ذات أهمية كبرى في التعليم في مصر ولم يكن رئيس الديوان يبقى في رئاسته خلال هذه المدة أكثر من بضعة أشهر . ونحن حين نقول ان الفترة التي مرّ بها التعليم بين مرحلتي الاصلاح الاولى والثانية لم تكن ذات أهمية كبيرة انما نقصد بذلك ان الاتجاه الثقافي فيها لم يتخذ خطا جديدا يشذ فيه عن الخط الذي سبقه في الاتجاه نحو فرنسا ولم يكن غريبا عن الخط الذي اتبعته مرحلة الاصلاح عام ١٨٨٠ في هذا الاتجاه نفسه .

مرحلة الاصلاح الثانية : (بداية عصر توفيق ١٨٨٠ - ١٨٨١) : في عام ١٨٨٠ تولى رئاسة الوزارة مصطفى رياض باشا ، ولم ينس رياض مخططاته الاصلاحية التي أشرف عليها عندما كان رئيسا لديوان المدارس لأول مرة ، فعاد اليها يريد تنفيذها ، وعاد يستعين في سبيل ذلك الرجلين اللذين كانا ساعده الأيمن في وضع اقتراحاته الاصلاحية عام ١٨٧٤ وهما علي باشا ابراهيم ودوربك . وقد ارتبطت مرحلة الاصلاح هذه باسم علي باشا ابراهيم الذي تولى رئاسة ديوان المدارس من ١٨ آب ١٨٧٩ الى ٦ أيلول ١٨٨١ .

ومع ان هذه المرحلة تدخل تاريخيا في عصر توفيق باشا الا اننا سندرسها هنا من مراحل تطور نظام التعليم في عصر اسماعيل لأن الاعداد لها وتهيئة الجو والدراسات جاءت في عصر اسماعيل ولم يكن لتغير العصر

تاريخيا أثره في المخططات والدراسات التي تم وضعها في تلك المرحلة
الاصلاحية .

وأهم ما يميز هذه الفترة الاصلاحات التي وضعها " قوميسيون تنظيم
المعارف " الذي شكل عام ١٨٨٠ ، واذنا أردنا الكلام على الاتجاهات التي
اتخذتها مشروعات الاصلاح على يد هذا القوميسيون فلا بد قبل كل شيء من
التعرف الى تشكيله . لقد كان علي باشا ابراهيم رئيسا له ، وهو - كما
ذكرنا قبلا - من اعضاء البعثات الى فرنسا ، واتجاهاته الثقافية فرنسية .
وكان هنالك دور بك السويسري الذي كانت اتجاهاته لاتينية أيضا . ثم كان
هنالك الدكتور سالم باشا وهو من تلامذة رفاة الطهطاوى بمدرسة الألسن في
أول عهده ثم أصبح تلميذا في مدرسة الطب ايام كان ناظرها " المعلم
بيرون الفرنسي " ، ومع انه اختير عام ١٨٤٨ ليذهب للتخصص بالطب في
فرنسا ، الا ان زهابه لم يتم وبقي حتى العام التالي حين أرسل الى ألمانيا
ليتم تخصصه في الطب . وما يهمنا من أمره هنا هو انه ، بالرغم من تخصصه
في ألمانيا ، يمثل الاتجاه الفرنسي في الثقافة لانه تدرب على أيدي رفاة ثم
بيرون الذي قطع على يديه المرحلة الدراسية بين الفرقة الخامسة والاولى .

وكان في عضوية قوميسيون ١٨٨٠ أيضا لارمي باشا وفيدال باشا وهما
فرنسيان ثم اننا نلاحظ لأول مرة وجود عنصر انجليزى في القوميسيونات الاساسية
وهو روجرس بك الذى كان لوقت ما قنصلا لانجلترا في مصر ، الا انه يبدو ان
روجرس بك لم يكن له أثره الفعال في لجنة تسيطر عليها الثقافة الفرنسية .
ولم نلاحظ أى تغير جذرى في النتائج التي صدرت عن هذه اللجنة والتي
تشكل حركة اصلاح تعليمي خطيرة في هذا العصر من تنظيم التعليم .

لسنا هنا بصدد درس الإصلاح التعليمي لذاته انما هنالك بعض المظاهر التي برزت في تقرير قوميسیون سنة ١٨٨٠ ، تشير اليها لانها تلقي ضوءاً على الاتجاه الثقافي العام . وفي طليعة هذه المظاهر ما ذكر في تقرير القوميسیون عن تعليم اللغات في مصر . يقول التقرير معالجا وضع " المدارس الابتدائية الراقية " التي تعد طلابها للتعليم التجهيزي : " اما من حيث دراسة اللغات الاجنبية فان ٥٥ ٪ من التلاميذ يتعلمون الفرنسية و ١٨ ٪ الانجليزية و ٣ ٪ الالمانية و ٢٤ ٪ (وهم تلاميذ الفرقة الرابعة) لم يبدأوا بعد بتعلم لغة اجنبية " (١) .

وهذه النتيجة الاحصائية التي توصل اليها قوميسیون ١٨٨٠ تشير الى ان أكثر من نصف تلامذة مصر يتعلمون الفرنسية في حين يتعلم أقل من ربعهم الانجليزية وهذا ما يعكس اتجاه الثقافة نحو فرنسا .

وبالاضافة الى ذلك فان التقرير ينصح بعدم تشكيل القسم الالمانى أو الاحتفاظ به ويقول : " فان التلاميذ الذين يلتحقون به واولياء أمورهم يشكون بشدة ويعتبرون أنفسهم ضحايا النظام لأن اللغة الالمانية لا تستخدم بمصر قط سواء في مصالح الحكومة أو في علاقات الناس في حياتهم الخاصة . ولا توجد مثل هذه المصاعب فيما يتعلق بالقسمين الانجليزى والفرنسي " (٢) .

ويتحدث التقرير عن هيئة التدريس فيذكر سبعة مدرسين للغة الفرنسية مقابل مدرسين فقط للانجليزية وهذا يشير الى الاهتمام الذى أعطي للغة الفرنسية .

(١) نص تقرير قوميسیون ١٨٨٠ كما ترجمه عزت عبد الكريم عن الفرنسية ووضع في قسم المراجع من كتاب " تاريخ التعليم في مصر من نهاية حكم محمد علي حتى اوائل حكم توفيق " ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

وقد رجعت أيضا الى نص التقرير الفرنسي في مكتبة وزارة التربية والتعليم في القاهرة .

(٢) المرجع نفسه .

أما في مرحلة التعليم التجهيزي (١) فيذكر التقرير ان واحدا وسبعين بالمئة من الطلاب يتعلمون الفرنسية واثنين وعشرين بالمئة يدرسون الانجليزية وسبعة بالمئة يدرسون الالمانية ، مما يوضح ان نسبة تعلم الفرنسية بين الطلاب زادت في المرحلة التجهيزية عن المرحلة الابتدائية .

ويتطرق التقرير الى المدارس الخصوصية وحالة التعليم فيها فيذكر مثلاً ان في مدرسة الهندسة سبعة وعشرين طالبا يتعلمون الفرنسية مقابل سبعة عشر يتعلمون الانجليزية وعشرة يتعلمون الالمانية ، وان في مدرسة المساحة خمسة وعشرين طالبا يدرسون الفرنسية مقابل اثنين فقط يدرسان الانجليزية .

أما في مدرسة الحقوق فلم نجد ذكرا للغة الانجليزية . يقول التقرير متحدثا عن المدرسة " فهي فقيرة في هيئة التدريس فلها أربعة مدرسين للغات ، مدرس للغة العربية وآخر للتركية وثالث للايطالية ورابع للفرنسية واللاتينية " (٢) .

واذا انتقلنا الى فصل تدريس اللغات الاجنبية في التقرير وجدنا ان اللغة الفرنسية يدرسها حوالي ثلثي عدد الطلاب الذين يتلقون لغة اجنبية . اما الانجليزية فقد ذكر التقرير مدارس معينة ومحدودة تعلمها لتلاميذها ، الا انه أثنى على طرق تعليمها في حين أشار الى وجوب تحسين تعليم اللغة الفرنسية .

ويتحدث التقرير أيضا عن البعثات العلمية في اوروبا وحالتها ، وما

(١) يتحدث عن المدرسة التجهيزية بالقاهرة لانه لم يكن هنالك الا هذه المدرسة .

(٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .

يهمنا في هذا المجال هو ما ذكره عن عدد الطلاب وتوزيعهم على بلدان أوروبا ومدارسها يقول التقرير " ٠٠٠ ففي سنة ١٨٧٣ كان عدد المبعوثين الى أوروبا ٥١ طالبا : ٢٤ في فرنسا و ١٣ في إنجلترا و ١٢ في إيطاليا وطالبان في ألمانيا . اما في الوقت الحاضر فعدد اعضاء البعثة ٤٠ طالبا : ٣٨ في فرنسا وطالب في إنجلترا وآخر في سويسرا . وعدا ذلك فهناك ٦ طلاب يتعلمون في فرنسا على نفقة اهليهم وتشرف عليهم ادارة البعثة " (١) .

ومن هنا نتبين ان نسبة الطلاب الذين يذهبون الى فرنسا كانت فسي ارتفاع من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٨٠ عندما وضع التقرير .

هكذا يلقي تقرير قومييون سنة ١٨٨٠ ضوا على الاتجاه الثقافي السائد في مصر في تلك المرحلة من مراحل التعليم ويبين ان كفته كانت مائلة نحو الثقافة الفرنسية بشكل واضح . وقبل ان ننهي الحديث عن التقرير نشير الى انه قد كتب باللغة الفرنسية أصلا ونشر بها الا ان نظارة المعارف أمرت بترجمته فصدر بالعربية تحت " عنوان تقرير قومييون المعارف " (٢) . وهذه الظاهرة تعكس بشكل واضح الاتجاه الثقافي الذي سيطر على اللجنة المكلفة بوضع التقرير وعلى اعضائها .

التعليم الحكومي : عندما تولى اسماعيل باشا الحكم لم يكن باقيا من المدارس التي انشأها محمد علي سوى القليل منها . وسرعان ما اهتم

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .
(٢) لم نطلع على الترجمة العربية هذه ، بل اطلعنا على النص الفرنسي وترجمة عزت عبد الكريم المنشورة في الجزء الثالث من كتابه تاريخ التعليم في مصر من نهاية حكم محمد علي حتى اوائل حكم توفيق .

بالنهوض بالتعليم ، فأعاد تأليف ديوان المدارس وأنشأ عدة مدارس ثانوية—
وابتدائية كما أنشأ مدارس عالية كان لها أثر في تنشيط الحركة العلمية وتطوير
الحركة الفكرية في ذلك العصر وما بعده . ومن هذه المدارس المهندسخانة
ومدرسة الطب والولادة ومدرسة الحقوق بالإضافة الى عدد من المدارس الخصوصية
ومدارس البنات .

وقد اهتم اسماعيل بتعليم اللغة الفرنسية في مدارسها فهو نفسه أحد
اعضاء البعثات الى فرنسا ومن المعجبين بالثقافة الفرنسية ، ثم ان فرنسا كانت
تتمتع بمركز دولي هام فيما كان النفوذ الانجليزي لا يزال ضعيفا في مصر (١) ،
وبالإضافة الى ذلك فان اللغة الفرنسية كانت قد شقت طريقها في مصر منذ
عهد محمد علي حتى أصبحت تدرس في مدارس الجاليات الاجنبية كما كانت
لغة التخاطب بين الجاليات المختلفة .

يقول جاك تاجر ان من أهم الاجراءات التي اتخذت في عصر اسماعيل
في التعليم ان أصبح تدريس اللغات الاوروبية من أهم اغراض التعليم (٢) .
ويبدو ان اللغة الفرنسية كانت المفضلة بين اللغات الاوروبية في المدارس
التجهيزية والاعدادية ، وهذا ما يظهر في كثير من البيانات أو اللوائح ، ففي
البيان الذي يوضح عدد مدرسي مدرسة المبتديان (٣) نتبين انه في سنة
١٨٧١ - ١٨٧٢ كان عدد مدرسي اللغة العربية خمسة وعدد مدرسي
الفرنسية اربعة في حين لم يكن للانجليزية سوى مدرس واحد ، كذلك في عام
١٨٧٥ كان للغة الفرنسية مدرسان مقابل اربعة للعربية وواحد فقط للانجليزية .

(١) تاجر ، حركة الترجمة ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٢ .

(٣) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

اما في عام ١٨٨٠ أى قبل الاحتلال البريطاني بسنتين فقط ، فقد كان عدد مدرسي اللغة العربية ثمانية وكذلك كان عدد مدرسي اللغة الفرنسية مقابل اثنين فقط للغة الانجليزية .

وفي بيان آخر عن تنظيم المدرسة الابتدائية بالقاهرة (١) عام ١٨٧٣ ذكر ان التلاميذ موزعون على ستة فصول يدرسون اللغة الفرنسية في الفصل الاول والرابع والسادس في حين لا يدرسون الانجليزية الا في الفصلين الثاني والثالث والالمانية الا في الفصل الخامس .

أما تلامذة المبتديان الخيرية فقد كانوا موزعين على احد عشر فصلا يدرسون الفرنسية في الفصل الاول والخامس والسادس والسابع والالمانية في الفصل الثاني والثالث والرابع ، ولا يأتي البيان على ذكر اللغة الانجليزية .

وكانت المدرسة التجهيزية تعطي دروسا بالفرنسية والالمانية والانجليزية والعربية والتركية ، وكان اكبر عدد من المدرسين يدرسون العربية والتركية اللتين كان لكل منهما اربعة مدرسين ، اما الفرنسية فقد خصص لها ثلاثة مدرسين وخصص لكل من الالمانية والانجليزية مدرسان (٢) .

هذه المعلومات المتفرقة تظهر لنا تقدم الفرنسية على الانجليزية في مرحلتي التعليم الابتدائي والتجهيزي واذا انتقلنا الى التعليم في المدارس العالية اى تلك التي تعنى بتخصص الطلاب بحقل معين كمدرسة الحقوق والطب والهندسة وغيرها وجدنا الاثر الفرنسي واضحا مسيطرا .

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ص ٢١٧ - ٢٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

مدرسة الحقوق التي اسست عام ١٨٦٨ كانت تدرس القانون الفرنسي ، وقد لاحظنا اعجاب اسماعيل باشا بتشريع نابليون وتركيزه على ان اهم عمل يقوم به قلم الترجمة هو ترجمة تشريع نابليون . وكان اول رئيس لمدرسة الحقوق فيدال باشا الفرنسي وقد نصح به الامبراطور نابليون الثالث . وسرى في ما بعد ان الاتجاه الفرنسي وحده كان مهيمناً في مدرسة الحقوق وذلك عندما نعالج بداية محاربة الانجليز للثقافة الفرنسية .

اما مدرسة الهندسة فقد اعتمدت على رجال البعثات ، واكثرهم ذور ثقافة فرنسية ، كما استعانت بعدد من المهندسين الفرنسيين . وفي عام ١٨٧٣ وضع لمدرسة المهندسخانة برنامج دراسي كانت الفرنسية فيه تدرس في جميع الفرق .

واذا القينا نظرة خاطفة على مدرسة الطب وجدنا ان اللغة العربية اصبحت في عصر اسماعيل هي لغة الدراسة ، ولكن تعليم الفرنسية في غير اوقات الدراسة اضيف بناءً على اقتراح رئيس المدرسة . وفي عام ١٨٦٩ اعيدت دراسة الفرنسية الى جميع الفرق ، وكانت بعض الكتب الطبية الفرنسية توزع على الطلبة المتفرقين ليتعرفوا على ترجمتها . وبقي الاثر الفرنسي في مدرسة الطب منذ تأسيسها ورئاسة كلوت بك لها حتى ما بعد سنة ١٨٩٠ حين اصبحت معظم الاساتذة الاجانب من الانجليز .

اما مدرسة اللسان في عصر اسماعيل فقد كانت في البدء تدرس اللغة العربية ، وتدرس من اللغات الشرقية اما الفارسية او التركية . اما اللغات الاوروبية فكان على الطلاب ان يدرسوا الفرنسية ويختاروا الى جانبها اما الايطالية او الانجليزية . وفي عام ١٨٧٥ نلاحظ في ما كتب عن المدرسة اختفاء ذكر الانجليزية من المواد المدروسة مع التركيز على اللاتينية والايطالية

والفرنسية .

وفي عام ١٨٢٨ انشئت مدرسة خاصة للألسن فصلت عنها الادارة وذلك لتخريج المترجمين ومدرسي اللغات الاجنبية . ويظهر من البيان الذي اوردته عزت عبد الكريم (١) ان طلاب الفرقة الفرنسية كانوا اكثر عددا من طلاب الانجليزية او الالمانية فمثلا :

في عام ١٨٢٩	كان في الفصل الالمانى	٥	والانجليزى	٥	والفرنسي	٧
وفي عام ١٨٨٠	كان في الفصل الالمانى	٦	والانجليزى	٥	والفرنسي	٨
وفي عام ١٨٨١	كان في الفصل الالمانى	٦	والانجليزى	٦	والفرنسي	٨
وفي عام ١٨٨٢		والانجليزى	٣	والفرنسي	٥

من هذا الاستعراض الخاطف لبعض المعلومات الخاصة بالتعليم في هذا العصر نستطيع ان نرى بوضوح سيطرة الاتجاه الثقافي الفرنسي على التعليم الحكومي ، وسيوضح هذا الموضوع عندما نتعرض لدخول الثقافة البريطانية ومحاربة الانجليز للثقافة الفرنسية .

البعثات العلمية : استأنف اسماعيل سياسة ارسال البعثات العلمية الى اوروبا - وهي السياسة التي بدأها محمد علي باشا - ولعل الاصب ان نقول ان اسماعيل قد بعثها الى الحياة مجددا بعد ان فترت في عهدى عباس الاول وسعيد .

اخذت ادارة اسماعيل باشا ترسل الطلبة الى اوروبا في بعثات اتجه اكثرها نحو فرنسا . الا ان العدد الذى ارسل ايان حكم اسماعيل بقي

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٥٦٢ .

أقل من عدد أعضاء بعثات محمد علي فهو لم يتعد المئة واثنين وسبعين—
طالباً .

قلنا ان أكثر البعثات توجهت الى فرنسا الا انه كان هنالك عدد محدود
توجه الى انجلترا وايطاليا والمانيا . ويبرز من جديد الاتجاه الفرنسي ، فبينما
كان في فرنسا من أعضاء البعثات الحكومية مئة وخمسة وخمسون طالباً بينهم
مئة واثنان وعشرون ارسلوا في عهد اسماعيل وزعوا على ما يزيد على العشرين
بعثة من طب وصناعة وهندسة ورسم وحقوق وإدارة ومساحة ومحاسبة وغير ذلك
من الموضوعات ، كان هنالك أربعة عشر في انجلترا ذهبوا يختصون بالعلوم
البحرية والميكانيكية والصناعات التي اشتهرت بها انجلترا من صناعة السفن
وصناعة الآلات البخارية مما لم يكن ليترك اثراً فعالاً في الحياة الفكرية للبلاد .

أما في ايطاليا فقد كان هنالك خمسة عشر طالباً ، وفي ألمانيا خمسة
طلاب كان أحدهم قد نقل من فرنسا ، وفي سويسرا ستة طلاب تحول اثنان
منهم الى فرنسا . من هذه الأرقام نستطيع ان نكون فكرة واضحة عن الاتجاه
التي اتبعتها إدارة اسماعيل في إرسال البعثات العلمية . فهي لم تشذ عن
الخط الذي اتبع في حقل التعليم منذ ان فتحت مصر ابوابها في العصر
الحديث على الثقافة الأوروبية وتياراتها .

المدارس في——الحكومة—— : بدأ الأوروبيون يستقرون في مصر منذ
النصف الأول من القرن التاسع عشر ليعملوا في التجارة والصناعة . وقد
كانوا يتمتعون بنظام الامتيازات المعروف ، فاخذوا يفتحون المدارس الأجنبية
في مصر ، وخاصة في فترة حكم عباس وسعيد اللذين لم يكونا مندفعين في
جعل الدولة تسهم في تطوير الحياة الثقافية في البلاد . وكانت هذه المدارس
الأجنبية توجه نحو ثقافة لا تستند الى تراث مصر وثقافتها وعقليتها . يقول

الدكتور طه حسين : " . . . وهكذا قام التعليم الاجنبي في مصر مستظلاً بالامتيازات الاجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطانها ولا ملتفت الى حاجات الشعب واغراضه ولا معنى الا بنشر ثقافة البلاد التي جاء منها والدعوة لهذه البلاد " (١) . غير ان هذه المدارس لقيت تشجيعاً من سعيد باشا ^{واسماعيل باشا} على الاخص ، فقدمت لها الاراضي لتوسع ابنيتها كما قدمت لها الهيئات المالية . وقام اسماعيل بدفع اجور اساتذة اللغة العربية في بعضها تشجيعاً لها على تعليم هذه اللغة . " وكان يطلب الى الهيئات الادارية المحلية ان تمد يد المساعدة للقائمين على المدارس الاجنبية لان هذه المدارس من الامور الخيرية التي يجب المساعدة فيها " (٢) .

واشتد نشاط هذه الرسائل الاجنبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى لعبت دوراً هاماً في الحركة الثقافية وتركت اثراً في النهضة الحديثة .

ولا يتسع المقام للتعرض لجميع ما انشأ من مدارس الرسائل الدينية والجاليات الاجنبية ، الا اننا سنشير الى الاتجاهات التربوية التي كانت هذه المدارس او بعضها ينتهجها ، مما ترك اثره في الحياة الفكرية فسي مصر :

لقد كان عصر اسماعيل عصر ازدهار المدارس الاوروبية للبنين والبنات وكانت البعثات الكاثوليكية انشط الاوروبيين في فتح المدارس والاتصال بالاهالي ، فكان لها مدارس عدة متفرقة اهمها مدارس اخوات الراعي الصالح والفرنسيسكان

(١) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، (مطبعة المعارف ومكبتها ، القاهرة ،

١٩٣٨) ، ص ٧٢ .

(٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٨٢٦ .

والفريز واليسوميين ومدرسة العازاريين في الاسكندرية والمدارس الكاثوليكية في الصعيد .

وكانت المدارس الكاثوليكية فرنسية الاتجاه . ومن المعروف ان فرنسا ادخلت ثقافتها واثرها الثقافي في حياة المصريين وغير المصريين من وجهت اليهم بعثاتها عن طريق الارشاليات الكاثوليكية .

يقول لورد كرومر انه في الفترة التي سبقت الاحتلال البريطاني لمصر بنصف قرن كانت الحكومة البريطانية تهمل اهمالا تاما امور التربية في مصر وادخال الثقافة الانجليزية اليها ، في حين ان فرنسا لم تأل جهدا في نشر الثقافة الفرنسية في مصر وقد كان الابطاء الكاثوليكون هم المنفذون الرئيسيون لهذه الاهداف (١) .

فهمت فرنسا منذ البدء ان الاثر الاقوى هو الاثر الذي يستطيع ان يدخل الى عقول الشعوب وثقافتهم وتوجيههم المعقلي ولذلك ركزت اهتمامها على التعليم والتربية والتوجيه الثقافي بواسطة الارشاليات الدينية حتى نالت قصب السباق منذ بداية الصراع . ولم يستطع احد ان ينازعها عليه بعد ذلك بالرغم من المحاولات الكثيرة والمحاربة العنيفة التي واجهت الثقافة الفرنسية فـ في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر ، وخاصة في مصر .

ومن اهم المدارس الكاثوليكية التي لعبت دورها المطلوب مدرسة الفريز في القاهرة التي كان لها اثر قوى في نشر النفوذ الفرنسي في القاهرة ومدرسة العازاريين في الاسكندرية التي وضعت اساس النفوذ الثقافي الفرنسي في هذا الميناء المصري .

(١) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٢٣٦ .

ولم تقتصر مدارس الجاليات الأجنبية على البعثات الكاثوليكية والانـ
الفرنسي فقد كان هنالك عدد من البعثات الاجنبية الاخرى الا ان اثرها كان
محدودا ومحصورا بالنسبة للبعثات الكاثوليكية القوية والموزعة في مناطق مختلفة .
واهم من ذلك كله ان الحكومة الفرنسية كانت تدعمها وتمدها بالعون والايـد .
اضف الى ذلك ان الجو العلمي الذي كان يسيطر على مصر بتوجيه من الادارة
الحكومية قلب عليه التيار الفرنسي بسبب استمرار الاعتماد على فرنسا وبسبب
رجال بعثات محمد علي الذين لعبوا دورا اساسيا في النهضة العلمية
في عصر اسماعيل . لذلك فان البعثات غير الكاثوليكية كمدارس الارساليات
الانجليزية والارساليات البروتستانتية بقي اثرها محصورا بالنسبة لاثـر المـدارس
الكاثوليكية والاتجاه الفرنسي الذي كانت تتبعه . الا ان هذه البعثات ، غير
الكاثوليكية ، كانت اول حجر في بناء التعليم الانجليزي في مصر مع ان الاقبال
عليها بقي محدودا حتى اصبحت اللغة الانجليزية هي اللغة المفضلة في
عصر الاحتلال البريطاني . اضف الى ذلك ان مدارس الجاليات غير الاسلامية
والاجنبية في مصر كالجالية القبطية واليهودية واليونانية والايطالية انشأت مدارس
خاصة لها كانت تعلم فيها ابناءها ثقافتهم ولختهم ، بالاضافة الى العربية ولغة
اجنبية اخرى أو أكثر . يقول عزت عبد الكريم : " بالاضافة الى مـدارس
الارساليات قامت في مصر مدارس لتعليم ابناء الجاليات الاجنبية القيمة في
مصر . نحت هذه المدارس منحى قوميا فاهتمت كل منها بـلغتها وتاريخها . .
ولكن اكثرها ثابـت تعلم الفرنسية الى جانب الثقافة القومية ، لأن هذه اللغة حلت
في التجارة في بلاد الشرق محل اللغة الايطالية كما انها كانت لغـة
الدبلوماسية الأوروبية " (١) . فمدارس الطوائف اليهودية كانت تعلم ، بالاضافة

(١) عزت عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ .

الى العربية والعبرية ، الايطالية والفرنسية ومدارس الاقباط كانت تدرس ، بالإضافة الى العربية والقبطية ، الانجليزية والفرنسية باستثناء مدرسة الاقباط في حارة السفاين التي أنشأها بطريرك الاقباط فقد درست القبطية والانجليزية فقط . يقول عزت عبد الكريم : " ولهذا عين كثير من خريجي هاتين المدرستين (أى مدرسة الاقباط في الازكية ومدرسة حارة السفاين) في وظائف السكة الحديدية واعمال التلفزيون وكانوا يؤدون أعمالهم باللغة الانجليزية " (١) .

اما مدارس الجالية اليونانية فقد نصت لوائحها على ضرورة تدريس اليونانية والعربية والفرنسية لجميع التلاميذ ، وكذلك المدارس الايطالية كانت تدرس فسي بعض فصولها الايطالية والفرنسية وفي بعض الفصول الانجليزية والايطالية والفرنسية ، أى ان الفرنسية والايطالية كانتا تدرسان لجميع الفصول .

وكان هنالك أيضا المدارس الحرة المجانية العامة التي كانت فيها اللغة العربية في المرتبة الاولى وتليها الفرنسية والايطالية .

وفي عام ١٨٧٣ انشأ احد الاجانب ، واسمه دوفان (Dauphin) مدرسة من نوع المدارس الحرة المجانية العامة ، فشجعه اسماعيل وتوفيق وساعدته الحكومة ، وقد كانت هذه المدرسة تعنى عناية خاصة باللغة الفرنسية وكان تلاميذ الفصل الثالث يدرسون اللغتين الايطالية والانجليزية ثلاث مرات بالاسبوع .

كل هذا يشير الى ان اللغة الفرنسية في المدارس الخاصة كانت تتمتع بالمرتبة الاولى .

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٨٣٥ .

ولو حاولنا تقييم أثر هذه المدارس في الثقافة المصرية لوجدنا ان الكتاب ودارسي تاريخ التعليم في هذه الفترة من تاريخ مصر يختلفون في عمق أنسرها هذه الظاهرة . يقول الياس الايوبي معلقا على اعمال المدارس الاوروبية : " ان الانصاف يقضي علينا بأن نعترف مع المستر ماك كوين (١) بأنها عملت عملا محمودا على تقدم العلم في البلاد بين طبقات الامة ، وانها وضعت نصب عينيها التعليم الجيد أولا ثم السعي الى نشر الدين فكان هذا سر نجاحها ، وتوافد الطلبة عليها من كل ملّة وكل جنس ، ونضيف الى ذلك انها هيأت ابناء كبار المصريين للاختلاط بالغربيين وساعدت على انتشار اللغة الاجنبية وتكوين فئة من المترجمين في زمن كانت فيه البلاد بحاجة ماسّة اليهم بسبب تعدد الجاليات الاوروبية وسعة نفوذها " (٢) . غير ان عهد عبد الكريم لا يوافق الايوبي على رأيه تماما ، فهو يرى انه في اوائل عهد الارساليات كانت " الدعوة الدينية التي لازمت النشاط التعليمي للارساليات الدينية أهم عامل في حرمان البلاد ثمار هذا النشاط حتى اذا مضى وقت - عهدنا به قريب - وبدأ يزول عن نشاط الارساليات التعليمي القصد الديني ، كله أو بعضه ، بدأ كثير من المصريين يرسلون الى هذه المدارس ابناءهم ويناهضهم يتلقون فيها اللغات الاوروبية ويحذقون اماليب السلوك الاوروبي ويتصلون بثقافة اجنبية لا تكاد تأخذ من تقاليد البلاد ودينها ادنى نصيب " (٣) .

(١) الاشارة هنا الى ما ذكره ماك كوين (Mac Coan) في كتابه مصر في عهد اسماعيل (Egypt Under Ismail) حول الارساليات ودورها التعليمي في عهد اسماعيل .

(٢) تاجر ، حركة الترجمة ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ .

ويشير الفرد ملنر الى انه بين تلاميذ المدارس الاوروبية كانت الاكثرية من ابناء المسيحيين السوريين المستوطنين في مصر وهم ينتمون غالبا الى الكنييسة الكاثوليكية ، أو من الاقباط ، اما المسلمون فلم يكن لهم سوى مدارس الحكومة التي كانت سمعتها سيئة حتى وقت قريب وكانوا يترددون في ارسال أولادهم الى المدارس الاوروبية (١) .

ويضيف ملنر في مكان آخر من كتابه انه بين المصريين الموجودين في المدارس الاوروبية في مصر كانت نسبة المسلمين قليلة ، وذلك لأن المدارس الاوروبية هي مدارس مسيحية وقد انشئ عدد كبير منها للتبشير . وأهم هذه المدارس كانت كاثوليكية فرنسية ولكن منذ سنة ١٨٦٠ بدأت البعثات الأمريكية تفتح مدارس كبيرة ومهمة في سبيل الدعوة البروتستانتية . أما بريطانيا ، " وعلينا ان نعترف " - كما يقول - فقد قدمت القليل لمصر من ناحية المدارس الخاصة (٢) .

هذه المعلومات عن المدارس الاوروبية الخاصة تظهر ان أثر هذه المدارس بقي محصورا ، الا ان ذلك ينطبق على الفترة الاولى من عهد المدارس الاجنبية في مصر . وقد أوردنا ما ذكره عزت عبد الكريم من انه بعد مضي فترة من الزمن بدأ القصد الديني الصرف يتلاشى من نشاط الارشاليات التعليمي . وأورد ملنر ملاحظة بهذا المعنى عندما وصف النهضة الثقافية في مصر خلال عصر اسماعيل ، فقال انه بالاضافة الى زوال التعصب الديني ضد التعليم الاوروبي كان المصريون قد بدأوا يختلطون بالاوروبيين الذين أخذوا يتوافدون على مصر .

(١) ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ .

وجد المصريون ان الأوروبيين يتفوقون عليهم في الاعمال المختلفة لتفوقهم عليهم بالعلم . ولكنهم عندما بدأوا يعون هذه الحقيقة لم يتوجهوا نحو المدارس الحكومية بل عمد اغنيائهم الى ارسال ابنائهم الى اوروبا ، واستعان الباقون بالمدارس الأوروبية الجديدة التي كانت قد انشئت في مصر . ويضيف ملنر انه في عام ١٨٢٠ كان عدد الطلاب في المدارس الأوروبية ٨٩٦١ ، بينهم ألفان فقط من المصريين ، بينما ارتفع العدد عام ١٨٨٢ الى ٢٢٧٦٤ طالبا بينهم ١٥١٣٢ من المصريين (١) . ويشير هيورث - دن الى هذه الظاهرة نفسها فيقول ان الاحصاءات المتعلقة بالمدارس وعدد التلاميذ تشير الى انه في سنة ١٨٢٨ زاد عدد تلاميذ المدارس الأوروبية ومدارس الجاليات بنسبة اربعين بالمئة ، بينما قلّ عدد تلامذة مدارس الوقف بنسبة ١١٪* ، فقد زاد الاقباط بنسبة ١٤٨٪* واليهود بنسبة ١٢١٪* وزاد عدد المسلمين في هذه المدارس بنسبة ١١١٪* (٢) . اما عزت عبد الكريم فيشير الى ان نسبة الطلاب المصريين في المدارس الاجنبية سنة ١٨٢٨ بلغت ٥٢٪* (٣) .

نستج من هذه الاحصاءات ان المصريين ، وان كانوا لم يقبلوا على المدارس الأوروبية في أول عهدها خوفا من التبشير الديني ، فان هـذا التخوف قد زال بعد ان ركزت المدارس اقدامها وظهر للمصريين مدى تفوق العلوم الأوروبية .

لذلك فان هذه المدارس قد لعبت دورا اساسيا في توجيه قادة الفكر

(١) ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٣٦٨ .

(٢) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٤٢٣ .

(٣) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٨٣١ .

والثقافة المصرية ، يساعدها في ذلك اتجاه الحكومة العام نحو الاستفادة من العلم الأوروبية وإرسال طلابها في بعثات تخصصية أو استفاد الأساتذة الأوروبيين واقتباس نظم التعليم الفرنسية . ويبدو أن الاندفاع نحو فرنسا بلغ حدا بعيدا من التطرف جعل يعقوب ارتين باشا ، وهو أحد وكلاء ديوان المدارس في أوائل عصر توفيق ومن الذين كان لهم أثر كبير في الحركة التعليمية ، ينتقد ذلك بقوله : " لقد اكتفى بنقل برامج مدارس فرنسا دون أن يهتم بتعديلها وفق متطلبات البلاد ومتطلبات ثقافتنا " (١) .

(١) يعقوب ارتين ، ملاحظات حول التعليم العام في مصر ، ص ١١٦ .

Yacoub Artin Pasha, Considerations sur l'Instruction Publique en Egypte, (Le Caire, 1894), p. 116 .

الفصل الثاني

الثقافة الانجليزية في مصر

الأثر الانجليزي قبل الاحتلال :

كان الفرنسيون سباقين الى التأثير في مصر وقد عرفوا اختيار الاسلوب الأبعد أثرا فلجأوا الى حقل التعليم والفكر ، حتى اتفق الباحثون في ان أثرهم كان أعمق من أثر أى دولة اوروبية اخرى ، وانهم استطاعوا التغلغل الى حياة مصر الثقافية قبل ان تتعرف الى غيرهم من الدول ، فنالوا بذلك أفضلية افادتهم في الصراع الثقافي الذى واجههم فيما بعد .

ولكن الفرنسيين ، كما رأينا ، لم يكونوا الوحيدين في الميدان دائما ، وان كانوا الاقوى بلا منازع ، فقد كان الانجليز منذ القدم يهتمون بمصر لكونها طريقهم الرئيسي الى أغنى مستعمراتهم ، الهند . ويبدو ان الانجليز كانوا مطمئنين لسلامة هذه المحطة وضمانها ما دامت في أيدي العثمانيين الذين كانت امبراطوريتهم قد بدأت تضعف كما بدأت سطوتهم تتهار في أواخر القرن الثامن عشر .

وفي هذا الوقت قام نابليون بونابارت بحملته على مصر وفتحها . فخشيت بريطانيا على طريقها الرئيسي الى الهند وبدأت تقاوم الفرنسيين بالاشتراك مع تركيا . والواقع ان الانجليز شعروا بخطر الحملة الفرنسية على مصر قبل ان تصل اليها . ومعروف كيف سبق الاسطول الانجليزي بقيادة نيلسون بسواج الحملة في الوصول الى ميناء الاسكندرية ، محاولا مواجهة فرنسا عندما تصل

الى الميناء المصرى ، وكيف تحول عنها عندما لم يعثر على الفرنسيين الذين وصلوا بعد يومين فقط من سفر الاسطول البريطاني .

ولم يكن ذلك آخر عهد الحملة الفرنسية بالمقاومة البريطانية ، فقد اضطرت الى مغادرة مصر بعد ثلاث سنوات ، وكان بين الاسباب التي حملتها على ذلك ضغط بريطانيا على تركيا لاعلان الحرب على فرنسا واخراجها من مصر ، ومعركة أبي قير البحرية التي هاجم فيها الاسطول البريطاني ، بقيادة نلسون أيضا ، الاسطول الفرنسي فدمره وقطع سبيل الاتصال بين الحملة الفرنسية والوطن الام . وقد اضطرت الحملة الفرنسية في النهاية الى الانسحاب على بواخر بريطانيا وبشروط وضعت بريطانيا أكثرها . ويبدو ان بريطانيا حاولت البقاء في مصر بعد انتصارها على فرنسا ، الا ان ضغط اوروبا خاصة بعد توقيع معاهدة اميان أجبرها على الانسحاب .

ولم ينته طموح بريطانيا في السيطرة على مصر عند هذا الحد . فقد وجدت ان الامبراطورية العثمانية لم تعد قادرة على حماية طريقها الرئيسي الى الهند ، ووجدت ان مطامع فرنسا في مصر قد بدأت تتجسم منذ الحملة الفرنسية ، فحاولت اعادة الكرة على مصر ايام محمد علي ووجهت حملة الجنرال فرينر عام ١٨٠٧ ، ولكن هذه الحملة أخفقت أيضا ، وانسحب البريطانيون بعد معاهدة ١٤ أيلول من ذلك العام ، التي قضت بوجوب انسحابهم خلال عشرة أيام على ان يعاد اليهم أسراهم .

ويبدو ان الانجليز اساءوا اختيار اسلوب السيطرة على مصر فقد نفر منهم محمد علي ، واتجه نحو فرنسا التي مرضت عليه المساعدات في نهضته العلمية العملية العتيدة . وعرفت فرنسا ان طريق التوجيه العقلي والسيطرة على التيار

الفكرى هي أسلم الطرق للنفوذ الفرنسي في مصر وأبعدها أنرا . وهكذا اندفعت تساعد محمد علي في نهضته العلمية سواء بواسطة الأفراد أو الجماعات أو الدولة وكان لها أول غرس في عقلية الشعب المصرى في نهضته الحديثة .

ويبدو أيضا ان بريطانيا لم تقتنع بأن أسلوب الفتح العسكرى هو اسوأ الأساليب في ارساء النفوذ وتشبيته على أسس متينة ، فقد بقي موقفها من مصر موقف المترص ، حتى منحت لها الفرصة عام ١٨٨٢ فاحتلت مصر عسكريا وبقيت تحكمها حكما مباشرا حتى معاهدة عام ١٩٣٦ .

ولما احتكت بريطانيا بالحياة المصرية من كتب وتعرفت الى عقليتها واتجاهاتها الفكرية عرفت معنى الاثر الفكرى الثقافى ، على ما يظهر ، فاتجهت نحو ازالة الاثر الفرنسى الذى كان قد ثبت جذوره في مصر منذ قرابة قسرن من الزمن .

ولكن هذا لا يعني ان اتصال بريطانيا الثقافى بمصر لم يحدث - ولو على نطاق ضيق جدا - الا بعد احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ ، وان البذور الاولى للثقافة البريطانية لم تزرع قبل ذلك الوقت ، فقد رأينا كيف استعان بها محمد علي احيانا بالرغم من اتكاله الرئيسى على فرنسا كما رأينا البعثات - على قلتها - ترسل الى انجلترا في عصر محمد علي وعصور خلفائه أيضا .

في عصر محمد علي يتضح لنا اتجاه المسؤولين نحو انجلترا في حقل البحرية والميكانيكا خاصة . ففي عام ١٨١٨ أرسل بعض التلامذة الى انجلترا لتعلم الميكانيكا وبناء السفن ، وفي عام ١٨٤٧ أرسلت بعثة الى انجلترا أيضا لتعلم الميكانيكا أيضا . وكان محمد علي في مدارس بمصر يعلم الانجليزية

لطلابه الذين يعدون للخدمة في الاسطول ، في حين كان يعلم الذين يعدون للخدمة في الجيش الفرنسية أو الإيطالية . وأرسلت الى انجلترا أيضا بعثتان في عام ١٨٣٢ : واحدة لتعلم العمل في مناجم الفحم واخرى لتعلم حياكة الحرير . وكذلك استعان محمد علي بانجلترا في حقل الصناعة فاستقدم عددا من الخبراء في هذا الحقل ليشرفوا على الحركة الصناعية في مصر ، كما استقدم من انجلترا الآلات الحسابية والفلكية وآلات المراقبة .

ولكن هذه المجالات كلها التي استعان فيها محمد علي بانجلترا لم تكن من النوع الذى يؤثر في نفسية الشعب وعقليته ، ولم تنط ، في أكثر الاحيان ، مجال الاتقان المهني لحقل من حقول الفن أو الصناعة . غير ان وجود بريطانيا هذا في عصر النهضة المصرية الاولى لم يتوقف عند هذا الحد ، فقد درست الانجليزية فترة من الزمن في مدرسة الألسن التي كانت تشكل احدى الدعائم الرئيسية للنهضة في مجال أعمق أثرا من مجال الصناعة والميكانيكا البحت ، الا ان تدريس الانجليزية في هذه المدرسة لم يطل ، وكانت العناية موجهة الى اللغتين العربية والفرنسية . وتجدر الاشارة هنا الى انه بين المحاولات التي قامت لوضع القواميس ، محاولة المستشرق البريطاني لين (Lane) الذى وضع قاموسا مع الشيخ الازهرى ابراهيم عبد الغفار الدسوقي وطبع في لندن عام ١٨٦٣ .

اما في حقل التعليم الخاص والبعثات الدينية فقد كان في مصر البعثات الفرنسية الكاثوليكية التي تحتل المرتبة الاولى ، ثم مدارس الارشاليات الانجليزية ، وبعد ذلك مدارس الجاليات المحلية المختلفة .

ويبدو ان الارشاليات الانجليزية اعتبرت صفوف المسلمين لا تخترق ، كما

يقول هيورث - دن (١) فكرت اهتمامها على الاقباط فقط ، لذلك بقي أثرها محدودا اذا قيس بأثر الارساليات الكاثوليكية التي كانت أقدم عهدا وأوسع انتشارا .

ومن أهم الارساليات جمعية التبشير الكسبية ولكنها ، على ما يذكر - هيورث - دن (٢) ، توقفت عن العمل منذ عام ١٨٤٨ ولم تستأنف نشاطها الا بعد الاحتلال ، وقد احتلت مكانها الارسالية البرسبيتيرية الامريكية عام ١٨٥٤ وراحت تتقدم في عملها .

وهكذا فان الوجود الثقافي البريطاني في عصر محمد علي كان ضعيفا جدا قليل التأثير على الصعيدين الحكومي والخاص الا انه لم يكن غائبا تماما .

ثم جاء عهد عباس الاول فكان عهد فتور فكري وعلمي وهدمت النهضة التي دفع عجلتها محمد علي . لذلك فان أى تأثير فكري مهما يكن نوعه كان محدودا وآتيا . وقد رأينا ما أصاب حركة التعليم من جمود في هذا العصر ، الا انه لا بد لنا من أن نشير الى ان عباسا مال نحو الانجليز مبتعدا عن فرنسا التي اتكأ عليها محمد علي في نهضته . ونذكر ان عباسا كان صديقا للقنصل البريطاني وان مشروع السكك الحديدية اعطي امتيازه للانجليز فسي ذلك العصر تحت تأثير هذه الصداقة .

وفي عصر عباس أقيـل مدير مدرسة العمليات المصرية وتسلم ادارتها مدير انجليزى . اما البعثات العلمية فقد توقف ارسال أكثرها الى فرنسا وأراد عباس

(١) هيورث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٢٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧٩ .

ان يرسل البعثات الى بلدان اوروبا حسب اختصاصها . وفي هذا العصر أيضا وصل المرسلون البرسبتيريون الامريكيون الى مصر وفتحوا أول مدرسة لهم لتعليم البنين . ولكن أثر الانجليز لا يبرز لنا في المجال الثقافي والفكرى للأسباب التي ذكرناها قبلا .

ولما جاء عصر سعيد عاد الاتجاه نحو فرنسا ، خاصة وان سعيدا كان من المعجبين بالثقافة الفرنسية . ولكننا رأينا ان النشاط التعليمي الحكومي بقي محصورا بالنسبة لما كان عليه في عصر النهضة الاول ، وبالنسبة لما أتى بعده خلال عصر اسماعيل . وأهم ما يلفت نظرنا في هذا العصر هو نشاط المدارس الأوروبية التي استغلت أهمال الحكومة للتعليم الرسمي ، فنشرت مدارسها وركزت أقدامها . وكانت هذه المدارس تنبثق عن بعثات من جميع الفئات الفرنسية والاسكتلندية والانجليزية والامريكية ، بالإضافة الى مدارس الجاليات المحلية كال يونانية والايطالية والقبطية . فمدارس البعثات التي تمثل الثقافة الانجليزية ثبتت أقدامها في عصر سعيد ونشرت مدارسها - وان ظل أثر المدارس الفرنسية يتفوق عليها . وبذلك كانت هذه المدارس استمرارا للوجود التعليمي الانجليزي في مصر في عهد محمد علي ، وان بقي هذا الوجود ضعيفا في هذا العصر أيضا .

وبانقضاء عصر سعيد نأتي الى العصر الذهبي الثاني للنهضة المصرية الحديثة وهو عصر اسماعيل .

في هذا العصر رأينا اعتماد اسماعيل على فرنسا في دفع عجلة الحركة التعليمية والثقافية التي كادت تتوقف طوال عصرى عباس وسعيد ، ولكن اسماعيل ، كجده محمد علي ، لم ينصرف الى فرنسا انصرافا كليا ، فقد اعتمد على غيرها من البلدان الأوروبية عندما وجد ذلك مناسبا . وكانت بريطانيا بين هذه

البلدان التي مدت له يد المساعدة احيانا .

وفي الادارة التعليمية يطالعنا اسم مستر روجرز ، وقد كان لوقت ما قنصلا لانجلترا في مصر ، وكيلا لديوان المدارس منذ عام ١٨٧٠ حتى حوالي عام ١٨٧٥ . وقد كان هذا المنصب من أشد المناصب خطورة بالنسبة للحركة التعليمية والتوجيه الثقافي ، كما اننا نرى اسم المستر روجرز بين اعضاء مجلس المعارف الاعلى الذى شكل عام ١٨٨١ أى قبيل الاحتلال بسنة واحدة .

وفي مناهج المدارس الحكومية في عصر اسماعيل نلاحظ وجودا للفــــة الانجليزية ، وان كان لا يوازي وجود اللغة الفرنسية التي كانت تهيمن على الاتجاهات الثقافية ، ففي المدارس العالية مثلا نجد ان التلميذ كان يحق له الاختيار بين الانجليزية والفرنسية (١) ، وفي مدرسة البحرية عين رمان انجليزي ناظرا كما عين وكيله ممن يعرفون الانجليزية ، وتقرر ان " يصرف النظر من تعيين استاذين للغة الفرنسية ، ان يكفي التلاميذ الانجليزية " (٢) . وفي مدرسة العمليات في عام ١٨٧٤ كانت الدراسة موزعة على خمس فرق تدرس مواد وصف الآلات والقراءة والترجمة والجغرافية والتاريخ والقواعد والحفظ باللغة الانجليزية في كل من الفرقة الاولى والثانية والرابعة والخامسة . ولم يكن هناك فرقة ثالثة . اما الفرنسية فلا ذكر لها الا في الفرقة الخامسة (٣) ، وهنا يتضح لنا منحى اسماعيل في الافادة من كل دولة حسب اختصاصها متبعا بذلك خطة محمد علي .

(١) هيرث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٣٥٤ .

(٢) تاجر ، حركة الترجمة ، ص ٩٠ .

(٣) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

وفي مدرسة الألسن التي أنشئت سنة ١٨٢٨ لتخريج المترجمين ومدرسي اللغات الأجنبية خاصة ، كان الطلبة موزعين على ثلاثة فصول : فصل للفرنسية وفصل للانجليزية وثالث للالمانية (١) . ومع ان طلاب الفصل الفرنسي كانوا أكثر عددا من طلاب الفصل الانجليزي فان وجود الانجليزية في المدرسة كان واضحا .

أما في مجال التعليم التجهيزي فيذكر عزت عبد الكريم ان هنالك وثائق تشير الى انه قبل وضع المناهج عام ١٨٢٤ كانت دراسة التاريخ والجغرافيا باحدى اللغتين الفرنسية أو الانجليزية حسب اتجاه الطالب في دراسته (٢) ، وكذلك يورد لائحة باللغات التي كانت تعلم في المدرسة التجهيزية وعدد الاساتذة المخصصين لتعليمها ، يستفاد منها انه كان للفرنسية ثلاثة معلمين عام ١٨٢٥ وكذلك عام ١٨٨٠ وكان للانجليزية معلمان عام ١٨٢٥ وكذلك عام ١٨٨٠ ، فاللغة الانجليزية لم تكن اذا غائبة عن التعليم التجهيزي أيضا في عصر اسماعيل .

واذا انتقلنا الى مجال التعليم الابتدائي وجدنا ان تدريس اللغة الانجليزية كان قليلا جدا وليس له وجود في كثير من المدارس أو الفصول ، الا انه ليس غائبا تماما عن مسرح التعليم الابتدائي . ففي البيان الذي يوضح عدد مدرسي مدرسة المبتديان والذي أورده عزت عبد الكريم (٣) نتبين انه في عام ١٨٢١ - ١٨٢٢ كان هنالك مدرس واحد للانجليزية مقابل اربعة مدرسين للفرنسية . وفي سنة ١٨٨٠ زاد عدد مدرسي الانجليزية الى اثنين في حين زاد عدد مدرسي الفرنسية الى ثمانية .

(١) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٥٦٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٢٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

وكان تلامذة المدرسة الابتدائية بالقاهرة موزعين على ستة فصول ، يدرسون الفرنسية في ثلاثة منها والانجليزية في فصلين .

اما في الاسكندرية فقد بدأت المدرسة الابتدائية بتدريس الانجليزية منذ الشهور الاولى لافتتاحها . وابتداءً من عام ١٨٧٣ سمح للطلاب بالاختيار بين الانجليزية والفرنسية والالمانية .

واذا انتقلنا الى سياسة الحكومة في ارسال البعثات العلمية وجدنا انها لم تنصرف الى دولة واحدة فقط ، بل افادت من تجربة محمد علي وأرسلت بعثاتها وفقا للاختصاص الى الدول التي عرفت بتقدمها في فن من فنون المعرفة . وقد اختص طلاب البعثات العلمية التي أرسلت الى انجلترا بدراسة العلوم البحرية والميكانيكية . وقد كان هناك بعثة لبناء السفن وصناعة الآلات التجارية أرسلت عام ١٨٦٨ وبعثة من اركان حرب عام ١٨٧٠ ، كما أرسل ثلاثة طلاب لتعلم الميكانيكا في الادوات الزراعية وهندسة التلغراف وصناعة الرخام . وقد بلغ عدد الذين أرسلوا الى انجلترا في عصر اسماعيل اربعة عشر طالبا من أصل مئة وخمسة وتسعين طالبا شكلوا مجموع أعضاء البعثات العلمية الى أوروبا .

بقي علينا ان نشير الى المدارس غير الحكومية ومدارس الارشاليات الاجنبية في عصر اسماعيل . ونذكر هنا ما يشير اليه هيوث - دن (١) وعزت عبد الكريم (٢) من ان مدارس الارشاليات الامريكية تقدمت ايام اسماعيل بشكل ملموس وافتتحت مدارس الارشاليات الانجيلية والاسكتلندية مدرستين في الاسكندرية ، واحدة

(١) هيوث - دن ، مقدمة لتاريخ التربية ، ص ٤١٢ .

(٢) عبد الكريم ، التعليم من نهاية حكم محمد علي ، ج ٢ ، ص ٨٤٩ .

للبنات واخرى للبنين . وكذلك افتتحت الارسالية الانجليزية مدرسة بدمياط عام ١٨٧٨ كما قامت مس وايتلي (Whately) بافتتاح مدرسة تبشيرية للبنات في القاهرة وعملت فيها ثلاثين عاما .

كل هذا يظهر وجود الثقافة الانجليزية في مصر في حقل التعليم أو التبشير الا ان هذا الوجود بقي هزيعا قليل الاثر ، ان لم نقل عديمه ، في التوجيه الثقافي . وبقي الاثر الفرنسي مسيطرا على الاتجاه الثقافي والمنحى التعليمي والحياة الفكرية حتى ما بعد الاحتلال البريطاني لمصر عندما وعى الانجليز قيمة التأثير الثقافي والفكرى ، فأخذوا يحاربون الثقافة الفرنسية ، التي كانت قد مكنت جذورها ، بعنف وضراوة . وقد واجهت البريطانيين صعوبات كثيرة لأن التأثير الفرنسي واجههم في كل مكان ، وكان عليهم ان يقتلعوا التأثير العقلي والنفسي من عقول المصريين وهي مهمة أصعب بكثير من الاحتلال العسكرى . واذا كان الفرنسيون قد وجدوا في حياة مصر العقلية مجالا بكرا لنشر الثقافة الفرنسية فان الانجليز قد واجهوا شعبا اعتاد منذ ان فتح عينيه على الثقافة الحديثة ان يتوجه نحو فرنسا ويأخذ عنها ويفيد منها . وعندما قال اسماعيل " ان بلادى أصبحت قطعة من أوروبا " ، كان يعني صلتها الوثيقة بفرنسا قبل غيرها عقليا ونفسيا وماديا . وعندما قال لورد كرومر ان الفرنسيين نالوا أسبقية لم يكونوا ليخسروا أثرها الايجابى بعد ذلك ، فانما كان يشير الى الصعوبات التي واجهته وزملاءه في تحقيق هدفى بريطانيا ، ومحو أثر الثقافة الفرنسية من عقول المصريين .

السياسة التعليمية في بداية الاحتلال واصطدامها بالاتجاه الفرنسي :

لم يأت عصر الاحتلال بعد عصر من الركود الثقافي والجمود الفكرى كما جاء قبله عصرا النهضة الاولان ، بل تميز عصر الاحتلال عن العصرين السابقين بأنه واجه حركة ثقافية بلغت أوجها في عصر اسماعيل وأعطت ثمارها وحددت اتجاهها . ولعل هذا التحديد للاتجاه هو مشكلة عصر الاحتلال بعد ان كان خلق النهضة أو احيائها وتوجيهها هو مشكلة العصرين السابقين .

فقد واجه البريطانيون عندما جاءوا يحكمون مصر مباشرة اتجاهها ثقافيا بعيدا عن ثقافتهم وعقلية غريبة عن عقليتهم . ولم تكن مصر في ذلك العصر الارض البكر لزراع الاتجاهات الثقافية كما كانت في اوائل القرن ، بل لقد اتجهت في أكثرها اتجاهها معينا هو الاتجاه اللاتيني . وبقي هذا الاتجاه دون منازع حتى تمكنت بريطانيا من تثبيت نفسها في مصر وانصرفت الى حقل التعليم لتواجه هذا التيار الذى كان واحدا من الاسباب التي باعدت بين المصرى والاحتلال .

يقول لورد كرومر ان العلاقات بين بريطانيا وفرنسا قد توترت بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، وبقي موقف فرنسا معاديا لانجلترا الى ان عقد الاتفاق الودى الفرنسي الانجليزى عام ١٩٠٤ (١) .

وحاول الانجليز ان يحاربوا الاتجاه الفرنسى في مصر في جميع مجالاته وعلى جميع المستويات ، سواء في الوظائف الحكومية أو في مناهج التعليم أو على الصعيد السياسى والاجتماعى ، فخلق ذلك مرارة في نفوس الفرنسيين تجلت في ما كتبه مؤرخو تلك الفترة منهم . وقد كان كتاب الانجليز من جهة

(١) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٢٦٤ .

يحقّدون على الثقافة الفرنسية لانها كانت سبّاقة ولانها تشكّل عقبة هامة في البرنامج الذي وضعوه لتطوير العقلية المصرية ، واذّا بالكتاب الفرنسيين ينقّمون على مقاومة الانجليز للثقافة الفرنسية في مصر فينبادل الفريقان التهم حيناً والتفاخر بالانجازات حيناً آخر . يقول كرومر : " ان الفرنسي ينظر الى الانجليز بشعور المخطئ " لأنّه سمح للانجليز ان يتولى وحده دور المخلص المصري . وعندما استفاق الفرنسي الى مثل هذا الشعور عبّر عن غضبه بطرق عديدة " (١) . ويقول ألفرد ملنر ان فرنسا حاولت عرقلة جميع الاصلاحات في مصر لأنّ نفوذ انجلترا كان مسيطرا (٢) .

أما لويس برهيه الفرنسي فيتهم الانجليز بعدم التفكير مطلقا بارسال بعثات من الفلاحين الشبان الى انجلترا لاكمال تعليمهم ، كما يقول انه لم يسمح لأى جندي مصري ان يتعلم في كلياتهم الحربية . وتبلغ انتقاداته لمواقف الانجليز ذروتها عندما يقول " سيبقى الانجليز غرباء عن مصر ابدا ولن يستطيعوا ان يبقوا هناك الا اذا أبقوا المصريين في حالة انحطاط ثقافي ادبي " (٣) . ولعله بذلك يشير الى ميل المصريين نحو الثقافة الفرنسية .

وأما ألبير ميطان ، وهو فرنسي أيضا ، فيحاول ان يثبت انه بالرغم من مقاومة بريطانيا للثقافة الفرنسية فان سيطرة هذه الثقافة لا تزال واضحة . وشاهده على ذلك انه عندما مرّ بمصر كان الانجليز يعملون منذ وقت طويل على ازاحة منافسيهم الفرنسيين وغيرهم من الاوروبيين عن الوظائف العامة المهمة . ولكن الفرنسيين كانوا لا يزالون يحتفظون بمناصب هامة وكان التعليم

(١) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٥٥٦ .

(٢) ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٤٢١ .

(٣) برهيه ، مصر من ١٢٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٢٧٢ .

الرسمي تحت ادارتهم ، كما ان الانجليزية لم تكن تستعمل خارج منطقــــة
البريطانيين . وكان كبار الموظفين من المصريين يتكلمون الفرنسية بالاضافة الى
ان جميع الصحف الاوروبية الكبرى كانت تصدر باللغة الفرنسية . ويضيف ميتان
" لقد انتهت هذه الحال التي بقيت وقتا طويلا مقبولة بأن أصبحت غير مرضية
للانجليز " (١) . ويقول ميتان في موضع آخر وكأنه يلوم بلاده " ان السياسة
الانجليزية تجاهنا غير منصفة ولكنها تستوحي المنطق والحقائق ، اما سياستنا ...
فقد انتهت بأن اساءت الينا أكثر مما اساءت الى منافسينا " (٢) . هذه
الملاحظات هي جزء بسيط مما يظهر في مؤلفات مؤرخي هذه الفترة من تاريخ
مصر ويتجلى فيها الصراع بين انجلترا وفرنسا على مصر واضحا في جميع
المجالات . ولن نتعرض هنا الى هذا التنافس في المجالات السياسية والادارية
انما نكتفي بمجال التعليم وما يلحق به لأنه المجال الذي يؤثر في تطور الحياة
الفكرية والادبية . وسيتضح لنا هذا الأثر في الادب حين نتعرض له في بحثنا
هنا .

السياسة التعليمية بوجه عام :

لن نعالج في هذا المجال عدد المدارس التي أنشئت في عهد الاحتلال
البريطاني ، أو عدد المدرسين الذين استقدموا من الخارج ، لأن الاحتلال كما
ذكرنا صادف في مصر حركة تعليمية واسعة وجه اهتمامه الأكبر نحو الافادة منها
لاحلل ثقافته مكان الثقافة الفرنسية . وقبل ان نتطرق الى موضوع جهود
البريطانيين في هذا المجال لا بد لنا من ذكر بعض المظاهر العامة التي
تبرز في الحركة التعليمية أيام الاحتلال . وأول هذه المظاهر ان الاحتلال

(١) ميتان ، تحول مصر ، ص ٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠ .

البريطاني لم يصر بالحركة التعليمية شوطا بعيدا نحو التقدم ، ولم يحدث أى تطور هام بعد المدى الذى كانت قد بلغته هذه الحركة في عصر اسماعيل واولئ عصر توفيق . ويظهر ذلك لدارس هذا العصر من الانتقادات السني وجهها خصوم الاحتلال ومن التبريرات التي يقدمها مندوبوه في هذا المجال .

يقول لويس برهيه ان أكثر المؤسسات والمدارس التي أنشأها محمد علي واسماعيل زالت في عهد الاحتلال البريطاني بمصر وفي ظل النظام الانجليزى (١) . ويقول جرجي زيدان ان الحكومة بعد الاحتلال أخذت تنظم المدارس وفق خطة جديدة " أهمها فيها اقفال مدرسة الألسن واغفال البعثات الى اوروبا والغاء التعليم المجاني وجعل قاعدة التعليم باحدى اللغتين الفرنسية أو الانجليزية ، وقلت العناية بالعربية حتى ضعفت وصارت ساعات التدريس لها أقل من ساعات التدريس لسواها . وقامت قيادة الصحف على ذلك الا انها لم تلق أذنا صاغية الا منذ بضع سنوات (٢) . ويتحدث ألفرد كنغهام (Alfred Cunningham) عن التعليم في مصر فيقول ان التعليم من واجبات الدولة وانه لمن المؤسف الا يتمكن من اثارة الحكومة لتقدم أكثر مما تقدمه اليوم خاصة في وجه المطالبة الاجماعية بتوسيع التعليم (٣) .

ولا بد هنا من الإشارة الى ما ذكره كرومر من ان التعليم المجاني في المدارس الحكومية الابتدائية ألغي تماما (٤) . كما ذكر ألبير ميتان ان مجانية التعليم الثانوى ألغيت أيضا بعد الازمة المالية واضطرار مصر الى

(١) برهيه ، مصر من ١٧٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٢٧٢ .

(٢) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٣) ألفرد كنغهام ، اليوم في مصر ، ادارتها وشعبها وسياستها ، ص ٥٠ .

Alfred Cunningham, Today in Egypt - Its Administration, People and Politics, (Hurst and Blackett Limited, London, 1912), P. 50 .

(٤) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٥٤٠ ، والكلام من الوضع عام ١٩٠٨ .

الاقتصاد . ويضيف هذا الباحث بشيء من الهزء والسخرية " والادارة الانجليزية تعتقد ان تعليم المصريين ليس نفقة ضرورية " (١) . ومما يؤيد وجهة النظر هذه أيضا ان ألفر ملنر يذكر ان موازنة التعليم في عام ١٨٩٢ كانت سبعين ألف جنيه مصرى ، مع انها في السنة السابقة كانت تبلغ واحدا وتسعين ألف جنيه . وهو يرى انها لم تكن كافية لسد الحاجات (٢) . ويورد اسماعيل القباني (٣) احصاء يمكن ان يلقي ضوءا على بطء التطور في الحركة التعليمية اثناء الاحتلال ، فيقول ان نسبة الامية في مصر كانت ، عام ١٨٨٢ ، ٩١٧ بالمئة ، وأصبحت عام ١٩١٧ ٩١٣ بالمئة ، كما يقول انه في عام ١٨٨٢ كان عدد الطلاب في مصر ١٦٢٢٣٧ ولم يزد في عام ١٩٢٠ ——— ١٩٨٠٢٧ (٤) .

ويتضح تقصير الاحتلال في حق التعليم من التبريرات التي يعطيها المسؤولون عنه . فاللورد كرومر يورد بعض العقبات التي اعترضت تطور التعليم في عصر الاحتلال فيعزوها الى قلة النقد ، والى التغيير المستمر في السياسة التعليمية بسبب تغيير وزراء المعارف تسعا وعشرين مرة خلال تسع وعشرين سنة . كما يعزوها الى عدم فهم الخديوى والباشاوات أهمية التعليم والثقافة واصرارهم على تعلم العلوم بالعربية أو ان لا تعلم (٥) ، ويقول أيضا في تبريره ان التطور

(١) ميثان ، تحول مصر ، ص ١٦٣ .

(٢) ملنر ، انجلترا في مصر ، ٢٣٣ .

(٣) اسماعيل القباني ، مئة سنة من التعليم في مصر ، ص ١١ - ١٢ .
Ismail El-Kabbani, A Hundred Years of Education in Egypt, (Cairo, 1948), p. 11 - 12 .

(٤) يذكر يعقوب ارتين في ملحق كتابه ملاحظات حول التعليم ان نسبة المتعلمين من الذكور عام ١٨٨٢ بلغت ١٦٪ ، اما احصاءات وزارة التربية عام ١٩٠٧ فتشير الى ان نسبة المتعلمين هذه السنة لا تزيد عن ٨ + (دون تحديد الجنس) ، ومهما يكن الفارق في النسب بين تعليم الذكور وتعليم الجنسين معا فان نسبة التقدم تبقى دون ما يتوقع .

(٥) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٨ .

المادى أسرع من التطور الروحي والثقافي وقد جمد حكم العثمانيين المصريين ، لذلك فهم بحاجة الى بعض الوقت ليحدث عندهم التطور الثقافي (١) . كذلك يدافع الفر ملنر عن عدم اهتمام الانجليز بالتعليم فيقول ان هنالك شيئين يجب ان نتذكرهما : الاول هو ان الجوع أسوأ من الجهل ، لقد كان على الحكومة المصرية خلال ستة أو سبعة أعوام ان تحارب من أجل حياة الشعب ، والتعليم ، على ضرورته ، ليس من مهمات الحكومة الاولى ، ان عليها ان تهتم أولا بالدفاع عن الحياة والاملاك واقامة العدل أو الاهتمام بالاشغال العامة التي تعتمد عليها حياة الشعب في مصر . والشئ الثاني هو انه لم يكن مفيدا ان تزداد موازنة التعليم ما دام يسير على نظم قديمة غير مفيدة . فالخديويون السابقون كانوا ينفقون على التعليم بسخاء ولكنهم لم يعرفوا كيف يجعلون هذا الانفاق يعطي نتيجة مفيدة ، اما اليوم فلعل الوقت الذي تشعر فيه الحكومة انها تستطيع زيادة موازنة التعليم دون خوف قد جاء (٢) .

وفي هذا المجال أيضا يورد اسماعيل القباني (٣) ما ذكره لورد لويد ، المندوب السامي البريطاني بمصر من ١٩٢٥ الى ١٩٢٩ . يقول لورد لويد ، بعد ان يصف حالة التعليم ، " ليس غريبا ان نرى الدولة عاجزة بشكل بائس عن توفير حتى المطالب المشروعة التي تقدم لها . وقد كان الطلاب المستحقون يردون بأعداد كبيرة عن مدارس التخصص العالية لأن الامكانيات لتدريبهم لم تكن متوفرة ، اما التعليم الابتدائي فلم يكن ليتسع بسبب فقدان الامكانيات لتدريب المعلمين " .

(١) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٢ .

(٢) ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٣٧٢ .

(٣) القباني ، مئة سنة من التعليم ، ص ١٥ .

كذلك يعلق جورج يونج على التعليم أيام كرومر فيقول انه لا يمكن انكار ما افادته مصر في حكم بريطانيا ولكن في حقل التعليم لم تد مصر من انجلترا لا علما ولا ادبا ويجب ان نعترف ان سياسة كرومر في حقل التعليم قد أخفقت (١) .

واخيرا نورد ملاحظة السير فالنتاين شيرول (Chirrol) الذي أرسلته " اللندن تايمز " لدراسة حالة مصر بعد ثورة ١٩١٩ - وقد أوردها اسماعيل القباني ايضا - يقول شيرول : " مهما يكن المقياس الذي نقيس به النظام التعليمي الذي وضع لتنشئة الشباب المصري تحت السيطرة البريطانية ، فسنجد انه لم يتوجه ابدا نحو خلاص الدولة ، انه بدون شك اسوأ مجالات اخفاقنا ، فنحن لم نقرب من حل مشكلة التعليم الشعبي الملحة الا بأن أكثرها من عدد الكتاتيب القديمة ولقد ركزنا اهتمامنا على التعليم الثانوي وعلى كليات التعليم العالي القليلة ككلية الحقوق والطب والهندسة والتعليم التي كان أكثرها موجودا قبل الاحتلال " (٢) .

ولسنا هنا بصدد محاكمة الاحتلال وتبيان تقصيره في تطوير الحركة التعليمية . فقد يكون له مبرراته وقد لا يكون ، لكن المهم ان الظاهرة التي أوردناها كانت واضحة في الحركة التعليمية في ذلك العصر . وربما كان لها تأثيرها في بقاء الثقافة الفرنسية قائمة امام المنافسة البريطانية الشديدة وفي بقاء الأثر الفرنسي عميقا في العقل المصري المثقف حتى الى ما بعد سنوات الاحتلال الاولى ، فكان لذلك بالتالي أثر في تطور الحركة الادبية واتجاهاتها .

(١) جورج يونج ، مصر ، ص ١٦٥ .

George Young, Egypt, (London, 1924) p. 165 .

(٢) القباني ، مئة سنة من التعليم ، ص ٦٣ .

ومن المظاهر التي برزت في عصر الاحتلال ، تغير الاتجاه العام فسي السياسة التعليمية الذي كان من البدهي ان يحصل ، وقد اتخذ هذا التغير أكثر من وجه واحد من اهمال اللغة العربية من ناحية ، الى التركيز على اللغة الانجليزية من بين اللغات الاوروبية من ناحية ثانية ، الى احلال البريطانيين في المراكز المسؤولة بوزارة المعارف ، الى استخدام الاساتذة الانجليز ليسهموا في التعليم بمصر ، الى مقاومة الموظفين ذوي الثقافة الفرنسية .

يلخص ملنر نظام التعليم الحديث بأنه يهدف الى تلقي الطالب لغة اوروبية واحدة على ان يلقنه اياها جيداً وأن يعلمه الموضوعات الباقية بواسطة هذه اللغة . غير انه يبدو ان هذه اللغة الاوروبية لم يكن يقصد بها في الحقيقة سوى اللغة الانجليزية . وقد أدى هذا الاتجاه الى اهمال اللغة العربية الذي أشار اليه جرجي زيدان . يقول ملنر : " واهمية تعلم لغة اجنبية ، واضحة فاللغة العربية لا تحتوى على التعابير العلمية الحديثة ، والمصري يتعلم الانجليزية أو الفرنسية لا يتعلم اللغة فقط ولا يتعلم ان يعبر عن افكاره بطريقة جديدة فحسب ولكنه يتعلم الطرق الى دروس التاريخ والجغرافيا والعلوم التي لا يمكن ان تدرس بالعربية حالياً " (١) .

وسيتجلى لنا التركيز على اللغة الانجليزية كلغة اوروبية " واحدة " عندما نعرض لدراسة اللغات في عصر الاحتلال . غير اننا نستطيع ان نذكر هنا بعض الدلائل التي تدلنا منذ الآن ، وقبل ان ندخل في التفاصيل ، على التحول الواضح نحو الثقافة الانجليزية .

(١) ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٣٧١ .

ورد في التقرير الخامس عن التعليم المرفوع الى الخديوى عن عام ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ان قلم الترجمة المنشأ عام ١٨٨٥ حوّل الى مدرسة معلمين سميت بمدرسة المعلمين الخديوية وهي " لغرض تخريج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الانجليزية بالمدارس الابتدائية " (١) .

ويتحدث ألبير ميتان حديث شاهد عيان زار مصر بعد الاحتلال ، فيصف المدارس التي بنيت في هذا العهد ، وخاصة مدرسة البعثات في القاهرة ، ويقول ان مدرساتها من الاوروبيات لأن الوزارة لم تستطع الحصول على مدرسة واحدة من المصريات ، اذ لم يكن في مدرسة التعليم للبنات سوى ست تلميذات . ويقول " ان المدرسات الاوروبيات كن في البدء فرنسيات اما الآن فلا يجرى التعيين الا من بين الانجليزيات " (٢) . ويتحدث ميتان أيضا عن زيارته لمدرسة في اسوان وجدها تتحوّل من النظام الفرنسي الى الانجليزى . فوجد جميع الخرائط الفرنسية مودعة في غرفة الرئيس ولا تستعمل ، وبعد نهاية الزيارة تحدث الى الرئيس الذى كان يتكلم الفرنسية ، ثم نسيها عندما أرسلته الحكومة الى انجلترا ليتدرب قبل تسلم منصبه ، تحدث ميتان الى هذا الرئيس في شؤون التاريخ فدهش " عندما علم بأن الطلاب يعرفون تاريخ انجلترا أكثر مما يعرفون تاريخ مصر " (٣) .

ويمكن الإشارة هنا الى ما ذكره كنفخام عن معلمي المدارس بعد ان وصف حالة التعليم في مصر . يقول كنفخام : " ان هذا الوصف لحالة التعليم في مصر يبقى ناقصا اذا لم نشر الى الهيئة التعليمية . فالاساتذة

(١) سامي ، التعليم في مصر ، ص ٦٦ .

(٢) ميتان ، تحول مصر ، ص ١٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٦٩ .

الاجانب في المدارس جميعهم من البريطانيين باستثناء قلة ضئيلة . ويصعب ايجاد هيئة تكون أكثر كفاية وأشد اخلاصا . (١) .

أما بشأن الادارة التعليمية فنستطيع ان نلاحظ التغيير الذي طرأ عليها في التقرير النهائي الذي رفعته لجنة الجامعة الى وزارة المعارف (٢) والذي نرى فيه انه في عام ١٩١٢ كانت مراكز الادارات التعليمية الهامة بأيدي الانجليز . فاذا قارنا اسماء المسؤولين في هذا العام مع زملائهم في عصور النهضة السابقة تبين لنا المنعطف الكبير الذي غير اتجاه الحركة التعليمية المصرية بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ففي عام ١٩١٢ كان المستر س. ه. ولز (Wells) مسؤولا عاما عن التعليم التقني وكان المستر بويد - كاربنتر (Boyd-Carpenter) كبير المفتشين ، وكان الدكتور كيتسج (Keating) مدير مدرسة الطب والمستر شيرر (Shearer) رئيسا لكلية الزراعة وكان المستر ادغار (Edgar) والمستر كويلستي (Quilsty) مفتشين ، وحتى مدرسة الحقوق التي كانت أصعب ما واجه الاحتلال في حملته لتغيير الاتجاه التعليمي أصبح مديرها في ذلك العام بريطانيا هو المستر ف. ب. والتون (F.B. Walton) .

ملاحظة اخيرة لا بد من ذكرها في هذا المجال لانها تلقي ضوءا جديدا على التغيير الذي استطاع الاحتلال احداثه . ففي التقرير الذي وضعه محمد سعيد عام ١٨٨٨ عن التعليم في مصر والاصلاحات التي يرى

(١) كنفهام ، اليوم في مصر ، ص ٦٨ .

(٢) وزارة المعارف ، التقرير النهائي للجنة الجامعة ، ص ١ .

ادخالها ، يقترح ان تعلم العلوم بلغة اجنبية ويبرز الاسباب الموجبة لذلك وينتهي الى القول ان اختيار اللغة الاجنبية التي يجب ان تدرس فيها العلم " لا يحمل في اعتقادي اية مناقشة ، لأن اللغة التي توفر الافادة هي اللغة الفرنسية ، أولا لانها اللغة الأكثر انتشارا في اوربا وفي حوض البحر الابيض المتوسط ، ثم لانها لغة الدبلوماسية الرسمية واخيرا لأنها أسهل تعلمًا من جميع اللغات الاوروبية : الانجليزية والالمانية وحتى الايطالية " (١) .

وفي عام ١٩٤٣ بعد ان كان الاحتلال قد ثبت اقدامه في مصر وقطع شوطا بعيدا في جهوده المركزة على الحركة التعليمية وضع نجيب الهلالي باشا وزير المعارف تقريراً عن الاصلاح التعليمي في مصر (٢) أفاد فيه من تجارب امريكا وانجلترا في حقل التربية والتعليم وقارن بين مشكلاتهما ومشكلات مصر وعرض الحلول التي فرضتها هاتان الدولتان ، كما اقترح بعض الحلول لمصر مستمدا اياها من تجارب الدولتين الانكلوسكسونيتين دون ان يتعرض من قريب أو بعيد الى تجارب فرنسا واختباراتها ومدارسها .

اما مقاومة الموظفين الفرنسيين أو ذوى الثقافة الفرنسية فتظهر لنا من خلال حديث ألبير ميتان الذى لا يخلو من المرارة . يقول المؤلف : " لقد شملت الحرب ضد الموظفين الفرنسيين منذ مدة طويلة الا ان العداء للغة

(١) محمد سعيد ، التعليم في مصر والاصلاحات التي يجب ادخالها ، ص ٤٠

Mohammed Said, De l'Instruction En Egypte et des Reformes a y Introduire, (Le Caire, 1888), p. 40 .

(٢) نجيب الهلالي باشا ، تقرير حول الاصلاح التعليمي في مصر .

Naguib El-Hilali Pasha, Report on Educational Reform in Egypt, (Cairo, Dec. 1943).

لم يعط نتائجها الا عام ١٨٩٨ * (١) . ويقول أيضا : " ان صراع الانجليزية مع الفرنسية لم يكن في أى مجال بمرارته في مجال التعليم الرسمي حيث كانت الفرنسية منذ ايام محمد علي اللغة الاجنبية الوحيدة (٢) * . وفي مكان آخر يضيف : " ان تعليم الفرنسية لم يبلغ ولكن الوظائف تحجز لأولئك الذين يتعلمون الانجليزية * . ولم يمنع المديرون من الاحتفاظ بالاقسام الفرنسية في مدارسهم لكن ترقيةهم تتوقف على نجاح القسم الانجليزي * . وهكذا دون قسوة واضحة ومنذ بداية العام الدراسي ، عام ١٨٩٨ حذف القسم الفرنسي من سبع عشرة مدرسة وأنقص عدد الطلاب في الاقسام الفرنسية بالمدارس الاخرى * (٣) .

هكذا حاول المسؤولون البريطانيون احلال ثقافتهم مكان الثقافة الفرنسية غير انه بالرغم من النجاح النسبي الذي حققوه ، يبدو ان النتائج لم تكن بقدر هذه الجهود المبذولة وبقي للفرنسية شأنها في مصر * يقول ميتان : " عام ١٨٩٨ كانت اللغة الفرنسية تسمع حينما توجهت وكان الشعب يجهل الانجليزية فلم يضطر في جولتنا من الاسكندرية الى الشلالات الى استعمال الانجليزية مع الموظفين المصريين سوى مرة واحدة * . واخيرا فان ابناء العائلات لا يزالون حتى الآن يكملون دروسهم اما في مدارس القاهرة الفرنسية أو في فرنسا * (٤) . وفي عام ١٩٣٨ أصدر عزت عبد الكريم كتابه عن تاريخ التعليم في عصر محمد علي وقال فيه :

" ومن مظاهر ميل المصريين الى الثقافة الفرنسية كثرة المترددين منهم

(١) ميتان ، تحول مصر ، ص ١٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

على مدارس الجالية الفرنسية ، وما زال كثير من الانجليز المسؤولين يشكون قصور الثقافة الانجليزية عن ان تتغلغل في المجتمع المصري ، فما نزال ، الى حد بعيد ، في أدبنا ومسرحنا وصحافتنا وصالوناتنا نستلهم الثقافة الفرنسية . وبعبارة اخرى ، ما نزال متأثرين بالثقافة اللاتينية التي لازمت نشأة التعليم الحديث في مصر (١) .

ولعل للمدارس الاجنبية دورا في هذه النتائج ، فقد جاء في احصاء الحكومة لعدد المدارس والطلاب في مصر لعام ١٩١٣ ما يظهر بوضوح تفوق المدارس الفرنسية على غيرها من المدارس الاجنبية في عددها وعدد طلابها على السواء ، بالرغم من انه قد مضى على الاحتلال أكثر من ثلاثين عاما . يقسم الاحصاء المدارس في مصر الى قسمين : المدارس المصرية ، وتضم الكتاتيب ومدارس الحكومة . والمدارس الاجنبية ، وتضم مدارس الجاليات غير المصرية .

جاء الاحصاء على الشكل التالي : (٢)

١- المدارس المصرية :

٨٠٧	مدارس مصرية	فيها	١١٤ ٠٥٣	طلبا
٣ ٧٩٤	الكتاتيب	فيها	٢٣١ ٣٧٦	طلبا

٢- المدارس الاجنبية :

٦	ألمانية	فيها	١ ١٢٨	طلبا
١٢	نمساوية	فيها	١ ٨٤٤	طلبا

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٦٥٧ .

(٢) كما أورده جرجي زيدان في ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٧ -

تابع المدارس الاجنبية :

٣٢	اميركية	فيها	٥ ٣٠٣	طالبا
٣٧	انجليزية	فيها	٢ ٦٣٦	طالبا
٤٢	يونانية	فيها	٧ ١٤٢	طالبا
٤٧	ايطالية	فيها	٦ ٨٨٨	طالبا
١٤٥	فرنسية	فيها	٢٢ ١٧٥	طالبا

فاننا قابلنا عدد المدارس الفرنسية مع غيرها من المدارس الاجنبية تبين لنا ان مجموع عدد المدارس الاجنبية لا يزيد الا بقليل عن عدد المدارس الفرنسية وحدها . واننا قابلنا عدد طلاب المدارس الاجنبية مجتمعة بعدد طلاب المدارس الفرنسية وحدها وجدنا ان في المدارس الفرنسية ٢٢ ١٧٥ طالبا في حين ان جميع المدارس الباقية تضم ٢٤ ٩٤١ طالبا . وليس هذا فحسب ، اننا اذا قابلنا عدد طلاب المدارس الفرنسية مع عدد طلاب المدارس المصرية الحكومية (دون الكتاتيب لأنها لا تدخل في هذا المجال) تبين لنا النسبة العالية التي تتمتع بها المدارس الفرنسية ان يبلغ عدد طلابها وحدها اقل بقليل من ربع مجموع طلاب المدارس الحكومية المصرية (١) .

فهذه الاحصاءات تظهر بوضوح استمرار اقبال المصريين على المدارس الفرنسية أكثر من غيرها ، بالرغم من المحاربة التي لقيتها طوال ما يقرب من

-
- (١) ورد في تقرير وزارة التربية لعام ١٩٣١ - ١٩٣٢ المودع في مكتبة وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ان عدد تلاميذ المدارس الفرنسية بمصر كان يزداد حتى أصبح عام ١٩٢٦ زهاء اثنين واربعين ألف طالب . وهذا ما يزيد على ضعف طلاب المدارس الاجنبية الاخرى كالمدارس الاميركية أو الانجليزية أو اليونانية .

ثلاثين سنة ، ويفسر بالتالي استمرار الأثر الفرنسي في الحياة الثقافية المصرية .
يررد جاك تاجر في كتابه عن الترجمة ملاحظة " لكاتب انجليزى " يقول فيها
" . . . ومع ذلك لم تفقد اللغة الفرنسية في مصر مركزها إذ ان معظم
المدارس الأوروبية الدينية تدرس هذه اللغة ، وتخرج كل سنة عددا غير قليل
من التلاميذ المصريين والأوروبيين يتقنون الكتابة والكلام باللغة الفرنسية ،
فساعدوا على أن يبقى العمل في بعض الدواوين باللغة الفرنسية دون
الانجليزية " (١) .

تدريس اللغات :

لعل أفضل مجال لدراسة الصراع بين الثقافتين الانجليزية والفرنسية في
عصر الاحتلال ، والحرب التي شنها المسؤولون البريطانيون على الاتجاه الفرنسي
في الحركة التعليمية بمصر هو مجال تدريس اللغات . فقد وجد البريطانيون ،
كما سبق ان أشرنا ، حركة تعليمية واسعة الانتشار ، أراحتهم من مسؤولية فتح
المدارس وانشاء الحركة التعليمية أو تنشيطها . ولكنها في الوقت نفسه واجهتهم
بأصعب من ذلك وأخطر ، وهو محاولة اقتلاع الاتجاه الثقافي القديم لتغرس
مكانه الاتجاه الجديد نحو الثقافة الانجليزية .

كان التركيز على لغة أوروبية واحدة وتعليم المواد الباقية بواسطتها مظهرا
من المظاهر التعليمية التي برزت في عهد الاحتلال . وقد رأينا كيف لخص
ألفرد ملنر (٢) نظام التعليم الحديث . فوضع له هذه الغاية بالذات ، وظهر

(١) تاجر ، حركة الترجمة ، ص ١٢١ .

(٢) ملنر ، انجلترا في مصر ، ص ٣٧١ .

ذلك رسميا في التقرير الرابع عن التعليم المرفوع الى الخديوى عام ١٨٨٨ ، وهو يقترح تقوية تعليم اللغات الاجنبية وتدريب التاريخ والجغرافيا والعلم الطبيعية ويقول " اذا ضم هذا الى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود ... على ان يناط تدريس اللغات الاجنبية بمدرسين فرنسيين أو انجليزيين " (١) . ويبدو ان الاقتراح قد أخذ به واصبحت بعض المواد التي كانت تدرس قبلا باللغة العربية تدرس باحدى اللغات الاجنبية .

ويظهر ان استعمال اللغتين الفرنسية والانجليزية في تدريس الموضوعات الاخرى كالتاريخ والجغرافيا والعلوم ، أثار انتقادات عديدة دفعت دوغلاس دنلوب (Dr. Douglas Dunlop) المسؤول البريطاني عن التعليم ما بين عامي ١٩٠٠ - ١٩١٣ الى تبرير ذلك وشرح اسبابه . يقول دنلوب في تقريره عن التعليم خلال عام ١٩٠٦ : " ان مسألة اللغات المستعملة للتعليم في المدارس الحكومية المصرية كانت في المدة الاخيرة موضع مناقشة واسعة ، لذلك فانه من المستحسن ان نوضح هذه الحال : ان الآباء المصريين يريدون بشكل عام ان يتعلم أولادهم أكثر علومهم بلغة اوروبية حتى يستطيعوا ان يتقنوها وان يسهل عليهم استعمالها فيفيدوا بذلك من جميع الفرض التي توفرها معرفة لغة اوروبية في مصر : من أدبية وتعليمية ومادية . وتظهر رغبة الاهالي هذه عندما نعلم ان هذا هو النظام الذي تتبعه مدارس البعثات وأكثر المدارس المصرية الخاصة . ولقد انتقدت الحكومة بشدة لأنها حاولت ان تلبي طلبات الاهالي هذه ، واستندت الانتقادات الى القول بأن اعتماد الانجليزية أو الفرنسية للتعليم يسيء الى اللغة الأم ويعيق تطور ذكاء الطفل . ولكن وزارة المعارف لا تستطيع

(١) سامي ، التعليم في مصر ، ص ٦٥ .

ان تضحى بطلبها في سبيل نظريات متحيزة ، ولا يسمعها الا ان تلبس
طلبات الاهالي وحاجات البلاد " (١) .

غير ان اللغتين الاجنبيتين اللتين كانا تقصدان في هذا الاجراء لم
تعاملا المعاملة نفسها على ما يبدو ، وكان التركيز على اللغة الانجليزية
بالدرجة الاولى ، يتضح لنا ذلك من تناقص عدد الطلاب في الاقسام الفرنسية
وتزايدهم في الاقسام الانجليزية في التعليم الابتدائي والثانوي ، كما يتضح
في مدارس التخصص التي أخذت ادارتها وبرامجها تتغير من الفرنسية الى
الانجليزية شيئا فشيئا حتى غلب الاتجاه الانجليزي على الاتجاه الفرنسي في
الحركة التعليمية الحكومية عامة .

ففي عام ١٩٢١ مثلا رفعت لجنة الجامعة في وزارة المعارف تقريرها الى
المسؤولين وألحق به تقرير قسم اللغة الفرنسية الذي يعترض على عدم الاهتمام
الكافي باللغة الفرنسية ، وجاء في هذا التقرير :

" ان المشروع الذي تبنته لجنة الجامعات لا يتطلب معرفة الفرنسية

(١) دوغلاس دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم العام وتقدمه في مصر من

١٩٠٠ - ١٩١٣ ، سنة ١٩٠٦ ، ص ٩ - ١٠ .

Douglas Dunlop, Note on the Progress and Condition of Public Instruction
in Egypt from 1900-1913, Year 1906, p. 9 - 10 .

وقد اطلعت على مخطوطة هذا التقرير الذي لم ينشر بعد باللغة
الانجليزية في مكتبة وزارة التربية والتعليم في القاهرة .

بالضرورة في الامتحانات الوسطى الا لطلاب كلية الحقوق . اننا ، نظرا لأهمية اللغة الفرنسية الادبية والعلمية ، نطلب ان تكون اجبارية على الأقل بالنسبة لجميع المتقدمين الى شهادة كلية الآداب * (١) .

ويعزو احد الكتاب الانجليز - في ملاحظة أوردها جاك تاجر - تفوق الانجليزية الى اسباب سياسية يقول * . . . ان استبدال اللغة الانجليزية باللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية يرجع الى اسباب سياسية ، فبعد أزمة فاشودة (٢) أدرك الاهالي ان النفوذ البريطاني سيأخذ في الازدياد على حين يضمحل النفوذ الفرنسي ؛ وكانت نتيجة ذلك ان الاقسام الخاصة بالتعليم الفرنسي فقدت تلاميذها تدريجيا . وفي سنة ١٩٠٢ ألغي القسم الفرنسي في المدارس الامريكية ولم تعلم في المدارس الابتدائية الا لغة اوروبية واحدة وهي اللغة الانجليزية * (٣)

ويحاول دتلوب ان يعزو سبب ازدهار الاقسام الانجليزية في المدارس الى الاهالي دون المسؤولين يقول : * ان استعمال الانجليزية واسطة للتعليم في مدارس الحكومة لا يدل اذا على ان السلطات تريد * أنجلزة * الشباب المصري ، ذلك ان الرغبة في تعليم الاولاد بالانجليزية هي عند الاهالي أكبر منها عند الموظفين الانجليز . ان حركة التوجه نحو دراسة الانجليزية تبدأ

(١) وزارة المعارف ، التقرير النهائي للجنة الجامعة ، ص ١٢٧ .

(٢) أزمة فاشودة : اصطدام عسكري بين الجيشين الفرنسي والانجليزى فسي فاشودة في أعالي النيل بالسودان أسفر عن الاتفاق على انسحاب الفرنسيين .

(٣) تاجر ، حركة الترجمة ، ص ١٢١ .

من الشعب وليس من الحكومة (١) .

ويقول دنلوب في مكان آخر " ان كل شيء يشير الى ان الآباء المصريين يتبنون وجهة النظر القائلة بأن الدراسة الانجليزية وليس الفرنسية توفر مستقبلا أفضل ومهنة أسعى لأولادهم . وهذا الاعتقاد ظهر أيضا في المدارس الخاصة بصورة ليست أقل حدة مما هو في مدارس الحكومة ، حتى ان المدارس الفرنسية في مصر وجدت في المدة الاخيرة ، ان عليها ان توجد قسما انجليزيا لتستجلب الطلاب . وهناك اليوم بعض طلاب المدارس الفرنسية يقدمون الامتحانات العامة مختارين اللغة الانجليزية لغة اجنبية . وهكذا فما دام الشعب المصرى نفسه هو الذى قرر هذا الاتجاه فانه يؤمل ان يقبل به اخيرا اولئك الذين تبقى مصالحهم في الموضوع خارجية " (٢) .

ويظهر ان الاقبال على تعلم الانجليزية كان يتزايد سنة بعد سنة منذ أن بدأ الاحتلال عمله الفعال في حقل التعليم عام ١٨٨٩ . ويورد دنلوب في تقاريره السنوية عن التعليم احصاءات تظهر ذلك ، فقد جاء في تقريره العام سنة ١٩٠٠ ان الاهالي احرار في اختيار الفرنسية أو الانجليزية ليتعلمها أولادهم كلغة اجنبية ، ولكن الاحصاءات تشير دون شك الى تزايد الاقبال على الانجليزية (٣) . وفي تقرير عام ١٩٠٢ يذكر دنلوب ان عدد الطلاب

(١) ملحق تقرير لورد كرومر عن " مصر والسودان " ، وقعه دوفلاس دنلوب

عام ١٩٠٧ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

Annexe Au Rapport de Lord Cromer sur "L'Egypte et Le Soudan" ,
signe Douglas Dunlop, 1907, p. 149 - 150 .

وقد اطلعت على مخطوطة هذا التقرير غير المنشورة (باللغة الفرنسية)
في دار الكتب المصرية .

(٢) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٧ ، ص ٩٦ ،

وسنة ١٩٠٨ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣) المرجع نفسه ، سنة ١٩٠٠ ، ص ٢ .

الذين كانوا يدرسون الانجليزية في مدارس الحكومة بلغ ٦ ٨٥٦ طالبا وعدد الطلاب الذين يدرسون الفرنسية بلغ ٥٥٢ طالبا أى بنسبة ٩٢ بالمائة للانجليزية و ٧ بالمائة للفرنسية .

واستمرت الاقسام الفرنسية في مدارس الحكومة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت عام ١٩١٠ . يقول دنلوب في تقاريره بين سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٩ ، ان الاقسام الفرنسية في المدارس الثانوية الحكومية أخذت تضعف ويتضاءل عدد الذين يحملون الشهادة الابتدائية بالفرنسية . ان هذه الاقسام لم تكن تعامل بقسوة أو شدة بل كانت تعامل دائما بكثير من التسامح . غير انه تقرر في شهر أيلول من عام ١٩٠٦ ان يطبق على المدارس الثانوية ما وجد ضروريا للمدارس الابتدائية عام ١٨٩٨ : أى ان لا يسمح بتشكيل صف السنة الاولى في أى مدرسة ثانوية اذا نقص عدد الطلاب عن عشرة . ولكن الضغط الخارجي أجبر الوزارة على عدم تطبيق هذا القانون . وقيل ان هناك حاجة حقيقية لمثل هذه الصفوف وانه اذا أبقى الصف فانه سيمتلئ تدريجيا . وهكذا أبقى الصف الاول في مدرسة التوفيقية الا ان عدد طلابه لم يزد عن ستة فألغي في حزيران ١٩٠٢ . وبذلك تأثر التحاق الطلبة بالمدارس العليا ان ان اللغة التي كانوا يتعلمونها كانت الانجليزية والتحقوا بالقسم الانجليزي وأخذت الفرنسية تنحدر (١) .

ويورد دنلوب (٢) لائحة احصائية بعدد الطلاب الذين كانوا يدرسون الفرنسية والذين كانوا يدرسون الانجليزية ما بين عام ١٨٨٩ و ١٩٠٦ نورها نحن لأنها توضح ارتفاع نسبة طلاب الانجليزية وانخفاض نسبة طلاب الفرنسية تدريجيا

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) المرجع نفسه ، سنة ١٩٠٠ ، ص ٣ ، وسنة ١٩٠١ ، ص ٣ .

وعلى مدى السنوات .

نسبة طلاب الفرنسية	نسبة طلاب الانجليزية	طلاب الفرنسية	طلاب الانجليزية	السنة
٧٤	٢٦	٢٩٩٤	١٠٦٣	١٨٨٩
+ ٦٥	+ ٣٥	١٣٩٩	١٧٤٧	١٨٩٠
+ ٨٥	+ ٤٢	٢٨٥٢	٢٠٣٢	١٨٩١
+ ٥٦	+ ٤٤	٢٨٦٤	٢٢٣٧	١٨٩٢
+ ٥٢	+ ٤٨	٢٥٨٥	٢٤٣٤	١٨٩٣
+ ٥٨	+ ٤٢	٣٧٤٨	٢٦٦٩	١٨٩٤
+ ٥٦	+ ٤٤	٣٤١٧	٢٦٥٥	١٨٩٥
+ ٥٥	+ ٤٥	٣٣٣٦	٢٨٠٠	١٨٩٦
+ ٥١	+ ٤٩	٣١٥٠	٣٠٥٨	١٨٩٧
+ ٣٣	+ ٦٧	١٨٨١	٣٨٥٩	١٨٩٨
+ ٢٢	+ ٧٨	١٢١٠	٤٤٠١	١٨٩٩
+ ١٥	+ ٨٥	٨٥١	٤٩٨٤	١٩٠٠
+ ٩	+ ٩١	٦٤٩	٦٤٨٨	١٩٠١
+ ٧٥	+ ٩٢٥	٥٥٧	٦٨٥٦	١٩٠٢
+ ٦	+ ٩٤	٤٥٠	٦٣٨٠	١٩٠٣
+ ٥	+ ٩٥	٤٢٢	٨٠٩٤	١٩٠٤
+ ٤	+ ٩٦	٣٦٨	٨٩٥٠	١٩٠٥
+ ٣	+ ٩٧	٣٠٢	٩٩٣٠	١٩٠٦

التعليم الابتدائي

ولو تتبعنا برامج الدراسة الابتدائية منذ عام ١٩٠٠ من خلال تقارير دنلوب لاتضح لنا ضعف الاقسام الفرنسية فيها .

ففي تقرير عام ١٩٠٠ يقول دنلوب ان $\frac{1}{85}$ من طلاب المدارس الابتدائية الخاصة التي تخضع لمراقبة الحكومة يدرسون الانجليزية و $\frac{1}{15}$ يدرسون الفرنسية ، وهذه النسبة هي ذاتها في مدارس الحكومة (١) . وفي تقرير عام ١٩٠١ نجد طلاب الانجليزية قد ارتفعت نسبتهم الى $\frac{1}{89}$ في حين هبطت نسبة طلاب الفرنسية الى $\frac{1}{11}$ (٢) . ويلاحظ دنلوب في تقرير عام ١٩٠١ ان عدد الطلاب الذين تقدموا لامتحانات الشهادة الابتدائية بلغ ١٩١٥ مقابل ١٧٥٣ في العام السابق ، وعدد أقل من ذلك في الاعوام السابقة . كما يلاحظ انه لأول مرة في تاريخ هذه الامتحانات يزيد عدد المتقدمين الى الامتحانات الانجليزية عن المتقدمين الى الامتحانات الفرنسية . فقد بلغ عدد طلاب الانجليزية ١١٦٩ وعدد طلاب الفرنسية ٧٤٦ ، في حين كان عدد طلاب الانجليزية عام ١٩٠٠ ٨٧٦ ، وعدد طلاب الفرنسية ٨٨٥ . ويشير دنلوب الى نسبة طلاب مدارس الحكومة والمدارس الخاصة الذين تقدموا للقسم الانجليزي فيذكر انها بلغت $\frac{1}{69}$ من طلاب الحكومة و $\frac{1}{52}$ من طلاب المدارس الخاصة (٣) .

وفي تقرير عام ١٩٠٢ تبلغ نسبة طلاب الانجليزية في المدارس الابتدائية

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٠ ، ص ٤ .

(٢) المرجع نفسه ، سنة ١٩٠١ ، ص ٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

العالية الخاصة تسعين بالمئة في حين تنخفض نسبة طلاب الفرنسية الى ١٠ + (١)، وفي امتحانات الشهادة الابتدائية في هذه السنة بلغ عدد المتقدمين للقسم الانجليزي ١٢٨٢ أى بنسبة ٧٦ + وعدد المتقدمين للقسم الفرنسي ٥٦٣ أى بنسبة ٢٤ + (٢)

ولا نكاد نصل الى عام ١٩٠٣ حتى نقرأ في تقرير دنلوب عن ذلك العام ان تعليم الفرنسية توقف في جميع مدارس الحكومة الابتدائية ان كانت النسبة في ذلك العام ٦ + لطلاب الفرنسية مقابل ٩٤ + لطلاب الانجليزية (٣)، وفي المدارس الابتدائية العالية الخاصة التي تشرف عليها الحكومة بلغت النسبة ٧ + لطلاب الفرنسية مقابل ٩٣ + لطلاب الانجليزية (٤). أما في امتحانات الشهادة الابتدائية لتلك السنة فقد بلغت نسبة المتقدمين الى الفرع الانجليزي ٨٦ + وبلغت نسبة المتقدمين الى الفرع الفرنسي ١٤ + (٥). وعندما نصل الى عام ١٩٠٦ نجد انه لم يتقدم للفرع الفرنسي في امتحانات الشهادة الابتدائية سوى ٩٤ طالبا في حين كان عدد طلاب الفرع الانجليزي ٣٢٧٨ طالبا، وفي عام ١٩٠٧ تقدم ٣٨٠٦ طلاب لامتحانات الشهادة الابتدائية لم يكن منهم في الفرع الفرنسي سوى ٤٦ طالبا (٦).

(١) دنلوب، ملاحظات حول أوضاع التعليم، سنة ١٩٠٢، ص ٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣.

(٣) المرجع نفسه، سنة ١٩٠٣، ص ٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٦) المرجع نفسه، سنة ١٩٠٦، ص ٦٦.

ويورد دنلوب لائحة احصائية بعدد طلاب القسم الفرنسي والقسم الانجليزي في مدارس الصبيان الابتدائية يتضح لنا منها ارتفاع نسبة طلاب القسم الانجليزي شيئا فشيئا وانخفاض نسبة القسم الفرنسي من ٢٤ + للقسم الاول و ٧٦ + للقسم الثاني عام ١٨٨٩ الى ٩٢ + للقسم الاول و ٨ + للقسم الثاني عام ١٩٠٠ الى مئة بالمئة للقسم الاول وصفر بالمئة للقسم الثاني منذ عام ١٩٠٣ حتى عام ١٩١٣ .

التعليم الثانوى

أما في التعليم الثانوى فقد كان الجامعيون الانجليز يشكلون اساس الهيئة التعليمية ، يقول لورد كرومر في تقريره عن مصر والسودان لعام ١٩٠٦،^(١)

" ان التحسن في الاوضاع المعنوية للمدارس الثانوية وتحسن مساهمة التعليم يرجع بدون شك الى الجامعيين الانجليز الذين يشكلون اساس الهيئة التعليمية ، ومهما تكن السيئات التي فرضها هذا النظام من الناحية السياسية، فان الطلاب والاهالي يقدرونه الى حد بعيد ، وبالرغم من انتقادات الصحافة فان أى تغيير حقيقي في النظام الحالي سيكون حتما غير محبذ " .

وفي الاحصاءات والنتائج التي يستخرجها دوغلاس دنلوب في تقاريره ما يظهر التحول من الاقسام الفرنسية الى الاقسام الانجليزية في التعليم الثانوى

(١) تقرير لورد كرومر حول مصر والسودان ، سنة ١٩٠٦ ، ص ١٤٨ .

Rapport de Lord Cromer sur L'Egypte et Le Soudan pour l'annee 1906,
p. 148 .

رجعت الى مخطوطة هذا التقرير بنصه الفرنسي في دار الكتب المصرية
بالقاهرة .

أيضا ، وطبيعي ان يحدث ذلك ما دام الاساس ، وهو التعليم الابتدائي ، قد تحول نحو التعليم الانجليزي .

ففي التقرير الذي يتناول عام ١٩٠١ يذكر دنلوب ان بين المتقدمين الى امتحانات الشهادة الثانوية كان هنالك ثلاثة وثمانون طالبا في الفرع الانجليزي ومئة وسبعة وخمسون في الفرع الفرنسي (١) .

وعندما نصل الى تقرير عام ١٩٠٤ نجد ان الاقسام الفرنسية قد بدأت تزول بسرعة من التعليم الثانوي الحكومي بعد ان زالت من التعليم الابتدائي الحكومي . ونجد انه في السنوات القليلة بين عام ١٩٠١ وعام ١٩٠٤ أصبح عدد طلاب القسم الانجليزي ثمانمئة واربعة وخمسين طالبا مقابل مئة وثمانية وثمانين طالبا للقسم الفرنسي فقط (٢) . وفي السنة التالية ، أي ١٩٠٥ ، زاد الفرق بين دارسي الفرنسية والانجليزية فأصبح عدد القسم الاول ١٤٩ طالبا مقابل ١١٩٦ في القسم الثاني . وفي امتحانات ذلك العام للشهادة الثانوية زاد عدد طلاب الفرع الانجليزي عن عدد طلاب الفرع الفرنسي لأول مرة في تاريخ الامتحانات فقد بلغ عدد الطلاب المتقدمين للفرع الانجليزي مئتين وتسعة وثلاثين طالبا في حين بلغ عدد المتقدمين الى الامتحانات الفرنسية مئتين وثمانية طلاب (٣) . واذا قابلنا هذه الاعداد بأعداد الطلاب الذين تقدموا للشهادة نفسها عام ١٩٠١ ظهرت لنا بوضوح سرعة زوال الاقسام الفرنسية وحلول الاقسام الانجليزية مكانها .

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠١ ، ص ٢٤ .

(٢) المرجع نفسه ، سنة ١٩٠٤ ، ص ٥ .

(٣) المرجع نفسه ، سنة ١٩٠٥ ، ص ٥٣ .

وفي عام ١٩٠٦ لم يزد عدد طلاب الفرنسية من تسعة وثمانين طالبا في حين ارتفع عدد طلاب الانجليزية الى ألف ومئتين وواحد وتسعين طالبا (١).

غير انه يبدو ان اختفاء الاقسام الفرنسية من المدارس الثانوية الحكومية بدأ يترك أثرا سيئا ، فقد ذكر دنلوب في تقرير عام ١٩٠٢ وما بعده انه منذ عام ١٩٠٥ عدلت برامج الدراسة الثانوية (٢) فأدخل تعليم اللغة الفرنسية كلغة اجنبية اضافية بالاضافة الى اللغة الانجليزية لطلاب المسنتين الثالثة والرابعة في القسم الادبي وذلك للتقليل من أثر اختفاء الاقسام الفرنسية في هذه المدارس (٣) . ولا نكاد نصل الى عام ١٩١٣ حتى تكون السياسة الجديدة قد بدأت تعطي ثمارها فيقول دنلوب : " ان النتائج التي توصلنا اليها كانت مشجعة بشكل واضح " (٤) .

ولعل أكثر ما يوضح لنا تقدم الفروع الانجليزية وتأخر الفروع الفرنسية في المدارس الثانوية ، اللوائح الاحصائية التي يوردها دنلوب في تقاريره السنوية ، ولن نورد هذه اللوائح بتفاصيلها هنا الا اننا نستفيد منها ان نسبة طلاب الاقسام الانجليزية عام ١٨٨٩ كانت ٢٦ + في حين كانت نسبة طلاب الاقسام الفرنسية ٢٤ + وتأخذ نسبة طلاب الانجليزية تتزايد ونسبة طلاب الفرنسية تتناقص سنة بعد سنة ، ففي عام ١٨٩٤ تبلغ نسبة طلاب القسم الانجليزي ٣١ + ونسبة طلاب القسم الفرنسي ٦٩ + وفي عام ١٩٠٠ تبلغ

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٦ ص ٨ .

(٢) لحل هذا التعديل نتيجة للاتفاق الودي المعقود عام ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا والذي أدى الى تخفيف خشية بريطانيا من المنافسة الفرنسية في مصر .

(٣) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٢ ، ص ٩٥ .

(٤) المرجع نفسه ، سنة ١٩١٣ ، ص ٧٢ .

النسبة ٥١ + لطلاب الانجليزية و ٤٩ + لطلاب الفرنسية ، وعام ١٩٠٥ تبلغ النسبة ١١ + لطلاب الفرنسية و ٨٩ + لطلاب الانجليزية ، وفي عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ لا يبقى في الاقسام الفرنسية سوى نسبة ١ + مقابل ٢٩ + للاقسام الانجليزية ، ومنذ عام ١٩١٠ تختفي الاقسام الفرنسية تماما من التعليم الثانوى الحكومى .

أما في المدارس الخاصة فقد أصاب الاقسام الفرنسية ما أصابها في مدارس الحكومة ، إلا ان سرعة الانحدار كانت هنا أقل منها في مدارس الحكومة . ففي عام ١٨٩٣ كان عدد المرشحين للدخول الى التعليم الثانوى سبعة للقسم الفرنسي و سبعة وعشرين للقسم الإنجليزي . وتشير اللوائح الى ان عدد طلاب القسم الفرنسي في المدارس والدروس الخاصة لم يكن في تناقص مستمر كما كان في مدارس الحكومة ، مع ان عدد طلاب القسم الانجليزي كان في تزايد مستمر حتى عام ١٩٠٢ عندما بدأ تناقص طلاب الاقسام الفرنسية يتسارع بشكل ملحوظ . ونورد في ما يلي اللائحة الاحصائية التي أوردها دنلوب في تقاريره لانها تعطي فكرة واضحة عما نحن بصدد .

السنة	المدارس الخاصة		الدراسة الخاصة	
	قسم انجليزي	قسم فرنسي	قسم انجليزي	قسم فرنسي
١٨٩٣	٧	٢٧	١٦	١٧
١٨٩٤	٨	٢٣	٩	١٨
١٨٩٥	١٢	٤٣	٣٣	٤٤
١٨٩٦	١٨	٧٣	٢٦	٧٨
١٨٩٧	٣٨	٦٧	١٠	٣٦
١٨٩٨	١٦	٥٢	١٠	١٦

السنة		المدارس الخاصة		الدراسة الخاصة	
		قسم انجليزي		قسم انجليزي	
		قسم فرنسي		قسم فرنسي	
١٨٩٩	٣٤	٥٩	١٨	١٩	
١٩٠٠	٩٨	١٣٧	١٥	٣١	
١٩٠١	١٥٤	١٢٩	١٠	٢٢	
١٩٠٢	٢٣٧	١١٣	٢٣	٢٤	
١٩٠٣	١٨٨	٦٤	١١	٣	
١٩٠٤	٣٠٩	٨٢	٢٩	١٠	
١٩٠٥	٤٩٨	٥٣	٤٨	٨	
١٩٠٦	٣٨٨	٢٤	١٩	٤	
١٩٠٧	٧٩٢	١٤	١١٩	٤	
١٩٠٨	٨٤٦	١١	٩٩	٦	
١٩٠٩	٨٣٩	١٤	٧٧	١	
١٩١٠	١١٩٢	١٤	١٢٦	٣	
١٩١١	١٧١٥	١٢	١٦٢	٢	
١٩١٢	١٨٧٤	١١	١٤٧	٤	
١٩١٣	٢٢٦٩	١٦	١٢٨	٥	

هكذا حلت الاقسام الانجليزية مكان الاقسام الفرنسية في الحركة التعليمية . وقد رأينا دنلوب وكرومر يعزوان هذا التحول الى اقبال الاهالي على الاقسام الانجليزية واختيارهم لها دون ضغط أو تأثير . وقد يكون هذا صحيحا وقد يكون فيه شيء من التحيز ، ولكن المؤكد ان هذا الاقبال لم يكن تعبيرا عن محبة المصريين للثقافة الانجليزية واعجابهم بها بقدر ما يعبر عن سعي

المصريين وراء مصلحة ابنائهم ومستقبلهم في دولة اليد العليا فيها للانجليز ، والمقدمون فيها هم ذوو الثقافة الانجليزية ، والمصالح المعاشية فيها تتجه كليا نحو انجلترا . ويعزز هذا الرأي ما ذكره دنلوب في تقرير عام ١٩٠٩ من انه في عام ١٨٩٨ فيما كان التغيير التدريجي يتم ، تم فتح السودان ومسا رافقه من حوادث فتوقفت طلبات الدخول الى الاقسام الفرنسية في المدارس الابتدائية فجأة وتدفق الطلاب بشكل واضح على الاقسام الانجليزية (١) . كما تعززه أيضا تلك اللوائح الاحصائية للمدارس والدروس الخاصة والتي تشير الى ان الاهالي لم يستغنوا عن توجيه ابنائهم الى الاقسام الفرنسية الا بعد أن قطعت المدارس الحكومية شوطا بعيدا في هذا المضمار ، وعندما وجدوا ان مصلحة ابنائهم ومستقبلهم أصبحا يقتضيان تعليمهم الانجليزية بدل الفرنسية .

ويبدو ان الشكوك نارت حول الانخفاض في عدد طلاب الاقسام الفرنسية والاقبال المتزايد على الاقسام الانجليزية . ووجهت الصحافة حملات على الحكومة لاهمالها اللغة العربية وتوجيهها نحو اللغة الانجليزية مما دفع كرومر ودنلوب الى تبرير ذلك . يقول دنلوب : " ان الرغبة في تعليم الاولاد بالانجليزية هي ، عند الاهالي ، أكبر منها عند الموظفين الانجليز ، ان حركة التوجه نحو دراسة الانجليزية تبدأ من الشعب وليس من الحكومة " (٢) . ويقول في مكان آخر : " وهكذا فما دام الشعب المصري نفسه هو الذي قرر هذا الاتجاه فانه يؤمل ان يقبل به اخيرا اولئك الذين تبقى مصلحتهم في الموضوع خارجية " (٣) . ولعله هنا يشير الى الحملات التي قامت ضد حركة

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٩ ، ص ١٣٠ .

(٢) ملحق تقرير لورد كرومر عن مصر والسودان ، ص ٥٠ .

(٣) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٧ ، ص ٩٦ .

التوجيه هذه . وفي التقرير نفسه يشير دنلوب الى الشكوك التي ساررت الكثيرين فيقول " ان هبوط عدد الطلاب الذين يودون تعلم الفرنسية واضح بشكل لا نتعجب معه اذا ثارت بعض الشكوك في ان سبب ذلك تحريض انجليزى . ولكن ليس من الصعب ان نثبت ان الدروس الفرنسية لم تتعرض لمعاملة غير عادلة فحسب بل انها عوملت باحترام ملحوظ " (١) .

اما لورد كرومر فيقول عن النظام التعليمي " . . . ان الطلاب والاهالي يقدرونه الى حد بعيد ، وبالرغم من انتقادات الصحافة فان أى تغيير حقيقي في النظام الحالي سيكون حتما غير محبذ " (٢)

هكذا اذا توجه الاهالي والطلاب الى الاقسام الانجليزية لا عن وعي بقيمة الثقافة الانجليزية واعجابا بها ، وهم الذين تعودوا من قبل الثقافة الفرنسية ونشأوا وهي تحيط بهم منذ أوائل نهضتهم ، وانما عن تقدير للقوة السياسية ووعي لمصلحة ابنائهم المعاشية .

مدارس التخصص العالي

وطبيعي ان تتأثر الاتجاهات العلمية في مدارس التخصص بعد ان تغيرت في اساس الحركة التعليمية أى في المرحلتين الابتدائية والثانوية .

ففي هذه المدارس العالية كانت الدراسة تتم بالضرورة بلغة اجنبية ، وكانت الفرنسية قبل الاحتلال هي اللغة المعتمدة . وقد رأينا الفرنسيين ينشئون مدرسة الطب ومدرسة الحقوق ومدرسة الهندسة ، كما رأينا كلوت بك

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٧ ، ص ٩١ .

(٢) تقرير لورد كرومر ، سنة ١٩٠٦ ، ص ١٤٨ .

يرئس الاولى وفيدال يرئس الثانية ولمبير باشا يرئس الثالثة ، ورأينا الاساتذة يستقدمون من فرنسا ليشكلوا اساس الهيئة التعليمية في هذه المدارس وفي غيرها من مدارس التخصص منذ نشأتها . ولما جاء الاحتلال وسعى ليغيّر اتجاه الحركة التعليمية في جميع المستويات كان من الطبيعي ان يصيب مدارس التخصص الحالية نصيبا منها . وسنتعرض هنا للتغيير الذي أصاب مدرسة الحقوق ومدرسة الهندسة ومدرسة الطب ومدارس المعلمين وهي المدارس العالية الرئيسية كأمثلة على ما أصاب التعليم التخصصي من تغيير في الاتجاه .

أ . مدرسة الحقوق : كان القانون الفرنسي هو المتبع في مصر وقد رأينا اهتمام اسماعيل باشا بقانون نابليون وتركيز عمل قلم الترجمة على ترجمة هذا القانون ، لذلك كان من الطبيعي ان تعتمد مدرسة الحقوق الفرنسية لغة لها لتدرس طلابها القوانين بلغتها الاصلية . وتجدر الاشارة هنا الى ان مدرسة الحقوق هي الوحيدة - على ما ذكر لورد كرومر - التي لم يحاول المسؤولون ان يغيروا لغة التعليم فيها منذ تأسيسها عام ١٨٦٨ ، في حين قاموا بعدة محاولات لجعل اللغة العربية لغة التعليم في مدارس التخصص الاخرى وكانوا في كل مرة يواجهون بنتائج سلبية (١) .

بقيت الدراسة في كلية الحقوق منذ انشائها عام ١٨٦٨ تعتمد اللغة الفرنسية باستثناء دراسة الشريعة الاسلامية التي كانت تدرس بالعربية . وفي التقرير الثاني عن التعليم الحكومي الذي وضع عام ١٨٨٦ (٢) ، أي بعد

(١) تقرير لورد كرومر ، سنة ١٩٠٦ ، ص ١٤٤ .

(٢) وزارة المعارف ، عرض للاصلاحات المنجزة خلال عام ١٨٨٥ ، ص ٦٢-٧٢ .

Ministere de L'Instruction Publique, Exposé des Reformes Effectuées pendant l'année 1885, pp. 67 - 72 .

الاحتلال بأربع سنوات ، لا نجد أى أثر للغة الانجليزية في تنظيم مدرسة الحقوق وامتحاناتها ، انما نجد مادة اللغة الايطالية بالاضافة الى الفرنسية ، ولعلها كانت تستعمل لدراسة القانون الروماني .

ظلت الحال على ما هي عليه حتى عام ١٨٩٩ عندما قرر المسؤولون البريطانيون تغيير الدراسة في هذه المدرسة ، كما فعلوا في غيرها ، من الفرنسية الى الانجليزية . فأنشأوا فيها القسم الانجليزي جنبا الى جنب مع القسم الفرنسي . وقد ورد في تقرير لجنة الجامعة الى وزارة المعارف ان مجال الاختيار بين التعليم الانجليزي والفرنسي الذي فتح امام طلاب المدارس الثانوية عام ١٨٨٦ جعل أكثرية الطلاب يختارون القسم الانجليزي بعد فترة قصيرة . وهكذا أصبح هؤلاء الطلاب الذين تلقوا دروسهم في الاقسام الانجليزية محرومين من دخول مدرسة الحقوق وبالتالي من ممارسة مهنة المحاماة والقضاء في مصر . لذلك تقرر انشاء قسم انجليزي في مدرسة الحقوق في عام ١٨٩٩ مع ابقاء الفرنسية اجبارية لمدة ثلاث سنوات حتى يتمكن الطلاب من مراجعة النصوص الفرنسية (١) .

ويضيف التقرير انه بعد انشاء القسم الانجليزي ضعف القسم الفرنسي بسرعة برغم المحاولات العديدة لانعاشه وتشجيعه (٢) . غير ان نظرة السجلات اللاحقة الاحصائية التي أوردها دنلوب في تقرير عام ١٩٠٦ تظهر انه وان كان عدد طلاب القسم الانجليزي يتزايد فان عدد طلاب القسم الفرنسي كان يتزايد أيضا وبقي متفوقا على القسم الانجليزي حتى عام ١٩٠٥ عندما قفز القسم الانجليزي الى الطليعة وبقي هناك (٣) .

(١) وزارة المعارف ، التقرير النهائي للجنة الجامعة ، ص ٣٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

(٣) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٦ ، ص ٨٨ .

بدأ القسم الانجليزي عمله عام ١٩٠٠ وكانت النتائج التي أحرزها في السنتين الأولى والثانية مرضية على ما يظهر من تقرير دنلوب حول هذين العاملين ان يقول : " ان تجربة القسم الانجليزي تظهر حتى الآن ناجحة بالرغم من صعوبة تدريس نظام تشريعي مبني على التشريع الفرنسي باللغة الانجليزية (١) . وبدأ عدد طلاب القسم الانجليزي يتزايد منذ بداية السنة المدرسية لعام ١٩٠٢ - ١٩٠٣ فارتفع الى أربعة وعشرين طالبا مقابل ثلاثة وثلاثين للقسم الفرنسي . وفي نهاية العام قدم القسم الانجليزي أول دفعة من طلابه لامتحانات السنة الرابعة وبدأ ان التجربة قد نجحت وثبتت أقدامها . ويظهر ان النجاح بلغ درجة أدت الى تفاؤل دنلوب بنتائج بشكل عام ، فهو يقول في تقرير عام ١٩٠٤ : " يبدو ان المصري الشاب يجد صعوبة أقل في اتقان اللغة الانجليزية من اللغة الفرنسية مع قواعدها وتراكيبها الشديدة الصعوبة . فاذا صح ذلك فانه سيكون له دون شك نتائج هامة في الاجيال القادمة في مصر " (٢) .

استمر القسم الانجليزي يتقدم فزاد عدد طلابه عام ١٩٠٥ لأول مرة عن عدد طلاب القسم الفرنسي ، ان بلغ عدد طلاب القسم الاول تسعة وخمسين وعدد طلاب القسم الثاني مبعة وثلاثين . واستمر التزايد في الاول والتناقص في الثاني حتى قرر المسؤولون الغاء القسم الفرنسي عام ١٩١٠ ، عندما بلغ عدد طلابه خمسة وعشرين مقابل مئتين وثلاثة عشر بالقسم الانجليزي . فألغيت في ذلك العام السنة الاولى وتم الغاء القسم بكامله عام ١٩١٢ عندما ألغيت السنة الرابعة .

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٢ ، ص ٣٩ .

(٢) المرجع نفسه ، سنة ١٩٠٤ ، ص ٥٥ .

ب . مدرسة الطب : أنشئت مدرسة الطب في أيام محمد علي ورئسها كلوت بك وكان نظامها فرنسيا كما كانت البعثات فيها ترسل الى فرنسا . غير ان الاحتلال رأى ان يوجه نظامها الوجهة الانجليزية فجعل التعليم فيها ابتداء من عام ١٨٩٨ باللغة الانجليزية ، وضم اليها مستشفى وجعل نظامها يشبه نظام مدرسة الطب في جامعة لندن . وتمتينا للعلاقة بين هذه المدرسة مع جامعة لندن كان مندوب من تلك الجامعة يأتي كل سنة الى مصر لحضور الامتحان النهائي . وفي عام ١٨٩٠ تقرر ربط مدرسة الطب بالنظام الاوروبي بشكل أوثق وتحويلها الى جامعة شبيهة بجامعات اوروبا . فعين ثلاثة مدراء بريطانيين للاقسام الرئيسية فيها (١) .

ويظهر ان تغيير نظام مدرسة الطب أثار الاعتراض والانتقاد فقد ورد في تقرير لجنة الجامعة " ان هذه العملية رافقها الكثير من الاستنكار والدسائس التي لا يتعجب منها لأن تغير شخصية مؤسسة قديمة شرقية الى مؤسسة اوروبية حديثة لم يكن ليتم دون اساءات الى الشعور الشخصي والسياسي " (٢) .

ج . مدرسة الهندسة : أنشئت عام ١٨٣٤ ورئسها الفرنسي لامبير باشا وأرسلت البعثات الهندسية الى فرنسا طوال عهد المدرسة الاول . وبين عام ١٨٤٩ - ١٨٥٤ رثن المدرسة علي باشا مبارك وهو ، كما رأينا ، من رجال البعثات الى فرنسا ومن ذوى الاتجاه الثقافي الفرنسي . لكن المدرسة ضعفت بين عام ١٨٢٨ و ١٩٠١ ولم تجتذب عددا كبيرا من التلاميذ . وفي عام ١٩٠٥ قرر المسؤولون في عهد الاحتلال احيائها فبنيت أبنية جديدة

(١) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٢) وزارة المعارف ، التقرير النهائي للجنة الجامعة ، ص ٣٣ .

وأرسلت البعثات للتخصص في أوروبا اقتداءً بطريقة محمد علي ولكن التركيز هذه المرة كان على إنجلترا ، وعين المستر ر . هولت الانجليزي رئيسا للمدرسة . وأصاب القسم الفرنسي في مدرسة الهندسة ما أصابه في غيرها ، ففي تقرير عام ١٩٠٥ يذكر دنلوب ان الاقبال على القسم الانجليزي يسترعي الانتباه وانه بين السبعة وعشرين طالبا الذين دخلوا المدرسة في ذلك العام كان هنالك طالب واحد للقسم الفرنسي والباقيون التحقوا بالقسم الانجليزي في حين كان عدد طلاب القسم الانجليزي في العام السابق عشرة مقابل عشرة للقسم الفرنسي . وهكذا اتجهت مدرسة الهندسة مع غيرها تدريجيا نحو التعليم الانجليزي .

د . مدارس المعلمين : لن نذكر هنا جميع مدارس المعلمين العليا انما نتعرض الى أهمها وهي مدرسة المعلمين ودار المعلمين الخديوية والمدرسة التوفيقية .

ففي عام ١٨٨٩ تحول مكتب الترجمة والتحرير الذي انشئ عام ١٨٨١ الى دار المعلمين الخديوية ، والغاية من ذلك اقامة مدرسة لتخريج مدرسين مصريين للغة الانجليزية في المدارس الابتدائية . وقد كانت اللغة الانجليزية هي اللغة المعتمدة في تدريس جميع المواد لطلاب دار المعلمين هذه .

وفي مدرسة المعلمين كان التعليم عام ١٨٨٦ اما بالانجليزية أو الفرنسية حسب اختيار الطالب ثم ألغي القسم الانجليزي حتى كان عام ١٩٠٦ فأعيد افتتاحه وخصص القسم الادبي في المدرسة عام ١٩٠٨ لتخريج مدرسين للغة الانجليزية والمواد الادبية .

أما المدرسة التوفيقية فقد تحولت هي أيضا الى النظام الانجليزي . ففي

عام ١٨٩٨ كان عدد طلاب القسم الفرنسي ثلاثمئة طالب وعدد طلاب القسم الانجليزي ثمانين طالبا . ولكن المسؤولين انشأوا مدرسة معلمين تابعة للمدرسة التوفيقية وجعلوا الدراسة فيها بالعربية والانجليزية وما لبث ان " حل انجليزي في المكان الذي كان منذ انشئت المدرسة ملكا للفرنسيين " (١) ، وهو رئاسة المدرسة . ويظهر ان مدرسة المعلمين التابعة للتوفيقية أنشئت بسبب الحاجة الى معلمين للانجليزية ، وهذا ما يذكره دنلوب في تقرير عام ١٩٠٣ ان يقول " ومن أجل سد الفراغ في صفوف مدرسي الانجليزية والمواد التي تدرس بها أنشئت المدرسة التوفيقية لتدريب المعلمين " (٢) .

هكذا اتجهت أنظمة المدارس وبرامجها التعليمية في فترة وجيزة من عصر الاحتلال نحو التعليم الانجليزي .

البعثات العلمية

وقد أصاب البعثات العلمية في عصر الاحتلال ما أصاب المياسة العامة للتعليم والنظام التعليمي بشكل عام ، فتغيرت وجهتها ومقاصدها وأصبحت فرنسا التي كانت مقرا لأكبر بعثة مصرية والتي افتتح فيها بيت خاص لاءضاء البعثات ، في المرتبة الثانية .

غير ان الاحتلال لم ينتهج منذ البدء سياسة ارسال البعثات على نطاق واسع ، يلخص دنلوب في تقاريره هذه السياسة فيقول : " خلال السنوات الخمس عشرة الماضية وجهت جهود وزارة المعارف نحو زرع الثقافة الاوروبية في محيط مصرى برفع مستوى مدارس الحكومة المصرية الى مستوى مدارس اوروبا أكثر منها

(١) ميتان ، تحول مصر ، ص ١٦٥ .

(٢) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٣ ، ص ٥٢ .

بارسال المصريين منعزلين الى اوروبا للدراسة " (١) .

ولنتعرض لسياسة ارسال البعثات بعد الاحتلال كما ظهرت في التقارير
عن التعليم التي رفعت الى الخديوى بين عام ١٨٨٥ وعام ١٨٨٩ .

بقيت البعثات الى فرنسا أكبر عددا من البعثات الى انجلترا حتى عام
١٨٨٥ ، فبين عام ١٨٢٨ وعام ١٨٨٥ أرسل الى فرنسا تسعة وعشرون طالبا
منهم اثنان وعشرون أرسلوا بين سنة ١٨٨٣ - أى بعد الاحتلال بسنة واحدة -
وسنة ١٨٨٥ ، بينما لم يرسل الى انجلترا سوى ثلاثة طلاب عام ١٨٨٣ . وفي
أواخر عام ١٨٨٦ بلغ أعضاء البعثة العلمية الحكومية الى فرنسا ثمانية وعشرين
تلميذا وكان هنالك اثنان وعشرون طالبا يدرسون على حساب ذويهم بإشراف
الحكومة . أما البعثة العلمية الى انجلترا فقد ورد في التقرير الثاني المرفوع
للخديوى عام ١٨٨٦ انها لا تزال في حالة سيئة بسبب عدم توفر الموارد
الكافية للوزارة لتطويرها كما تريد . ففي عام ١٨٨٣ أرسل أربعة شبان من
مدرسة الصنائع الى انجلترا ليتخصصوا في حقول التلفزيون والسكك الحديدية
وصنع الآلات . وفي عام ١٨٨٢ لم يزد عدد طلاب البعثة العلمية عن الخمسة
ولم يتغير هذا العدد في السنة التالية أيضا ، في حين بلغ عدد أعضاء
البعثة الى فرنسا في ذلك العام ، أى عام ١٨٨٨ ، ثلاثة وثمانين طالبا .
أما في السنة التالية فقد كان أعضاء البعثة الى انجلترا قد عادوا باستثناء
واحد كان على وشك العودة . فاختير ثلاثة أعضاء جدد ليتخصصوا هناك في
حقول التعليم حتى يعودوا ويتسلموا المناصب التي تتطلب اللغة الانجليزية في
المدارس العامة . كذلك في عام ١٩٠١ أرسل أربعة طلاب وطالبة واحدة الى
انجلترا ليتعلموا في مدارس المعلمين هناك .

(١) دنلوب ، ملاحظات حول أوضاع التعليم ، سنة ١٩٠٢ ، ص ٦٤ .

وبقيت حالة الضعف تسيطر على البعثات الى انجلترا حتى عام ١٩٠٦ عندما نشهد من خلال تقارير دنلوب تحولا في خط البعثات واتجاهها نحو انجلترا ونشاطا أوسع نطاقا وأكثر تنظيما من السنوات الماضية . ففي سنة ١٩٠٢ كان في انجلترا اثنان وعشرون طالبا يتخصصون في التربية أرسل منهم عشرون في السنة السابقة كما كان هنالك طالبان يتخصصان بالهندسة ، وفي عام ١٩٠٨ ارتفع عدد اعضاء البعثات الحكومية الى انجلترا الى اربعين طالبا . وفي ذلك العام افتتح مركز للبعثة العلمية في انجلترا على غرار ذلك الذى افتتح للبعثة العلمية في فرنسا يوم كانت هي مقصد البعثات العلمية المصرية .

أما البعثات العلمية الخاصة ، أى أولئك الذين يدرسون على نفقة ذويهم تحت مراقبة الحكومة ، فقد بقيت حتى ذلك العام تفضل التوجه نحو فرنسا وكان هنالك ستة طلاب فقط في انجلترا في حين كان عددهم في فرنسا ستة عشر .

في عام ١٩٠٩ ارتفع عدد طلاب البعثة الحكومية الى انجلترا الى اثنين وخمسين طالبا مقابل ثلاثة طلاب فقط يدرسون الحقوق في فرنسا . لكن البعثات الخاصة بقيت حتى هذا التاريخ أيضا تفضل التوجه الى فرنسا فكان هنالك سبعة عشر طالبا في فرنسا مقابل عشرة طلاب في انجلترا . أما اعضاء البعثات الذين يدرسون على نفقة أهليهم دون مراقبة الحكومة فقد بلغ عددهم مئة في انجلترا وثلاثمئة موزعين بين فرنسا وبلجيكا وسويسرا مما يشير الى ان الاقبال الخاص على التعلم في انجلترا لم يكن قد تمكن تماما بعد . وان كان الفرق بين اعداد الطلاب المرسلين الى انجلترا وفرنسا قد أخذ يتضائل .

وفي عام ١٩١٠ بلغ عدد اعضاء البعثة الحكومية الى انجلترا اثنين واربعين طالبا وعدد اعضاء البعثة الى فرنسا ستة طلاب وطالب واحد الى

النمسا . اما في البعثات الخاصة التي كانت تحت اشراف الحكومة ، فقد ظلت فرنسا متفوقة على انجلترا ، وان كان الفرق قد أصبح ضئيلا ، فعدد الطلاب المتوجهين الى فرنسا بلغ اربعة عشر طالبا والى انجلترا اثني عشر طالبا .

وبرزت هذا العام بعثات الجامعة المصرية التي أرسلت ثلاثة عشر طالبا الى فرنسا وسبعة طلاب الى انجلترا وثلاثة الى ألمانيا وواحدا الى ايطاليا ، كما كان هنالك ثلاثة طلاب يدرسون على نفقة الحكومة الفرنسية في فرنسا .

وفي العام التالي ارتفع عدد اعضاء البعثة الحكومية الى انجلترا الى تسعة واربعين عضوا وبقي عدد الطلاب في فرنسا والنمسا كما كان في العام السابق . الا ان عدد اعضاء البعثات الخاصة الواقعة تحت اشراف الحكومة بلغ في انجلترا اثني عشر عضوا وفي فرنسا خمسة عشر ، وارتفع عدد اعضاء بعثة الجامعة المصرية في فرنسا الى أربعة عشر طالبا في حين انخفض العدد في انجلترا الى ستة . بالاضافة الى ذلك كان هنالك ستة طلاب يدرسون في فرنسا على نفقة الحكومة الفرنسية وثلاثة يدرسون في ايطاليا على نفقة الحكومة الايطالية . ومن البعثات المستقلة الخاصة كان هنالك اربعمئة طالب بينهم أكثر من مئتين في انجلترا وأكثر من مئة في فرنسا والباقي موزعون على ألمانيا وسويسرا وبلجيكا .

أما في عام ١٩١٣ فقد استمر تفوق البعثات الحكومية الى انجلترا واستمر تفوق بعثات الجامعة المصرية الى فرنسا ان بلغ عدد اعضاء الاولى اثني عشر وعدد اعضاء الثانية أربعة فقط ، في حين تفوقت البعثات الخاصة الى انجلترا ولأول مرة بشكل ملحوظ عنها الى فرنسا فبلغ عدد اعضاء الاولى ثلاثمئة وتسعة وثمانين طالبا مقابل مئة وخمسة وخمسين للثانية .

من هذه المعلومات يتبين لنا ان فرنسا بقيت فترة طويلة ، المقصود
المفضل للبعثات العلمية والاهلية ، بالرغم من توجه ادارة البعثات الحكومية
كلها تقريبا نحو انجلترا . كما ان مركز فرنسا في البعثات العلمية لم يضعف ،
بل ظلت الجامعة المصرية توجه اليها أكثر اعضاء بعثاتها وظلت نسبة اعضاء
البعثات الخاصة اليها مرتفعة .

ولعل هذه الظاهرة توضح تعلق المصريين بالثقافة الفرنسية وثقتهم بها ،
وهي التي كانت أول ثقافة تعرفوا اليها ، كما توضح سبب استمرار التيار الفرنسي
في الحياة الفكرية والادبية في مصر ووقوفه وجها الى وجه مع التيار الانجليزى
كما سنرى في الباب الاخير من هذه الدراسة .

خلاصة

في التعليم وأثره في نشر الثقافة الغربية في مصر

كان التعليم في الداخل والبعثات العلمية الى الخارج أول سبيل للاتصال بالغرب ، فقد استطاعت البعثات العلمية منذ عصر النهضة الاول أن تكون صلة وصل متينة بين مصر واوروبا . وقد كان لجهود المبعوثين ، عندما عادوا ليطبّقوا ما تعلموه في الخارج على بلادهم ، أثر كبير في تطوير الحركة التعليمية وكان لهم بالتالي وفي الامد البعيد اسهام خطير في تطوير الحياة العامة ، الفكرية والمادية معا ، وقد نوهنا باسهام رجال البعثات أمثال رفاعة رافع الطهطاوى وعلي باشا مبارك وعلي باشا ابراهيم وغيرهم ممن عملوا في ميدان التعليم وجدّوا في تطويره وتنظيمه وفق الانظمة التي تعرفوا اليها في اوروبا ، محاولين أكثر من مرة سد الثغرة بين التعليم القديم والتعليم الحديث ، لتلافي التباين الثقافي بين ابناء الشعب كما حدث عندما وضعت لائحة رجب وتقرير قوميسيون عام ١٨٨٠ .

ولا حاجة بنا الى التشديد على أهمية التعليم والتوجيه الثقافي خاصة اذا كانت الامة في أول عهدها بالنهوض ومستهل انفتاحها على الحضارات الاخرى . وهي اذا ولّت وجهها شطر أمة واحدة من الامم ، فانها حين تأخذ بأساليب هذه الامة التعليمية وأنظمتها المادية لا بد من ان تقتبس عادات تفكيرها وترتبط بها ارتباطا ثقافيا لا يلبث حتى يصبح أقوى من أى تحسد خارجي ، وخاصة اذا جاء هذا التحدى متأخرا .

هذا ما حدث في مصر : فمئذ ان تولى محمد علي أمرها وبدأت تأخذ

طريقها نحو النهوض كان اتصالها أولا مع فرنسا . ولقد كان هذا الاتصال اراديا واعيا وكان منطلقه ماديا أكثر منه ثقافيا ، أى ان دافع الاتصال الاول كانت غايته تقوية الجيش وتحسين نظامه . وقد رأى الوالي ان هذه الغاية لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق الاتصال بالغرب ، فاختر منه ايطاليا ، الدولة المفضلة بادئ الامر ، ثم تحول عنها الى فرنسا ولم يغير اتجاهه بعد ذلك . الا ان الغاية العسكرية ما لبثت ان زالت وبقي الأثر الفرنسي واضحا في نهضة مصر الحديثة ، في التعليم والترجمة والأدب والثقافة بالمعنى العام .

ولقد كان لهذا السبق التاريخي الذى أحرزته فرنسا في اتصالها الثقافي بمصر ، أثر كبير في توجيه عقل المصرى وعادات تفكيره وميوله الثقافية . وكان هذا الأثر من القوة بحيث لم يستطع الاحتلال البريطانى عندما وعى خطره أن يقضى عليه ، بالرغم من الحملات المقصودة المنظمة التي عرضا لها في الفصل السابق . وقد كان التعليم أول مجال وجهه البريطانيون همهم اليه للقضاء على الأثر الفرنسي ، لأنه المجال الاول والأصن الذى يعد ابنا الشعب ويوجههم الوجهة الثقافية الرئيسية . فعن طريق التعليم ، قبل أى طريق آخر ، سواء كان التعليم الداخلى أو البعثات التعليمية ، دخل الأثر الأوروبى وعلى الاخص الأثر الفرنسى الى مصر . وعن طريق التعليم حاول البريطانيون مقاومة هذا الأثر . فالمقاومة العسكرية لأى نفوذ لا يمكن ان تؤدى الى نتائج ايجابية اذا كان هذا النفوذ قد تغلغل في عقل الشعب ونفسه وعادات تفكيره . وهذا ما لم يفهمه الانجليز الا في مرحلة متأخرة من مراحل اتصالهم بمصر فأعطوا لفرنسا ، عن غير قصد ، السبق التاريخي للسيطرة على العقل المصرى وحدها ودون منازع لفترة دامت زهاء قرن كامل . وقد كانت مصر يوم اتصلت بفرنسا أرضا بكرى لزرع بذور الثقافة الأوروبية ، ان قد طالت فترة انقطاعها عن الحضارة العصرية المتطورة ، ولم يكن فيها من المؤثرات

العقلية والنفسية الحيّة ما يستطيع ان يقف في وجه الاتجاه الفرنسي . واذا كانت رواسب الماضي قد أثرت في سرعة تقدم التأثير الفرنسي في مصر فـان فرنسا لم تكن وحدها تقاوم هذه الرواسب ، بل كانت السلطة المصرية التي جانبها في المعركة ، بل أعنف منها في المقاومة ، وكان رجال البعثات أشد اندفاعا لتحرير مصر من الرواسب البالية دون ان يقطعوها عن تاريخها القديم .

أما انجلترا فعندما أرادت ان تسلك السبيل نفسه لتقاوم فرنسا بـسلاحها ، وجدت شعبا قد حدد وجهته الثقافية قبل ان تأتي هي بأكثر من نصف قرن ، وقد راقه هذا الاتجاه وأحبّه وارتاح له ، على ما يبدو ، مما جعل مهمّة انجلترا عسيرة ، وأضاف الى جهود فرنسا في مقاومتها لها مقاومة الشعب نفسه . وقد اعترف بعسر هذه المهمة مندوبو الاحتلال أنفسهم واعترف باخفاق السياسة التعليمية كثيرون من البريطانيين الذين درسوا أوضاع الاحتلال البريطاني لمصر (١) . وليس أدل على ذلك من ملاحظة لورد كرومر نفسه عندما قال : " وهكذا حصل الفرنسيون على بداية لم يخسروها فيما بعد " (٢) .

ولم يكن السبق التاريخي وحده هو الذي ضمن التفوق للثقافة الفرنسية في مصر . فهناك عوامل عدة تضافرت لتضمن لها هذا التفوق وتجعل منها مورد المصريين المفضل .

لعل أهم هذه العوامل موقف المصريين من الانجليز والفرنسيين . فالمصري لم يكن له مع الانجليزى تجربة غير تجربة الاحتلال العسكرى ولم يعرف بريطانيا

(١) راجع ما ذكرناه من ملاحظات هؤلاء في فصل التعليم في عصر الاحتلال .

(٢) تقرير لورد كرومر ، ص ٦٤٢ .

مساعدة له في نهضته طوال نصف قرن ، كما كان عهده بفرنسا . فقد اقترنت النهضة المصرية الحديثة في أهم مراحلها ، مرحلة محمد علي ثم مرحلة اسماعيل ، بالثقافة الفرنسية وكان المصري أصبح يتطلع الى فرنسا في كل ما يتعلق بتطوره الحضارى . وحتى في بعض مراحل صراعه الوطني من اجل الاستقلال كان يتوجه صوب فرنسا طالبا مساعدتها ، وقد كان زعيم حركة الاستقلال مصطفى كامل أول المتجهين نحو فرنسا آملا ان تكون النصير الاقوى له في معركته مع الاحتلال البريطاني ، وهي التي نشرت في العالم شعارات الحرية والمساواة والاخاء . واذا كانت فرنسا قد خيبت آمال المصريين في معركتهم السياسية عندما وقعت مع بريطانيا سنة ١٩٠٤ الاتفاق الودى القاضى باطلاق يــــد الانجليز في مصر لقاء تنازلات لها في المغرب ، فانها بقيت في عقولهم وقلوبهم لانها لم تدخل اليهم عن طريق السياسة والاحتلال العسكرى بل عن طريق التعليم والتوعية .

لقد ارتبطت فكرة النهضة في ذهن المصريين بالاتجاه الفرنسي . وعندما كانت فرنسا تحاول التسرب الى عقول المصريين عن طريق مساعدتها لهم في نهضتهم لم تكن تحاول ان تقضي على لغتهم وثقافتهم القديمة لتحل لغتها وثقافتها محلها . فلقد كان زمام الامور في أيدي المصريين آنذاك فكانوا هم المخططين لسياساتهم التعليمية واتجاهاتهم الثقافية ، وكان اتصالهم بفرنسا اتصالا اراديا واعيا . لذلك كانت فرنسا بالنسبة لهم المنبع الذى تستقي منه حضارتهم والموئل الذى يلودون به في كل ما يتعلق بشؤونهم الثقافية .

أما انجلترا فلم ير فيها المصرى الا صورة الدولة المحتلة الدخيلة الطامعة في خيرات بلاده ، العابثة بترائه ومقدساته ، لذلك كان طبيعيا ان ينفر منها ويقف موقف الحذر في أكثر الاحيان . وهذا ما شكل عقبة كبيرة في

سبيل تسرب الثقافة الانجليزية الى العقل المصري . وعندما تعرضت انجلترا لشؤون التعليم ، وقفت من اللغة العربية موثقا لم يقرها من قلوب اصحابها ، بل انها أخذت تقاوم العربية والفرنسية معا (١) . فشمع المصريون بقرينهم من الثقافة الفرنسية وأحسوا بما يشبه وحدة الحال ، وخاصة أنهم تعودوا التطلع نحو فرنسا ، وتفتحت أذهانهم في نهضتها على الثقافة الفرنسية . وعندما أصدر لورد كرومر ، سنة ١٨٩٥ ، قراره بإلغاء البعثات العلمية الى فرنسا ، ثارت الصحافة المصرية وأخذت جانب الفرنسيين . ومن يراجع صحافة هذه السنة تبرز له هذه النقمة على القرار .

زد على ذلك كله ان السياسة التعليمية التي وضعها كرومر قامت على تشجيع نظام الكتاتيب . ومع ان هذا النظام كان قد أصبح نظاما شائعا في حياة المصريين التعليمية في مطلع عصر النهضة ، فانه غدا عقب النهضة الاولى يمثل الركود والجمود العلميين ، وخاصة ان المصريين الذين كانوا في مطلع نهضة محمد علي ينظرون الى المدارس الحديثة بعين الحذر ، لمسوا نتائجها وفوائدها وأصبحت تمثل بالنسبة لهم المستقبل المشرق والحياة الكريمة .

وقامت سياسة كرومر التعليمية أيضا على الحد من المدارس ^{الحديثة} الجديدة والتقليل من قيمتها وأثرها وذلك بقصر مهمتها على تخريج الموظفين/المحدودي الثقافة . فكان لذلك أثر كبير في بقاء زعامة الاتجاه الفرنسي في الفكر المصري لأن من تثقفوا ثقافة انجليزية كانوا يصلحون للوظائف الحكومية أكثر منهم زعماء حركات فكرية واتجاهات ثقافية ، خاصة في الفترة الاولى من الصراع التعليمي بين فرنسا وانجلترا .

(١) راجع فصل التعليم في عصر الاحتلال .

جاء في تقرير لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية العمومية الفرنسية عن نفوذ الثقافة الفرنسية بمصر في عهد الاحتلال : " ان الاتفاق الودي الذى عقد سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلترا اشتمل على عدول فرنسا عن كل مطلب سياسي في وادى النيل مقابل حصولها على حرية العمل في المغرب الاقصى ، وقد كان من المتوقع نظريا ان يفضي هذا الاتفاق الى اضعاف نفوذنا في مصر ، ولكن ذلك لم يحدث لاسباب عديدة منها قلة اهتمام الاحتلال البريطاني بالتقدم العلمي والاجتماعي في مصر بينما حافظت فرنسا على تقاليدنا في هذا الصدد ، وبقي نفوذنا متفوقا من الوجهة الثقافية ، حتى انها استفادت في ذلك من الاحتلال البريطاني نفسه . وليس في وسع أحد ، الا الذين سكروا مصر وعرفوها ، أن يدرك مقدار اهتمام الطبقة العليا في مصر بالثقافة الفرنسية " (١) .

أما لورد كرومر فقد حاول ان يفسر اقبال المصريين على الثقافة الفرنسية وتحفظهم تجاه الثقافة الانجليزية وكأنه يتجاهل مسؤولية الاحتلال في ذلك . قال كرومر : " تجدر الملاحظة ان الحضارة الفرنسية تملك درجة خاصة من الجاذبية ، ليس فقط بالنسبة للشعوب الاسيوية بل للشعوب الأوروبية في الشرق أيضا . هذه النقطة عظيمة الاهمية ، لأن بين العقبات التي وقفت في وجه المصلح البريطاني في مصر ليس هناك ما هو أهم من ان المصريين والشرقيين الذين تتقوا ثقافة اوروبية قد تأثروا بالاتجاهات الفكرية الفرنسية أكثر من تأثرهم بالعادات الفكرية البريطانية " (٢) . وفي مكان آخر يقول : " ان فرنسا ، حكومة وشعبا ، وهبت موهبة بعد النظر السياسي ، لقد كانت أقدر من

(١) محمد الطيب حسن ، أثر الثقافة الغربية في الادب المصري الحديث ،

(رسالة مقدمة الى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٤٠ ، لنيل

درجة الماجستير ، غير مطبوعة) ، هامش ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٢٣٦ .

الانجليز على تفهم الاوضاع العامة فوجدت مصلحتها وتبعتها . لقد تنبهت الى انه لو تعلم شبان مصر اللغة الفرنسية ، فانهم سيتشبعون ، بالتالي ، بحادات التفكير الفرنسية . وأملت أن يؤدي ذلك الى التقارب مع فرنسا وتأمين مصالحها السياسية " (١) .

وقد اعترف رسل غولت بتفوق اسلوب فرنسا التعليمي على اسلوب انجلترا العسكري ، يقول : " ان لدى انجلترا في مصر جيشا ولدى فرنسا فلسفة ، فانجلترا تدير شؤون التعليم وتنظمه وفرنسا تمدده بفلسفتها لذلك فقد أثبت التعليم الفرنسي انه أقوى من السيف الانجليزى " (٢) .

هكذا اذا انفردت الثقافة الفرنسية بتوجيه التعليم في مصر زهاء قرن ، فحققت لنفسها أعظم الفائدة من هذه المبادرة ، مما مكها من الصمود في وجه التيار الانجليزى الذى جاء عنيفا قويا وكأنه أراد أن يعوض ما فاته . ولكن اذا كما قد أثبتنا قدرة التيار الفرنسي على الصمود ومقاولة التيار الانجليزى وجهها لوجه دون أن يحمي تحت ضرباته الموجهة ، فان ذلك لا يعني ان التيار الانجليزى لم يستطع ان يثبت أقدامه بدوره . واذا كان قد احتاج الى وقت طويل ليفعل ذلك ، بسبب العوامل التي أشرنا اليها ، فانه في النهاية استطاع ان يخلق أثرا وجه عددا من أقطاب الحركة الادبية المصرية وسيطر على بعض مدارس الأدب . ولئن كانت الحركة التعليمية قد تأثرت سلبيا من الصراع البريطاني الفرنسي فان وجود تيارين غربيين في مدارس مصر الفكرية

(١) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٢٣٥ .

(٢) رسل جولت ، الصراع بين الفلسفتين الفرنسية والانجليزية في مصر ، ص ١٦ .

Russel Galt, The Conflict of French and English Philosophy in Egypt, (Cairo, American University, 1937), p. 16 .

والادبية ، بعد ان ثبت كل من التيارين أقدامه فيها ، كان له أثر ايجابي
نتج من تفاعل مدارس الفكر الغربي بعضها مع البعض الآخر من جهة ، ومع
التراث العربي القديم من جهة اخرى .

ولا بد من الاشارة هنا الى انه حتى نهاية فترة هذا البحث ، أى حتى
عام ١٩٢٥ ، كان التيار الفرنسي هو الذى يصنع الحركة الثقافية العامة ، وان
كان التيار الانجليزى قد ولد بعض اقطابه امثال العقاد والمازني وشكرى وبعض
اقطاب المدرسة السورية المتمصرة ، الا ان سيطرة التيار الانجليزى على الحركة
الفكرية بشكل أوسع يجب ان ننتظر الى ما بعد هذه الفترة . وليس ذلك
غريبا فكان اهتمام انجلترا بالتعليم وتوجيهه في مصر لم يبدأ قبل نهاية القرن
الماضي ، وهو يحتاج الى فترة أطول من ربع القرن ليتمكن من بسط سيطرته
على الاجواء الفكرية . ولقد كان الحظ حليف التيار الانجليزى عندما نبغ من
المتأثرين به امثال العقاد والمازني اللذين استطاعا ، بما لديهما من جرأة
ومقدرة ، ان يمكنا هذا التيار وأثره في المدارس الفكرية المصرية منذ بدايته
ظهوره . وبذلك كان لمصر تياران ادبيان غريبان هما نتيجة التعليم بالدرجة
الاولى . ولم يكن هذان التياران في صراع دائم كما كانا في مجال التعليم ،
بل انهما كثيرا ما كانا متفقين في اهدافهما العامة عاملين بجهد واخلاص على
ادخال الفكر الغربي والتخلص من الرواسب القديمة التي وقفت حائلا دون تطور
مصر ، فنشأ عن ذلك الصراع التقليدى بين القديم والحديث ، وسيتضح ذلك
في فصل مقبل .

كان التعليم اذا عاملا رئيسيا في خلق تيارين ادبيين غربيين في مصر ،
ولكنه لم يكن العامل الأوحد في هذا المجال . فقد كان هنالك عامل آخر
لا يقل عنه أهمية هو عامل الترجمة . فالترجمة كانت نتيجة للتعليم من جهة ،

وعاملا مكملا ومساعددا وضروريا له من جهة اخرى ، وذلك من أجل نشر تيارات الفكر الغربي . ولعل دور الترجمة المباشر والواضح في الحركة الادبيــــــــــــة يجعلها جزءا من هذه الحركة وان كانت في الوقت نفسه مسببا لها . نعني بذلك ان الترجمة كانت في البدء عاملا مساعددا لدخول الأثر الغربي إلى مصر ، ولكنها ما لبثت أن أصبحت نتيجة لهذا الأثر . وسيتضح ذلك في الباب التالي الذي سنتحدث فيه عن نشأة الترجمة ومهمتها ونتائجها .

الباب الثاني

الترجمة واثرها في نشر الثقافة الغربية في مصر

الفصل الاول

الترجمة عن الفرنسية

مقدمة :

بدأت حركة الترجمة في مصر رسمية علمية ، فمنذ عقد محمد علي العزم على النهوض بمصر والحاقها بركب الحضارة ، احس بالحاجة الملحة الى الترجمة التي تتيح له ان يقتبس علم الغربيين التي اعجب بها والتي رأى فيها مصدر قوتهم وسبب تقدمهم . وقد كان طبيعيا ، غاية محمد علي هي تقوية الجيش في المقام الاول ، فان تنحصر الترجمة في البدء بخدمة الأغراض المباشرة التي يسعى اليها الوالي . ثم ان حركة النهضة بدأت في حقل التعليم ، وكان هذا الحقل بحاجة ماسة الى اقتباس علم الغرب وفنونه لكي يؤدي مهمته ، فلم يكن لمصر نظام تعليمي حديث تدير عليه لتصل الى غاياتها . وكان نظام الكتاب قد جمّد العقول وحدّ من امكانيات الابداع وحصر العلم في دراسة التراث دراسة تقم على الحفظ دون تفهم او ادران . لذلك فان نظام التعليم الحديث لم يكن باستطاعته ان يؤدي دوره في عصر النهضة ، وهو الدور الرئيسي الاول ، الا بمساندة الترجمة . وقد

ارتبطت الترجمة بالتعليم في اوائل عصر النهضة ارتباطا لصيقا .
فانحصرت ، او كادت ، في هذا المجال وفي مجال العلم ذات الفائدة
العملية المباشرة . اضاف الى ذلك انه كان من الطبيعي ان تتجه
حركة الترجمة في اول عهدها الى ترجمة الكتب العلمية ، سواء
كانت تقصد الى غايات معينة او لم تكن ، ذلك ان الترجمة الادبية
يجب ان يسبقها استعداد عقلي ونفسي وثقافي لدى الشعب المترجم
لكي يفهمها ويقبل عليها ويفيد منها . وهذا ما لم يكن موجودا في
مصر التي كانت تجتاز مرحلة من الجمود الثقافي عند بدء عصر
النهضة .

لذلك فان الترجمة العلمية والتعليم معا مهدا ، في فترة
النهضة الاولى ، لخلق الاجواء الملائمة لتقبل الترجمة الادبية .
وما لبثت الترجمة الرسمية العلمية ان بدأت تتسع شيئا فشيئا ، حتى
اصبح لدينا ترجمة ادبية غير رسمية كانت نتيجة لتطور الذوق العام في
مصر ، بعد ان ارتفع مستواه العلمي والثقافي من جهة ، وكانت سببا
في دفع الحركة الادبية قدما وارتفاع مستوى التذوق الفني من جهة
اخرى .

ولا بد من ان نشير هنا الى ان ملاحج الترجمة الادبية بدأت منذ
اوائل عصر النهضة على يد قطب الترجمة رفاعة رافع الطهطاوى ،

ولكنها لم تصبح ظاهرة واضحة مؤثرة الا بعد انقضاء عصر النهضة الاول أيام محمد علي ومعظم عصر اسماعيل .

واذا كانت الترجمة الرسمية قد اقتضرت او كادت على مصدر واحد هو المصدر الفرنسي ، فان الترجمة الادبية قد استفادت من معينين هما الادب الفرنسي والادب الانجليزي .

وقد كان من الطبيعي ان تتجه الترجمة الادبية الى الفرنسية في البدء ، لان الاتجاه الفرنسي هو الذي سيطر على مدارس عصر النهضة ، كما سيطر على حقل الترجمة الرسمية . اما الاتجاه الانجليزي فقد استطاع ان يثبت وجوده في الترجمة الادبية بعد عصر الاحتلال . وبعد ان اعطت مدارسها الاولى . وهنا يجب ان نلاحظ ان اقتحام الترجمات في الانجليزية للعقل المصري والنفسية المصرية كان اسهل من اقتحام الترجمات عن الفرنسية . فالترجمة عن الفرنسية هي التي شقت الطريق وطوعت العقل المصري لفهمها واعادت النفسية المصرية لتقبلها والاقبال عليها ، ولما انتشرت الترجمة الادبية عن الانجليزية وجدت السبل مفتوحة امامها فتقبلها القراء وشغفوا بموضوعاتها حتى انتشرت انتشارا واسعا ، وتطرفت الى العديد من الموضوعات . وكل ذلك سبب في شكل اوضح عندما نتعرض لتطور حركة الترجمة في مختلف عصورها .

عصر محمد علي :

بدأت حركة الترجمة الفعلية على ما يبدو عام ١٨٢٠ وكانت لا تزال متجهة نحو ايطاليا ، وقد اشرنا الى ان الأب روفائيل وضع قاموسا عربيا - ايطاليا كان من اوائل الكتب التي طبعت في مطبعة بولاق عام ١٨٢١ . ثم تحولت اتجاهات النهضة ، بما فيها الترجمة ، نحو فرنسا ، وبدأ الاقتباس عن العلم الفرنسية . وقد سيطر الاتجاه العلمي البحث على الترجمة في هذا العصر ، لان النهضة كانت بحاجة الى العلم لتؤسس دعائمها الاولى وتثبتها ، لذلك كان حظ الآداب ضئيلا جدا وتركز الاهتمام في البدء على ترجمة مواد الطب البشري والبيطري والرياضيات والعلم البحرية والحربية . ولم يكن في مصر في مطلع حركة الإصلاح من يستطيع الترجمة ، فلجأ محمد علي ، على ما يبدو ، الى المترجمين السوريين الذين كانوا يقيمون في مصر ، ونذكر منهم الأب انطون روفائيل ويوحنا عنحوري واوغسطين سكاكيني^(١) .

(١) كانت هذه الترجمات ركيكة ، على ما يظهر ، حتى اضطر محمد علي الى

تعيين مصححين من شيوخ الازهر اشير اليهم في جميع الكتب التي تحدثت

عن الترجمة في ذلك العصر .

واستعان محمد علي بموظفي الحكومة للترجمة الى التركية ، فقد كانت الترجمات الاولى تعنى بشؤون الجيش ، وكان اكثر القائمين عليه من العناصر التركي . ولما لم يكن المترجمون السوريون يتقنون التركية فقد قام بمهمتهم بعض الموظفين واشهرهم عثمان نور الدين الذي سبقت الاشارة اليه .

واتبع محمد علي اول الامر سياسة تقضي بجعل كل عضو من اعضاء البعثات يترجم كتابا عند رجوعه الى مصر وقبل ان يعمل اى عمل آخر او يرى اى شخص او يتسلم اية مهمة^(١) . وكذلك عهد بالترجمة لاعضاء البعثات وخريجي المدارس الذين تسلموا مهام اخرى ، وذلك كعمل الهافي الى جانب التدريس او الادارة او التطبيب . غير ان هذا كله لم يكن كافيا ، وكان لابد من ايجاد متخصصين في الترجمة ، لان المسؤولين وعوا اهميتها باعتبارها عنصرا رئيسيا في الطريق الى النهضة المرجوة . لذلك انشئت مدرسة الألسن وعهد بادارتها الى رفاعة رافع الطهطاوى .

تم انشاء مدرسة الألسن حوالي عام ١٨٣٥ وكانت تدرس اللغات العربية

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٣٣ .

والتركية والفرنسية ومبادئ الرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وفي عام ١٨٣٧ كان تلاميذ المدرسة يشكلون ثلاث فرق يدرسون اللغة الفرنسية ، ويدرّس أكثرهم اللغة العربية وقليل منهم اللغة التركية ، ويدرّس جماعة منهم الحساب والجغرافيا . وقد أشار عزت عبد الكريم الى اقتراح تقدمت به لجنة الامتحانات لتقوية تدريس الفرنسية من جهة والحساب والجغرافيا من جهة اخرى ، وذلك عن طريق تدريس الفرقة الاولى باللغة الفرنسية وعلى ايدى مدرسين فرنسيين . كما انها اقترحت تدريس التاريخ بالفرنسية وارسلت في طلب الكتب الفرنسية في الادب والتاريخ والقصص^(١) .

ولم يكن غريبا ان تتجه مدرسة اللسن في مناهجها الدراسية وفي مترجماتها نحو فرنسا ، وهذا اتجاه الدولة واتجاه النهضة بكاملها ، بل ان مدرسة الألسن واعمالها جاءت مكملّة للحركة التعليمية متممة لصورة النهضة الاولى ، هذه الصورة التي كان اللون الفرنسي غالبا عليها .

وفي عام ١٨٤١ انشئ " قلم الترجمة والحق به متخرجو مدرسة اللسن ، ولم يكن الواحد منهم يمنح الرتبة حتى يترجم كتابا يحوز " على الرضى السامي " . وقد قسم العمل في هذا القلم

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٣٣٢ .

الى اقسام عدة ، وكانت اكثر الكتب التي ترجمها عن الفرنسية الى العربية وقليل منها عن الفرنسية الى التركية^(١) .

ولن نعن هنا بتفصيل مناهج الدراسة في مدرسة اللسن انما يعيننا ان نتبين الاثر الذى تركه في حركة الترجمة ، وقد كانت الدعامة الاساسية لهذه الحركة .

لقد بقيت مدرسة اللسن حوالي خمسة عشر عاما بدأت فيها تسيطر على شؤون الثقافة العامة في مصر ، فقد كانت صلة الوصل الاولى بين مصر وحضارة الغرب وفكره . وهي الاداة التي نقلت عناصر هذه الحضارة وهذا الفكر لتلقح بها العقل المصرى في عصر تفتحه الاول . صحيح ان التعليم هو الاساس الاول الذى تعتمد عليه النهضة ، الا ان الترجمة عنصر ملازم له لا يمكن ان يؤدى عمله بدونها ، وقد كانت الترجمة اعظم اداة استعملها التعليم في اداء مهمته . ورأينا المترجمين يعينون لشرح دروس الطب والرياضيات والعلم في مدارس

(١) الشيبال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٤٢ .

محمد علي وليكونوا صلة الوصل بين الاستاذ الاوروبي والتلميذ المصري .
ولذا فان مدرسة اللسن مثلت دورا هاما في تاريخ نهضة مصر ، اعادت
لها فيه مترجمين اكفاء استطاعوا ان ينقلوا مئات الكتب الاجنبية
الهامة الى العربية في فترة قصيرة . وقد قدر بعض المؤرخين
عدد الكتب التي ترجمها خريجوها بين مطبوع ومخطوط بحوالي الف
كتاب^(١) . يقول عزت عبد الكريم : " ان مدرسة اللسن كانت
ملتقى ثلاثين : ثقافة الغرب بتفكيرها الجديد على الشرقيين ، ونظرتها
الجديدة الى الحياة وتلك الآفاق الجديدة التي اظهرتهم عليها ، وثقافة

-
- (١) هذا ما يشير اليه الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ١٤٧
- ويشير اليه ايضا قدرى باشا في مقدمة كتابه الدر النفيس في لغة العرب
والفرنسيس ، (بدون تاريخ) ، ص ٥٨ . كما يشير اليه عفيفي في
كتابه المستشرقون ، (القاهرة ، ١٩٣٧) ، ص ١٩ - ٢٤ . وعمر
الدسوقي في الادب الحديث ، (دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٩) ،
ج ١ ، ص ٣٠٥ - ٣١٠ . اما لطيفة الزيات فقد ذكرت في رسالتها عن الترجمة
عن الانجليزية ان عدد الكتب المترجمة في عهد محمد علي بلغ ١١٠ كتابا منها
١٧٢ عن الفرنسية والباقي مترجم عن لغات غير الانجليزية . لعلمها تشير الى
الكتب المطبوعة وحدها فهيوت - دن يذكرني مقال له في المقتطف عدد ١٠٣
ان عدد الكتب التي نشرتها مطبعة بولاق بين ١٨٢٢ - ١٨٤٢ بلغ ٢٤٣ كتابا
عن اللغات الاوروبية وهذا الرقم يبقى اقرب الى تقدير لطيفة الزيات من سابقه .

الشرق العربية او قل ثقافة الازهر القائمة على الجدل والنقاش والتخريج " (١) . ويقول الدكتور طه حسين في فضل مدرسة الالسن وخريجيهما ، " ما الذى رد الحياة الى الادب العربي القديم ، وما الذى ذكر كتاب الشرق وشعراءه بهذا الادب ، وما الذى حملهم على قراءته وروايته ونقده واحتذائه ، انما هو هذا الروح العلمي الذى جاءنا من الغرب ونقله الينا المترجمون ، هذا الروح العلمي هو الذى انشط العقول وحملها على ان تفكر في القديم والحديث وعلى ان تغزو نفسها بهما معا . واذن فانا لم اسرف ولم اتجاوز الحق حين رأيت اننا مدينون بحياة النشر لهؤلاء المترجمين الذين اوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ " (٢) . اما جمال الدين الشيال فيرى انه كان من الممكن ان تسهم مدرسة الالسن في تثقيف الشعب المصرى لو انها عمرت لان الموضوعات التي كانت تترجمها كانت قريبة الى عقل " القارئ " وفهمه " (٣) . ويرى الشيال ان محمد علي خطا خطوة واحدة يصفها بانها بدائية نحو الثقافة العامة وذلك عندما

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٣٣٨ .

(٢) طه حسين ، حافظ وشوقي ، (القاهرة ١٩٣٣) ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٢٢٨ .

- طلب ترجمة كتب خاصة لنشر الثقافة الطبية بين الشعب (١) .
ويقول ايضا : " كان من الواجب ان يؤلف " الافندية " للشعب
وان يترجموا له ولكلهم لم يفعلوا ولهذا كان تأثير الترجمة
في عصر محمد علي ، في المجتمع المصري ضئيلا ان لم يكن منعدما " (٢) .

ولكن اذا نظرنا الى الاثر الذي تركته الترجمة او الدور الذي مثلته
في النهضة المتعددة الاطراف وجدنا انها كانت اساسا متينا لدخول الثقافة
الاوروبية الى مصر ، وان كانت قد انحصرت في الاكثر بترجمة الكتب
المدرسية خاصة في حقل الطب والهندسة . وقد اشرنا الى اسباب ذلك
عندما تحدثنا عن الغاية الرئيسية من النهضة كما تصورها محمد علي .
واذا كانت حركة الترجمة لم تقم بنشر الثقافة العامة بين الشعب - كما يرى
الشيال - فانها اسهمت اسهاما عظيما في الحركة التعليمية في مصر ، وهي
اساس حركة النهضة في ذلك العصر . ولعل الاثر الاوروبي في مصر
ينحصر كله ، في عهد محمد علي ، في الحركة التعليمية ، وما دار حولها

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٢٠٥ .

(٢) ~~الشيال~~ المرجع نفسه ، ص ٢٢٨ .

من عوامل مكلتها ، ومنها الترجمة . وليس ذلك غريبا فقد جاء محمد علي الى مصر والحركة التعليمية فيها بل الحركة الثقافية كلها في حالة ركود بل جمود . وكان لا بدّ من البدء بالتعليم كأساس لنهضة علمية ذات اثر مباشر في الحقول العملية كالطب والهندسة من جهة ، وذات اثر فكري عام من جهة ثانية . اذن كانت غاية الترجمة في المقام الاول خدمة الحركة التعليمية قبل كل شيء كعامل مكمل لهذه الحركة ، ولم تكن الغاية الاساسية منها نشر الثقافة العامة بين الشعب مباشرة في هذه المرحلة على الاقل .

ولقد كانت الترجمة في عصر محمد علي اول محاولة لنقل التراث الاوربي الى العربية ، ولم يكن من الطبيعي ان تشمل جميع الحقول وهي بعد في اول عهدها ، فكان بدهيا ، وهي اداة من ادوات الدولة وعمل من اعمالها الرسمية ، ان تركز غايتها الاساسية في التعليم . واذا اردنا ان نقطع نثار الآثار التي تركتها حركة الترجمة في هذا العصر كان علينا ان ننتظر عصر اسماعيل الذي يعترف الشيال بانه مدين لحركة الترجمة هذه اذ يقول : " فهذا الاثر في الواقع (اى اثر النهضة في عصر اسماعيل) وان تأخر به الزمن هو اثر الترجمة في عصر محمد علي بل لعلهم اقوى آثارها " (١) . ويقول ايضا " ولكن النهضة استوفت في

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٢٢٨

عهد اسماعيل فكان تلامذة مدرسة اللسن عدتها وعمدها وعاد اليهم استاذهم رفاعة فعادوا الى الترجمة والتأليف^(١) .

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن حركة الترجمة ومدرسة اللسن ان نهمل ذكر صاحب الفضل الاول في تنظيمها والاشراف عليها والاسهام فيها وهو رفاعة رافع الطهطاوى^(٢) .

(١) الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٢٢٨ .

(٢) راجع عن رفاعة المراجع التالية :

١ . احمد احمد بدوى ، رفاعة الطهطاوى بك ، (لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٠) .

٢ . الشيال ، الترجمة والحركة الثقافية .

٣ . عبد الكريم ، تاريخ التعليم .

٤ . عبد اللطيف حمزه ، ادب المقالة الصحفية ، ج ١ ، (دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٠) .

٥ . جمال محمد احمد ، الاصول الفكرية للقومية المصرية .

Jamal Mohammed Ahmed, The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London, Oxford University Press, 1960.

ذكرنا في فصل التعليم كيف بدأ رفاعة اماما لاحدى البعثات الى فرنسا وما لبث ان اصبح المعلم طلابها . وعندما عاد الى مصر عمل مترجما في مدرسة الطب ثم ناظرا لمدرسة التاريخ والجغرافيا ثم انشئت مدرسة اللسن وعين ناظرا لها . ومنذ ذلك الحين اقترن مولد حركة الترجمة في مصر باسم رفاعة . وقد نوهت جميع الكتب^(١) ، التي أرخت لعصر النهضة الاول بفضل رفاعة على الترجمة وعلى الحركة التعليمية والنهضة بشكل عام . فعندما عاد من فرنسا كان قد اعجب بحضارتها وحياتها وثقافتها واراد ان ينقل كل ما شاهده هناك وما تعلمه الى ابناء مصر . وقد كانت جهوده المضنية التي جمع فيها بين الادارة والتعليم والتصحيح والترجمة العامل الاول في انجاح مدرسة اللسن ودفع طلابها الى الاسهام الفعّال في حركة الترجمة وتزويد الحركة التعليمية بالمواد العلمية اللازمة لتطورها واندفاعها . وقد اثرت الترجمة الرسمية

(١) من هذه الكتب : كتب عزت عبد الكريم عن التعليم في مصر وكتاب جمال الدين الشيال عن الترجمة وكتاب جان تاجر عن الترجمة ايضا ورسالة محمد الطيب حسن ، وكتاب جمال محمد احمد عن الاصول الفكرية للقومية المصرية وغيرها كثير .

في نتاج رفاة فكان مضطرا بحكم وظيفته ووضاعه ومسؤولياته الى تلبية متطلباتها ، وكان في اختياره للكذب التي يترجمها هو او قلم الترجمة في مدرسة اللسن يراعي متطلبات محمد علي والمدارس ، وكان اكثرها يتركز على العلم ذات الفائدة العملية المباشرة مثل الطب والهندسة والرياضيات والفنون العسكرية . يقول جمال محمد احمد^(١) : " قبل رفاة كانت العلم الاوروبية مجهولة تقريبا بالنسبة للمصريين لذلك يمكن القول ان الحركة الثقافية في مصر بدأت بدراسة رفاة في باريس والكتاب الذي كتبه آنذاك " (٢) .

وهكذا كان رفاة العامل الاول في دفع حركة الترجمة الرسمية في عصر محمد علي قدما ، والمساهم الاكبر فيها . ولكن هذه الترجمة ، وان كانت تؤثر في تفتح الازهان وتوجيه الافكار وتثقيف العقول ، فان نتائجها المباشرة لا تنعكس في الحياة النفسية والفنية والادبية للشعب الا بعد مرور فترة زمنية ينشأ خلالها جيل بكامله على هذه الحياة العقلية الجديدة ، فيكون مستعدا تلقائيا للتطور النفسي والفني والادبي . لذلك تأخرت

(١) جمال محمد احمد ، الاصول الفكرية ، ص ١١ .

(٢) الكتاب المقصود هو كتاب مناهج الالباب المصرية في مباحج الاداب العصرية .

نشأة الترجمة الادبية عن الترجمة الرسمية ، وبقيت عملية الترجمة عملية حكومية تنظمها الدولة وتخطط لها وتقدم لها مطالبها . وكان رفاعة الساعد الايمن في كل ذلك . وما يهمنى اكثر من ذلك في هذا البحث هو اسهام رفاعة نفسه في بدء الترجمة الادبية . لقد بدأت على يديه ملامح الترجمة الاهلية الادبية في محاولاته الرسمية او شبه الرسمية اول الامر ، ومحاولاته الشخصية بعد ذلك .

عاش رفاعة في فرنسا زهاء خمس سنوات عزم خلالها على الافادة من حضارة فرنسا في جميع وجوهها . وليس ادل على طموحه من تحوله ^{من} امام للبعثة العلمية الى احد اعضائها بل المعهم . وقد اتقن اللغة الفرنسية بسرعة ادهشت جميع الذين ارادوا له ، واندفع يفيد من كل منحى من مناحي الحضارة الفرنسية . ولما كان قد طلب اليه ان يتخصص في الترجمة استطاع ان يوسع آفاقه في مختلف العلم والفنون التي اراد الترجمة عنها . واراد رفاعة ان ينقل ما تعلمه وما تعرف اليه باسرع وسيلة ممكنة فكانت له جهود عديدة اسهمت كلها في حركة النهضة الى جانب جهوده الرسمية . فقد درس رفاعة في جملة ما درس الادب الفرنسي واعجب به وما انعكس فيه من آثار فكرية واجتماعية وفلسفية ، واستهوتته الموضوعات التي تطرق اليها هذا الادب

ما لم يعهده في الادب العربي الذي نشأ عليه . وبدأ رفاعة نشاطه وهو لا يزال في باريس ، فقد سجل ما يشبه المذكرات عن مشاهداته واختباراته في باريس اصدرها باسم " تخليص الابريز في تلخيص باريـز " ، وقد وصف فيه اكاديميات العلم الادبية ، والطبيعية والهندسة ، واللغوية والفلسفة ، ووصف ايضا المتاحف والمكتبات وابرز معالم المدنية في فرنسا ، كما جاء في الكتاب وصف لبعض التجارب التي عاشها رفاعة امثال ثورة " الايام الثلاثة المجيدة " (١) ، فكان هذا الكتاب اثرا تعرف المصريون بواسطته الى كثير مما كانوا يجهلون ووسع آفاقهم وقد وصف عبد اللطيف حمزة هذا الكتاب بقوله : " حتى لننظر نحن الى هذا الكتاب على انه من خير الكتب التي كان لها اثر كبير في تكوين العقل المصري الحديث ، بما اشتمل عليه من افكار لا عهد للمصريين بها ومبادئ سياسية واجتماعية لا يعرفونها " (٢) . وشغف رفاعة اثناء دراسته بباريس بدراسة التاريخ والجغرافيا ، وقد راينا كيف طلب الى محمد علي لدى عودته من فرنسا ان يسمح له بانشاء مدرسة لتعليم هذين العلمين ، فكان له ما اراد الى ان الغيت المدرسة وانشئت مدرسة الالمن فدخلت هاتان المادتان في برامجها .

(١) ثورة الشعب الفرنسي على الملك شارل العاشر ووزيره بولينيان .

(٢) عبد اللطيف حمزه ، ادب المقالة الصحفية ، ج ١ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ويقول هو نفسه في كتاب " تخليص الابريز " : " وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله تعالى ، وبمهمة صاحب السعادة محب العلم والفنون حتى تعد دولته من الازمنة التي تؤرخ بها العلم والمعارف المتجددة في مصر مثل تجددها في زمن خلفاء بغداد " (١) . لكن مشاغل رفاعة الرسمية واهتمامه بترجمة الدراسات العلمية البحت وتزويد المدارس بهذه الدراسات ومتطلبات الوالي والمسؤولين ، كل ذلك شغله الى وقت عن ترجمة ما احب من فنون الادب والتاريخ والجغرافيا . وبقي علينا ان ننتظر حتى تستغني الدولة عن خدمات رفاعة في مطلع عهد عباس وتبعده الى السودان ، حتى نشهد مولد اول اثر ادبي مترجم في تاريخ النهضة المصرية الحديثة .

فاذا كانت مدرسة اللسان التي انشأها رفاعة ونماها بجهوده قد حددت بدء تنظيم حركة الترجمة الرسمية في عصر النهضة ، فان مبادرته الفردية في ترجمة " مغامرات تليماك " للكاتب الفرنسي فنلون " (٢) تحدد بداية الترجمة الادبية .

(١) الطهطاوى ، تخليص الابريز في تلخيص باريز (القاهرة ١٢٥٦ هـ) ، ص ١٢٥ .

(٢) سماها رفاعة بالعربية ، مواقع الافلاك في وقائع تليماك وهي بالفرنسية : Les Aventures de Telemaque par Fenelon.

والقصة الفرنسية ترجع الى القرن السابع عشر ، عصر الكلاسيكيين
ويبرز فيها بوضوح التأثير بالادب اليوناني اذ تقم على مغامرات
تليماك ابن اوليس احد ابطال هومر وتتحدث عن الخوارق والآلهة
اثنا وصفها لاسفار تليماك الاجبارية . ولكن الطابع الفرنسي
يبقى واضحا بالرغم من استقائه الموضوع من التراث اليوناني القديم ، اذ
يبرز فنلون الاسلوب الكلاسيكي الفرنسي في صفائه وقوته .

لكن رفاعة لم يكن مترجما كما نفهم الترجمة اليوم بل كان
«مصريا» (١) في نقله هذه القصة الى العربية ، فهو لا يتقيد بالاصل
المترجم الا بالشكل العام وهو يحاول ان يقرب هذه القصة من عقول
المصريين التي لم تتعود هذا الفن من قبل ، بل كأنه اراد * ان يقدم
للقرأ قطعة ادب اجتهد ان تكون مشابهة لنماذجه القصصيه القديمة
شكلا وروحا ان امكن» (٢) . وقد حاول رفاعة كذلك ان بمصر اسماء

(١) هذا الاتجاه في الترجمة يبرز عند رفاعة واستمر بعده طويلا حتى بعدما
عرفت الترجمة بالمفهم الحديث وركزت دعائمها في حركة النهضة المصرية .

(٢) محمود حامد شوكت ، الفن القصصي في الادب المصري الحديث ،

(دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٦) ص ٦٩ .

الاعلام ويستبدل الصفات الفرنسية بصفات مستمدة من القصص الشعبي القديم كآلف ليلة وليلة ، وحاول استعمال الاصطلاحات اللغوية المألوفة من التراث القومي بما في ذلك القرآن^(١) .

ولعل رفاة اراد ، بترجمة مخامرات تليمان ، ان يوجه انتباه الجيل الجديد الى اهمية فن القصة في الادب ، هذا الفن الذى لم يكن العرب يضعونه في مرتبة عالية^(٢) . ولعل المترجم قصد ايضا من اختيار تليمان بالذات ان ينقل لا فن القصة فحسب ، بل الآراء والمثل العليا التي تمثلت في " المخامرات " والتي تتحدث عن آراء فلسفية وثقافية كثيرة رأى فيها رفاة فائدة للمصريين في حبوهم الاول نحو الحضارة الحديثة^(٣) . لذلك لجأ الى تقريب الآراء من عقول المصريين وتراثهم كما لجأ الى تقريب جو هذه القصة الذى لم يتعودوه من قبل الى نفسياتهم ، فكان بذلك " ممصرا " اكثر منه مترجما . يقول محمود حامد شوكت : " . . . وهكذا يقف الكاتب الممصر الاول مطالعا على فنون الاداب القصصية القومية التقليدية " .

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٧٠ .

(٢) الدسوقي ، فن الادب الحديث ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٣) من هذه الآراء بحث في الحقوق والواجبات وفي التربية وعرض غير مباشر لآراء افلاطون وسقراط ونيرهما .

ومطالا على فن قصصي كلاسيكي فرنسي ، وعلى مطالب عصره ومثله العليا
يجمعها جميعا في صورة خاصة ^(١) .

ثم ان اسلوب رفاعة لم يتحرر بعد من القيود اللفظية التي كانت
تكيلّ الاسلوب العربي في مطلع عصر النهضة ، فقد تعلم رفاعة الكتابة
والادب على الشيخ حسن العطار ، وتعود اساليب السجع والاستشهاد بالشعر
واستخدام التورية والطباق والجناس فصعب عليه عندما جاء بترجم الادب ان
يتخلص من هذا الاسلوب ، بل لعل نظرتة للادب لم تكن قد تغيرت
عن نظرة معاصريه كليا مع انه درس الادب الفرنسي واحبه ، او ربما لم
يرد ان يفاجىء معاصريه بنظرة جديدة الى الادب واسلوب جديد كليا
وباجواء لم يتعودوها ، فابتعد بذلك عن الصبغة التي يتصف بها اسلوب
الادب الكلاسيكي من فخامة مع البساطة لذلك جاء اسلوبه مقيدا بالسجع
والمحسنات اللفظية . غير ان هنالك ظاهرة يجب ان نسجلها لرفاعة
وهي ان اسلوبه وان دخلته فنون البيان والبديع كان ارقى من اساليب
سابقيه واكثر اراحة لقارئه وربما كان سبب ذلك تأثره بالنهضة العلمية
التي حمل لواءها والترجمة العلمية التي اسهم فيها اكبر اسهام .

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٧١ .

وكذلك فاسلوب رفاعة يسجل بصحة عبارته تقدما على الاسلوب الذى سبقه
والذى شهدنا امثلة على ركاكته قبيل عصر النهضة عند الجبرني المؤرخ مثلا .
يقول محمد الطيب حسن ان ادب رفاعة يعتبر " دور انتقال من الادب المصرى
في عهد الدولة العثمانية الى دولة الادب الجديد التي حمل لواءها البارودى
وكتاب العصر الحديث " (١) . وقبيل ان ننهي الحديث عن رفاعة
نشير الى انه فوق اسهامه الرئيسي في ترجمة الادب بنقله " مغامرات
تليمان " قام بترجمة بعض الشعر الفرنسي ومن ذلك كتاب تعريب الامثال
في تأديب الاطفال (٢) .

وهكذا فقد تركزت حركة الترجمة في عصر محمد علي بشكليها العلمي
الرسمي والادبي الفردى حول شخصية رئيسية هي شخصية رفاعة الذى اعتبر
اكبر محرر لعصر النهضة الاول وسببا رئيسيا في قوتها واندفاعها .
لقد استقطبت الترجمة العلمية الرسمية جميع الجهود وصبغت هذا العصر
لتترك اثرها في العصور المقبلة ، وتولد جيلا يستطيع تقبل التطور

(١) الطيب حسن ، اثر الثقافة الغربية ، ص ١٥١ .

(٢) لم نطلع على الكتاب الا ان ذكره ورد في كتاب عمر الدسوقي ، في
الادب الحديث ، ج ١ ، ص ٣١ .

الادبي والفني ، بل ويسعى اليه ، حتى اصبحت الترجمة الادبية
الفردية ظاهرة من ظواهر النشاط الفكري في العصور اللاحقة .
واذا كانت الترجمة العلمية قد زعمت بذور الوعي العلمي والثقافي
التي تعد للتطور الادبي فان ملامح هذا التطور بدأت تتضح
مع زعيم حركة الترجمة الرسمية وقائدها لتمهد الطريق امام حركة
ترجمة ادبية اوسع واشمل .

الترجمة عن الفرنسية منذ عصر اسماعيل :

مقدمة :

مع حلول عصر عباس افقلت مدرسة اللسان وابعد قطب الترجمة وأحد قادة النهضة رفاعه رافع الطمطاوى الى السودان لينشئ مدرسة ابتدائية (١) . ولم يكن هذا وحده سببا في خمود حركة الترجمة بل لقد كان لركود الجو الثقافي والتعليمي العام في عصر عباس اثره في ذلك ، فلم يكن ثمة حركة ترجمة قوية مندفعة اذ اصاب الترجمة ما اصاب غيرها من اسباب التعليم والتثقيف . وجاء عصر سعيد واعاد لرجال عصر محمد علي اعتبارهم فاستقدم رفاعه من السودان ليرثس ادارة مدرسة الحرية كما ذكرنا في فصل التعليم . ولكن سياسة سعيد اتصفت بالحيرة الدائمة وعدم الاستقرار فكان يؤسس المدرسة ثم يعدلها ثم يلغيها ثم يعيد تأسيسها (٢) . لذلك لم يكن من الممكن ان تستأنف حركة النهضة اندفاعها في مثل هذا الجو القلق والمستقبل الغامض وبقيت تنتظر عصر النهضة الذهبي الثاني ، عصر اسماعيل ، لتستعيد الحياة والنشاط .

(١) لعل هذا الابعاد هو الذى افاق رفاعه من ذهوله وانغماسه في الترجمة العلمية .

(٢) راجع فصل التعليم في عصر سعيد ، ص

استمر الطابع الرسمي يسيطر على حركة الترجمة في اوائل عهد اسماعيل ،
وبقيت هذه الترجمة مصبغة بالصبغة العلمية ، ولم تتخط في معظم الاوقات
حدود العلم التي يمكن ان يستفاد منها بشكل مباشر كالطب والعلوم
الهندسية والميكانيكا والجغرافيا ، اى ان الترجمة الرسمية لم تكن بشكل
واضح بترجمة الادب الغربي الى العربية فيتصرف الشعب المصرى الى عصارة
الحضارة الغربية والفكر الغربي من خلال الروح الادبية والنفسية التي تتجلى
في روائع هذا الادب . وقد بقيت الترجمة الرسمية ، منذ ان وعى المصريون
خطرها حتى قمة النهضة المصرية في عصر اسماعيل ، تنحصر في نطاق ماله
علاقة مباشرة بالتعليم المدرسي والادارة والمشروعات العلمية دون الالتفات
الى تنمية العقلية المصرية عن طريق ترجمة التراث الغربي الادبي والفلسفي .
وقد تحدثنا في فصل سابق عن قلم الترجمة الذى انشأ في عهد اسماعيل ،
وذكرنا ان اهم عمل قام به كان ترجمة القانون الفرنسي "code" . ويظهر
ان نشاط القلم ضاق بعد ذلك وانحصر . يقول : عزت عبد الكريم " ويظهر
ان قلم الترجمة بعد ان اتم رجاله ترجمة القوانين الفرنسية لم يقم بعمل فني
كبير ، فاقصر عمله على الاعمال الادارية كترجمة الخطابات الفرنسية التي تصدر
الى الديوان اوتأتي اليه ، ولهذا دعاه دور بك في احد تقاريره الى الخديوى
"مكتب المراسلة الاوروبية والترجمة" (١) .

(١) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ١٤٣ .

ويظهر من ذلك ان الترجمة في اوائل عهدها ، عندما كان رفاعة يتولى امرها باندفاعه وسعة افقه ، كانت اشد عناية بنقل العلم المفيدة الى العربية منها في عصر اسماعيل ، حتى بعدما عاد اليها رفاعة ، وكان قد فقد بعضا من هذا الاندفاع الذى حمله بعد عودته من فرنسا . اضاف الى ذلك ان المسؤولين في عهد اسماعيل استطاعوا الاعتماد على ما ترجم في عصر محمد علي عندما استأنفوا هذه النهضة ، ولم يكونوا بحاجة ملحة الى الترجمة التي يحتاج اليها في دفع عجلة النهضة كما كان المسؤولون ايام محمد علي . من هنا فقدت حركة الترجمة الرسمية في عهد اسماعيل بعضا من قوتها واندفاعها الاولين ، وان لم تتوقف عن تأدية دورها والاسهام في الحركة الثقافية بوجه عام .

غير ان هذا النقص الذى بدا في الترجمة الرسمية ، عوضته الترجمة الخاصة ، التي كان يضطلع بها نفر من ادباء العصر ومثقفيه . ففي عصر اسماعيل برزت الترجمة الاهلية بشكل اوضح من الماضي وبدأت تثبت وجودها في الحركة الفكرية بعد ان كانت مجرد ملامح مبهمه في العصر الاول ، فقد ازداد النفوذ الاجنبي في هذا العصر وتدفق على مصر عدد كبير من الاجانب مما دفع المصريين الى زيادة الاهتمام بالتراث الفكرى لهؤلاء الاجانب والاستفادة منه . وكانت ظروف مصر الثقافية الداخلية تساعد على الاقتباس والاستفادة فقد نشأ جيل من مدارس محمد علي اصبح اكثر قدرة من الجيل السابق على تفهم الفكر الغربي واستيعابه ،

وازدادت العناية بتدريس اللغات الاجنبية في المدارس وخاصة اللغة الفرنسية ،
فهي اللغة التعليمية الاولى لمدارس الجيل الاول ، وهي اللغة الاولى لرجال
البعثات ايام محمد علي ، وقد عادوا ايام اسماعيل يتسلمون المناصب الحساسة
في حركة بعث النهضة ، وهي فوق ذلك اللغة التي تنقف بها اسماعيل ،
وقد علمنا انه كان عضوا في احدى البعثات الى فرنسا ، ولغة الدولة التي
اتجه اليها ونقل عنها وافاد منها ووثق صلاته بها الى ابعد الحدود .
وبالاضافة الى ذلك كله فان مدرسة اللسن التي لعبت دورها في عصر محمد
علي كانت قد خرجت طلابا تدرّبوا على يدى رفاعة فاخذوا في هذا العصر
يهتمون بالقضايا الفكرية العامة واقبلوا على دراسات الموضوعات الانسانية مثل
القانون والتاريخ والادب والتربية ، وحرصوا على ان يطلعوا مواطنيهم على شئ
ما اطلعوا عليه هم .

كان طبيعيا اذا ان تتجه الترجمة الاهلية ، كما اتجهت الترجمة الرسمية ،
نحو الفكر الفرنسي .

غير انه لا بد من الملاحظة ان عصر اسماعيل ، مع كل ما وصفناه من انه
عصر قطاف الثمار الاولى لحركة النهضة الحديثة ، لم يعطِ النتائج الكبيرة الشامل
انما كان فضله الاول في انه اعطى التباشير الاولى لنضج النهضة . ونعني بذلك
ان البوادر الحديثة التي ظهرت في عصر اسماعيل لم تكثر بحيث تصبح ظاهرة

للعصر وكان علينا ان ننتظر سنوات ما بعد الاحتلال حتى يبدأ التدفق في انتاج ثمرات النهضة سواء في حقل التأليف الادبي او في حقل الترجمة الاهلية الادبية . وقد واصل كثير من المترجمين عن الفرنسية الذين عملوا في عصر اسماعيل نشاطهم في عصر الاحتلال لذلك راينا ان نجعل من العصرين سلسلة متصلة لنعطي صورة اوضح واتم عن اسهام اقطاب الترجمة عن الفرنسية في عصرى اسماعيل والاحتلال .

تميّز عصر الاحتلال كما رأينا في فصل التعليم بمقاومة اللغة العربية والتدريس بها ، فكان طبيعيا ان تهمد حركة الترجمة الرسمية حتى تنحصر في الامور الادارية ، او تكاد ، فلم تعد مظهرا من مظاهر النشاط الثقافي في مصر . الا انه اذا كانت الترجمة الرسمية قد ضعف شأنها وانحصر نطاقها ، فان الجوّ الفكرى العام كان قد اعدّ لاستقبال نشاط واسع النطاق في الترجمة الاهلية ، فقد اصبح في مصر فئة متعلمة تعليما حديثا ، فئة تستطيع استيعاب الافكار الغربية وتقبل على قراءة الادب الغربى وخاصة الفرنسي منه وتتذوقه . وقد تخرجت هذه الفئة من مدارس محمد علي ونمت ونضجت في عهد اسماعيل وتقدمت الى الطليعة في عهد الاحتلال لتفقد الرأى العام عن طريق الصحافة والنشر من توجيه مباشر حينما الى توجيه غير مباشر عن طريق متابعة

وسالة التوعية حيناً آخر .

لقد أصبح في مصر اثناء عهد الاحتلال اذا فئة تستطيع تذوق الادب الغربي بلغته فتنتقله الى لغتها ، وفئة اخرى قادرة على تذوق هذا الادب المنقول والاقبال عليه .

وكانت حركة تمصير الادب الغربي ، والفرنسي منه بشكل خاص ، قد بدأت منذ حوالي منتصف القرن الماضي على يدى رقاعة الطهطاوى وعثمان جلال واديب اسحق . وقد نهجت هذه الحركة ، كما سنرى ، نهجاً حاول تقريب الادب الغربي من الجو المصرى ليلائم الذوق الشعبى . ولكن حركة التمصير هذه كان لا بد ان تتخلص من قيودها ومراعاتها للذوق الشعبى شيئاً فشيئاً حتى أصبح لدينا حركة ترجمة ناضجة عنيت بالاختيار واهتمت بالادب وبخير من حقول الفكر . ولكن الاتجاه الى ترجمة الادب كان ، كما تقول لطيفة الزيات ، " السمة المميّزة والبارزة لحركة الترجمة العامة " (١) في هذه الفترة . فقد ترجم القصص بنوعيه ، الرواية والقصة القصيرة ، كما ترجم الكثير من المسرحيات والشعر والنثر الفنى

(١) لطيفة الزيات ، حركة الترجمة الادبية من الانجليزية الى العربية في مصر في الفترة ما بين ١٨٨٢ - ١٩٢٥ ومدى ارتباطها بصحافة هذه الفترة ، (اطروحة مقدمة لكلية الاداب في جامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه ، ١٩٥٢ غير مطبوعة) ، ص ٦٢ .

اللاروائي . الا ان القصص كان يُمثِّل الجانب الاكبر من هذه الترجمات .

وهنا لا بد من ايراد ملاحظتين هامتين ، الاولى : هي ان الترجمة عن الفرنسية ، رغم اننا في عصر الاحتلال البريطاني وقد بدأت مقاومة الثقافة الفرنسية والتعليم الفرنسي بشدة ، لم تتوقف او حتى لم يخلو نشاطها ، وذلك لان الفئات التي بدأت بها النهضة العلوية والاسماعيلية قد اثمرت ثمراتها الناضجة في عصر الاحتلال ، فيما كان على التعليم البريطاني ان ينتظر بضع سنوات لكي تخرج له مدارسه ثمارها . اضاف الى ذلك انه عندما بدى بالترجمة عن الانجليزية لم يكن المصريون رواد هذه الترجمة - كما سنرى - بل كان السوريون المتمصرون الذين تنقفوا الثقافة الانجليزية قبل ان يتوجهوا الى مصر . فالترجمة عن الفرنسية لم تنقطع اذا في عصر الاحتلال بل سبقت الترجمة عن الانجليزية ثم سارت معها جنبا الى جنب ، وكانتا تتعاونان في كثير من المجالات بخلاف علاقة الثقافتين في حقل التعليم .

والملاحظة الثانية هي ان اتساع حركة الترجمة في هذا العصر اوجد فيها مستويين مختلفين : المستوى التجارى الشعبى الذى قصد منه الارباح المادية اعتناما لفرصة اقبال الجمهور على قراءة الادب المترجم ، والمستوى الفنى الادبي الذى قصد منه نقل التراث الفكرى الى العربية لاغنائها واكمال النقص فيها

وتعريف بنيتها على ما يجهلون من فنون أو آراء أو اتجاهات . وقد شاع المستوى الاول في ترجمة القصص وتركز المستوى الثاني على ترجمة النثر الفني اللاروائي والشعر والمسرحيات وكثير من القصص ايضا .

ولعل اعتماد القصة المترجمة في نشأتها الاولى على الصحافة ثم تعلق الصحافة بهذه القصة لتروج نفسها كان له اثره في ظهور المستوى الشعبي التجاري في ترجمة القصة . فقد كانت المطبعة لا ترحم والصحيفة يجب ان تصدر في موعدها وما كان على المترجم الا ان يلبي الحاجة السريعة ، اضاف الى ذلك ان الجمهور الذي لم يبلغ المستوى الثقافي المرتفع اقبل على قصص المغامرات والعجائب المثيرة لانها استبقت خياله وارضت عواطفه . لذلك ركز اصحاب الصحف عليها في كثير من الاحيان سعيا وراء ترويج صحفهم . وقد كان من نتيجة ذلك ان صدرت مجلات خاصة وعديدة تعنى بنشر هذا النوع من القصص وحده نذكر منها " روايات الجيب " و " مسامرات الشعب " ^٢ " روايات الصباح " وغيرها . وقد كان بعض هذه الروايات جيدا في اصله الا ان الترجمة التجارية حولته الى قصة شعبية فيها من عنصر الاثارة اكثر مما فيها من عنصر الفن ^(١) .

(١) راجع محمد يوسف نجم ، القصة في الادب العربي الحديث ، (دار مصر للطباعة ، القاهرة ١٩٥٢) ص ٢٦ - ٢٨ .

ولا يعنينا من حركة الترجمة الشعبية في هذا المجال الا ان نشير اليها كظاهرة بارزة في حركة الترجمة العامة ، في هذا العصر ، وان نذكر انه كان لها في كثير من الاحيان اثر سلبي في التطور الثقافي والفني العام . فقد كان في مصرفة من القراء لم تصل الى مستوى عال من الثقافة فاقبلت على هذه القصص الشعبية تأخذ منها عنصر الاثارة تاركة كل شئ غيرها حتى اصبحت هذه القصص الشعبية وكأنها تخاطب الغرائز في القراء اكثر مما تتوجه الى امكانات التطور في الذوق الفني . حتى قال محمود حامد شوكت فيها : " وقد ارجعت هذه المدرسة الذوق الشعبي الى ما كان عليه قبل حركة التصوير ووسعت الهوة بين القارئ الشعبي والقارئ المثقف " (١) .

اما حركة الترجمة القصصية الفنية فقد اعتمدت هي ايضا على الصحافة وكانت تمهيدا لنشوء القصة الفنية الموضوعة في الادب المصري الحديث . يقول عبد اللطيف حمزه : " الثابت في تاريخ الصحافة ان القصة التي اتصل بها الشرق العربي كانت في اول امرها مترجمة لا مؤلفة ، واما القصة المؤلفة فقد تأخرت عن اختها في الظهور ، وحين ظهرت هذه الى الوجود لم تأخذ مكان القصة المترجمة في الصحف فبقينا معا تشغلان جزأ لا يستهان به في اكثرها " (٢) .

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ١٢٨ .

(٢) عبد اللطيف حمزه ، الصحافة والادب في مصر ، (معهد الدراسات العربية العالية ،

جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥) ، ص ٣٦ .

وتعني في هذا الفصل ترجمة القصة الفنية عن فرنسا . وقد توجهت هذه الترجمة أكثر من اتجاه ، فبعد ان راينا رفاعة رافع الطهطاوى يتجه نحو الكلاسيكيين فيترجم لفلون ، وراينا محمد عثمان جلال يتجه نحوهم في أكثر ما ترجم^(١) فينقل عن لافونتين وموليير وراسين ، واديب اسحق يترجم لراسين ايضا ، بعد هذه الترجمة ، نجد مترجمي عصر الاحتلال يوسعون دائرتهم فاذا بالترجمة عن الحركة الرومنطيقية تدخل الى هذه الدائرة بقوة وتبقى الى جانبها الترجمة عن الكلاسيكية بالانغاف الى حركة القرن الثامن عشر المعهدة للحركة الرومنطيقية . وبعدد محمد نجم عددا من القصصيين الفرنسيين الذين نقلت اثارهم الى العربية نذكر مثلا هنرى بوردو (Henry Bordeaux) ، واسكندر دumas الأب والابن (Alexandre Dumas Père et Fils) ، وبرناردان دو سان بيير وموليير (Moliere) وفيكتور هوجو (Hugo) وهنرى لامنس (Lamens) وموريس لويسلان (Leblanc) ومشرات غيرهم^(٢) ممن سنعود الى الاشارة اليهم .

(١) ترجم جلال اثرا واحدا من الحركة الرومنطيقية هو بول وفرجيني

لبرناردان دو سان بيير .

(٢) نجم ، القصة ، ص ٧٠ - ٧٦ .

ولا نستطيع ان نشير الى جميع من عملوا في حقل الترجمة القصصية الفنية في هذا المجال فقد كان منهم ، وخاصة في الفترة المتأخرة من اقطاب الحركة الادبية التأليفية وموجهي الفكر المصري امثال احمد لطفي السيد وطه حسين ومطران وغيرهم ممن سنأتي الاشارة اليهم في فصل لاحق . الا ان هنالك ظاهرة تجدد الاشارة اليها وهي ان الترجمة عن الفرنسية عرفت اقطابا كان لهم اثرهم الفردي المباشر في الحياة الثقافية عامة والادبية خاصة ، في حين اننا لم نعرف مثل هؤلاء الاقطاب في الترجمة عن الانجليزية ، كما سنرى . نعني بذلك ان الترجمة عن الفرنسية عرفت اقطابا سدوا فراغا كان لا يزال محسوسا في الحركة الثقافية العامة اما حركة الترجمة عن الانجليزية ، فاننا على اهمية بعض اقطابها لا نستطيع ان نعتبر ايا منهم باسهامه الفردي محطة رئيسية من محطات تطور هذه الحركة ، انما ينحصر دوره غالبا في انه اسهم اسهاما رئيسيا في حركة عامة شاملة .

من هنا كان باستطاعتنا ان نؤرخ لحركة الترجمة الادبية عن الفرنسية وان نبرز خصائصها وتأثيراتها عن طريق المساهمين الرئيسيين فيها ، غير مغفلين ما صدر **من** ترجمات هامة عن غير هؤلاء .

ومن ابرز المترجمين عن الفرنسية الذين بدأوا عملهم في عصر

اسماعيل وتابعوا نشاطهم في عصر الاحتلال محمد عثمان جلال (١٨٢٩ - ١٨٩٨)^(١) . وهو خريج مدرسة اللسن ، ومن المع من برز من تلامذة رفاعة وقد كان اهم اسهام ادبي قدمه هو ترجماته عن الفرنسية في القصة والمسرحية والشعر الخرافي . وكانت هذه الفنون اهم ما شغل حياته الادبية في حين راينا رفاعة ينصرف الى العلم وترجمتها مضطرا الى ذلك بحكم وضعه ومسؤولياته غير منصرف الى ترجمة الادب الا بعد ان تخفف من المسؤوليات الرسمية .

في عصر اسماعيل ، كان اهم اسهام لجلال في ترجمة القصة ترجمته قصة بول وفرجينى (Paul et Virginie) لبرناردان دو سان بيير واسماها " الاماني والمئة في حديث قبول وورد جنسة " . وبرز ما يلاحظ في ترجمته هذه انه كان في معظمها " ممصرا " اكرمنه مترجما ، اذ لجأ الى

(١) انظر عن محمد عثمان جلال المراجع التالية :

- محمد يوسف نجم ، المسرحية في الادب العربي الحديث ، داربيروت ، بيروت ١٩٥٠ .
- محمود حامد شوكت ، الفن القصصى .
- محمود عباس العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٣٧ .
- زيدان ، تاريخ اداب اللغة العربية ج ٤ .

التصرف فزاد احيانا واختصر احيانا اخرى . ويبدو ان جلالات قد حاول تطويع قصته لكي تناسب العقلية المصرية وادراكها كما لجأ الى استعمال السجع على اسلوب اهل العصر وادخل الابيات الشعرية في بعض المواضع ليفترجوا القصة العام من الكتابة المألوفة . يقول محمود حامد شوكت " ٠٠٠٠٠ ما بين الاصل والترجمة فرق ناجم عن اختلاف في الدين حين تحول الصور المسيحية الى صور اسلامية ، وتمصر الاماكن والاعلام كما مصرت اللغة " (١) .

اما في حقل الشعر الخرافي فقد ترجم جلال امثال لا فونتين (Les Fables de La Fontaine) واطلق عليها اسم " العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ " قال في مقدمتها : " ٠٠٠٠٠ واخرجته عن الطباع الافسرنية وجعلته على عوايد الامة العربية " (٢) ، وهذا اعتراف صريح وواضح بان المترجم لجأ الى التعديل والتصرف لجعل الامثال اقرب الى عقلية القارئ المصري ونفسيته . اما لغته فهي اما عامية او فصحة قريبة جدا من العامية ، وقد حاول ان ينقل فيها صورا عن الحياة المصرية فاورد الكثير من الامثال العربية الفصحى والعامية التي كانت سائرة على اللسان ^(٣) . يقول احمد شفيق في ذلك : " ٠٠٠٠٠ وقد

(١) شوكت ، الفن القصصى ، ص ٧٦ .

(٢) ورد الاقتباس في كتاب الفن القصصى لمحمود شوكت ، ص ٧٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٥ ١٤٦ ١٦٤٤ .

احسن جلال باختيار الامثال العربية التي تقابل هذه المعاني في اللغة الفرنسية^(١) . ويقول محمود شوكت : " ٠٠٠ " ان في القصة الفرنسية مجالا يبسط بسطا فنيا يليه تقديم الشخصية الرئيسية ^{للكتابة} ثم تترك لتسلك سلوكا طبيعيا تلقائيا وكأنها احياء ٠٠٠٠ وتتطور الحركة تلقائية نحو ذروة فانقلاب ومفاجأة وحل فتذيل يشير الى المغزى ٠٠٠٠ بينما سعى كاتبنا كما سعى قبله رفاعة الى تحقيق عكس هذا الاتجاه لقد اراد الثاني كما اراد الاول ان يمصر الآداب الغربية القريبة من الذوق الشعبي تمصيرا تاما وان يقرب العامة من هذا الادب ، وبذلك مهد الارض للجذور الاولى للفنون الادبية الغربية في مصر^(٢) . وهو يقول ايضا : " محمد عثمان جلال يخلق صورا ترتكر الى قواعد شعبية ووطنية قديمة وحديثة ، ومعانها تدور في فلك امثال لا فونتين فانه استطاع ان يمصرها بنجاح ويطبّقها على الطبع وروح التكتة الوطنيين ، ويمكن القول انه مهد الطريق امام احمد شوقي^(٣) .

(١) احمد شفيق ، مذكراتي في نصف قرن ، (مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦) ص ٢٨٥
(٢) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٨٠ .

(٣) شوكت ، " القصة المصرية في خمسين عاما " ، مجلة القاهرة ، عدد خاص عن " الادب المصري خلال خمسين عاما " ص ١٣٨ .

أما في عصر الاحتلال فقد ركز جلال اهتمامه ، على ما يظهر ، على ترجمة المسرحية ، فظهرت له ترجمة لأربع روايات من روايات موليير هي " الشيخ متلوف " (Le Tartyffe) و " النساء العالمات " (Les Femmes Savantes) و " مدرسة الأزواج " (L'Ecole des Maris) و " مدرسة النساء " (L'Ecole de Femmes) ، ظهرت كلها عام ١٣٠٧ هـ . تحت عنوان " الأربع روايات من نخب التياترات " ، وعام ١٣١٤ هـ . ترجم مسرحية أخرى لموليير هي " الثقلاء " (Les Facheux) .

وقد راعى جلال في ترجمة هذه المسرحيات أيضا التمييز الذي اتبعه في ترجمة القصة و ترجمة الشعر الخرافي . ويورد محمد نجم اقتباسا من ترجمة حياة جلال التي تنبها بنفسه ، ويتضح منه ان عملية التمييز عند جلال كانت مقصودة بسبب ظروف العصر الفكرية والاجتماعية . جاء في الاقتباس : " ثم اخذت في ترجمة التياترات وبدأت بكتاب يسمى الشيخ متلوف نظير تروتوف الذي عمله موليير بفرنسا ، مع التزام نظمه كأصله ومراعاة نوائد الشرق " (١) .

كذلك ترجم جلال من مآسي راسين مسرحية " استر " (Esther) و " افغانية " (Iphigénie) و " استدر الانبر " (Alexandre le Grand) ، واعددها كلها سنة ١٣١١ هـ . تحت عنوان " الروايات المفيدة في علم التراجيدة " ،

(١) نجم ، المسرحية ، ص ٢٧٤ .

واتبع فيها الأسلوب نفسه في التصير . وقد كانت هذه محاولة جريئة -
لعلها تطرف في عملية التصير - لان جلال نقل المسرحيات الكلاسيكية هذه
الى اللهجة العامية . يقول طه حسين في ذلك ان جلالات " لم يكن من الادب
القديم على حظ قوى ورأى ان الادب العصورى ادنى الى الموت من ان يحتمل
هذا الادب الفرنسى الحي فيترجم لقومه ، او قل ينقل الى قومه تمثيل موليير
في الزجل العامي لا في الشعر العربى " (١) . ويقول المستشرق كراتشكوفسكي :
" لسنا ننكر ان محاولته تدل على مهارة فائقة وعمق فنية ناجحة ، ولكن اللهجة
العامية كانت غريبة على المسرح الذى لم يألّفها ، ولذا لم تمثل مسرحياته الى
سنة ١٩١٢ " (٢) .

هكذا اذا كان محمد عثمان جلال مصرا للادب الغربى في ترجمته ،
فمع اننا هنا ، في عصر النهضة الثانى ، فان العقول لم تتعود بعد الآداب
الغربية ولم تعرف منها قبل هذا الوقت الا ترجمة رفاعة لمغامرات تليمان . وقد
يكون ذلك السبب الرئيسى الذى دفع جلال الى تقريب الادب الغربى الذى نقله

(١) طه حسين ، حافظ وشوقي ، ص ٤

(٢) اغناطيوس كراتشكوفسكي ، " الادب العربى الحديث " ، ترجمة امين حسونه ،

" الرسالة " ، السنة الرابعة ، المجلد الثانى ،

ص ١٨١٠ . وقد ورد في الاصل في ملحق

" الموسوعة الاسلامية " .

للمعتلية المصرية ، بل ربما كان لذلك اثره في اختيار جلال للمكعب التي ترجمها ،
فهو يترجم امثال لافونتين لانها " مواعظ " ، كما اسماها هو ، ويختار ترجمة
بول وفرجينى لانها تناسب المثل العليا الاخلاقية التي كانت سائدة ، وتدعو
الى الفضيلة . وبذلك اسهم محمد عثمان جلال بترجماته اسمها ما جليلا في
تثبيت دعائم الادب الغربي في مصر ومهد الطريق لتذوقه عن طريق تقريبه
الى ذوق العصر وتطوير هذا الذوق ببسط نحو الاعجاب به كما هو في الاصل .
يقول العقاد : " لم يترجم ولم يقتبس الا ما هو شبيه بالنزعة المصرية
والسليقة التي فطر عليها واحسبه اقبل على الترجمة لسبب غير الاسباب التي تبعت
معظم العارفين باللغات الاجنبية الى نقل اثارها ، فليس اقباله عليها لانه استعظم
اوروبا وحكمتها ونبوغها وانما هو قد نقل من ادبها وفكاهتها ما يضاف الى ادبنا
وفكاهتنا وكأنه يقول بضاعتنا ردت اليينا " (١) . ويقول العقاد في مكان آخر :
" فلم يخرج قط من صبغته الوطنية ولم يتحول قط عن تفكيره وذوقه ،
بل هو قد مصر موليير ولا فونتين حين ترجم لهذا امثاله ولذا ان رواياته
وهو لم يترجم الامثال الوعظية والروايات الفكاهية الا لانه كان مطبوعا على طرب
الامثال والتنكيت ، او على التنكيت في سياق ضرب الامثال . فلم يخرج عن مصيرته
حين ترجم واقتبس ولكنه بقي مصريا وبقي كما هو على طبيعته ونقل موليير ولا فونتين

(١) العقاد ، شعراء مصر ، ص ١١٤ - ١١٥ .

إلى تلك البيئة المصرية وإلى تلك الطبيعة الشخصية^(١) . وإذا كنا نتفق مع العقاد في كثير مما ورد في هذين الاقتباسين ، إلا أنه لا بد أن نلاحظ أن جلالاته لم يكن قليل الإعجاب بأوروبا وتراثها . فهو من خريجي مدرسة اللسان وتلامذة رفاة وقد تعرف على يديه إلى هذا التراث الذي أحبه رفاة . أضف إلى ذلك أنه حاول نقل المسرحيات سواء الهزلية منها أو المأساسية ، ولعله أراد بذلك أن يعرف المصريين إلى فن جهلوه ، وأعجب به هو قرأه جديراً بأن ينقل لأنه يمكن أن يحمل تراثاً فكرياً ونفسياً وفنياً معاً . يقول محمود شوكت عن ثقافة جلال أنه يعتبر " منتج الرسائل الفرنسية "^(٢) في مصر ذاتها وهو يسعى إلى التوفيق بين ثقافتها وثقافة البلاد التقليدية ، وهو منتج الثقافة القومية بمقوماتها القديمة إذ تعلم كذلك في المدارس القومية ، وهو منتج الثقافتين معاً إذ يصل ما بين الثقافتين ممثلاً بذلك حلقة هامة من حلقات التمسير^(٣) . فجلال سواء تعلم في مدارس الرسائل أو اقتصر على مدارس الحكومة التي كانت يومذاك متجهة نحو فرنسا بكليتها قد توجه شطر الثقافة الفرنسية .

(١) العقاد ، شعراً مصر ، ص ١١٣ .

(٢) لم نعثر في جميع ما طالعنا من كتب على أن جلالاته تعلم في المدارس الرسالية

الفرنسية إلا في كتاب شوكت عن الفن القصصي .

(٣) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٧٢ .

واذا كان لم يرد ان يقطع الصلة بين ثقافته الحديثة وثقافة قومه التقليدية ، فليس معنى ذلك انه لم يقبل على الترجمة بدافع من الاعجاب باوروبا والتقدير لثقافتها وحضارتها ، وليس في ترجماته ما يشير الى ذلك . واذا كان قد اختار موضوعات معينة وحاول اسياغ الصبغة المصرية عليها ، فليس معنى ذلك اعجابه بتراث مصر فوق اعجابه بتراث فرنسا ، بل اغلب الظن انه كان يخطو الخطوة الاولى في ادخال الادب الغربي الى مصر ويعد ابناءها لتذوق مثل هذا الادب عن طريق تقريبه اليهم في المرحلة الاولى من مراحل تفتحهم ووعيهم . يقول جب : " ان مدى ما يمكن ان يحققه المترجم البارع في نقل قصة اوروبية نقلا ملائما للجمهور المصري المسلم ليتجلى لنا واضحا في ترجمة عثمان جلال لبول وفرجيني " (١) .

ومشاركة محمد عثمان جلال في حركة النهضة لا تقف عند حد الترجمة والتصير بل تتخطى ذلك الى النزعات التجديدية التي هزرت من خلال نشاطه في هذا الحقل والتي يعود سببها على الاغلب الى ثقافته المتأثرة بالغرب . يقول جب : " ان ابرز مظهر في عمله لم يكن ترجماته بحد ذاتها بل الروح

(١) هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة احسان عباس ومحمد نجم ومحمود زايد ، دار العلم للملايين ، بيروت (١٩٦٤) ، ص ٣٧٣ .

التجديدية فيها" (١) . ولعل اول مظا هر التجديد هذه والثورة على المدرسة التقليدية التي تحاكي الادب القديم استعماله اللهجة العامية في ترجمته لبعض مقاطع امثال لافونتين واكثر المسرحيات وقد ترك هذا النهج اثره في مصر وقامت بعض الدعوات الادبية تدعو الى ذلك في العصور اللاحقة ، وان لم توفق الى السيطرة على الجو الادبي . يتحدث جـب عن هذه الناحية من نزعة جلال التجديدية فيقول : " لم يكن الوقت قد اثر لمثل هذه الخطوة الجادة ، ولكن الانفصال التام عن الماضي الذي اظهرته كان دلالة على روح العصر . ان مصر اصبحت جزءا من اوروسيا ، هكذا قال الخديوى ، ولذا فالادب المصرى يجب ان يظهر استقلاله عن التقاليد الاسيوية والافريقية" (٢) .

وينتقد عثمان جلال ادباء عصره وشعراؤه لمحاكاتهم للاقدمين في المحسنات المتكلفة والفخامة وعدم التخلص من هذه القيود يقول في " العيون اليواقظ " مثالا : (٣)

(١) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٤٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٣) جلال ، " العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ " ، (مصر ، ١٣٧٤ هـ) ،

يقولون ما هذا الكتاب وما به
وقد زعموا ان البلاغة لم تكن
وتشبيه لون الخد بالورد واللظى
وما علموا ان الغراب وشعلبنا
اكاذيب اقوال البهائم في قبح
باحسن مما قيل في القد والرمح
وتمثيل نور الوجه ان لاح بالصبح
حديث النهى فيه وداعية النصيح

ولعل استعماله العامية في بعض ترجماته جاء ردة فعل عنيفة
على الصور التقليدية والبناء القديم . اما من ناحية الموضوع فقد برزت النزعة
التجديدية عنده ايضا في ترجماته وفي الموضوعات التي اختارها . لقد اراد ان
تكون الموضوعات التي يعالجها الادب من صميم حياة المجتمع واراد ان تكون
الاثار الادبية انعكاسا لتجربة شخصية وهذه نظرة جديدة الى الادب لم نعهدها
في الادب المصري قبل ذلك وقد سار على الاغراض التقليدية القديمة . ويسوقنا
الحديث هنا الى ما ذكره محمود شوكت عن نظرة كل من جلال ورفاعة الى الادب ،
فشوكت يرى ان المترجمين يؤمنان بان للفن وظيفة مزدوجة هي المتعة والفائدة
معا كما حدث في اداب الامم الاخرى مثل مونتاني (Montaigne) الفرنسي
وبن جونسون (Ben Johnson) الانجليزى وهما لا يؤمنان بمذهب الفن
لذاته الذى نشأ في القرن التاسع عشر في اوربىا مثل اوسكار وايلد (Oscar
Wilde) (١)

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٧٢ .

وهذه النظرة الى الادب ظهرت واضحة في اختيار المترجمين للموضوعات التي ترجمهاها . الا انها قد لا تكون ناتجة عن فلسفة ادبية متكاملة ، كما اراد شوكت ان يظهرها ، بل لعلها ناتجة عن وجود المترجمين في عصر معين كانت الفائدة المباشرة غاية مقصوده تتوجه نحوها جميع جهود القيمين على النهضة ، وعن وعي المترجمين ضرورة ذلك ، وخاصة ان الفائدة غير المباشرة لا تأتي الا بعد فترة جديدة ، وبعد ان يكون الشعب قد قطع مرحلة طويلة من مراحل تطوره العقلي .

لقد كان محمد عثمان جلال اول ثمرات النهضة الموجهة التي قامت في عصر محمد علي ونضجت في عهد اسماعيل . وقد كان اول نتيجة واضحة انعكس نشاطها في الحياة الادبية لمصر وبرز من عمل في هذا الحقل وحاول تطويره وفكه من اغلاله القديمة دون ان يقطع الصلة بالتراث القديم .

ولقد ترك محمد عثمان جلال اثره بالروح الجديدة التي ادخلها مع ترجماته ، فتجرباً على تعديل المفهم القديم للادب وحاول ان يدخل مفهومها جديداً مقتبساً مما تعرف اليه في تراث الغرب . وتجرباً على الدعوة الى التحرر من القيود التي وضعها الاقدمون دون ان يقطع صلته بالقديم حتى يأتي الادب اشد اتصالاً بالمجتمع الحاضر واكثر قابلية للحياة . واذا كان تجديد جلال في بعض نواحيه قد بقي محصوراً ، فانه كان من اوائل الذين ادخلوا المفهم

الجديد للادب الغربي بنت عليه المدارس الادبية الحديثة فيما بعد وطورتهم .
بل حتى في تجديده المحدود وفي استعماله للعامة وجد جلال فيما بعد من
يتبنى رايه ويدعو له ويحاول نشره ، فيترك ذلك اثره الجزئي في بعض مؤلفات
اقطاب الادب في طور الوعي القومي الشديد كرواية زينب لمحمد حسين هيكل .
ولعل من ابرز الدعاة لهذا الراى سلامة موسى الذى تبناه وخطا به خطوات
ابعد لعل جلالاته لم يكن يريد ان يبلغها^(١) .

ومن اقطاب حركة الترجمة عن الفرنسية الذين كان لهم اسهام في عصر
الاحتلال مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤)^(٢) . فقد كان لترجمات
المنفلوطي ، بالرغم من جهله للغة الفرنسية ، اثر كبير في تطوير الذوق الفني
وتهيئة اذهان القراء لتقبل القصص ، ذلك ان القصة العربية التي كانت تخرج من
بين يدي المنفلوطي وان لم تكن ترجمة حرفية للنص الفرنسي كانت باسلوب فني

(١) اراد سلامة موسى ان يقطع الصلة مع القديم ، وهذا ما لم يبرز لنا في اتجاهات
جلال الذى اصر على ابقاء صلة الوصل بين القديم والجديد على ما ظن
لنا . وقد يكون لعصر كل من الكاتبين اثر في ذلك .

(٢) انظر عن المنفلوطي المراجع التالية :-

— جب ، دراسات في حضارة الاسلام .

— شوكت ، الفن القصصي .

— زيدان ، تاريخ اداب اللغة العربية ، ج ٤ .

رفيع اسهم في رفع مستوى التذوق العام .

ويمكن اعتبار المنفلوطي مكلا لحركة التصير اكثر منه مترجما بمفهوما الحديث ، الا انها " حركة تصير " بلغت مستوى ارقى من المستوى السابق لانها توجهت الى جمهور تخرج من المعاهد العلمية الحديثة . يقول محمود شوكت ان حركة التصير عند المنفلوطي " تسعى لتكييف الادب الغربي لا في مستوى شعبي ، وانما في مستوى ارقى لقارى تخرج من المعاهد الانتقالية الجديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كدار العلم القديمة والمدارس المؤسسة على النمط الغربي منذ عهد اسماعيل . والفرق واضح بين عصر هذه المدرسة والمدرسة السابقة في الاستعمال الراقي للغة " (١) .

وواضح ان جمهور المنفلوطي غير جمهور رفاعة وجمال ، فجمهور اليم قادر على التذوق الغني لجمال اللغة والتأثر به ، وهو مع ذلك لم يستغل عن يقرب هذا الفن الغربي الى عقليته .

اختار المنفلوطي قصصه من المدرسة الرومنطيقية ، وهي المدرسة التي وجد فيها مجالا لاطلاق الخيال والعاطفة ، وهي المدرسة التي ترك فيها روسو ودعوته الى الطبيعة والفضيلة اثره الواضح ، فراقت للمنفلوطي

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٨١ .

ورأى فيها مجالا خصبا يجول فيه قلمه بما وهب من حب الوصف والانصراف الى الحديث عن العواطف النبيلة والمثل العليا . لقد اعاد المنفلوطي ترجمة بول وفرجينى التى ترجمها جلال واسماها " الفضيلة " ، وترجم " الشاعر " لسيرانو دو بروجوان (de Bergerac) وماجدولين لألفونس كار ، ولخص قصة " غادة الكاميليا " لاسكندر ديماى فاخرجها قصة صغيرة ، واعاد كتابة مسرحية " في سبيل الناج " لفرنسوا كوبيه فاخرجها قصة قصيرة . ولم يكن المنفلوطي يطلع على هذه القصص مباشرة بل كانت تترجم له فيعيد كتابتها

بقلمه الادبى وانشائه الفنى فيرسم اللوحات ويبرز التناقض بين المتناقضات ، كالفضيلة والرفق ، والفقر والغنى ، والمدينة والقرية " ولقد استطاع بفضل أسلوبه السيل المتدفق ان يعبر عن آرائه الخاصة وان يكون جسرا لحركة المستقبل . ومهما يكن من امر ، فان أسلوبه هو ارقى بكثير من اساليب غيره من المترجمين في هذا الحقل (١) .

لقد استطاع المنفلوطي ان يلعب دورا هاما في حركة الترجمة بمعناها الواسع وكان لاسلوبه فضل كبير في التعويض بعض الشئ عن المستوى الفنى المنخفض الذى انحطت اليه الترجمة الشعبية ، وخاصة ان الاقبال على قراءته لم ينحصر في الفئة المثقفة بل انتشر بين الفئات ذات الثقافة المتوسطة ، لما فيه من محاولات لتقريب جو القصة المترجمة الى الجو المصرى . وتجدر الاشارة هنا الى ان اتجاه

(١) شوكت ، " القصة المصرية خلال خمسين عاما " مجلة القاهرة ، ص ١٣٩ .

المنفلوطي نحو نقل القصص الفرنسية ، وهو الذى لم يعرف لغة اجنبية تربطه اليها ، ربما كان دليلا على استمرار قوة النفوذ الفرنسي في الحركة الفكرية العامة في مصر في عهد الاحتلال . وقد كان باستطاعة المنفلوطي ان يلجأ الى القصص الانجليزية لو اراد ، غير انه يبدو انه كان متأثرا بالجو الفكرى العام .

وقبل ان نترك المنفلوطي نشير الى ان حركة التمصير لم تقف عنده ، بل بلغت حدا من التطرف ادى الى كثير من التحوير عند بعض الكتاب الذين ساروا على هذا النهج ، وعلى رأسهم حافظ ابراهيم في ترجمته " لبؤساء " هوجو . ونشير هنا ايضا الى ترجمات احمد حسن الزيات الذى تأثر في مطلع حياته بالمنحى الرومنطيقى الذى نحاه المنفلوطي ، وكان من نتاجه ترجمة رفائيل اللامارتين .

وقبل ان ننتقل الى الحديث عن الترجمة في المجال اللاروائى نشير الى مترجمين آخرين كان لهم دور في الترجمة المسرحية والقصصية .

الترجمة المسرحية : يقول محمد نجم في كتابه عن المسرحية ان عددا كبيرا من المسرحيات التي ترجمت قد ضاع ويعلل ذلك بان المسرحيات " كانت تقدم الى الاجواق التمثيلية ، لتضطلع باظهارها على خشبة المسرح " ولا يعنى المترجمون بعد ذلك باخراجها مطبوعة للقراء ، لانهم كانوا يعلمون ، ان المسرحية

لم تكن في تلك الفترة ، لونا من اللون الادب المقروء . تم ان كثيرا من هذه المسرحيات التي وصلتنا مطبوعة ، لا يذكر مترجموها اسمها الحقيقي ، ولا الاصل الذي نقلت عنه ^(١) ، ومع ذلك فان ما وصلنا يعطي فكرة عن نوعية الاتجاهات التي اتجهت نحوها الترجمة المسرحية .

وفي طليعة من اسهم في هذه الحركة من المصريين يعقوب صنوع الذى اسس مسرحا من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٧٢ وترجم له . وقد اورد محمد نجم اقتباسا من محاضرة القاها صنوع عام ١٩٠٣ قال فيها " . . . وقبل ان اقدم على انشاء مسرحي المتواضع قمت بدراسة جدية للكتاب المسرحيين الاوروبيين ، وبخاصة جولدوني (Goldoni) وموليير وشريدان (Sheridan) وذلك في لغاتهم الاصلية . وعندما احسست بانني اصبحت متمكنا ، الى حد ما من الفن المسرحي ، كتبت غنائية من فصل واحد ، باللغة العامية ^(٢) . وهذا يشير الى تأثره الواضح بالمرح الاوروبي . اما اشهر مسرحياته فقد اوردتها محمد نجم وذكر انها في الاكثر ، مهازل قصيرة مزج فيها بين العناصر المصرية والعناصر الاوروبية ^(٣) ،

(١) نجم ، المسرحية ، ص ١٩٧ .

(٢) المرجع نفسه
نجم والمسرحية ، ص ٨٠ .

(٣) نجم ، المرجع نفسه ص ٨٥ .

ومنها " غندورة مصر " ، و " غزوة رأس تور " ، و " زوجة الأب " ،
و " زبيدة " ، و " رأس تور وشيخ البلد والقواس " ، و " حلوان العليل " ،
و " الاميرة الاسكدرانية " ، و " البورصة " ، و " البربري " ، و " الصداقة " ،
و " الحشاشين " ، و " الوطن والحرية " ، و " الضرتان " ، و " آنسة على الموضة " .

ومن المصريين ، ايضا كان هنالك محمد مسعود الذي ترجم مسرحية
" الجاهل المتطبيب " (Le Medecin malgré lui) لموليير عام
١٨٨٩ . وقد حاول المترجم - على ما يذكر محمد نجم - ان يحافظ
على الاصل الفرنسي ، ولكن محاولته لم يكذب لها النجاح ^(١) . وفي العام
نفسه ترجم محمد عفت مسرحية " ميروب " (Mérope) لفولتير وسماها " تسلية
القلوب في رواية ميروب " وكذلك ترجم ابراهيم صبحي " الحكيم الطيار "
(le Medecin Volant) التي يقول عنها محمد نجم انها من هزليات موليير
المجهولة ، ثم لا يلبث ان يقول انه يظن " ان هذه المسرحية ليست من
تأليف موليير . وتدل اسماء شخصياتها وتكوينها الفني على انها منحدرة من
الملهاة المرتجلة (Commedia del l'Arte) التي كانت ^{تصح} تصبج بها اوربا في عصر
النهضة " (٢) .

(١) نجم ، المسرحية ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) ~~نص~~ المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ .

ولقد نال السوريون المتميزين فضل كبير في مجال ترجمة المسرحية عن الفرنسية كما كان لهم في كل مجال من مجالات النهضة في ذلك العصر ، فقد انتقل هؤلاء السوريون الى مصر لاسباب عديدة اهمها اضطهاد العثمانيين والسعي وراء الرزق . وكان السوريون قد سبقوا المصريين الى التعرف الى الاداب الغربية عن طريق مدارس الارساليات . يقول شوقي ضيف متحدثا عن اسهام اللبنانيين والسوريين : "..... وكانوا قد سبقونا الى العناية بالاداب الغربية في عسقر دراهم ، ومرجع ذلك الى البعثان الدينية التي علمتهم ، فانها لم تكن تعنى مثل محمد علي بنقل العلم الى سوريا ولبنان ، بل كادت تقصر عنايتها اولا على الحياة الادبية الغربية ، ومن ثم كان اتصال هؤلاء المهاجرين بتلك الاداب اقوى من اتصال المصريين في هذه الحقبة من الزمن . فهم سبقونا الى الاتصال المنظم بالادب الغربي" (١) . ولكن نشاط معظم هؤلاء السوريين جاء في مرحلة متأخرة من عصر اسماعيل ~~و~~ زداد بعد الاحتلال البريطاني عندما ازدهرت حركة الترجمة العامة .

ومن اوائل هؤلاء السوريين اديب اسحق الذي كان له اسهام كبير في تطوير الاسلوب الانشائي العربي واعداده لتقبل فن المقالة الحديث ، كما اسهم في الحركة الصحفية في مصر والحركة المسرحية . وقد جاء اديب اسحاق

(١) شوقي ضيف ، الادب العربي المعاصر في مصر ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠) ص ١٤ - ١٥ .

الى مصر مع سليم النقاش وبدأ العمل في المسرح فمثلا بعض رواياتهما
الموضوعة والمعربة بالاسكندرية ، ولكن فرقتهما لم تعش طويلا وانصرفا الى
الصحافة - فاسس اديب اسحق جريدتي " مصر " و " التجارة " . ولكن علاقته
بالمسرح لم تنقطع وقد ترك عدة مسرحيات مترجمة عن الفرنسية كانت مكملة
لمسرحيات جلال المترجمة في تكوين الحلقة الاولى بين المسرح المصري
والمسرح الغربي ، وفي تعريف المصريين الى الفن المسرحي الغربي الراقى .
واشهر ما ترجم اديب اسحاق مسرحية " اندروماك " لراسين عام ١٨٢٥ ومسرحية
" شارلمان " التي كان لها دور كبير في تغيير ذوق الجمهور المصري وتمهيد
الجو الادبي امام المزيد من الترجمات ثم التأليف في هذا الحقل . كما
ترجم شريكه سليم النقاش عددا آخر من هذه المسرحيات التي مثلتها فرقته ،
مثل اوبرا عايدة عن الايطالية ، و " هوراس " (Horace) لكورني
و " ميتريدات " (Mitridate) لراسين .

وكان بين السوريين الذين اسهموا في حركة الترجمة المسرحية عن الفرنسية
احمد ابو خليل القباني الذي ترجم مسرحية ميتريدات لراسين عام ١٨٨٤ واطلق
عليها اسم " لباب الغرام او الملك ميتريدات " .

والشيخ نجيب الحداد من طليعة السوريين الذين اسهموا اسهاما كبيرا

في ترجمة المسرحية ، وقد ترجم مسرحية "السيد" (Le Cid) لكورني واطلق عليها اسم "غرام وانتقام" ، ومسرحية "سينا" (Cinna) لكورني ايضا وقد سماها "سينا او عدل القيصر" ، كذلك ترجم مسرحية "هرناني" (Hernanie) وسماها "حمدان" و (Les Burgraves) وسماها "نارات العرب" وكلتاها لفكتور هوجو .

اما لموليير فقد ترجم الحداد مسرحية "البخيل" (L'Avare) و"الطبيب المغضوب" (Le Medecin Malgre Lui) وترجم الحداد عن طريق الفرنسية ايضا مسرحية "لأروميو وجولييت" لشكسبير وسماها "شهداء الغرام" .

هذه المسرحيات كلها ، كما نلاحظ ، من عيون الادب الغربي . وقد كان لترجمتها دور كبير ليس في تعريف المصريين اليها فحسب ، بل في تطوير تذوقهم المسرحي ووعيهم الثقافي والفني . وبغض النظر عن المآخذ التي يشير اليها محمد نجم على ترجمات الحداد كالزيادات على الاصل وتلخيص الحوار وغير ذلك^(١) . فقد كان اسلوب نجيب الحداد — وهو حفيد الشيخ ناصيف اليازجي — خاليا من الركاكة التي اتصفت بها بعض ترجمات المسرحيات في عصره ، وكانت لغته سليمة سهلة ، وان لم تستطع دائما التخلص من القيود اللفظية التقليدية .

(١) نجم ، المسرحية ، ص ٢٠٦ — ٢١٠ .

هذه الترجمات كان لها اثر مزدوج ، فالمسرح لم يكن معروفا لدى المصريين قبل بدء نهضتهم . وعندما عرفوه ، عن طريق سليم النقاش واديب اسحق ويعقوب صنوع ، كان ذلك عن طريق الترجمة ، وكان لا بدّ لحركة ترجمة المسرحيات ان تستمر وترتقي لكي يصبح المسرح جزءا من النشاط الثقافي المصرى قبل ان ينطلق المصريون انفسهم في مجال التأليف الراقى . لذلك فان ترجمة هذه الروائع المسرحية العالمية كان له اثر كبير في تعريف المصريين جمهورا ومؤلفين الى هذا الجانب من النشاط الفكرى العالمى ، كما كان له اثر آخر في تصفية النفسية المصرية وتنقية الازواق الفنية شيئا فشيئا . يقول عبد الرحمن صدقي في مقال له في " مجلة القاهرة " الفرنسية : " نستطيع ان نستنتج ان الترجمة هي اساس ولادة المسرح في الشرق . فالحقيقة ان هذه الاقتباسات الدقيقة والفنية هي التي جاءت لنا بهذا الانطلاق في العبقرية المسرحية في شرقنا خلال فترة ما بين الحربين " (١) .

الترجمة القصصية : قلنا ان الترجمة القصصية كانت مع الترجمة المسرحية الصفة الغالبة على حركة الترجمة العامة . وبالإضافة الى اسهام جلال والمنفلوطي اسهاما رئيسيا في هذا الحقل ، نستطيع ان نشير الى ترجمات اخرى قامت بدورها في تعريف القارئ المصرى الى التراث الفرنسى . غير انه لا بد من الإشارة الى

(١) عبد الرحمن صدقي ، " المسرح المصرى خلال خمسين عاما " مجلة القاهرة ، ص ١٤٠ .

ان الترجمة القصصية بقيت محصورة حتى كانت فترة ازدهار الصحافة في مصر ،
التي بدأت مع مطلع القرن الحالي ٦ فقد اخذت الصحافة في هذه الفترة
تعتمد على القصص المترجم كمادة اساسية في ترويجها ، وكانت الترجمة
عن الانجليزية قد دخلت مرحلة ازدهار ايضا ، فزاد الاقبال على الترجمة
القصصية عن اللغتين بسبب التنافس بينهما . ومع مطلع القرن الحالي اصبح
من الصعب جدا حصر النتاج القصصي المترجم ، وقد اتسع حتى شمل الروائع
العالمية لكبار كتاب فرنسا من جهة ، وشمل القصص الغرامي والقصص البوليسي
من جهة اخرى . ولم تكن هذه الترجمات دائما بمستوى الاثر الفني الاصلي ،
بل كثيرا ما انحط مستواها الادبي بسبب محاولات التصرف من زيادة وحذف
وتبسيط لتقريب القصة المترجمة عن العقلية المصرية وضمان الاقبال عليها . اضاف
الى ذلك استهتار المترجمين بأسلوبهم وركاكة لغتهم وسرعة ترجمتهم لتلبية متطلبات
المطبعة . ويعزو محمد نجم هذا النقص في القصص المترجم الى سببين :
الاول جهل المترجمين بقواعد اللغة وعدم اكرائهم بها لان ما يهمهم هو
ان تكون قصتهم مسلية يقبل عليها القراء بحماسة وشغف ، والسبب الثاني هو
ضيق الوقت لتفقيح هذه الترجمات وقد كانت المطبعة لا ترحم والقراء ينتظرون (١) .
فمن آثار هنرى بورديو ترجم اسعد داغر " بعد العاصفة و " انتصار الحب "
و " عمر و جميلة " ومن آثار اسكندر دumas الاب ترجم العديد من القصص اهمها

(١) نجم ، القصة في الادب العربي الحديث ، ص ٧٨ .

ترجمة بشارة شديد " للكونت دو مونت كريستو " و ترجمة نجيب الحداد
" الفرسان الثلاثة " و " العاشقة المتنكرة " و ترجمة قيصر زينية " الكونت دو
مونفومري " و ترجمة نقولا الحداد " حب في تورة او شيفالية البيت الاحمر "
و " عقد الملكة " ، و ترجمة طانيوس عبده " شقاء الغرام " و " نبيل الجبل سلتبادور "
ومن اثار اسكندر دو ماس الابن ترجم طانيوس عبده " ذات الزهرة البيضاء " ، و ترجم
المنفلوطي " الضحية او مذكرات مرغريت " . ومن اثار برناردان دي سان بيير
(Bernardin de Saint - Pierre) اعاد فرح انطون ترجمة بول وفرجينى
التي ترجمها كل من جلال والمنفلوطي من قبل . اما من اثار شاتوبريان فقد
ترجم اكثر من قصة اشهرها " آتالا ورنيه " التي ترجمها فرح انطون .

ويطول بنا الكلام اذا حاولنا ان نذكر جميع ما نقل الى العربية من
القصص الفرنسي في هذه الفترة خاصة في فترة ازدهار الصحافة واعتمادها على
القصص المترجم كمادة اساسية لاجتذاب القراء ، غير انه لا بد من الاشارة الى
انه بالاضافة الى ما ذكرنا ترجمت بعض من آثار جورج اوهنه (Georges
Ohnet) وبيير ديكورسيل (Pierre Decourcelle) وميشال زيفاكو
(Michel Zevaco) من القصص الغرامية و اوجين سو (Eugène Sue)
ويسول سيكونزك ، (Paul Segonzac) وميشل كورديه (Michel
Corday) . والكونتيس داش (Comtesse Dash) و بونسون دو تيراى
(Ponson du Terrail) ، و كزافييه دو منتيبان

(Xavier de Montépin) وبيير زاسون (Pierre Zaccone) وجول
فيرن (Jules Verne) وبيير لوتي (Pierre Loti) وغيرهم كثير
حتى زاد عدد الترجمات على المئات^(١) . وقد كان الاسهام الاكبر
في هذا المجال بعد ان اتسعت حركة الترجمة القصصية عن الفرنسية من نصيب
السوريين المتمصرين ، وابرز من ساهم منهم فيها فرح انطون صاحب صحيفة
" الجامعة " ونجيب الحداد ونقولا رزق الله واسعد داغر ونقولا الحداد
وطانيوس عبده ، وان كان الاخير قد غني بالترجمة الشعبية في مجلته القصصية
" السراوى " فلم يرتفع الى مستوى فرح انطون مثلاً او نجيب الحداد .

واذا كانت ترجمة القصة والمسرحية قد سيطرت على المظهر العام لحركة
الترجمة في هذا العصر فان هذه الحركة لم تقتصر على ذلك بل لقد ترجم
كثير من الشعر الفرنسي الذي لعب دوراً هاماً في ترقية الذوق الفني وتطوير
الصورة الفنية وتحرير الموضوعات الشعرية واشكالها من قيودها السابقة ، وبين
الشعراء الفرنسيين الذين ترجمت اشعارهم فيكتور هوجو ولا مارتين والفرد دو
موسيه والفرد دوفينيبي وفيرلين وبول فاليري وبودلير وسولي برودم^(٢) ، ومعظم

(١) راجع القصة في الادب العربي الحديث ، ص ٧٠ - ٧٦ .

(٢) يمكن مراجعة نماذج من شعر هؤلاء المترجم في مجالى الغرر التي
اصدرها يوسف صقر عام ١٩١٤ ، او ١٩٠٤ .

هؤلاء ممن ينتمون الى الحركة الرومانطيقية المسماة احيانا عصر الابتداع الاول
او الثاني او الحركة الى التي تلت الحركة الرومانطيقية وتأثرت بها وهي مدرسة
البرناسيين الذين منهم سولي برودم .

وقد كانت المجلات والجرائد في البدء المجال الوحيد لنشر هذه الترجمات
التي لم يكن بالامكان^{ان} تستقل بنفسها قبل ان تشق طريقها ببطء الى الجمهور
المصرى . وفي صفحات المجلات التي صدرت في هذه الفترة^(١) وما بعدها
كثير من نماذج هذا الشعر المترجم اما نشرنا او نظما .

هذه اهم ظواهر الترجمة الادبية عن الفرنسية في عصر الاحتلال ، ولكن
حركة الترجمة ، لم تقف عند حد الادب بفروعه ، بل تخطته الى مجالات فكرية
اخرى اعمق منها احيانا او قل اشد تعقيدا على جمهور القراء . لذلك
سيطرت الصبغة الادبية على ترجمة هذا العصر دون ان تستطيع اخفاء الترجمات
الاخرى في حقول اخرى كان لها بدورها اثر كبير في تطوير العقل المصري ،
وان كان انتشارها اقل من انتشار الادب وتركز تأثيرها في الفئات المثقفة .
هذه الترجمات شملت التاريخ والجغرافيا والقانون والاقتصاد والاجتماع والسياسة
والمنطق والفلسفة^(٢) فقد اشترى حافظ ابراهيم و خليل مطران ، مثلا ، في ترجمة
" الموجز في علم الاقتصاد " لروابوليه ، ونقلت جمعية التعريب عام ١٨٩٢ " كتاب

(١) نذكر منها المقتطف والهلال والضياء والجامعة والزهور والمؤيد .

(٢) لعل ابرز الترجمات في مجال المنطق والفلسفة ترجمات احمد لطفي السيد
ونشير اليها فيما بعد .

الاقتصاد السياسي * لجيوفني ، ونقل عزيز الخانكي عن الفرنسية كتاب "الطعن في الاحكام بطريق النقاش والابرام " ، وترجم امين رسلان " حقوق الملل والمعاهدات الدولية " (١) • ولكن ابرز من عمل في هذا الحقل وترك اثرا يكاد يوازي اثار المصلحين الكبار هو احمد فتحي زغلول .

وفتحي زغلول هو شقيق الزعيم السياسي سعد ومن انصار الامام محمد عبده ، تلقى دراسته العالية في فرنسا فنال منها اجازة الحقوق ثم رجع الى مصر ليعمل في سلك القضاء ويصل الى وكالة وزارة الحقانية عام ١٩٠٧ .

لم يقصر فتحي زغلول نشاطه على ممارسة مهنته الرسمية بل اراد ان يسهم في حركة النهضة العامة ، وان يعرف المصريين الى الفكر السياسي الحديث . وقد كان فتحي زغلول ، كما اشرفنا ، من انصار محمد عبده ولعل بعض ترجماته جاءت لتساعد الامام في دعوته الاصلاحية . يقول جيب عن اسهام فتحي زغلول في الترجمة انه بين العديد من المترجمين في هذه الفترة ، كان ابرز من ترك اثرا قويا وفتح افقا جديدة في العالم العربي فتحي باشا زغلول .

لقد كان هو نفسه محاميا وكان من اوائل ترجماته كتاب بنثام " اصول

الشرائع " (Bentham's Principles of Legislation) (٣) اتبعها في السنوات

(١) ورد ذكر هذه الترجمات في اطروحة لطيفة الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ٦٠ . ومعجم سركيس ليوسف اليان سركيس (مطبعة

سركيس بالقاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٠) ١١ ج .

(٣) نقله عن ترجمة الفرنسية .

المنأخرة بترجمات اجتماعية من مؤلفات ديملان ولوبون ، وقد كان يضيف الى كل مترجم مقدمة يطبق فيها اصوله على الاحوال المصرية داعيا مواطنيه الى العمل من اجل الاصلاح^(١).

ولم يقتصر نشاط زغلول على الترجمة بل الف الكذب القضائية التي فخصص بها " فشر القانون المدني وادهش بتأليفه رجال القضاء فوضع المصطلحات القضائية التي لم تكن معروفة من قبل "^(٢) . وما يهمنا من نشاط زغلول في هذا المجال ليس تساليفه الذي كان ثمرة ثقافته في فرنسا بل ترجماته التي كانت سبيلا لفتح عيون المصريين على الفكر الغربي العميق .

بدأ زغلول بترجمة الكذب القضائية الواسعة المرامي ، ونعني بذلك الكذب القانونية التي تصل بين تطور المجتمع وقوانينه وكان في طليعة هذه الكذب " اصول الشرائع " لبنتام ، وهو يبحث في اسباب الشرائع وعللها العامة الفلسفية وقد ترك هذا الكتاب اثرا في تعويد القارئ المصري على التفكير الفلسفي وتتبع اسبابه ونتائجه ، وترجم زغلول العقد الاجتماعي لروسو (Le Contract Social de Rousseau) الذي بسط امام المصريين افكارا لم يعهدوها من قبل

(١) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٣٢ .

(٢) الطيب حسن ، اثر الثقافة الغربية ، ص ١٧٧ .

عن علاقة الفرد بمجتمعه وبالجماعات الأخرى ، وحدثهم عن حرية الفرد واصل هذه الحرية . وقد كان العقل المصرى آنذاك فى أشد الحاجة الى هذه الأفكار ، وكان اختياره لمترجماتها ، فى كثير من الأحيان ، يأتي مكملًا ، أو قل دعامة ، لدعوة المصلحين الاجتماعيين . فقد ترجم مثلاً " سر تقدم الانجليز السكسونيين " لادمون ديمولان مبرزاً اثر التعليم والتربية الأساسية فى إنشاء شخصية المواطن ، وإسهامه كعضو فى مجتمعه ، كما عقد مقارنة بين الأساليب التربوية التى يتبعها الانجليز • فى بلادهم لإنشاء الأجيال الكفء والأساليب التى يتبعونها فى مستعمراتهم لإخراج الموظفين المطيعين^(١) .

وترجم كذلك " سر تقدم الام " لغوستاف لويون ، فظهر منه للمصلحين الاجتماعيين الطرق التى تسلكها الام المتطورة فى نهضتها وعالج بعض المظاهر المتطرفة فى التطور المصرى وحذر من عاقبتها ، وقد كان لهذا الكتاب اثر كبير بين الفئات المثقفة . وترجم كذلك كتاب " روح الاجتماع " للمؤلف نفسه — لويون — وهو يتحدث فى هذا الكتاب عن علاقات مؤسسات المجتمع وواجباتها وحقوقها .

(١) راجع سر تقدم الانجليز السكسونيين لادمون ديمولان ترجمة احمد فتحي زغلول • (الناشر عبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ، ١٩١٠) .

ولعل ترجمة زغلول لكتاب الكونت هنرى دو كاسترى " خواطر وسوانح في الاسلام " جاءت دعامة للشيخ محمد عبده وسندا له في حركة الاصلاح الديني الذى تزعمه وفي حملة الدفاع عن الدين الاسلامي الذى تعرض لهجمات عديدة في ذلك العصر . وكتاب الكونت دو كاسترى هذا يدافع عن الاسلام ويرد كثيرا من الانتقادات الموجهة اليه .

كل هذه الكتب التي نقلها فتحي زغلول لعبت دورا كبيرا في تطور الفكر الغربي ، وكان لا بد ان تؤثر في تطور الفكر المصرى ايضا عندما نقلت اليه في دور تطوره ، وخاصة ان فتحي زغلول لم يكن يترك كتبه المترجمة معلقة دون صلة مع المجتمع المصرى تاركا لقارئه ان يوجد هذه الصلة ، بل كان يربط هونفسه بين ما جاء في كتابه المترجم وبين الاوضاع المصرية الراهنة ، جاعلا الافكار التي وردت على لسان كبار مفكرى اوربا اقرب الى العقل المصرى واكثر قابلية للفهم بل كان يجعلها محسوسة ملموسة . كان زغلول يفعل ذلك بواسطة مقدماته الاجتماعية التي يصدر بها ترجماته فكان له بنقله الافكار الاوروبية الجديدة وشرحها اثره لعله اشد عمقا وابعد مدى في العقول ، من اثر بعض المصلحين الاجتماعيين .

اضف الى ذلك ان تمكن فتحي زغلول من اللغة العربية ومفرداتها ساعده في مهمة نقل الافكار وصت المصطلحات الجديدة لتستوعب اللغة العربية الآراء الجديدة

«ون تحريف او تصرف ، فاغنى بذلك اللغة واغنى الفكر .

وظهرت اثار ترجمات فتحي زغلول بشكل واضح ملموس فتدفقت الكتب التي تعالج المجتمع وامراضه . ويشير جمال محمد احمد الى بعض الموضوعات التي عولجت ومنها عدم المساواة بين الطبقات ، واتباع مظاهر الحضارة الاوروبية اتباعا اعمى ، والامتيازات التي يتمتع بها الاجانب وغير ذلك كثير . ويعتبر جمال احمد كتابي " حديث عيسى بن هشام " لمحمد المويلحي " وليالي سطيج " لحافظ ابراهيم مئة هذا النوع من النتاج الادبي ، وثمره من ثمار الجوالفكري الذي اثارته ترجمات احمد فتحي زغلول . ويرى المؤلف ان هذين الكتابين لا يزالان يعتبران من اصدق ما يعبر عن مستوى المثقفين المصريين في السنوات العشر الاولى من هذا القرن^(١) . يذهب جمال احمد الى ابعد من ذلك ويرى ان ترجمات زغلول ادت الى تمجيد اساليب التربية البريطانية بعد ان اثبت زغلول ان التثقيف الشخصي والتحسين الذاتي هما سر تطور انجلترا وان على المصريين ان يتفوقوا انفسهم وفق الاساليب الانجليزية^(٢) .

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٤٦ .

(٢) المرجع نفسه ، لعل المؤلف يشير الى كتاب سر تقدم الانجليز السكسونيين الذي ذكرناه سابقا .

قد تكون هذه الملاحظة صحيحة وقد لاحظنا كيف ان الاقبال على المدارس الفرنسية بدأ بعد فترة من العمل البريطاني المخطط يخف تدريجيا فيما كان الاقبال على المدارس الانجليزية يتصاعد خاصة الحكومية منها . وقد يكون لكتاب ديملان الذى ترجمه زغلول اثر في ذلك الا اننا لا نستطيع ان نذهب بعيدا مع جمال احمد لنقرر ان ترجمات زغلول خلقت هذا التمجيد لاساليب التربية الانجليزية ، وان كنا لا نستطيع انكار اثرها . وقد راينا ان اقبال المصريين على التعليم البريطاني جاء بعد تردد ، وبعد ان خططت الحكومة لتوجيه التعليم نحو الاساليب الانجليزية ، وبعد ان رأى الاهالي مصلحة ابنائهم المادية في تعليمهم وفق ما تريده الدولة صاحبة الكلمة العليا وقد بحثنا ذلك مفصلا في الفصل السابق .

المهم ان نذكر هنا ان ترجمات زغلول تركت اثرا ملموسا في التطور المصرى وقد تركت على الاثار الفكرية العالمية فخطبت العقل المصرى ، ربما لأول مرة ، بمثل هذا التركيز .

الفصل الثاني

الترجمة عن الانجليزية

مقدمة : سمات الترجمة عن الانكليزية بوجه عام :

اقتصرت حركة الترجمة قبل الاحتلال البريطاني لمصر على الاتجاه نحو فرنسا ، ولم نعتز خلال دراستنا لحركة الترجمة العامة على اية اشارة تدل على اتجاه قوى في الترجمة عن الانجليزية او على كتاب ذى اثر هام نقل عن الانجليزية قبل هذه الفترة .

لم يكن ذلك غريبا فقد راينا مصر في عصر نهضتها الكبيرين تتجه نحو فرنسا ، سواء كان ذلك في التعليم الداخلي او في البعثات العلمية الى الخارج او في التنظيم الادارى . فكان طبيعيا ان تتجه حركة الترجمة نحو فرنسا ايضا ولا تخرج عن الخط المتبع ، لا سيما ان الترجمة كانت وثيقة الاتصال بالتعليم في مراحل النهضة الاولى . فتمرة التعليم الفرنسي كانت ترجمة عن الفرنسية . وقد يكون هنالك بعض الكذب التي ترجمت عن الانجليزية ، قبل دخول النفوذ البريطاني المباشر الى مصر ، الا انه من المرجح ان تكون هذه الكذب قد ترجمت ، كما ترجمت الكذب عن الفرنسية ، خدمة للتعليم . وما دام التعليم لم يتجه نحو بريطانيا الا في حقول الملاحة

والبحرية والسكك الحديدية والتلغراف ، وهي بعيدة عن التأثير المباشر في الحياة الفكرية فلقد انحصر اثر هذه الترجمات ، في حال وجودها ^(١) ، في الحقل الذي ترجمت من اجله . لذلك فان التأريخ لحركة الترجمة عن الانجليزية التي كان لها اثرها في مصر يجب ان يبدأ مع الاحتلال البريطاني لمصر اى عام ١٨٨٢ ، عندما بدأت الترجمة عن الانجليزية تسير جنبا الى جنب مع حركة الترجمة عن الفرنسية التي ظلت قوية ، كما رأينا ، حتى نهاية فترة هذا البحث وظلت تلعب دورا رئيسيا في حركة النهضة الفكرية بالرغم من المقاومة الانجليزية الشديدة .

لم توجد في مصر فئة من المصريين نشأت على التعليم الانجليزى واتقنت اللغة الانجليزية بحيث اصبحت قادرة على الترجمة عنها الا في مطلع هذا القرن ، اى بعد ان مضى على الاحتلال البريطاني لمصر ^{قراية} قرابة ربع قرن ، وبعد ان استطاع ان يسيطر على التعليم ويخرج الدفعات الاولى من المتخرجين من مدارسه . ولكن التأريخ لحركة الترجمة عن الانجليزية ، يمكن ان يبدأ قبل ذلك التاريخ ، وان كانت الترجمة حينذاك لا تزال منفصلة عن شجرة نظم التعليم الحديث في مصر . السبب في ذلك يرجع الى عامل خارج عن مصر جعل حركة

(١) لم نعثر على ذكر اى كتاب من هذا القبيل .

الترجمة فيها تبدأ قبل تخرج الدفعات الاولى من مدارسها الانجليزية .
هذا العامل هو انشاء الكلية السورية البروتستانتية آنذا - الجامعة
الامريكية حاليا - في بيروت عام ١٨٦٦ . فقد خرجت الكلية السورية جيلا
اتقن اللغة الانجليزية دون ان ينسى ثقافته القومية ، وراحت هي تترجم من
الكذب المدرسية العالية ما ساعدها في متابعة سياستها التعليمية حتى اصبح
لنا ، في الريح الاخير من القرن الماضي ، نهضة ادبية مركزها سوريا ولبنان .
الا ان الضغط العثماني اخذ يقيد حرية المفكرين ويراقب المطبوعات ،
فأخذ عدد كبير من قادة الفكر اللبنانيين والسوريين يهاجرون الى مصر .
يقول لويس شيخو ان هؤلاء " لم يجدوا في وطنهم ما رغبوا فيه من سعة
الحال وبسطة العيش والحرية المعتدلة فهاجروا الى مصر ليتمتعوا فيها بحضارتها
تحت نظارة بريطانيا العظمى " (١) . وتقول لطيفة الزيات عن هؤلاء المهاجرين :
" وقد جاء هذا الفريق من المهاجرين الى مصر وهو الذي تولى اساسا حركة
الترجمة عن الادب الانجليزي في اوائل عهد الاحتلال " (٢) .

(١) لويس شيخو ، تاريخ الادب المخططة العربية في الربع الاول من القرن العشرين ،
(مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٢٦) ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) الزيات ، حركة الترجمة الادبية من الانجليزية ، ص ٢١ .

وقبل ان نتوغل بعيدا في الحديث عن حركة الترجمة عن الانجليزية لا بد ان نشير الى ان الطابع الرئيسي لهذه الترجمة كان الطابع الاهلي .
فبينما كان طابع الترجمة في عصر محمد علي هو الطابع الرسمي الذي توجهه الدولة وتسيطر عليه وتدج في عصر اسماعيل حتى جمع بين الطابع الرسمي والاهلي اصبح في عصر الاحتلال ذا طابع اهلي واضح ومسيطرا ، لا سيما اذا تذكرنا ان الاحتلال غير لغة التعليم الرئيسية نهائيا من العربية الى الانجليزية ، فتوقفت حركة الترجمة التعليمية او كادت ، واصبحت الترجمة الرسمية تنحصر في الادارة والتنظيم .

وعندما دخلت الترجمة الحقل الاهلي من بابه الواسع اتسعت فشملت مئات الموضوعات واشترن فيها عشرات المترجمين لمعت منهم اسماء وضاعت اسماء .
ولقد اتسعت حركة الترجمة في فترة ما بين الاحتلال البريطاني ونهاية هذا البحث الى درجة جعلت الاستاذ انيس المقدسي يقول ، " لا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان اكثر ما كان يقدم لجمهور القراء منذ اواخر القرن الماضي حتى اواخر الثلث الاول من القرن الحاضر هو من قبيل الترجمة والاقتباس " (١) .
وقبل ان نتطرق الى الموضوعات التي شملتها حركة الترجمة عن الانجليزية في اتساعها هذا لا بد ان نتحدث عن المراحل العامة التي مرت فيها هذه الحركة (٢) .

(١) انيس المقدسي ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٠ ص ٣٧٠ .

(٢) نتبع في تقسيم المراحل ما اورده لطيفة الزيات في اطروحتها عن حركة الترجمة الادبية من الانجليزية .

المرحلة الاولى هي مرحلة النشأة وتمتد بين عام ١٨٨٢ و ١٨٩٩ والمرحلة التي رافقت السنوات الاولى من عصر الاحتلال البريطاني ، وقد عم فيها اليأس وكان اثر الاحتلال العسكى لا يزال يحز في نفوس المصريين حتى دفع بعضهم الى التطرف في الانكماش والعودة الى الايمان بالعقلية القديمة والثقافة القديمة . ولم يكن المصريون هم الذين اسهموا في حركة الترجمة عن الانجليزية ، في هذه الفترة ، بل لقد لعب الدور الرئيسي الاول فيها السوريون ، والبنانيون^(١) المعتمرون ، لذلك فان نشأة الترجمة عن الانجليزية اعتبرت غريبة عن البيئة المصرية ولا تعبر عن امكانياتها^(٢) . اضاف الى ذلك ان ردة الفعل القوية التي حدثت خلال السنوات التي تلت الاحتلال مباشرة وادت الى اليأس وعودة سيطرة العقلية القديمة ، قابلتها الترجمات بنقيضها فمثلت مظهرا من مظاهر الثقافة الحديثة . وقد حاول المترجمون على ما يبدو مراعاة الظرف الذى نشأت فيه الترجمة فاقترنت ترجماتهم في هذه الفترة على نقل الرواية والمسرحية دون غيرها لانها قريبة الى عقلية الشعب وذوقه . ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا اختيار موضوعات فيها طابع شرقي من جهة ، وفكرة بسيطة من جهة اخرى ، لكي يزدوا من قربها الى جمهور القراء . وتحدد لطيفة الزيات الموضوعات التي ترجمت

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية من الانجليزية ، ص ٤٥١ .

في هذه الفترة فتقول ان المترجمين اختاروا الرومانس التاريخية والرواية الاجتماعية ورواية المغامرة ، وفي حقل المسرحية اتجهوا الى الكلاسيكية او شبه الكلاسيكية التي تقوم على الاحداث الدامية ويقوم بدور البطولة فيها رجال عظام^(١) .

واثرت هذه الاوضاع في طريقة الترجمة فلجأ المترجمون الى ما اسميناه في الفصل السابق بالتمصير ، واعتمدوا على تبسيط الفكرة والاحداث واختصار بعض اجزاء الرواية وزيادة اجزاء على الاصل ، كما حاولوا ان يصبغوا الرواية بصبغة محلية . تقول لطيفة الزيات : " الخلاصة ان المترجمين مسخوا ، في هذه الفترة ، الاثر الفني المترجم واهدروا وحدته الفنية في محاولة لتبسيطه ^{بالصبغة} وصبغه المحلية وتقريبه من الجمهور " (٢) .

اما من حيث الاسلوب فقد كان في هذه الفترة لا يزال معقدا مقيدا بالمحسنات البديعية ، واذما حاول الخروج من قيوده سقط في العامية المشوهة . الا اننا نستطيع ان نشير الى محاولات فردية في هذه الفترة لتخليص الاسلوب من تعقيداته دون اللجوء الى العامية المشوهة ، وكان ابرز المساهمين في هذه المحاولات يعقوب صروف وفريده عطيه^(٣) .

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية من الانجليزية ، ص ٤٥٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٥٨ .

وانقضت فترة النشأة بانقضاء القرن ومع مطلع القرن الحالي بدأت

المرحلة الثانية وهي ، كما تصفها لطيفة الزيات ، مرحلة ازدهار نسبي^(١)

امتدت حتى سنة ١٩٠٩ .

في هذه الفترة تجمعت عدة عوامل لتسهم في هذا الازدهار ، فقد ولي شؤون مصر لورد كرومر الذى اتفق المؤرخون لعصره على انه كان عصر حرية الصحافة والتعبير ، وكانت فترة اليأس التي تلت سنوات الاحتلال الاولى قد بدأت تخلي الطريق امام امل جديد وخاصة ان مصطفى كامـل كان قد بدأ دعوته الجريئة في هذه الفترة ، فجاءت الروح الجديدة الى الشعب ونهضت الصحافة وظهرت اسماء مصرية ، في حركة الترجمة من الانجليزية ، ساهمت مع السوريين في تعريف المصريين الى آداب الانجليز . وكانت الصحافة عاملا فعالا خلال هذه الفترة في نشر الترجمات التي ركزت على الروايات والمسرحيات فاقبل الجمهور عليها يقرأها بشغف . تقول لطيفة الزيات ان هذه الشعبية ادت " الى ارتباط وثيق بين الادب المترجم والصحافة التي افسحت له مجالا اكبر لارضاء قرائها ، وتكاثرت المجلات الروائية"^(٢).

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ٤٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٦٠ .

الا انه كان من الطبيعي ان يؤدى ذلك الاقبال الى نظرة تجارية للادب مما ساعد في ظهور حركة ترجمة ادبية تعنى بآداب الدرجة الثانية . واقبل المترجمون على القصص البوليمية يترجمونه لان الجمهور استساغحه . ولكن مرحلة الازدهار هذه لم تعمر طويلا فقد سحب كرومر من مصر سنة ١٩٠٧ ، على اثر حادثة دنشواى ، وحل محله غورست لفترة قصيرة حتى جاء كشنر عام ١٩١٠ . ويبدو ان كشنر لم يكن يوافق على السياسة التي وضعها كرومر وسمح فيها للصحافة بشئ من حرية التعبير ، بالرغم من قانون المطبوعات . فاعاد الحاكم البريطاني الجديد تطبيق القانون وشدّد المراقبة مما ادى الى فتور في حركة الصحافة العامة ، وهي الحركة التي كان نشاطها سببا في ازدهار الترجمة الادبية في الفترة الماضية وبخاصة ترجمة القصص والمسرحيات . اضاف الى ذلك ان فترة الخمول هذه امتدت حتى عام ١٩١٩ ، اى انها شملت الحرب العالمية الاولى التي ازداد خلالها الضغط البريطاني على مصر بعد ان اعلنت الحماية البريطانية وفصلت عن الامبراطورية العثمانية . وفوق ذلك كله ، تعرضت البلاد الى ازمة ورق بسبب الحرب اضطر معها عدد كبير من الصحف الى الاحتجاب .

بذلك تأثرت حركة ترجمة القصة تلقائيا ، وهي التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالصحافة ، ولكن هذه الفترة شهدت مع ذلك ظهور نوعين من الترجمة الادبية لم نعرفهما في مرحلة النشأة هما ترجمة الشعر وترجمة النثر الفني اللاروائي .

وفترة الخمول هذه لم تدم هي ايضا فقد قامت عام ١٩١٩ الثورة الوطنية التي دفعت البلاد وامالها دفعة كبيرة الى الامام وقوّت الروح المعنوية للشعب ، فتأثرت بذلك جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية . هذه الفترة بدأت عام ١٩٢٠ اى بعد انتهاء ثورة ١٩١٩ واستمرت حتى نهاية فترة هذا البحث اى حتى عام ١٩٢٥ .

في هذه الفترة استقل نشر القصص المترجم عن الصحافة وشاع النشر المنفصل للرواية على شكل مجموعات او كتب منفصلة . وبرز في حركة الترجمة الادبية والقصصية منها على الاخص اتجاهان واضحان : الاتجاه الاول الذى كان قد برز في المرحلة الثانية من مراحل تطور الترجمة وهو ترجمة ادب الدرجة الثانية ، والاتجاه الثانى الذى شهدناه في حركة الترجمة عن الفرنسية وهو يهدف الى نقل قصص قيم من الدرجة الاولى لجمهور القراء المصريين .

هذه هي المراحل العامة التي مرّت بها الترجمة عن الانجليزية في مصر ، وسنعود الى الربط بينها وبين الفنون الادبية المترجمة عندما نتعرض لترجمة هذه الفنون كلا على حدة .

على ان هناك مظهرا مشتركا بين نتاج الفترات المختلفة للترجمة

منذ بداية القرن الحالي حتى نهاية فترة البحث . فقد سارت حركة الترجمة في الربع الاول من هذا القرن ، وفق خطوط فنية عامة في مجالين هما طريقة الترجمة واسلوبها . ذلك ان مفهوم الترجمة اخذ منذ مطلع القرن يتضح في اذهان المترجمين بعد ممارسة طويلة للعملية الترجمة الادبية . والى جانب ذلك فان المترجم لم يعد بحاجة الى تقريب النص المترجم من جمهور القراء وتبسيطه لكي يناسب اوضاعهم بعد ان قطعوا فترة غير قصيرة بالاطلاع على الاداب الغربية والفكر الغربي عن طريق الترجمات . لذلك قلّ التصرف عما عهدناه في السابق ، وان لم تعمّ الترجمة العلمية الدقيقه الامينه للنص امانة تامة^(١) . اما الاسلوب فقد تحرر منذ مطلع القرن من قيوده ومحسناته اللفظية الثقيله وساد الاسلوب المباشر السهل السليم .

وقبل ان ننتقل الى الحديث عن الفنون الادبية المترجمة عن الانجليزية لا بد لنا ان نذكر ان الترجمة عن الفرنسية في عصر الاحتلال تشترت مع الترجمة عن الانجليزية في كثير من المراحل التي مرت بها ، فقد فرض هذه المراحل الجو الثقافي العام وانعكاسات الازعاج السياسية الداخلية والخارجية وطبيعة المرحلة الثقافية التي مرت بها الترجمة . وقد رأينا

(١) الكلام هنا على الترجمة الادبية لان الترجمة المدرسية العلمية اتصفت منذ البدء بالدقة/السليمة.
العلمية

الاتجاه نحو التمسير في الترجمة عن الفرنسية يمتد الى ما بعد عصر الاحتلال ويشترك مع الترجمة عن الانجليزية ، في مرحلة النشأ ، بهذه الظاهرة . اذف الى ذلك ان الاتجاه نحو ادب الدرجة الثانية لم يقتصر على الانجليزية وحدها بل شمل احيانا كثيرة الترجمة من الفرنسية ، كما رأينا الا . ان الترجمة من الفرنسية كانت قد مكنت جذورها في الحركة الثقافية المصرية واعتمدت على التراث الثقافي الذي نشأ عليه منذ بعيد منتصف القرن الماضي . وقد تعرفت بواسطته على ثمرات الفكر الاوروبي قبل ان تأتي هذه " الطفرة " في الترجمة ، فاستمرت بعد الاحتلال تنهج النهج الرزين الذي تعودته وقدمت لنا من نتاجه ترجمات فتحي زغلول وان كانت العدوى قد انتقلت اليها احيانا كثيرة . ولا يعني ذلك ان الترجمة عن الانجليزية لم تسهم في نقل الاثار الفكرية القيمة ، بل لقد ظهرت ، في خضم القصص المترجم القيم والرخيص ، آثار فكرية كان لها الاثر الكبير في العقل المصري المثقف كما سيتضح في ما يلي .

ترجمة القصص:

كانت الترجمة القصصية ابرز ظاهرة في حركة الترجمة عن الانجليزية في فترة بحثنا هذا . وقد رافق تطور هذه الحركة المراحل العامة التي مرت بها حركة الترجمة عامة منذ الاحتلال حتى نهاية الربع الاول من هذا القرن . فاذا بها في مرحلة النشأة تبقى محصورة بالسوريين المتصرين وفي طليعتهم يعقوب صروف ولبيبة هاشم وفريدة عطيه . وقد اتصفت بالحدس الشديد في الترجمة الذي نتج عنه محاولة تقرب الاعل الى ذوق القارئ المصري عن طريق الحذف والزيادة واغافة الاشعار والامثال ، وبشكل خاص التلخيص ويشير كل من لطيفة الزيات ومحمد نجم الى ظاهرة شكلية في رواية القصص المترجم وهي التمسك بطريقة السرد البدائي كأن يقول المترجم " يحكى ان " او " يقال ان " ، او " قال الراوى " ، ويحذف المحاوراة في سياق القصة^(١). اما من ناحية الموضوع فقد اتصفت الفترة بالخشية في الاختبار وتركزت الترجمة في الموضوعات القصصية الشرقية والتاريخية والموضوعات التي تتعرض لدراسة المجتمع وامراضه بشكل بدائي سطحي وتلجأ الى وصلات من الوعظ والارشاد . كذلك ترجم بعض القصص الغرامي لاقبال القراء عليه . وقد كان المترجمون يراعون

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ١٢٤ .

ونجم ، القصص ، ص ٧٨ .

التقاليد السائدة فيركزون على الحب الافلاطوني ويلجأون احيانا الى الحذف . وقد شهدت هذه الفترة ترجمة عدد من الروايات من مختلف انواع القصص . وتحدد لطيفة الزيات تاريخ بدء ترجمة الرواية عن الانجليزية سنة ١٨٨٦ على وجه التقريب^(١) . وتذكر ان اول رواية ترجمت الى العربية عن الانجليزية من نوع الحكايات الشرقية (Oriental Tales) التي كتبها والتر سكوت وهي بعنوان " الطلسم " (٢) وقد ترجمها يعقوب صروف تحت اسم " قلب الاسد " وهي تتحدث عن بطولة صلاح الدين . ثم تتابعتم ترجمة الروايات عن الانجليزية من مختلف الفنون^(٣) ففي القصص الاجتماعي ترجمت عدة روايات اهمها " النجاة من الخرق " نقلها يوسف تادرس عام ١٨٩٣ و " بدر التمام او شهيد السر " التي نقلتها عفيفة الدمشقية عام ١٨٩٨ . وفي القصص الخرامي شهدت هذه الفترة ترجمة " تحفة المريد في زواج اوديت بفريد " ، وهي بالاصل لكاتب فرنسي ، الا ان محمد

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ٧٠ .

(٢) The Talisman by Walter Scott .

(٣) يمكن مراجعة اسماء القصص المترجم في فهرس دار الكتب المصرية وفي اطروحة لطيفة الزيات ، ونحن مدينون لها بهذا الجهد الذي بذلته في التحقيق للتوصل الى قصص لم يشر اليها فهرس دار الكتب .

لطفي نقلها عن ترجمتها الانجليزية عام ١٨٨٨ ، " وكانت اول رواية غرامية تنقل الى العربية عن الانجليزية " (١) . كذلك ترجم نعم مكرزل عام ١٨٩٤ " كأس المحنة " عام ١٨٩٥ ترجمت لبيبة هاشم " الغادة الانجليزية " . اما من قصص المغامرة فقد ترجم سبع الشميل عام ١٨٨٧ ويتصرف روايسة " مناجم الملك سليمان " لرايدر هاجار . اما الاتجاه الى ترجمة القصص التاريخي فقد كان من الاتجاهات الاولى التي اتجهت اليها الترجمة من الانجليزية ، وقد شهدت فترة النشأة صدور رواية " الشهامة والعفاف " عام ١٨٨٢ ، عبارة عن تلخيص رواية اينفرو (Ivanhoe) لوالتر سكوت ، وقد عريت لجريدة المقطم وظهرت على صفحاتها . وبعد عشر سنوات ، اي عام ١٨٩٩ ، ترجمت فريده عطية رواية " اخر ايام بومباي " واسمها " الروضة القصيرة في ايام بومباي الاخيرة " .

وهكذا انقضت فترة النشأة ومعظم المسهمين في حركة الترجمة القصصية من الانجليزية من السوريين . وقد برزت صحفهم بشكل خاص فاذا المقتطف تلعب دورا هاما واذا المقطم تخصص بعض صفحاتها لنشر القصة المترجمة . اما في المرحلة الثانية من تطور الترجمة القصصية ، وهي تمتد من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٠٩ ، فقد بدأت كثرة المجلدين ترجح

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ٩٤ .

مع مطلع القرن الجديد ، واخذت الثقافة الاوروبية تستجلب عددا كبيرا من القراء الذين اقبلوا على الادب المترجم . وقد كان لهذا الاقبال على الترجمة اثره في التأليف فراح كثير من ادباء مصر يقلدون القوالـب الفنية الجديدة من قصة الى مسرحية الى اقصوصه ، اـضـف الى ذلك ان المصريين انضموا خلال هذه الفترة الى السوريين في حركة نقل التراث القصصي الغربي . ولم يكن دخول المصريين الى حقل الترجمة غريبا ، في هذه الفترة ، فقد مضى على دخول الاحتلال الى مصر زهاء رـبـع قرن كانت الانجليزية فيه قد بدأت توطد اسسها في التعليم ، وكانت الاجيال الاولى التي تعلمت في مدارس الاحتلال قد تخرجت وعمدتها اللغة الانجليزية التي اتخذتها وسيلة لنقل الادب الانجليزى ، بل والآداب الاجنبية الاخرى عن طريق الانجليزية .

وقد برز في طليعة المترجمين في هذه الفترة احمد حافظ عوض ومحمد لطفي جمعه وابراهيم عبد القادر المازني ومحمد السباعي ، وكانوا جميعا ينشرون ترجماتهم في مجلة قصصية هامة ظهرت مع مطلع القرن ، هي مجلة " مسامرات الشعب " (١) . وكانت المجلة ، في بداية عهدها ، توجه نشاطها نحو الترجمة عن الفرنسية ولكن نشاط هؤلاء الكتاب

(١) اشرنا اليها في فصل الترجمة عن الفرنسية .

المرجمين استطاع ان يوجهها نحو الترجمة عن الانجليزية .

في هذه الفترة من تطور الترجمة القصصية نشهد التفات المترجمين الى ادب الدرجة الثانية ، فقد ارتبطت الصحافة ارتباطا وثيقا بالترجمة القصصية واصبحت الترجمة وسيلة لموازل الرزق ، ومن هنا نشأت ترجمة القصص البوليسي الذي اقبل عليه جمهور القراء ، وازدادت ترجمة قصص المناامرت والمعائب فطغت بتدققها على صبغة هذه الفترة وان كانت ترجمة القصص الرفيع لم تتوقف ، واستمرت الترجمة من فنون القصص الاخرين .

وفي القصص الاجتماعي كان اهم ما نقل في هذه الفترة " تنكرد " ^(١) لجنجامين دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية الشهير ، وقد صدرت عام ١٩٠١ ونشرها المقتطف بكثير من الاختصار ومع حذف المقاطع الخرامية . وهناك ايضا " البارون متر او على الباغي تدور الدوائر " من ترجمة الانسة رحمة خورى عام ١٩٠٣ و " الاخ القادر " لمنصور افندى عام ١٩٠٣ و " يافت ييحت عن أب " عام ١٩٠٤ ^(٢) ونقل احمد حافظ عوض عام ١٩٠٤ ايضا " فسحة الامل " ، كما نقل محمد السباعي عام ١٩٠٦ " الانتقام العادل "

"Tancred" by Disraeli.

(١)

"Japhet in Search of a Father" by Mariette.

(٢)

لمارى كوريللي •

كذلك زاد الاقبال على القصص الغرامي فترجم العشرات منه في هذه الفترة ، واهمها ترجمة عباس حلمي عام ١٩٠٩ لروايتين لانتوني هوب "سجين زندا" و "روبرت اوف هنتزو" • وسارت ترجمة القصص البوليسي جنبا الى جنب مع قصص المغامرات • وفي هذه الفترة كان اشهر ما ترجم نسيب المشعلاني عام ١٩٠٠ كتاب ارثر كونان دويل (A study in Scarlet) تحت عنوان " بوليس لندن " كما ترجم " مغامرات شرلوك هولمز " تحت عنوان " الكز الدفين " • واستمر تدفق الترجمات البوليسية فترجم مقصود جرجس ونسيب المشعلاني قسما من مذكرات شرلوك هولمز عام ١٩٠٨ وترجم ديمتري نقولا عام ١٩٠٩ مجموعة من القصص القصيرة حول مغامرات بوليس اميركا السرى • وفي عام ١٩٠٩ ايضا ترجم محمد السباعي رواية ولكي كولنرز (Wilkie Collins) " ذات الرداء الابيض " •

ومع تدفق قصص المغامرات والقصص البوليسية لم يتوقف تيار ترجمة القصص التاريخية والاقبال عليها ، وكان ابرز ما ^{نشر} في هذه الفترة ، رواية لخصها احمد حافظ عوض عام ١٩٠٥ من الانجليزية ولم يشر الى اسم مؤلفها وسماها " الحصون الروسية " ، كذلك ترجم اسعد داغر عام ١٩٠٨ رواية

”اميرة انجلترا” ونشرت كملحق لمجلة المقتطف .

ومرت مرحلة الازدهار النسبي لتأتي مرحلة الخمول المؤقت التي استمرت من سنة ١٩١٠ حتى نهاية ثورة ١٩١٩ . وقد اشرنا الى العوامل التي تضافرت لتجعل من هذه الفترة فترة خمول بعد ازدهار ، وهنا نشير الى ان ما ترجم من القصص في هذه الفترة اتصف بالصفات التي اتصفت بها الفترة السابقة ، اى ان حركة الترجمة القصصية كانت استمرارا للفترة السابقة ، الا ان اندفاعها قد ضعف بسبب الظروف التي احاطت بها . وقد استمر الاقبال على القصص البوليسي ، وقصص المغامرات واستمر تيار ترجمة القصص الاجتماعية والتاريخية ايضا .

وفي هذه الفترة ترجم الشيخ يوسف الخازن من القصص التاريخي رواية ” الالاجى ” (١) لكونان دويل تحت عنوان ” المهجرة ” ، وترجم نقولا حداد عام ١٩١٠ رواية ” الزهرة الحمراء ” لاوركزى (٢) وترجم محمد السباعي عام ١٩١٤ ” قصة مدينتين ” لدكز ، كما ترجم وهبي مسعد

The Refugee by conan Doyle

(١)

The Scarlet Pimpunell

(٢)

عام ١٩١٨ قصة " هنرى ازmond " لثاكرى وقد انتحلها لنفسه وسماها " سيرة .
هنرى ازmond " . وفي نهاية هذه الفترة ترجمت رواية (The Black Arrow)
لروبرت لويس ستيفنسون تحت عنوان " السهم الاسود " ، وقد وقع الترجمة ح . ه .
وفي القصص الاجتماعيه كانت الانجليزية واسطة لنقل رواية دوستوفسكي " الجريمة
والعقاب " ، وقد نقل الجزء الاول منها سلامه موسى عام ١٩١٤ ونقلها كاملة
محمد رضا . كذلك ترجم بباوى غالي قصة " السعادة العائلية " لتولستوى
عام ١٩١٥ وكان رشيد الحداد قد ترجم رواية " البعث " لتولستوى عام ١٩٠٧ .
اما في القصص الخرامي البحث فلم نعثر على قصة مترجمة خلال هذه
الفترة ، وان كانت معظم القصص المترجمة من الانواع الاخرى قد ادخلت النواحي
الخرامية في سياقها .

وكذلك في قصص المغامرات ، فان الانتاج بقي محصورا ، على ما يبدو ،
وبالرغم من اقبال القراء على هذا النوع من القصص ، او لعل ترجمات الفترة
الماضية قد احتفظت بشعبيتها في هذه الفترة ، ولكننا نستطيع ان نذكر
من ترجمات هذه الفترة اعادة ترجمة " مناجم الملك سليمان " ، لرايدر هاجارد ،
وقد نقلها للمرة الثانية خيرت غندور عام ١٩١٤ . ومن القصص البوليسية
نذكر رواية " مغامرة كلومبر " (The Mystery of Cloomber) لكونان دويل التي

نقلها الدكتور محمد عبد الحميد عام ١٩١٠.

وجاءت السنوات الخمس الاخيرة في الربع الاول من هذا القرن فدخلت

حركة الترجمة ككل ، بما فيها حركة الترجمة القصصية ، مرحلة ازدهار ضخم لم

يعرف قبل هذه الفترة ، وقد ذكرنا اسباب هذا الازدهار قبلاً . وفي هذه

الفترة بدأ نشر الروايات المستقل ، فاستقلت حركة ترجمة القصص من الاعتماد

الكلي على الصحافة ، وظهر كثير من القصص في مختلف المجالات التي عرفناها .

فمن القصص التاريخي كان اهم ما ترجم " راسبوتين : الراهب المحتال " ،

ترجمها اسعد داغر عام ١٩٢١ . وعام ١٩٢٢ ترجم طه السباعي رواية

ناتشال هوثورن " الوصمة الحمراء " .

اما من القصص الاجتماعية فابرز ما ظهر في هذه الفترة " صاحب

العلايين " لرونهيم عام ١٩٢٠ وقد وقع الترجمة م . ع . (١) وعام ١٩٢٢ ترجم

عباس حافظ " الفردوس المسموم " ، و " الشريد " وهي قصة (Vivian Gray)

لذرائيلي . ولجأ المترجمون الى الانجليزية مرة اخرى كوسيلة لترجمة

الادب العالمي . فترجم عباس حافظ سنة ١٩٢٢ الارض العذراء لترجينف وفي

السنة نفسها ظهرت ترجمة ابراهيم المازني لقصة الكاتب الروسي ارتسيباشيف

لسنين (Sanin by Artsybashev) ومن القصص الغرامي كان ابرز

(١) لعله محمد علي محمد مترجم " الاهرام " في هذه الفترة .

ما ظهر في هذه الفترة قصة " الحب الابدی " (Love Eternal) لرايدر هاجارد ، وقد ترجمها محمد علي كما ترجم للكاتب نفسه عام ١٩٢١ قصة " الفجر او انجيلا " ، وعام ١٩٢٥ ظهرت " جنة الفردوس او ليلي " لمترجم مجهول ، ولكنها نشرت على صفحات الاهرام وهي لارثر ويجل وكذلك ظهرت قصة كميلين الحسناء لتشارلز جارفيس وقد عرّبها محمد علي محمد .

وبقي الاقبال على قصص المغامرات في هذه الفترة ، فاعيدت ترجمة " مناجم الملك سليمان " للمرة الثالثة ، ووقع الترجمة س.ل . عام ١٩٢٢ . كما ظهرت ثلاث ترجمات لقصة ستيفنسون " جزيرة الكنز " (Treasure Island) قام بالترجمة الاولى رزق الله شمس واحمد صادق وبالثانية عبد العزيز امين والثالثة رياض الجنيدى . وظهر " غرام الملكات " او " مجازفات آلان كوارترمين " سنة ١٩٢٤ .

كذلك اشتهرت ترجمة القصص البوليسية ، واهم ما ترجم عام ١٩٢٣ " جريمة المصور " لجون كيارلينج وقد ترجمها عبد الرحمن العمراوى . وقبل ان تنتقل الى ابداء بعض الملاحظات العامة عن حركة الترجمة القصصية لا بد ان نذكر الجهود التي قامت لترجمة القصص الاجتماعي القصير ،

واهم ما صدر في هذه الفترة قصة " شيخ الماضي " ترجمها عباس حافظ دون
ذكر المؤلف، وهنالك أيضا " على تخوم العالمين " التي ترجمها عبد القادر
المازني . كذلك ظهرت مجموعة من القصص القصيرة في هذا المجال لتولستوى
نقلها عن الانجليزية عبد العزيز امين واسماعيل يوسف الدورى .

ولا يسعنا ان نحصى جميع ما ترجم في هذه الفترة ، وقد ذكرنا ان
الحرية اتسعت بشكل لم يعد بالامكان حصره حتى اصبحت موردا للرزق المادى ،
واختلط الادب الجيد بآداب الدرجة الثانية ، الا اننا نستطيع ان نبيد بعض
الملاحظات العامة التي ظهرت لنا من استعراضنا العام لحركة الترجمة القصصية .

اول هذه الملاحظات ان السوريين المتمصرين كانوا اصحاب الفضل الاول
في نشأة الحرية وفي استمرارها ، فقد كادت نشأتها تنحصر في جهودهم وحدها
كما راينا . واستمرت جهودهم في الاسهام في الترجمة وفتح صفحات جرائدهم
لها طوال المراحل الاخرى التي مرت بها . وقد راينا اسماء اللبنانيين او
السوريين تتردد بكثرة في ما اوردنا من قصص مترجم . وكان للمقتطف
والهلال والاهرام والعقلم فضل كبير في نشر القصص والتشجيع على ترجمتها ،
كما كان ليعقوب صروف وفريدة عطية اثر هام في تسهيل الاسلوب القصصي وتحريره
من القيود دون ان يسف . وقد حمل يعقوب صروف وفريدة عطية ولبيه هاشم

ونعم مكرزل وعفيفه الدمشقي والشيخ يوسف الخازن ونقولا الحداد ونسيب المشعلاني واسعد داغر وطانيوس عبده ويوسف تادرس ورشيد الحداد وغيرهم من السوريين المتمصرين العرب الاول ، وربما الاكبر ، في حركة الترجمة القصصية في هذه الفترة ، كما كانت صفحات مجلاتهم وجرائدهم مسرحا لهذا النتاج المنقول .

وملاحظتنا الثانية هي ان اللغة الانجليزية لم تستعمل لنقل التراث الانجليزي فحسب ، بل كانت وسيلة ايضا لنقل التراث الادبي الروسي والالمانى . وقد اشرنا في معرض حديثنا عن الترجمات القصصية الى رواية تولستوى " البعث " التي ترجمها رشيد الحداد والى قصة " السعادة العائلية " للكاتب نفسه وقد ترجمها بباوى غالي ثم رواية " الجريمة والعقاب " لدوستوفسكي و " الارض العذراء " لترجينف و " سنين " لارتسيباشيف .

وعن الادب الالمانى ايضا ترجمت رواية محمد علي لمولباخ (Muhlbaach) وقد نقلها عن ترجمتها الانجليزية نسيب المشعلاني ونقلتها السيده عفيفة كرم مرة اخرى عام ١٩٢١ .

تقول لطيفه الزيات في حديثها عن الانجليزية كوسيلة لنقل الادب الاخرى : " واذا كانت الروايات الاجتماعية الجديدة التي ترجمناها عن الادب الانجليزي تنحصر في دائرة ضيقة فقد عوضنا هذا النقص بعض

النسء ، فقد كانت الانجليزية واسطة ولم تكن منهلا في خير ما ترجمنا من روايات اجتماعية اما المنهل فكان الادب الروسي (١) .

وتقودنا هذه الملاحظة الى ملاحظتنا التالية حول الترجمة القصصية ، وهي انها باتساعها وتحولها الى مورد مادي انصرفت عن الروائع العالمية احيانا ، وحولت الروائع العالمية الى قصص شعبي احيانا اخرى ، سعيا وراء الربح المادي من جهة وتقريبا لهذه الروائع من عقول القراء واذواقهم من جهة اخرى . ولم تقتصر هذه النزعة على فترة النشأة في ترجمة القصة ، بل استمرت طوال فترة البحث ، وان خفت حدتها مع مطلع القرن ، واستتباب الامر للمدرسة الجديدة فاذا بقصص دكز وسويفت وديغو وثاكرى ودزائيلي وتولستوى وترجينيف وغوته ودانتي تختصر او يحذف منها او يضاف اليها لكي يستسيغها القارئ المصري . اضاف الى هذا التصرف ان اكثر ما ترجم في هذه الفترة لم يذكر اسم مؤلفه واللغة التي ترجم عنها ، حتى بات من الصعب معرفة اصله ، وصار من العسير جدا ان يخرج باحصاء صحيح عن الروائع التي ترجمت في تلك الفترة . غير اننا نستطيع القول انه في خضم القصص المترجم الذي اصطبغ بالصبغة الشعبية كان هنالك عدد من

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ص ١٠٤

للروايات القيمة - وان كان قليلا - تمكن المترجمون من نقله الى العربية .
وتشير لطيفه الزيات الى ذلك فتقول : "..... على اننا قد ترجمنا قله من
الروايات عن الادب الانجليزى تتسم بالعمق والاخلاص رغم انها لا ترتفع الى
مصحاف الروائع الروسية ، فهي لكتاب لهم مكانتهم" (١) . وهنا لا بد من
الاشارة الى ظاهرة هامة اخرى اشارت اليها المؤلفة (٢) ، وهي ان حركة
الترجمة القصصية توقفت في تطورها عند عصر معين تحدده بعام ١٨٦٠ ،
ولم تتبع تطور الرواية الانجليزية عندما اصبحت اكثر عمقا وتخصصا في العصور
اللاحقة . لقد كان ابرز ما ترجم في هذه الفترة من الروايات تلك التي
تعتمد على الاحداث المثيرة وتدخل فيها عناصر الصدفه والتشويق .
واشخاص هذه الروايات هم عادة نماذج بشرية اكثر منهم شخصيات مستقلة
تنفرد بخصائصها وطباعها . وقد كانت هذه العناصر اكثر ما اجتذب المصريين ،
بل العرب ، في مطلع نهضتهم وطفولة عقلهم حتا انهم عندما انصرفوا الى
التأليف كانت هذه العناصر ابرز ما في قصصهم . وفي قصص فرح انطون
ونقولا الحداد والبستانيين وغيرهم ما يؤيد هذا القول . فلقد كانت الفكرة
السائدة عن دور الرواية هي رواية الاحداث ومحاولة كشف امراض المجتمع
ونقده وتوجيهه نحو التقدم والتطور ، وكأن دور الفرد ينكمش امام

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ١٠٣

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩٣

دور المجتمع حتى ليصبح بطل القصة اداة نموذجيه لتحقيق هذا الغرض اكثر .
منه شخصيه مستقلة . لذلك كان من الطبيعي ان تتوقف حركة الترجمة
القصصيه عند هذا الحد في الادب الانجليزى ولا تتبع تطور القصة
الانجليزيه في العصور اللاحقه على ايدى اليوت وميريدث ومور وغيرهم ،
عندما اصبحت اكثر واقعيه وتخصصا . وهكذا جاءت القصة الواقعيه في
ادبنا المترجم قليله ، وجاء النتاج الاعظم في ترجمة الحكايات الشرقيه
التي يناسب جوها واحداثها المتتابعه وغرائبها جو القراء المصريين ،
وفي ترجمة الرومانس الذى كان طابع القصص الاجتماعى الطويل المترجم في
تلك الفترة . كما احتل قصص المغامرات والقصص البوليسي والقصص الخرافي
الذى لا يخرج عن الدائره التي ذكرنا ، جزاء هاما من حركة الترجمة القصصيه .

ولا تخرج القصة القصيره عن هذا الحكم في معظم الاحيان ، وهي
اذا كانت تشتت مع مفهومنا الحديث للقصه القصيره بالطول فانها تفقد
الوحدة والتركيز في الموضوع والجو اللذين اصبحا يشكلان عنصرين هامين
في تكون الاقصوه الحديثه . وقد جاء اكثر ما ترجم من القصص القصير
مفكك لا تظهر احداثه الواحدة نتيجه الاخرى ولا تتطور بشكل طبيعي
انما تعتمد في كثير من الاحيان على الافتعال . ولعل السبب في ذلك

هو ، هنا ايضا ، المنبع الذى ترجم عنه ، فكما ان الرواية الانجليزية التي كانت مصدر الترجمة توقف تطورها عند سنة ١٨٦٠ تقريبا ، فان الاقصوه في الادب الانكليزي من جهتها لم تكن بعد قادره ، في هذه الفترة ، على اعطاء النتاج الفني الذى نعرفه اليوم للاقصوه ، وقد بقيت كذلك حتى نهاية فترة بحثنا . لذلك لم يكن غريبا ان يصيب الاقصوه المترجمه ما اصاب الاقصوه الام بل واكثر من ذلك .

كل هذه الملاحظات شملت المضمون ، اما الاسلوب فقد كان في البدء احدى الصعوبات التي واجهت المترجمين فالاسلوب العربي لم يكن قد طوع بعد ~~لشئ~~ ^{لشئ} هذه الترجمة وكان يتأرجح في مطلع هذه الفترة بين العامي الركيك والمثقل بالبديع والمحسنات . وقد راينا عثمان جلال يلجأ قبل هذه الفترة الى استعمال العاميه او الى استعمال الاسلوب المسجع الذى كان مألوفاً ، وان كان قد قصر سجعته وجعلها اكثر طواعية . لذلك فان مترجمي الفترة الاولى خضعوا غالبا للاسلوب القديم المألوف ، خاصة وانهم لم يجدوا انفسهم مضطرين الى الترجمة الحرفيه وكانوا يتصرفون بالنسـص على حسب ما ذكرنا . على اننا نشهد في هذه الفترة بالذات محاولة لتبسيط الاسلوب قام بها اثنان من السوريين المتمصرين هما يعقوب صروف وفريده عطيه

وقد حاولا تطويع الاسلوب القصصي وجعله اسلوبا سرديا تجتمع فيه البساطة مع العربية السليمة . لكن هذه المحاولة لم تثمر قبل مطلع هذا القرن عندما اصبح الاسلوب السردى البسيط اسلوبا جماعيا اكثر منه محاولات فردية . وهنا لا بد من الاشارة الى ملاحظة هامة بهذا الخصوص اوردها لطيفة الزيات اذ قالت ان الترجمة الامينة كانت تقيد المترجم فيميل الى الاسلوب البسيط في حين انه عندما يتخلص من اثر النص فيلخص ويتصرف كان يستطيع ان يلجأ الى اسلوب التعقيدات البديعة التي لم يكن قد تخلص منها نهائيا^(١) .

وقبل ان ننهي الحديث عن الترجمة القصصية نشير الى انه في هذه الفترة ظهرت مجلات روائية اختصت بالقصص المترجم ، في اكثر الاحيان ، والمؤلف في قليل من الاحيان . وكان ابرز هذه المجلات " مسامرات الشعب " التي اشرنا اليها سابقا . وكان منها ايضا " منتخبات الروايات " و " سلسلة الروايات " ، و " الروايات الشهرية " و " الروايات اليعقوبية " و " مسامرات النديم " و " المؤنس " و " الراوى " و " البستاني " و " عروس النيل " و " المسامرات الاسبوعية " و " حديقته الروايات " و " الروايات الاسبوعية وغيرها كثير ، ليس هنا مجال حصره بالاضافة الى ملاحق " الهلال " و " المقتطف "

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية من الانجليزية ، ص ١٨٤ .

وَصَفَحَات " المَقْطَع " و " الْاَهْرَام " .

ترجمة المسرحية :

هكذا اذا استأثرت الترجمة القصصيه بالجانب الاعظم من حركة الترجمة العامة عن الانجليزيه ، ولكنها لم تستأثر بها كليا فقد كانت هناك ترجمات في حقول اخرى كان لها اسهامات رئيسيه في حركة النهضة العامة . واول هذه المجالات فن قريب من الحركة القصصيه ، نعني به المسرحيه .

لم تشذ ترجمة المسرحية عن مراحل تطور حركة الترجمة العامة والترجمة القصصيه خاصة ، فمرت في المراحل التاريخيه الاربع التي ذكرنا ، وقد خضعت في تطورها ايضا الى حاجات المسرح لانها مرتبطه به ارتباطا وثيقا .

تبدأ المرحلة الاولى عام ١٨٨٢ وتنتهي مع نهاية القرن ، وفي هذه الفتره كان المسرح يعتمد اعتمادا كليا على المسرحيه المترجمه ، ويفضل المأساة الكلاسيكيه ويحاول اعطاء الصبغه المحليه للمسرحيه لتقريبها من اجواء الجمهور المصرى . وفي هذه الفتره تركزت ترجمة المسرحية كما تركزت ترجمة القصصه في السوريين المتصرين ، وكان اشهرهم نجيب الحداد الذى اشرنا الى ترجماته عن الفرنسيه .

واتصفت الترجمة المسرحية ، في هذه الفترة بما اتصفت به الترجمة القصصية من قبل: أي التصرف • وقد برز هذا التصرف في حذف بعض المقاطع التي لا تناسب تقاليد العصر وفي ترجمة الشعر نثرا دون التقيد بالشكل الاصلي للمسرحية •

ومع مطلع القرن بدأت المرحلة الثانية في تطور ترجمة المسرحية ، وقد ظل الميل في هذه الفترة نحو المآسي وهي الفترة التي تعتبر عصر سلامة حجازي الذهبي وكان يقدم المأساة الكلاسيكية •

وفي هذه المرحلة برزت أسماء بعض المترجمين المصريين الى جانب المترجمين السوريين فكان منهم محمد عفت واسكندر جرجس وعبد الملك ابراهيم • هذا التوسع في حركة الترجمة حملنا الى فترة نهضة التمثيل التي استمرت بين ١٩١٠ و ١٩١٩ ، فبالرغم من ظروف الحرب وتوقف النشاط المسرحي في بعض هذه المرحلة ، الا ان آفاق الحركة المسرحية اتسعت وبدأت فئه من المثقفين تدعمها ^(١) • وكان جورج ابيزن قد عاد من تخصصه المسرحي في اوروسا ، وهكذا بدأت الحركة المسرحية تثبت دعائمها بقوة •

(١) نجم ، المسرحية ، ص ١٨١ - ١٨٢ •

• واتسع نطاق الترجمة المسرحية فشمّل الفن الكوميدي أيضا • وما ان انتهت ثورة عام ١٩١٩ حتى كان المسرح قد اثبت وجوده في مصر ولم يعد فنا غريبا عن المصريين فبدأ يعالج مشكلاتهم وينقدها • لذلك كثرت في هذه الفترة التي امتدت حتى نهاية فترة البحث ، المسرحيات الاجتماعية • وكان اكثرها يصطبغ بالصبغة المحلية وقل الاعتماد على المسرحيات المترجمة دون ان يختفي • وفي هذا تقول لطيفة الزيات ان حركة ترجمة المسرحية عن الانجليزية " لم تساهم في هذه الحقبة بتزويد المسرح بزايد يذكر " (١) • وسنشير في فصل لاحق الى بعض ما الف من مسرحيات في هذه الفترة ، اما ما ترجم منها عن الانجليزية فان معظمه انحصر في كاتب مسرحي كبير ، هو شكسبير ، دون اهمال بعض كبار كتاب المسرح كليا كبرنارد شو وهنريك هرتز ، كما جرت محاولة لتحويل احدى روايات والتر سكوت الى مسرحية •

لقد قام ابراهيم رمزي بترجمة مسرحية برنارد شو " قيصر وكيلوباترا " عام ١٩١٤ ، وترجمته هذه تدل على براعه في الترجمة من الانجليزية الى لغة عربية فصيحها جميلة مصورة لا يشعر القارئ معها انه يقرأ اثرا منقولا من لغة الى اخرى (٢) • الا انه تصرف في بعض العبارات والمقاطع وقام

(١) الزيات ، حركة الترجمة الادبية عن الانجليزية ، ص ٣٣٠

(٢) نجم ، المسرحية ، ص ٢٥٦ •

ابراهيم كرمى كذلك بترجمة مسرحيه غنائيه للكاتب المسرحي الدانمركي .
هنري هرتس عن ترجمتها الانجليزيه وقد مصر موضوعها واسماها " عزه بنت
الخليفه نور العين " .

اما شكسبير فقد احتل ، كما قلنا ، المكان الاول في النتاج المسرحي
المترجم . ففي حقل المأساه ترجمت من شكسبير روايه " روميو وجوليت " ثلاث
مرات وقد قام بالترجمة ثلاثه من اشهر مترجمي الفترة هم : الشيخ نجيب الحداد ،
وطانيوس عبده ، ونقولا رزق الله .

كذلك ترجمت " اوتيللو " ، ولا نعرف اسم مترجم الترجمة الاولى ، الا
ان خليل مطران قام بترجمتها مرة اخرى عام ١٩١٢ من ترجمة فرنسيه لها وحاول
ان يكون امينا في عمله قدر استطاعته ، وان كان قد وقع في اخطاء الحذف
والاختصار (١) .

اما مسرحيه " مكبث " فقد ترجمت بين مطلع القرن وعام ١٩٢٥ خمس
مرات ، كانت الاولى عام ١٩٠٠ اشترى فيها عبد الملك ابراهيم واسكندر جرجس
عبد الملك . وكانت الثانية عام ١٩١١ لاحمد محمد صالح ، وهي ترجمة نشره

(١) نجم ، المسرحيه ، ص ٢٤٦ .

لكنها امينه . وفي العام نفسه ظهرت الترجمة التالية وهي شعرية لمحمد .
عفت القاضي . وقد وفق المترجم ، على ما يبدو ، في ترجمته ؛ فمحمد نجم يرى
انها احسن ترجمه عثر عليها في هذه الفترة من حيث الدقة والاسلوب^(١) .
ولطيفه الزيات تقول : " اننا نجد انفسنا ازاء مترجم يجمع بين الفهم العميق
للنص والقدرة على التعبير الشعري ، وهي تعتبر الترجمة الشعرية الوحيدة
لمسرحيه من مسرحيات شكسبير بين سنة ١٨٨٢ و ١٩٢٥ "^(٢) . اما الترجمة
الرابعة لمكبث فقد صدرت عام ١٩٢٣ ، والقصد منها مساعدة طلاب البكالوريا
على تفهم المسرحيه لذلك فقد اتصفت بالامانه والدقه وقد اشترت فيها احمد
محمود العقاد واحمد عثمان القزلي .

كذلك ترجمت رواية شكسبير الشهيره " هاملت " ثلاث مرات في الربع
الاول من هذا القرن . قام بالترجمة الاولى طانيوس عبده عام ١٩٠٢ ،
والثانيه الشيخ امين الحداد عام ١٩٠٨ ، والثالثه سامي الجريديني عام ١٩٢٢ .
وظهرت مسرحيه " يوليوس قيصر " في ثلاث ترجمات ايضا ، الاولى لسامي
الجريديني عام ١٩١٢ ، والثانيه لناشد لوقا ، والثالثه لمحمد حمدي عام ١٩٢٠ .

(١) نجم ، المسرحيه ، ص ٢٣٥ .

(٢) الزيات ، حركة الترجمة الادبيه عن الانجليزيه ، ص ٢٥٦ .

أما مسرحيه " كاريولانيوس " (Cariolinus) فقد ترجمها محمد السباعي عام ١٩١٢ ترجمه نشره امينه .

ولم تقتصر ترجمه شكسبير على حقل المأساء بل شملت ايضا حقل الملهاء ، وذلك في المرحلة الثالثه من مراحل تطور حركة الترجمة المسرحيه عندما اتسعت افاق هذه الحركة لتشمل الملهاء ايضا . ومن مسرحيات شكسبير من هذا النوع ترجم محمد عفت ترجمه نشره امينه عام ١٩٠٩ " زوبعة البحر " (The Tempest) وترجم محمد عبد اللطيف عام ١٩١١ " احلام العاشقين " (Mid Summer Night's Dream) ترجمه نشره . وظهرت " تاجر البندقية " في اربع ترجمات خلال الربع الاول من القرن الحالي ، فالترجمه الاولى قام بها خليل مطران عام ١٩٢٢ وقد نقلها عن الفرنسيه ، وفي العام نفسه صدرت ترجمه محمد السباعي لها ، كما ظهرت ترجمه ثالثه لاغراض مدرسيه قام بها احمد العقاد ورضوان عبد الهادي واحمد عثمان القزلي . وكذلك ظهرت ترجمه مدرسيه اخرى في العام التالي قام بها مصطفى عزيز القرشي .

ومن مسرحيات شكسبير ترجمت مسرحيتان تاريخيتان ايضا هما " هنري الثاني " التي ظهرت في اربع ترجمات مختلفه عام ١٩٢٥ كلها ذات غايات مدرسيه لمساعدة الطلبة في فهم المسرحيه . و " بركلين " وقد ترجمها محمود لطفي ثابت

وسماها " بركليس ملك صور " .

هذا اهم ما ترجم من مسرحيات عن الانجليز في هذه الفترة . وقد ساد حركة الترجمة هذه اتجاهان : الاول هو الاتجاه البدائي الذي عمد الى التصرف وتمزيق الوحدة الفنية للمسرحية احيانا وتغيير التبويب فيها وحذف بعض مقاطعها وزيادة مقاطع اخرى ، وتعديلها بما يتلاءم مع ظروف البيئه وقابليه الحركة المسرحية . وقد سيطر هذا الاتجاه في فترة النشأ من مراحل تطور الترجمة المسرحية ، وقد كان ابرز اتباعه طانيوس عبده والشيخ نجيب الحداد وهما من ابرز مترجمي مرحله النشأ .

والاتجاه الثاني هو الذي يميل الى احترام النص المترجم ويبقي على وحدته الفنية وتبويبه الاصلي وتقسيمه وروحه وهو الاتجاه الذي بدأ يتضح منذ مطلع هذا القرن واخذ يبرز اكثر فاكتر في نهاية فترتنا . ويتميز هذا الاتجاه ايضا بمحاولة الاعتناء بالاخراج الفني الادبي للمسرحية كاختيار الكلمات ورصانه الاسلوب وجماله . فقد بدأ الاسلوب ، في اواخر القرن الماضي ، يميل نحو السهولة الا انه لم يكن قد تحرركليا من المحسنات اللفظية التي تقيده . ومع مطلع القرن الجديد بدأ المترجمون المسرحيون يتحررون من القيود الماضية

ويحاولون ايجاد اسلوب بسيط وسليم في الوقت نفسه . وقد اكتسب هذا الاسلوب بعد معالجة طويلة ، المرونة الثافية والقدره على التغيير متحررا من قيوده اللفظية محتفظا بقواعده اللغويه السليمه .

وهكذا فحركة الترجمة المسرحيه عن الانجليزيه كانت عاملا اساسيا في ادخال هذا الفن الى مصر وكانت المساعد الوحيد للحركة التمثيليه في نشاطها الاول . ثم كانت حافزا للادباء المصريين على التأليف المسرحي حتى اصبح الادب المسرحي جزءا من التراث المصري في عصر النهضة الحديثه . وبالإضافه الى هذا كله ، فان الترجمة المسرحيه اسهمت في نقل التراث الفكرى الاجنبى ، لان المسرحيه تستطيع ان تجمع بين الرقي الفكرى والروحي والاجتماعي للشعب الذى لا بد ان يكون قد انعكس في الترجمات بدرجات متفاوتة .

ترجمة الشعر :

اذا كانت حركة الترجمة القصصيه بدأت منذ حوالي ١٨٨٦ ، والترجمة المسرحيه قبل هذا التاريخ ، فان حركة ترجمة الشعر قد تأخرت حتى ما بعد السنوات العشر الاولى من القرن الحالي . وبين هذا التاريخ ونهاية فترة البحث وقعت الحرب العالميه الاولى وجرت في مصر اضطرابات

داخليه كان لها اثرها في الانتاج الادبي العام . لذلك كان ما ترجم من شعر غربي حتى نهاية الربع الاول من هذا القرن ضئيلا ومحدودا . اضاف الى ذلك ان ترجمة الشعر تتطلب مستوى معيناً من النهضة الفكرية والنفسيه كما تتطلب احتكاكا فعّالا بين الحضارة المقتبسه والحضارة المعطيه حتى يستطيع الشعر الاجنبي ان يكون قريبا الى نفسيه القراء متصلا شعورهم ومفهوموا لعقولهم . وعلاوة على هذا ، كان الشعر فنا معروفا لدى المصريين ، بل انه يشكل القسم الاهم من التراث العربي . وعرفن له شكله الموروث الواضح وله قيوده وله مهمته وله عورته المحدوده في اذهان المصريين . لذلك فان اى خروج عن هذا المؤلف لم يكن من الطبيعي ان يأتى في المرحلة الاولى من تطور النهضة ، وكان يتطلب نموا نفسيا وروحيا وعقليا من قبل القارئ قبل ان يصبح جزءا من تذوقه الفني . وفوق ذلك كله ، للشعر جمهوره الخاص المحدود ، وترجمته تتطلب جهدا لا يلاقى جزاء من ناحية الاقبال على قراءته ومن الناحيه التجاريه الماديه ، كما هي الحال في ترجمة القصه .

بدأت ترجمة الشعر عام ١٩١٢ يوم بدأت مجلة " البيان " لصاحبها عبد الرحمن البرقوقي باصدار كتب مسلسله خاصه بتراجم مشاهير العالم .

خصص الجزء الاول من هذه السلسلة للشاعر الانجليزى لورد بايرون (Byron)
وقد اشتمل على ترجمة لحياة هذا الشاعر ومختارات من قصائده القصيره
والطويله .

قام بوضع الدراسه وتعريب القصائد محمد السباعي ولكن الترجمة
جاءت غير منتظمه ، فنقل السباعي اجزاء من اول القصيده ومن آخرها ،
وقدم بعض الاجزاء على الاخرى ، كما ان المستوى الفني للترجمة
كان ضعيفا وخاليا من الجمال خاصة وانها جاءت نثرية وان المترجم
لجأ الى الاختصار احيانا فاساء الى الصورة الشعرية الاساسيه . كان
بين القصائد التي ترجمت " الحلم " (The dream) و " غادة اثينا " (Maid of Athens)

ومن القصائد القصصيه الطويله للشاعر نفسه ترجم السباعي " تشايلد
هارولد " (Childe Harold's Pilgrimage) التي استغرقت القسم
الاكبر ، و " القرصان " (The Corsair) و " الكافر " (The Gainer)
و " عروس ابيدوس " (The Bride of Abydos) و " سجين
شيلون " (The Prisoner of Chillon)

وفي عام ١٩١٢ ايضا قام وديع البستاني باول ترجمة من نوعها ،
في عصر النهضة ، اذ نقل رباعيات عمر الخيام عن ترجمة فيتزجيرالد الانجليزيه
واسماها " السباعيات " . ثم قدم وديع البستاني عن طريق الانجليزيه
ايضا مختارات من شعر طاغور بترجمتين واحده شعريه واخرى نثريه .
وقد اتصفت ترجمات البستاني هذه بالدقه والعذوبه الشعريه .

وفي عام ١٩٢٢ قام محمود مراد ، وهو مدرس بالمدرسة الخديويه ،
بترجمة قصيدتين لشاعرين مشهورين ، الاولى لماتيو ارنولد وهي " زهراب
ورستم " ، والثانيه " موت ارثر " (Morte d'Arthur) للورد
تنتسون . وقد جاءت الترجمة دقيقه امينه .

وفي العام التالي عاد محمد السباعي يكرر محاوله وديع البستاني
الرائده في ترجمه رباعيات الخيام . وقد جاءت ترجمته على شكل خماسيات ،
ولكنها افتقدت السهوله والعذوبه بسبب الالفاظ الغريبه التي اكتظت بها .
لذلك بقيت ترجمه وديع البستاني تتمتع بقيمتها وشهرتها .

وقد استطاع الادب المصري الحديث ان يحظى ببعض قصائد كبار
رواد الشعر الانجليزى امثال شكسبير وبيرون ووردزورث وكولردج وكيثس وشيلي

وهاردى وغيرهم ، بالرغم من ان الاقبال على ترجمة الشعر الانجليزى بقي محدودا ، ولم تكن هنالك رغبة في نشره بالمجلات لعدم اقبال القراء عليه بصورة خاصة .

اذا بقيت حرية الترجمة الشعرية سواء عن الانجليزيه او عن الفرنسيه محصوره من حيث الفترة الزمنية والانتاج ، لذلك لم يكن غريبا ان تسير في الخطوط الفنية نفسها ، والا نمر في مراحل تطور بارز ، كما ظهر لنا في الترجمة القصصيه ، واهم ما يمكن ان نلاحظ ، في الترجمة الشعرية ، هو ان المترجمين لم يخرجوا في اختيارهم للقصائد عن الشعر الغنائي الذى كان اقرب انواع الشعر الى نفسيات قرائهم . ولما خرجوا عن هذا اللون الغنائي ترجموا شعرا روائيا فيه الكثير من النزعات الغنائية كالقصائد التي اشرنا اليها لبيرون وتنيسون . ومن الشعر الغنائي نفسه كان الاختيار منصبا على ما يعنى بالعواطف غير المعقدة والصور غير البعيده والتي لا تحمل الكثير من النزعات الفلسفيه والثقافيه التي قد تتخطى مدى ادراك القارئ المصرى في تلك الفترة ، وتبعده عن قراءة هذا الشعر والتمتع به . وتشير لطيفه الزيات^(١) الى ظاهرتين كان لهما اثر في اختيار القصائد الظاهره الاولى هي ما اسمته بالتزمّت الاخلاقي

(١) الزيات ، حرية الترجمة الادبيه عن الانجليزيه ، ص ٣٩٧ .

الذى سيطر على المترجمين مما دفعهم الى الانصراف نحو شعر الطبيعة
تاركين شعر الحب الذى يشكل جزءاً هاماً من الشعر الغنائي الغربي .
والثانيه النزعه الشرقيه في اختيار القصائد المترجمه ، فاذا برىاعيات الخيام
ترجم اكثر من مره ، ويتعرف القارئ المصرى الى قصائد طاغور . كذلك اختير
من الشعر الانجليزى نفسه القصائد التي توحى بالجو الشرقى احيانا قصيده
" زهراب ورستم " التي سبقت الاشارة اليها .

وتقودنا هذه الملاحظه الى ملاحظة اخرى هي ان الادب الانجليزى
لم يكن وحده منبع الترجمة ، فقد كانت اللغة الانجليزيه وسيله الى ترجمه
شعر ام اخرى ، كاليهند وايران ، لذلك فان ما ترجم عن الادب الانجليزى
نفسه كان قليلا مع ان المجال واسع جدا وتراث الانجليز الشعري على ما
نعرف من الغنى والاتساع والشمول . ولعل الاسباب التي ذكرناها سابقا
هي التي اسهمت في الحد من حركة الترجمة الشعريه عن الادب الانجليزى .

ملاحظتنا الاخيره حول الترجمة الشعريه هي ان القيمه الادبيه والفنيه
للاثر المترجم اختلفت ، بالطبع ، بين مترجم وآخر ، ان من ناحية اختيار
النص الاصيل او من ناحية ترجمته . اغف الى ذلك ان الاتجاه نحو

التصرف في النص الاصيل او عدمه اثر في القيمة الادبيه للنص المترجم .
فالترجمة الامينه الدقيقه اضعفت على النص المترجم الرصانه ، وحافظت
على ذخير التراث الفلسفي الفكري والثقافي الذي تجمع فيه . ويتضح ذلك
اذا قورنت ترجمات وديع البستاني بترجمة محمد السباعي مثلا لقصائد لورد
بايرون . فقد احتفظ البستاني بالمعاني الاصليه والجو العام الذي يغلف
القصيده وحاول اضعاف صبغه جماليه على النص المترجم لكي يحفظ له قيمته
الادبيه الاصليه . اما السباعي فقد تهرب احيانا من المعنى واختصره وترجم
قصائد بيرون ترجمة نثرية ، كما انه لم يحاول اضعاف الجمال الشكلي عليها ،
مما اثر في مستوى القيمة الادبيه لترجماته هذه ، وافقد قصائد بايرون الكثير
من الرونق الاصيل ، ولعله افقدها ايضا الكثير من فائدها للادب العربي الحديث .

غير اننا نستدرت هنا لنقول ان التصرف في ترجمة الشعر لم يسيطر
على الترجمة الشعرية كما سيطر على المراحل الاولى من الترجمة القصصيه ،
وبقي الميل الى التصرف محصورا في حدود ضيقه جدا ربما فرضتها طبيعة
فن الشعر نفسه .

لقد ترجم القليل من الشعر الانجليزي الى العربية حتى نهاية الربع
الاول من القرن الحالي ، لكن هذا القليل اسهم في تعريف المصريين الى

نظرة جديدة حول مهمة الشعر ومبناه ومعناه . وجاءت النظريات النقدية التي اطلع عليها المثقفون المصريون بلغاتها الاصلية وافادوا منها فتنبوها واخذوا يطبقونها على الادب العربي ويبشرون بها في دعواتهم الادبية النقدية - والشعرية - جاءت هذه النظريات كلها لتساعد القليل الذي ترجم من الشعر الاجنبي ، عامة ، في توسيع آفاق المصريين الادبية وتخفيف نظرهم الى وظيفة الشعر واشكاله التقليدي ومعانيه الموروثة . وسيتضح ذلك عندما نعرض لهذه النظريات النقدية الجديدة وتأثير زعماء الحركة الادبية بها في الباب الثالث من هذه الدراسة .

ترجمة النثر غير القصصي :

تركزت الترجمة النثرية في مطلع حركة الترجمة عن الانجليزية حول الترجمة المسرحية والقصصية ، الا ان هذا المجال ما لبث ان فتح امام المترجمين افقا اوسع من القصة والمسرحية بعد مضي العقد الاول من هذا القرن . فقد بقي النثر الفني مقيدا بشروط شكلية ولفظية وظلت المحسنات البيديعية تثقل هذا النثر فترة طويلة بعد بدء عهد النهضة ، فترة امتدت الى ابعد من نصف القرن الاول من النهضة الحديثة . وقد راينا محمد عثمان جلال يحاول

الثورة على هذه التقاليد فينطرف الى العامية حيناً او يخفف من حدة السجعيات
والمحسنات البديعية حيناً آخر . وقد بقي الاسلوب النثرى مقيداً بالاصول
الموروثة حتى فترة ما بعد الاحتلال البريطاني لمصر عندما شهدنا ظهور
ترجمات احمد فتحي زغلول العلميه وتحريم الاسلوب الكتابي العربي في اثنائه
التي وقفت حائلاً دون استيعابه لتيارات الفكر الغربي ودون تطوره وفق
المتطلبات العلميه للعصر الحديث . وعندما بدأ الاسلوب النثرى يتحرر
من قيوده كان ذلك في مجال القصة والمسرحيه اللتين انصرف الادباء الى
ترجمتهما قبل كل شيء . وكان علينا ان ننتظر مرور العقد الاول من هذا
القرن لكي يستقر الاسلوب النثرى الجديد وتبدأ ترجمة النثر الفني
الاروائي عن الانجليزيه بعد ان كانت هذه الترجمة عن الفرنسيه قد سبقتهما .

كان اول ما عرفناه من هذا النثر الجديد عام ١٩١٠ عندما ظهرت
ترجمتان لمقالة لورد مكولي عن حياة جوزف اديسون ، وقام بالترجمة الاولى محمد
السباعي وبالثانيه جرجس فياض .

بعد هذه المحاولة الاولى اندفع محمد السباعي يترجم سلسله من المقالات
عن الانجليزيه كانت اكثر توفيقاً من ترجماته الشعريه . ففي عام ١٩١١ ترجم
كتاب توماس كارلايل (On Heroes and Hero - Worship) وسماه " الابطال

وعبادة البطولة " . والكتاب عبارته عن مجموعه مقالات تدور حول هذا الموضوع .
وقد حاول السباعي في ترجمته هذه ان يكون امينا للنص الاصلي فقلت الامكنه
التي تصرف فيها او لخص ، ولعل ترجمته الدقيقه هذه هي التي ساعدت
اسلوبه على التخلص من قيوده وغريبه وتعقيدته .

وبعد ذلك ترجم محمد السباعي عام ١٩١٢ مجموعه من المقالات عن
الانجليزيه كان قد اختارها لوبان (J.H. Liebban) وجمعها في كتاب
واحد . ويضم هذا الكتاب تسعا واربعين مقاله لتسعة عشر كاتباً من اشهر كتاب
المقال في الانجليزيه ، وهم يمثلون العصور المختلفه منذ اواخر القرن السادس
عشر حتى منتصف القرن الماضي . ومن هؤلاء بيكون وكولي ودفو واديسون
وسويفت وستيل وبوب وفيلدينج وكولمان وكوبر وستانهوب وجونسون وغولدسميث
ولي هانت وهازلت وتشارلز لامب وغيرهم .

ظهرت هذه المقالات في ثلاثة اجزاء متتاليه تحت اسم " بلاغه الانجليز
او مختارات لوبان " ، وقد قصد السباعي من وراء ترجمتها مساعدة طلاب البكالوريا
على فهمها ، لذلك جاءت دقيقه حاول فيها مراعاة الامانه العلميه قدر استطاعته
كما جاء اسلوبها بسيطاً .

وفي هذه الفترة ايضا عرفنا من المقال المترجم عن الانجليزى مجموعة المقالات التي ترجمها عباس حافظ عام ١٩١٩ عن الكاتب الاميركي اوليفر هولمز تحت عنوان " فواكه الحديث " (١) . ولكن المترجم لجأ هنا الى التصرف في بعض المواضع ، ولعله قصد من هذا التصرف الى تقريب الموضوعات المطروحة من ذهن القراء وحذف ما يصعب عليهم فهمه .

وفي عام ١٩٢٢ ظهرت ترجمتان لمقاله جديده لمكولي هي " لورد كلايف " ترجم الاولى محمد منير عبد الحميد بتصريف والثانيه عزيز نصرالله ، ولتتبعها ملخصه وقد سماها " الوثيقه الحمراء " .

هذا اهم ما عرفناه من المقال الادبي الانجليزى المترجم الى العربيه في هذه الفتره . وهو ، كما نرى ، نتاج ضئيل في كميته ، وان كان هاما في مادته . وقد عرفنا الى اراء عدد من كبار كتاب المقال الانجليز وطرق تفكيرهم وثمرات ثقافتهم . الا ان قصر الفترة الزمنيه التي مسرت بها ترجمة المقال ،

(١) اختارها من ثلاثه كتب لهولمز تدور حول موضوع واحد وهي :

Autocrats of the Breakfast Table, The Professor at the Breakfast

Table, and the Post at the Breakfast Table.

حتى نهاية فترتنا ، جعلها تسير وفق خطوط فنية واحدة دون ان تمر بمراحل متعددة في تطورها ، كما ان الاسلوب الانشائي الذي قام عليه هذا النوع من المقال جاء بسيطا خاليا من التعقيد . وقد ذكرنا ان النشر الفني استطاع التخلص من قيوده القديمة في هذه الفترة ، كما ان الترجمة الامينة الدقيقة للفكر الغربي وما يحويه من اراء ثقافية وفلسفية عميقة جعل من الصعب الاستمرار في استعمال الاسلوب القديم باثقاله الشكلية .

ولم تقتصر الترجمة النثرية اللاروائية على هذا النوع من الكتاب . فقد ترجم في هذه الفترة عن الانجليزية عدد من الكتب الفكرية والعلمية ، في طليعتها كتاب " التربية " لهربرت سبنسر ترجمه محمد السباعي عام ١٩٠٨ ، " مراحل الانواع " لداروين الذي نقله اسماعيل مظهر عام ١٩٢١ م ، و " الحرية " لجون ستيوارت ميل نقله طه السباعي عام ١٩٢٢ ، و " النجاع " للورد بيغزبروك ترجمه امين رزق الله المحامي ، و " مبادئ الفلسفة " تأليف ا. س. ابوت ترجمه احمد امين عام ١٩٢٢ ، و " نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر " لجون تيودور ماث و قد ترجمه اسماعيل مظهر ، و " روح التعاون " لهانز ميلر ترجمه الدكتور حسن على الراجحي عام ١٩٢٢ ، و " اصول علم الاقتصاد " للدكتور الفرد مارشل ترجمه وديع الضبع عام ١٩٢٥ ، ومن كتب صمويل سميلز

"تأدييه الواجب" و"كتاب الاخلاق" و"سر النجاح" وقد ترجم الاول محمد السباعي والثاني محمد الصادق والثالث يعقوب صروف .

وفي حقل التاريخ ترجم في هذه الفترة عدد من الكتب عن الانجليزيه ، من هذه الكتب " تاريخ اوروبا الحديث من فتح القسطنطينيه سنة ١٥٤٣ الى سنة ١٨٧٨ " ، تأليف ريتشارد لودج ، وقد ترجمه محمد عبد الله عنان عام ١٩١٥ ، وكتاب " تاريخ المسأله المصريه من ١٨٢٥ - ١٩١٥ " لتيدور روتستين وقد ترجمه عبد الحميد العبادى ومحمد بدران سنة ١٩٢٣ ، و" حقيقه الحرب العالميه " لادموريل ترجمه على احمد شكرى عام ١٩٢٢ . كذلك ترجم شكرى صادق " تاريخ الفنون الجميله اليونانيه " . وهذا بالاغافه الى عدد اخر من الكتب حول " معنى الحياه " و" السعاده والسلام " و" مصرات الحياه " و" محاسن الطبيعه وعجائب الكون " ، وقد ترجمها كلها وديع البستاني .

كما ان هنالك عددا من كتب المذكرات ترجمت في هذه الفتره فتعرف المصريون لأول مرة الى هذا الفن الادبي . فقد ترجم اسعد داغر عام ١٩٢٢ "مذكرات" ، مستر اسكويث " وترجم محمد التابعي كتاب لورد سيل " اوقات فراغ موظف مصرى " . كذلك ترجم محمد السباعي مجموعه من رسائل جوزف اديسون تحت عنوان " رسائل النانى " ، كما ترجم رسائل لمشاهير الكتاب وسماها " رسائل غرام " .

عام ١٩٢١ قام نقولا يوسف بترجمة " مذكرات اوسنار وايلد " (De Profundi) .

هذه المذكرات حملت الى المصريين تجارب حياتيه وفلسفه فكريه، وعرفتهم الى هذه الطريقه الجديده في التعبير عن التجارب الفكرية المباشرة .

لكن هذه الترجمات الفكرية كلها لم تكن وحدها في ميدان الترجمة النثرية اللاروائيه فقد كان هنالك المقال الصحفي المترجم وهو اقدم عهدا من المقال الادبي وترجمة الكتب الفكرية . هذا النوع من المقال ، وان لم تغلب عليه الصفة الادبيه والفنيه او الفكرية التي تضعه في مصاف الآداب الخالده ، فانه استطاع الاسهام بقسط كبير في حرية النهضة عن طريق نقل المعارف الاجنبية والمعلومات الجديده والاختراعات الحديثه من جهه ، وبسط الاسلوب الانشائي من جهة اخرى . وبرز هذا النوع من المقال مع ظهور "المقتطف" ثم " الهلال " ، ولان يعالج موضوعات تاريخيه او جغرافيه او علميه .

كان " المقتطف " رائدا في هذا الحقل منذ تأسيسه في بيروت عام ١٨٧٦ عندما بدأ يعقوب عروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس ينقلون في مجلتهم هذه مقالات غريبه لنشر المعارف الجديده واطلاع القراء على التطورات العلميه الحديثه في اكثر من حقل . وواصل المقتطف رسالته بعد انتقاله

الى مصر في سنته التاسعه ، فاسهم اسهاما كبيرا في حركة النهضة التي كانت تسير بقوة آنذا . وكان حلقة عامة في سلسلتها وصلة وصل بين الثقافة الغربية الجديد والثقافة العربية القديمه . وقد عنيت مقالات المقتطف المترجمه بالنواحي العلميه بشكل خاص ، ونقلت الى المصريين الاراء العلميه والاختراعات والاكتشافات الجديده ولم تهمل التاريخ والجغرافيا والادب والشعر وغيرها من حقول المعرفه .

لقد لعب يعقوب صروف في المقتطف دورا هاما في حركة الترجمة هذه فاق دوره في الترجمة القصصيه . ولعب المقتطف دورا رئيسيا في حركة النهضة عامة فانضاف اليها دعامة هامة وزاد مآثرة على مآثر السوريين في اسهاماتهم المتعددة في مناحي النهضة المختلفه .

وفي عام ١٨٩٢ انشأ جرجي زيدان مجلة " الهلال " التي اعتمدت اعتمادا رئيسيا على المقال المترجم ، فنقلت عن الغرب ابحاثا في الاكتشافات والاختراعات الجديده ، غير انها اهتمت بشكل خاص بابحاث التاريخ والفلسفه والابحاث الاجتماعيه ، فخصص قسم لتاريخ اهم احداث العالم وابطالها ، كما خصص ثلاثة اقسام منها للادب بما في ذلك القصة والنقد . ونانت هذه

الاقسام تعتمد حيناً على التأليف وأحياناً على الترجمة . كذلك جعل قسم من المجلة للاخبار الخارجية المنقولة عن الغرب . ومع ان المقال المؤلف اخذ يحتل صفحات الهلال شيئاً فشيئاً ، فان المقال المترجم لم يختف منها وظلت تعتمد على مقال مترجم واحد على الاقل في كل عدد من اعدادها . ولا يقل الدور الذي لعبه الهلال عن دور المقتطف ، فاذا كان المقتطف قد اهتم بالمناحي العلمية فقد وجه الهلال اهتمامه الى المناحي الادبيه والتاريخيه ، فجاء الواحد مكملًا للآخر وجاء الاثنان معاً ليسدا فراغاً كبيراً في حاجات عصر النهضة وليضيفا حيويه الى سير الحركة العامه وتطورها . لقد كان المقتطف والهلال من ابرز ما اسهم به السوريون في النهضة الحديثه ، وهو اسهام ليس غنياً .

ولا بد لنا ونحن نتحدث هنا عن المقال الصحفي المترجم ان نشير الى مشاركة جريده " المؤيد " في هذا المضمار ، ان نقلت بعض المقالات المترجمة عن الصحف الاميريكيه ، وقد مال ما نقلته نحو الناحيه الادبييه وحمل معاني انسانيه شامله .

خلاصة

في اثر الترجمة في نقل الثقافة الغربية الى مصر

كانت الترجمة نتيجة للحركة التعليمية التي شكلت العنصر الاول من عناصر النهضة الحديثه في اول عهدها . فقد مهد التعليم جوا ملائما لظهور الترجمة ، فخلق طبقه معينة من الناس مستعدة لفهم الافكار الجديده وتقبلها واوجد فئة منهم استطاعت الاطلاع العميق على الفكر الغربي فنقلت منه ما استطاعت الى العربي ، قاصدة الى اغناء التراث العربي وتلقيحه بافكار جديده اشد حيويه مما يختزن واكثر قابليه للتطور .

لكن الترجمة لم تكن نتيجته فقط لنشاط النهضة الاولى ، بل كانت عاملا من عوامله ووسيله من وسائله ، ادت في النهاية الى انتعاش الحركة الفكرية عامة والادبيه خاصة . وهكذا كان التعليم مبيدا للترجمة وتطورها ، وكانت الترجمة باتساع دائرتها مهددة لظهور حركة ادبية جديده . يقول عز الدين الامين : " ان الترجمة سواء الانت علميه ام ادبيه قد افادت الادب العربي في الفاظه ومعانيه واغراضه واساليبه ، حيث قد زادت الثروة اللغوية بما وضع او عرب من مصطلحات في الطب والقانون والآداب وغيرها ، كما انه متأثرا

بما ترجم من علم الغرب وأدابه، اتسعت الأغراض وتعمّدت الكتاب قصد العبارة فدقت المعاني وارتقت الأخيلة وبعثت الأساليب عن الصدعة والزخرف .
وقد جنس النقد الأدبي ثمرة هذا الاتجاه في الأدب بأن كان هذا الاتجاه عاملاً خطيراً يمهّد لظهور اتجاه مثله في النقد ، بل كانت هذه المترجمات في الحقيقة من الأسس الهامة لنشأة النقد الحديث في مصر^(١) .

ولم يكن النقد وحده الذي استفاد من الترجمة ، ذلك أن هذه الحركة أسهمت بما نقلته من كتب ومقالات في الشعر والنثر والقصة والعلوم التاريخية والاجتماعية وغيرها في انعاش الجو الفكري المصري عامة ، وخلق تيارات فكرية وأدبية تصارعت أحياناً واتفقت أحياناً أخرى .

وأبرز ما نشأ من تصارع بين التيارات المختلفة نتيجة هذا النشاط

الفكري الجديد الصراع التقليدي بين القديم والحديث . فقد كانت الترجمة

من أفكار جديدة وثقافة غريبة انعكست

في طبيعة العوامل التي أثرت في هذا الصراع بما أدخلته إلى العقول في

مختلف مناحي الحياة العملية والفكرية ، فخلقت هذا التجاذب بين المحافظين

من ذوى الثقافة التقليدية وأولئك الذين استطاعوا أن يستقوا الثقافة الغربية

من منابها الأصلية أو بواسطة الترجمات الكثيرة التي صدرت في هذه الفترة .

(١) عز الدين الأمين ، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، مكتبة نهضة

مصر ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

على ان سبيل الترجمة الى الحياة الفكرية المصرية لم يكن دون صعوبات ،
فقد رايناها في مرحلة النشأة تتعثر متأثرة بعوامل عدة ، كان منها سيطرة
العقلية القديمة على الجو الفكرى من ناحية المعنى ، وسيطرة الاسلوب التقليدى
المفيد من ناحية المبنى وفوق ذلك كله كان المستوى الثقافي العام للقارئ المصرى
يقف حائلا في بادئ الامر دون اتساعها وشمولها لموضوعات فكرية عميقة .
لذلك بدأت حركة الترجمة بالترجمة القصصية التي مهدت السبيل امام دخول
الاراء الغربية الجديدة في اطار قصصي غير مباشر وسهل الاستيعاب . يقول محمد
نجم عن اسهام المترجمين الاولين في مجال القصة : "..... ونحن على الرغم
مما نسأخذه على هؤلاء المترجمين من مسخ وتشويه ، لا ننكر ما كان لعملهم
من الاهمية في تاريخ ادبنا الحديث ، فعندما بدأ هؤلاء ينقلون آثار الغرب
الى لغتنا لم يكن للقصص عندنا شأن يذكر . وقد كان الادباء يحتقرون كتاب
القصة ويعتدونهم فئة متخلفة من ذوى المواهب ^{الزليلة} ~~المنهكة~~ (١) . وبالرغم من ذلك
فقد استطاع مترجمو القصة الاولون ، لا ان يثبتوا هذا الفن في ادبنا الحديث
فحسب ، بل ان ينقلوا معه لمحات من الحضارة الغربية والقيم الانسانية المتصلة
بها . وكان حركة الترجمة كانت " عدى للتطور الفكرى ذاته " (٢) كما يرى محمود

(١) نجم ، القصة ، ص ٢٤ .

(٢) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٨٧ .

شوكت ذلك انها بدأت تمصيرا للأثر الغربي كما راينا ، ثم اخذت تتطور شيئا فشيئا حتى اصبحت ترجمة بمفهومنا الحديث عندما اصبح القارئ المصرى اكثر قابلية لتلقي الاراء الغربية كما هي . ومن هنا انطلق الادباء المصريون والسوريون الذين نشأوا على الثقافة الغربية الى التأليف والابتكار .

• ثم ان الترجمة التي بدأت بالقصة لم تلبث ، بعد ان مهدت السبيل ، ان انطلقت نحو الترجمة الشعرية والفكرية والعلمية العامة التي شملت عنصرا رئيسيا في عصر النهضة وتركت اثرها في اساليب التفكير والاحساس والتعبير المصري . فما هو اذا الدور المباشر الذى لعبته حركة الترجمة في الادب المصرى الحديث ؟

نستطيع ان نذكر قبل كل شيء ان الترجمة اسهمت في ايجاد فنون ادبية جديدة في الادب العربى الحديث ، مثل القصة القصيره والرواية — بمعنيها الحديث — والمسرحية والمقالة ، كما انها اسهمت في تغيير القوالب القديمة للشعر ، وظهرت معناه ومبناه ، ولم تقتصر مهمتها على تقديم هذه الفنون الجديده والمتطورة الى المصريين ، بل اعدت عقولهم ونفوسهم لقبولها . كذلك اسهمت الترجمة في تطويع الاسلوب العربى للتعبير عن الاراء الادبية الحديثه ، وبسطت الاسلوب فجعلته قادرا على استيعاب متطلبات الفكر الحديث . ولما

جاء المصريون يتصدون للتأليف الحديث والخلق الفكري لم يواجهوا الصعوبة التي واجهها المترجمون في بداية حركة الترجمة .

يقول طه حسين في صعوبة الترجمة والدموع اليها لما فيها من فائدة فكرية : "..... انظن ان امر الترجمة يسير ؟ اما انا فاعترف بانه اشق واعسر مما كنت اقدر . فالذوق الغربي مخالف في وجوه كثيرة لذوقنا الحديث على تغييره وتطوره ، وفي اللغات الاجنبية مرونة ويسر لم يتاحا بعد للغتنا العربية . ومن هنا كان في الشعر الاجنبي خاصة ، والادب الاجنبي عامة ، صور يعسر جدا نقلها الى اللغة العربية ، حتى اذا نقلت لم نسغها ولم تطمئن اليها نفوسنا وآذاننا . ومع ذلك فهي تعجبنا وترضينا كل الرضا حين نراها في لغاتها الاجنبية الخاصة . ومصدر ذلك فيما نعتقد اننا لم نتعود ان نرى في لغتنا العربية مثل هذه الصور ، وما هي الا ان تكثر الترجمة والنقل ونجد فيهما حتى نألف هذه الصور ويتأثر بها ذوقنا ونحاول ان نحتذيها ونحاكيها فلنبداً غير خائفين ولا مترددين" (١) .

وليس معنى حديث طه حسين ان الترجمة لم تلعب دورا اساسيا حتى تاريخ هذا الكلام ، انما هو دعوة الى المزيد من الترجمة وإشارة الى اهميتها

(١) طه حسين ، حافظ وشوقي ، ص ٤٥ - ٤٦ .

المستمرة حتى بعد ان يصبح ابناء الشعب قادرين على الخلف والابتكار والتأليف .

تركزت ملاحظتنا من حركة الترجمة حتى الان حول هذه الحركة عامة . ولكن هنالك بعض الملاحظات التي لا بد من ابدائها حول الترجمة عن الفرنسية والترجمة عن الانجليزية . واول هذه الملاحظات ان الترجمة عن الانجليزية لم تستطع ان تحتل مكان الترجمة عن الفرنسية ، واحتفظت هذه بمركزها وبدورها في الحركة الثقافية . كما ان الترجمة عن الانجليزية تعرضت كما قلنا " لطفرة " افقدت الكثير مما ترجم قيمته الفنية او العلمية . واذا كانت الترجمة عن الفرنسية لم تنتج تماما من هذه " الطفرة " التي اصابته حركة الترجمة عامة في فترة ازدهار الصحافة ، فانها كانت قد رسخت اقدامها من قبل في الحياة الفكرية وتعرفت الى الآثار الفرنسية الكلاسيكية والرومنطيقية فنقلتها نللا ادبيا فنيا او علميا امينا اكثر منه تجاريا . وقد راينا نماذج من ذلك مع جلال والمنفلوطي ثم زغلول .

يقودنا هذا الكلام الى ذكر ما لاحظناه من قبل من ان الترجمة عن الفرنسية عرفت اقطابا كان لهم امهامات رئيسيه في نقل التراث الفرنسي القيم الى العربية ، واعتبروا محطات هامة في تطور حركة الترجمة ، اما الترجمة

عن الانجليزية ، فمع انها عرفت كثيرا من المسهمين الذين تركوا آثارا قيمة ،
في نقل التراث الغربي ، الا ان اسهام المترجمين الفردى لم يثن بمستوى
اسهام الترجمة الفردية عن الفرنسيه . ولم تعرف الترجمة عن الانجليزية
مترجمين بمستوى اقطاب الترجمة عن الفرنسيه الذين تحدثنا عنهم ، او قل
انهم لم يستطيعوا ان يتركوا الاثر الفردى الفعّال الذى تركه اقطاب
الترجمة عن الفرنسيه امثال جلال وزغلول . من هنا كان باستطاعتنا ان نعالج
موضوع الترجمة الادبية عن الفرنسيه عن طريق معالجة اسهام اقطابها - كما
فعلنا - وتعذرت علينا هذه المعالجة في حديثنا عن الترجمة عن الانجليزية
وكان لا بد من حصرها عن طريق معالجة الترجمات في كل فن على حدة .

ولعل الظروف الثقافية العامة للفترة التاريخيه التي نشأت فيها الترجمة
عن كل من الثقافتين كانت سببا من اسباب ذلك . فقد انبثقت الترجمة الاهلية
عن الفرنسيه تحت تأثير الترجمة الرسمية التي كانت تهدف الى نقل العلم
والمعارف لنفسها ، لذلك كانت غاية هذه الترجمة الاهلية نقل المعارف ايضا
وكأنها تكملة ادبية لحركة الترجمة الرسميه العلميه .

اما الترجمة عن الانجليزية فقد جاءت في ظروف مختلفه . وكانت
النهضة قد قطعت معها مراحلها الاولى ، وكانت الترجمة قد اصبحت ،

بفضل الصحافة ، اداة للكسب المادى ، وكان لها جمهورها الذى يستسيغها ،
او يستسيغ اكثر ما تحمله اليه ، وهو من باب القصص . ائيف الى ذلك ان
الترجمة عن الانجليزية لم تنبثق غايتها عن اهداف الترجمة الرسمية ، لان مثل
هذه الترجمة لم يكن موجودا . وقد رأينا كيف توقفت حركة الترجمة الرسمية بعد
الاحتلال بسبب سياسة الانجليز التعليمية الخاصة . لذلك كله فان من الطبيعي
ان تتسع حركة الترجمة ، في هذا العصر ، اتساعا اساء الى مستواها الثقافي
العام في كثير من الاحيان ، لانها اصبحت تخاطب جمهورا اوسع من جمهور
الترجمة الاهلية عن الفرنسيه في مراحلها الاولى ، وكانت وسيلتها الى الظهور
صفحات الجرائد والمجلات التي تبغى ، قبل كل شئ ، سعة الانتشار . غير
ان هذا لا يعني اننا لم نعرف في ما ترجم عن الانجليزية آثارا ذات قيمة
فنية او ادبية او علمية او مترجمين كانت غايتهم نقل الاثر العلمي لنفسه . وقد
اشرنا الى بعض هذه الاثار ومترجميها . الا ان الصفة الخالصة التي صبغت
حركة الترجمة هذه هي الاتساع والانتشار اكثر منها التعمق البعيد والقصد
العلمي . ولعل غلبة الاتجاه نحو القصة سبب في ذلك .

تبقى هنالك ملاحظتان رئيسيتان حول حركة الترجمة عامة .

الملاحظة الاولى هي ان الترجمة لم تكن دائما نتيجة حركة التعليم

بشكل مباشر ، نعني بذلك انه وان كان التعليم قد مهد السبيل وخلق الجو الفكري العام لوجود الترجمة وتقبلها فان عملية الترجمة لم تنحصر بخريجي هذا التعليم دائما . فالترجمة عن الانجليزية - كما رأينا - شهدت مولدها على ايدي غير المصريين من السوريين واللبنانيين الذين سبق لهم ان تعرفوا على التراث الغربي ، بواسطة جامعات بلادهم ، قبل ان ينتقلوا الى مصر . ولم ينضم المصريون اليهم الا في مرحلة متأخرة بعد ان كان السوريون قد مهدوا سبيلها . اما الترجمة عن الفرنسيه فقد بدأها خريجو مدرسة اللسن واستاذهم رفاعة ، ولكن السوريين كانت لهم مشاركات اساسيه فيها اسهمت اسهاما جديا في ازدهار حركة الترجمة وتوسعها ، وقد تحدثنا عنها في ما سبق .

والملاحظة الثانية هي ان الصراع الثقافي الذي شهدناه في حركة التعليم بين الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية ، والذي وصل احيانا الى حد الانطهاد ، لم نشهده في حركة الترجمة . فقد تعاونت الثقافتان معا في هذا المضمار من اجل ادخال الافكار الغربية عامة الى مصر ، واشتركتا في خلق تيار حضارى جديد كان من نتائجه الصراع بين الثقافة الجديدة بانجاهيمها الانجليزى والفرنسي والثقافة القديمة الموروثة .

الفصل الثالث الوسائل المساعـدة

كان التعليم والترجمة العاملين الاساسيين في ادخال الحضارة الغربية الى مصر . ولكن هذين الاساسين كانا بحاجة الى عوامل اخرى مكملـة تساعدـهما على اداء المهمة التي وجدا من اجلها . وفي طبيعة هذه العوامل الطباعة والصحافة :

الطباعة :

لا حاجة بنا الى الحديث عن اهمية الطباعة في تعميم المعرفة وتوسيع نطاقها وبالتالي في نهضة الشعوب ، ولن نعود الى ايام غوتنبرج لكي نثبت هذه الحقيقة البديهية ، الا اننا سنتحدث عن دور المطبعة في النهضة المصرية الحديثـة .

عرفت مصر المطبعة لأول مرة عندما ادخلها نابليون بوناپارت مع حملته ولكن هذه المطبعة لم تترك اثرا بعيدا في الحركة الفكرية وزال اثرها البسيط عندما انسحبت الحملة الفرنسية من مصر وحملتها معها .

وجاء محمد علي فانشأ مطبعة جديدة في بولاق عام ١٨٢١ لطبع
"الوقائع المصرية" والكتب المدرسية المترجمة في العلوم الرياضية والطبيعية
والتاريخية والحربية والبحرية وغيرها ، وجعل نقولا مسابكي مديرا للمطبعة ،
وهو احد اعضاء البعثات الاولى التي ارسلها محمد علي الى ايطاليا
فتعلم فيها سبب الحروف وصنعها .

لعبت المطبعة في ذلك العصر دورا هاما في نقل المعرفة من اللغات
الاجنبية الى العربية ونشرها بين المصريين ، كما اسهمت احيانا كثيرا في
نشر الكتب المؤلفة والكتب القديمة . ولو استعرضنا جدول الكتب
التي طبعت في بولاق بين سنة ١٨٣٣ - عندما بدأ الامر يستتب للغة
الفرنسية قبيل انشاء مدرسة اللسان - وسنة ١٨٤٢ ، كما اوردها ابو الفتح
رضوان في كتابه عن تاريخ مطبعة بولاق ، لوجدنا ان اكثر من ربع الكتب
المطبوعة في هذه الفترة مترجم عن الفرنسية ، ومع العلم ان هنالك عددا كبيرا
من الكتب الواردة في هذه القائمة الفت تأليفا او نقلت من العربية
الى التركية او الفارسية او بالعكس ، ومع العلم ايضا ان رضوان يشير الى ان
هذه القائمة ليست كاملة جامعة وانه اوردها مثالا على تنوع الموضوعات التي
طبعت في بولاق . ولم نعثر في هذه القائمة على اى كتاب مترجم عن لغة

اوروبيه غير الفرنسيه .

لكن عمل المطبعة في عصر محمد علي كان يركز اهتمامه على الكتب المدرسيه ، وهي وان كانت الاساس الاقوى للنهضة الحديثه الا انها لا تكفي للتأثير في عقلية الشعب ونفسيته . وكان علينا ان ننظر نضوج النهضة في عصر اسماعيل عندما بدأت حركة النقل الادبيه والفكرية العامة وتعدت النتاج المدرسي البحث . وكان مطبعة بولاق ضاقت عن استيعاب هذا النتاج فأُسس مطابع اخرى كالمطبعة الاهلية القبطيه ومطبعة وادي النيل ومطبعة جمعيه المعارف بالاضافة الى مطبعة ديوان المدارس التي كانت تطبع الكتب المدرسيه وصحيفة " روضة المدارس " . وكذلك كان لبعض الصحف مطابع اشتركت في حركة النشر ولعل اهمها مطابع " الهلال " و"المقتطف" .

واسهمت هذه المطابع كلها في الحركة الفكرية ، لكن مطبعة بولاق لعبت الدور الاساسي فيها . ففي عصر اسماعيل جددت آلات مطبعة بولاق ولهم الخديوى اهتماما جديا بتطويرها لتجارى مطابع اوروبا ، فجددت حروف الطبع فيها واعيدت صناعة التجليد اليها وتغير انتاجها سنة بعد سنة حتى كان لها هذا الدور الكبير . يقول ابو الفتح رضوان : " ٠٠٠٠ ان مطبعة بولاق - دون اى مبالغة او اغراق - هي اساس البعث الفكرى الذى قامت عليه نهضة مصر في العصر الحديث ، ذلك ان انتقال مصر من مدنيه العصور الوسطى الى

مدنية العصور الحديثه كان في طبيعته انتقالها بين طريقتين من طرق التفكير . وقد اغطلعت مطبعة بولاق بالفسطاط الاكبر من هذه المهمة ^(١) . ويقول في موضع اخر : " ان تاريخ النهضة المصريه الحديثه يجب ان يبدأ بتاريخ مطبعة بولاق ، فمنها انبعث النور ، نور العلم الطبيعى الذى بدد ظلمات الجهل وحرر العقول من الخرافات " ^(٢) .

وقد كان طبيعيا ان تكون نهضة الطباعة وسهولة النشر حافزا للادباء على الترجمة والتأليف والتحقيق فاذا نحن امام سلسلة متصله من التأثير والتأثر : تنشط المطبعة فتحرك الترجمة والتأليف والصحافه ، وتنشط هذه الحركة بدورها فتستدعي تطور المطبعة وتوسيعها .

الصحافه :

عرفت الصحافه الحديثه لأول مرة ايام الحملة الفرنسيه التي كانت

تصدر مجلتيهما *La Decade* و *Le Courrier de L'Egypte*

Egyptienne باللغة الفرنسيه ، لذلك فان اثرها كان محدودا

جدا ان لم نقل معدوما في الشعب المصرى .

(١) رضوان ، تاريخ مطبعة بولاق ، ص ش .

(٢) المرجع نفسه ، ص ت .

وجاء عصر محمد علي فاعصدر " الجرنال " الذى كان عبارة عن تقاريره عما يجرى في المناطق ، ترفع الى الوالي ، ولنه ما لبث ان اتسع نطاقه فشمل اخبار المناطق وما يجرى فيها واوامر الوالي للمسؤولين . وعمرت نسخة توزع على المسؤولين وكبار رجال الدولة . وتحول هذا الجرنال عام ١٨٢٨ الى جريدة " الوقائع المصرية " ، وهي اول جريدة رسمية عربية تصدر في مصر . تولى رئاسة تحرير " الوقائع " رفاعة رافع الطهطاوى واخذ يضمها ، بالاضافه الى ما ذكرنا ، بعض الطرائف الادبيه . يحاول ابراهيم عبده تقويم الوقائع المصريه فيقول انها " . . . لم تتعثر في حياتها الا لماما ولم يعرف في تاريخ الصحف الشرقيه جريدة بقيت على الزمن وتخطت احداث الحياة كصحيفة الوقائع ، فقد كانت معلما لادباء الشرق ولمفكرى مصر الكثيرين تحنو على طلاب العلم ومبعوثي الدولة واذا كانت الصحافة في عمومها مدرسة للتعليم والتثقيف ، فان الوقائع بقيت زها اربعين عاما وهي وحدها هذه المدرسة تذيب على المصريين بعض الادب والاجتماع والسياسه احيانا " (١) .

غير انه لا بد من الاشارة الى ان الوقائع المصريه ، على مظاهر القوة

(١) ابراهيم عبده ، تطور الصحافة المصريه واثرها في النمطين الفكرية والاجتماعيه ، (مكتبة الاداب ، القاهرة ، الطبعة الثانيه) ، ص ٥٥٥ .

التي ذكرها لها ابراهيم عبده بقيت غايتها الرئيسية ، بطبيعة وظيفتها ، تشدد على الموضوعات الادارية قبل ان تكون فكرية او اخبارية . اضاف الى ذلك انها جريدة رسمية لا تنبع من عقلية الشعب فتعكس شيئا منها وتكون اداة فعالة لتطورها .

استمرت " الوقائع المصرية " تصدر بعد انقضاء عهد مؤسسها محمد علي — وان كان صدورها ضعيفا متقطعا ايام عباس — حتى كان عصر اسماعيل فازدهرت الحركة الصحفية الرسمية اولا مرافقة مظاهر الازدهار الثقافي الاخرى ، وعادت " الوقائع المصرية " الى ايدي الحكومة بعد ان كان عبد الرحمن رشدي بن قد اجتاعها . وفي عام ١٨٨١ تولى رئاسة تحريرها محمد عبده فلعبت دورا هاما في الحياة المصرية . وفي هذا العصر ظهرت مجلة علمية تعنى بشؤون الطب ومصطلحاته هي مجلة " اليعسوب " ، كما اصدرت وزارة المعارف ايام علي باشا مبارك عام ١٨٢٠ مجلة " روضة المدارس " التي اشرف عليها رفاة ، وكانت تعنى باحياء الادب العربي ونشر الافكار الغربية . وجاء في مقدمتها ان موضوعاتها هي " رسائل مؤلفة جديدة ونبد مصنف مفيدة من فنون وعلم مختلفة ومسامرات في مستحسن الحكايات والاخبار المقتطفة ، وبعض تراجم من لغات اجنبية " (١) . ومن كتاب " روضة المدارس " على باشا مبارك

(١) ابراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ، ص ٥٣ .

ورفاة بك رافع واسماعيل الفلكي وغيرهم من رجال البعثات الى فرنسا او ممن
تثقفوا وفق الاتجاه الفرنسي .

وفي عصر اسماعيل كانت بذور النهضة قد بدأت تشر وبداً الراى العام
المصرى يتكون فبدأت الصحف الاهليه بالظهور . وكانت اول صحيفه شعبيه
هي " وادى النيل " التي انشأها ابو السعود افندى احد تلامذة رفاة
رافع عام ١٨٦٦ بتشجيع من الخديوى اسماعيل . وفي سنة ١٨٥٩ قام ابراهيم
المويلحي وعثمان جلال بانشاء مجلة " نزهة الافكار " التي لم تعثر طويلا
بسبب مصادرتها بعد عددها الثاني . وهناك ايضا مجلة " التنكيت والتبكيت "
لعبد الله النديم وصحيفه " ابو نظاره " ليعقوب صنوع وجريده " الوطن "
التي انشأها مخيائيل عبد السيد سنة ١٨٧٧، حتى بلغ عدد الصحف المنتشرة
في مصر ، في عهد اسماعيل ، سبعا وعشرين صحيفه، تسع منها باللغة العربية .
غير ان الاسهام الاكبر في الصحافة ، خاصة في المجال الذى يعنينا هنا—
وهو العناية بالثقافة الاوربيه والترجمة — كانت لاولئك اللبنايين والسوريين
الذين انتقلوا الى مصر واسهموا اسهاما كبيرا في حركتها الثقافية . يقول
جمال احمد: " اننا نستطيع ان نعزو تطور الصحافة الشعبيه في مصر الى عاملين
وقعا خلال السبعينات : المصاعب التي واجهها حكم اسماعيل بسبب الديون
الثقيله ، ودخول بعض السوريين الى مصر يحملون معهم آراء جديده في الموضوعات

الادبية والسياسية التي لم يستطيعوا ان يعبروا عنها في بلادهم تحت نسوة الانراك (١) .

ومن اشهر السوريين الذين اسهموا في النهضة الصحفية في عهد اسماعيل اديب اسحق وسليم النقاش اللذان انشأ عدة جرائد ومجلات اهمها "مصر" عام ١٨٢٧ و "التجارة" عام ١٧٢٨ و "المحروسة" عام ١٨٢٩ ، وبشاره وسليم ثقلا اللذان انشأ جريدة "الاهرام" عام ١٨٢٦ وسليم الحموى الذى انشأ "الكوكب الشرقى" عام ١٨٢٣ ولم تعمر طويلا فاعدر "الاسكندرية" عام ١٨٢٨ .

هذه هي اهم الصحف الاهلية والرسمية التي نشأت في عصر اسماعيل فكانت وسيلة فعالة لانتشار الثقافة عامة والترجمات المختلفة عن الادب او الفكر او العلم الغربي خاصة . وحدث تطور في هذا الدور من تاريخ الصحافة في الاسلوب الانشائي وتخلى الكتاب عن العبارة الركيكة الى درجة بعيدة ولانت الجملة العربية حتى اصبحت تستوعب مفاهيم الفكر الغربي . يقول جرجي زيدان : " ومقدام هذه النهضة المرحوم اديب اسحق ، فانه كان نابغه في

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ١٧ .

الإشياء
للانتظار مع المتانة وصحة العبارة فقلده الكتاب في عبارته واسلوبه (١) .

وطبيعي ان يشجع نشاط الصحافة الادباء والمترجمين على الانصراف الى الترجمة ونشرها في هذه الصحف المختلفة مما خلق حركة علميه وثقافيه فيها الكثير من الحيويه في عصر اسماعيل . وقد كانت الصحافة في عصر اسماعيل الاساس المتين الذي انطلقت منه الصحافة المصريه في ما بعد ، وخاصة بعد الاحتلال البريطاني ، فكان لها الاثر الاول في تنشيط الحركة الفكريه واستمرار حيويتها وتغذائها مع الفكر الغربي بواسطه الترجمات والتحليلات والنقد والعرض لما صدر او كان يصدر في الغرب من ادب وفلسفه وعلم وغير ذلك .

وازداد الازدهار الصحافي في عصر الاحتلال ، فخرجي زيدان يعتبر عام ١٨٩٢ عام تفوق الصحافة المصريه وبلغوها ارقى ادوارها ، ويقسم تطوّر الصحافة منذ ذلك العصر الى ثلاثه ادوار يبدأ اولها مع تولي عباس الثاني عام ١٨٩٢ وينتهي بظهور " اللواء " عام ١٩٠٠ . وهو يتميز بنشوح جريدتي " المقطم " و " المؤيد " والجدال العنيف بينهما ، وتكاثر ظهور الجرائد

(١) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربيّة ، ج ٤ ، ص ٥٥٢ .

الاسبوعية التي ايد كل منها احدى الجريدتين .

ويمتد الدور الثاني بين عام ١٩٠٠ و ١٩١٠ عصر ازدهار " اللواء "

ونمو الشعور القوي على يدها .

اما الدور الثالث فيمتد بين عام ١٩١٠ وعام ١٩١٤ ويتصف بفقدان

الحريه التي كانت الصحافه قد نالتها في الدورين السابقين .

ولا يسعنا ان نعدد جميع ما صدر من صحف في هذه الفتره ، وقد زاد

مددها على مئه وخمسين صحيفه . لكننا نشير الى الصحف التي تركت اثرها

في حياة مصر .

في طليعة هذه الصحف مجلة " العروة الوثقى " التي اعددها جمال

الدين الافغاني ومحمد عبده في باريس . وقد اقبل المصريون على قراءتها

بقوة ورغبه وتأثروا بالروح التي دعت اليها . وقد ركزت " العروة الوثقى "

على فكرة الوحدة الاسلاميه واكدت ان المسلمين في جميع اقطارهم مشتركون

بالتراث الفكري والتاريخ والادب وغير ذلك . واثرت حركة العروة الوثقى

في عدد من قادة المصريين وموجهي الفكر اشهرهم مصطفى كامل واتباعه ، حتى

ان " اللواء " تحولت ، بعد موت مصطفى كامل وتسلم الشيخ عبد الحزیز شاويش

رئاسة تحريرها ، الى الدعوة للوحدة الاسلاميه فاكسبت تأييدا شعبيا كبيرا ولكنها - حسب ما يرى جمال احمد - افقدت الحزب الوطني دعم مؤيديه الاكثر مسؤوليه ووعيا⁺ (١) .

كذلك تأثر بدعوة " العروة الوثقى " الشيخ على يوسف الذى تابع رسالتها في " المؤيد " كما تأثر بها محمد حسن هيكل رئيس تحرير " السياسه " ورشيد رضا رئيس تحرير " المنار " واشهر شعراء العصر كشوقي وحافظ واسماعيل صبرى .

وبالرغم من هذا التأثير الواسع الذى خلقته " العروة الوثقى " فان كثيرين من انصار محمد عبده كانوا يهزأون بها اساء جمال احمد⁺ (٢) هو " رومنطيقية " الدعوة الى الوحدة الاسلاميه ويهتمون بشؤون مصر الداخليه مؤمنين بالقوميه العلمانيه ، ولعل اقوى فئه في هذا الفريق جماعة حزب الامه وفي طليعتها احمد لطفى السيد الذى تأثر بالفكر الغربي الحديث .

الا انه لا بد هنا من الملاحظة ان الخط الفاصل بين الروح القومية والروح الاسلاميه كان ضيقا الى درجة اختلطت فيه الروحان معا في بعض الاحيان

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٧٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦١ .

وصعب التمييز بينهما كما سنرى مثلاً في الشعر الوطني لبعض الشعراء .

وفي هذه الفترة أيضاً ، أى في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، كانت جريدة " المقطم " قد ركزت اقدامها واصبحت من الصحف المهمة . وقد كان هدفها دعم الاحتلال البريطاني ، كما كانت تناقش سياسته " الاهرام " التي كانت منذ عام ١٨٧٦ تؤيد الفرنسيين وتناصر اتجاه الوطنيين نحوهم . اسس " المقطم " يعقوب صروف وفارس نمر وقد اتهما بانهما من عملاء الانجليز ، ومع ذلك فقد استطاعا ، مع الكتاب الذين التفوا حول " المقطم " ، ان يؤلفا قوة سياسية مستقلة دعامتها الاراء التي كانت تؤمن بها والتي حاولت نشرها مستمدة اياها من الفكر العربي الحديث .

وكان ليعقوب صروف وفارس نمر مجلة اخرى من نوع اخر هي " المقتطف " التي اسسها في بيروت عام ١٨٧٧ ونقلها الى القاهرة عام ١٨٨٥ .

لعبت المقتطف دوراً هاماً في النهضة المصرية الحديثه لان محرريها كانوا مطلعين على التطور العلمي والفكرى والفني في اوربا وارادوا تعميم هذه العلم والفنون على العرب بواسطة المقتطف ؛ وقد انضم الى هيئة تحرير المقتطف عند انتقالها الى مصر شيلي الشميل الذي شكل دعامتها الهامة الثالثة فاثبتت

وجودها واسهمت اسهاما كبيرا في الحياة الفكرية المصرية .

وعام ١٨٩٢ اصبح للمقتطف زميله هي مجلة " الهلال " التي انشأها
سورى اخر هوجرجي زيدان . ولعبت " الهلال " دورا يماثل دور المقتطف
في تلقيح الثقافة العربية بالثقافة الاجنبية واحياء التراث العربي وكانت المجلتان
دعامتين كبيرتين في حياة النهضة الفكرية الحديثه في مصر . وهنالك ايضا
مجلة " البيان " التي كان لها دور رئيسي في نشرالترجمات الشعرية كما
راينا .

ولا بد من الاشارة هنا الى دور جريدة " السياسة " ورئيس تحريرها محمد حسين
هيكل في الحركة الفكرية ان فتحت صفحاتها للكتاب الناشئين والمثقفين المطلعين
على الفكر الاوروبي لينشروا الاراء التي تعرفوا اليها واقتنعوا بها ويدافعوا
عنها بقوة وسعة افق .

ولم تكن جميع الصحف في هذه الفترة نتيجة مبادرات فردية ، بل لقد
ارتبطت بعض من اشهر الصحف بالاحزاب السياسيه . فمصر لم تعرف الاحزاب
السياسية المنظمة بالمعنى الحديث قبل اوائل القرن العشرين عندما نشأت
فيها ثلاثة احزاب رئيسيه سيطرت على الحياة السياسية في تلك الفترة . وهذه
الاحزاب الثلاثة هي حزب الامة وحزب الاصلاح الدستوري والحزب الوطني

وقد نشأت جميعها في اواخر عام ١٩٠٧ ، وقبل ذلك العام كانت الاحزاب .
التي نشأت في مصر قليلة ومحصورة ، ولم يقدر لها ان تعيش . اما الاحزاب
السياسية الرئيسية الثلاثة هذه فقد نشأت نتيجة عوامل عديدة ساعدتها على
الانتشار والاستمرار والاسهام في حياة مصر السياسية بشكل واضح قوى .

يلخص جمال احمد العوامل التي كانت وراء نشوء الاحزاب بخمس نقاط
هي : نمو الروح الاسلاميه (Pan Islamism) وحادثة دنشواى والازمات
الاقتصادية والشعور بعدم الاستقرار ونمو روح مقاومة الاجانب والحرب الروسية
اليابانية التي حركت مشاعر الشعب المصرى^(١) . ولا بد من ان نضيف
عاملا اخر نعتقد انه اسهم في نشوء الاحزاب وهو تعرف المصرى عن كتب
الى الاراء السياسية والاراء التحررية الاوروبية فتعرف الى مبادئ الحياة
السياسية في اوروبا وافاد منها . وهذه الاحزاب وان اسهمت اسهاما
كبيرا في نقل عناصر الحركة الفكرية الاوروبية الى مصر عن طريق نشر مبادئها
وصحافتها الا انها بدورها كانت نتيجة التعرف الى الحياة الفكرية الاوروبية .

ولن نتحدث هنا عن ظروف نشأة كل حزب من هذه الاحزاب ولا عن
برامجه وانما نكتفي بالاشارة الى اتجاهه العام ومساهمته العامة في تطوير
الحركة الفكرية .

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٥٨ .

كان حزب الامة نتيجة تعاون بعض المثقفين من تلاميذ محمد عبده وعدد من كبار رجال البلاد . وتعزز الحزب لانتقاد القوميين ومهاجمتهم لانه كان يميل نحو التطور التدريجي في نهضة البلاد ولم ير بأسا في التعاون مع الانجليز في سبيل الوصول بالبلاد شيئا فشيئا الى الاستقلال .

وقد بنى الحزب امالا قوية على التعاون مع الانجليز لذن امله ما لبث ان خاب واصبح هنالك تباعد بين الفريقين غذته الظروف السياسيـه ودام حتى ايام كيتشنر عندما تحسنت العلاقات بينهما . ووجهت الى الحزب انتقادات عديدة اخرى لسنا بصدد ذكرها . الا ان ما يهمنا هنا هو ان العقلية المعتدلة التي سيطرت على اتجاه حزب الامة كان لها دون شك اثر في انفتاح الحزب على الفكر السياسي الاوروبي وانفتاح جريدته " الجريدة " على الحركة الثقافية الاوروبية بشكل عام . وكانت " الجريدة " قد انشئت قبل انشاء حزب الامة بقليل ذلك انه في جو الكره العام للانجليز ، والتوتر الذي حدث بعد حادثه العقبة ، قرر بعض انصار محمد عبده انشاء " الجريدة " التي وصفوها بانها " انما ولدت لتدافع عن حقوق مصر ومصالحها وتنشر لهذا الغرض كل ما يؤدى الى تطوير البلاد المعنوى والمادى ، كما انها ستنتقد كل عمل يؤدى الى تهديد المصالح المصرية " (١) . وقد نشأ حزب الامة

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٦٩ .

حول " الجريدة " التي كانت تحاول تأدية غرضها برفع مستوى المصريين وتعريفهم الى الحضارة الأوروبية ونقل الاراء التحررية الحديثه . ويكفي ان يكون احمد لطفي السيد رئيس تحرير " الجريدة " لتكون صفحاتهم مسرحا للفكر الاوروبي الحديث .

بعد فترة قصيره من انشاء حزب الامة انشئ الحزب الوطني بشكل منظم بعد ان كان موجودا بشكل غير رسمي من انصار مصطفى كامل . وكان الحزب يطالب بزوال الاحتلال البريطاني وينتقد سياسه حزب الامة التدريجيّه نحو الاستقلال وكانت " اللواء " لسان حال الحزب وزعيمه مصطفى كامل . ومع ان " اللواء " لم تلعب دورا كبيرا كدور " الجريدة " في حركة التفاعل الفكري بين مصر والغرب الا ان تيار الحزب القومي الذي مثلته كان له اثره في بعض الادباء ومؤلفاتهم . واذا لاحظنا ان مصطفى كامل كان في بدء حياته النضاليه يرى خيرا في الاعتماد على فرنسا والاتجاه نحوها ، وجدنا انه ربما انعكس هذا التفضيل في نفسه الادباء المتأثرين به واتجاههم الثقافي ، وهو ما سنبحث فيه في قسم لاحق من بحثنا .

اما الحزب الثالث في هذه الفترة فهو حزب الاصلاح الدستوري الذي نشأ في عام ١٩٠٧ ايضا والذي تزعمه الشيخ على يوسف وكان يؤمن بدعم سلطة الخديوى وخلق جمعية تشريعية في الوقت^{نفسه} ٨ ، كما كان يدعو الى تعميم التعليم وجعل

اللغة العربية لغته • وجعل الشيخ على يوسف " المؤيد " الذي كان يرأس تحريرها منذ عام ١٨٨٩ لسان حال الحزب ، وبواسطتها استطاع نشر آرائه ودعوته • ومع ان الحزب كان اقل انتشارا من غيره واخفق في النهاية باجتذاب اى من الفرقاء في مصر ، فان المؤيد لعبت دورا في الحركة الصحفية والفكرية في ذلك العصر ، وكان الشيخ على يوسف شخصيتها الرئيسية • وقد نشرت صفحاتها قصص المنفلوطي ومقالاته •

بعد هذا الاستعراض السريع لاهم الجرائد والمجلات الحزبية وغير الحزبية التي لعبت دورا في النهضة المصرية لا بد ان نذكر ان هذه المجلات كانت المسرح الافضل للترجمة عن اللغات الاوروبية التي اصبحت في اواخر القرن التاسع عشر ذات اهمية كبرى ، كوسيلة لنقل التراث الغربي الى العربية وعملا في اهم الاعمال الادبية واساسا من اسس بناء النهضة الحديثه •

عوامل اخرى :

ومن العوامل التي ساعدت في انتشار ثقافته الغربية واندفاع عصر النهضة في مصر مظاهر اخرى بدأت تظهر منذ عصر اسماعيل • ومن اهم هذه المظاهر انشاء دار الكتب على يد علي باشا مبارك حيث جمعت الكتب العربية والافرنجية ، وكانت مساعدا قويا على انتشار الثقافة ، فاستطاع المثقفون

ان يصلوا بواسطتها الى الفكر الغربي مباشرة او عن طريق الترجمات التي جمعت فيها . وقد اتفق جميع الباحثين في هذه الفترة من تاريخ النهضة الحديثة على ان هذه الدار ادت خدمات كبرى للحركة العلمية والادبية . ويصف شوقي خيف هذه الدار بانها كانت ولا تزال " جامعة شعبية كبرى للثقافة والاطلاع العقلي الخصب " (١) . ويقول عزت عبد الكريم فيها " وقد ادت هذه الدار خدمات عظيمة للنهضة العلمية والادبية " (٢) .

كذلك انشئت دار العلوم سنة ١٨٧٢ على يد علي باشا مبارك ايضا كمحاولة لايجاد العدد الكافي من اساتذة العربية . وقد كانت هذه الدار ملتقى الثقافتين الغربية والشرقية ، وذلك ان اكرطلابها كانوا يختارون من الازهرين وكانت المحاضرات في بداية عهد الدار يلقيها محاضرون فرنسيون بلغتهم ثم تترجم الى العربية . ويبدو ان الخاية الاساسية من انشاء دار العلم شعور المسؤولين ان الازهر اصبح في عصر النهضة الحديثة غير قادر على تعليم اللغة العربية وعرض اثارها على الاجيال الجديدة عرضا فكريا عميقا وكان قد اصاب اللغة العربية جمود جعلها تقصر عن استيعاب الثقافة الغربية

(١) ضيف ، الادب العربي المعاصر ، ص ٢٢ .

(٢) عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ص ٢٤٦ .

بنواحيها العديدة . يقول شوقي خفيف : " فانشاء دار العلم انما هو رمز الى ما تبغيه مصر من المزاجه بين الاداب الاوروبية والاداب العربية ، فانها حين رأت قصور ادابنا عن تأدية الفكر والشعور الغربي اداءً واضحا صريحا بسبب ما علق من السجع والبديع انبرت تغير الوسائل التعليمية لتلك الاداب وانشأت هذه المدرسة التي نهضت لتعليم لغتنا وتبسيطها حتى تستطيع ان تحمل اثار الغرب الرائعة في العلم والادب " (١) .

ويعطي هيورث - دن اهمية خاصة لانشاء دار العلم في تلك المرحلة بالذات من مراحل تطور النهضة فيقول : " ولقد كانت مصادفة موفقة ان تنشأ دار العلم في الوقت الذي وصل فيه الشيخ جمال الدين الافغاني (٢) الى مصر وبداية نشاط محمد عبده وبدء الوعي السياسي الحديث وبدء الصحافة العربية والشعور بان الازهر لم يكن بالمستوى الذي يجب ان يكون عليه " (٣) .

(١) شوقي خفيف ، الادب العربي المعاصر في مصر ، ~~دار المعارف بالقاهرة~~ ، ص ١٤ .

(٢) وصل الافغاني الى مصر عام ١٨٧٩ .

(٣) هيورث - دن ، مقدمة للتاريخ التربية ، ص ٣٧٨ .

ولعل ابرز مظهر من مظاهر النهضة الحديثه واهم عامل في تطورها واستمرارها وتعمقها انشاء الجامعة الاهليه عام ١٩٠٨ . فقد تضافرت جهود المصريين الوطنيين في هذه الفترة لانشاء جامعة مصرية تأخذ على عاتقها نشر التعليم العالي جامعة بين التراث القومي والحضارة الغربية . وكان الوعي الحضارى قد اصبح في هذه الفترة لدى المثقفين من ابناء مصر في مستوى جعله يعي اهمية العلم ، فيحاول ان يجعل منه السلاح الاول لمقاومة النفوذ الاجنبي وذلك باعداد المصريين لقيادة انفسهم عن طريق التخصص والتعليم العالي . وهكذا ولدت الجامعة الاهلية بفضل تضامر الجهود الوطنية ولعل اهم اسهام حققته الجامعة في اول نشأتها ارسالها ابناء مصر في بعثات تخصصوا الى اوربا ، وعلى الاخص الى فرنسا ، لكي يعودوا الى بلدهم فتلقى على كاهلهم اعباء النهضة العلمية الكبرى^(١) . ثم استدعاء المستشرقين للتدريس فيها امثال جويدى ونللينو وفييت وغيرهم وكانوا يلقون محاضراتهم بالعربية . وقد افادت مصر من هؤلاء المستشرقين في المناهج الجديدة التي انتهجوها في البحث ودراسة الآداب ونقدتها ، وهي مناهج بنيت على الاسباب والنتائج والاستقراء والتدقيق والمنطق وغير ذلك من عناصر الفكر المجرد التي لم يعهد لها المصريون في نقدتهم من قبل . فكان لذلك انعكاس واضح في ما اسهم به المصريون

(١) اشرنا الى بعثات الجامعة في باب التعليم .

انفسهم في حركة النقد وفي التفكير العلمي المجرد عن الحكم الذاتي الخالص.

يلخص طه حسين اثر الجامعة الاهلية في تطوير دراسة الادب بقوله :

" انشئ قسم الاداب في الجامعة ، ودعي اليها جلة الاساتذة من

المستشرقين في ايطاليا وفرنسا والمانيا ، وانتسبت لهذا القسم ، واخذت اسمع

الدروس فيه . فاذا ألوان من الدروس لم ^{اعرفها} لمعرفها من قبل . واذا فنون

من النقد لم يكن لي بها عهد . واذا دارس الادب لنفسه ينبغي ان يدرس

جيده ورديته وان يتقن غثه وسمينه على السواء من غير تفاوت ولا تفرق .

واذا الباحث في تاريخ الاداب ليس عليه ان يتقن علوم اللغة وادابها فحسب ،

بل لا بد له ان يلم الماما بعلم الفلسفة والدين ، ولا بد له من ان

يدرس التاريخ وتكوين البلدان درسا مفصلا . واذا الباحث عن تاريخ الاداب

لا يكتفيه من درس اللغة حسن البحث عما في القاموس واللسان وما في

المخصص والمحكم وما في التكملة والحباب . بل لا بد له مع ذلك ، في ان

يدرس اصول اللغة القديمة ومصادرها الاولى . واذا الباحث عن تاريخ الاداب

لا بد له من ان يدرس علم النفس للانفراد والجماعات ، اذا اراد ان يتقن

الفهم لما ترك الكاتب او الشاعر من الاثار . واذا اللغة العربية وحدها لا

تكفي لمن اراد ان يكون ادبيا او مؤرخا للاداب حقا . ان لا بد له

من درس الآداب الحديثه في أوروبا ودرس مناهج البحث عند الأفرنج ،
بله ما كتب الأساتذه الأوروبيون في لغاتهم المختلفه عما للحرب من ادب وفلسفه
ومن حضارة ودين^(١) .

هذا تصريح لأحد طلاب الجامعه الأهليه يظهر الفرق بين المنهج
القديم الذى كان المفكرون ينشأون عليه وبين المنهج الفكرى الجديد الذى
ادخله الغرب بواسطة المستشرقين الذين قدموا الى الجامعه .

هذه هي اهم العوامل التي ساعدت في انتشار النهضة وتطورها
في مصر وادت الى خلق مناخ فكرى جديد تصارعت فيه تيارات وتضامنت
تيارات ، وكان لكل ذلك انعكاسات واضحه في الحركة الادبيه .

لكن ما هي اثار هذا المناخ الفكرى الجديد ؟ وما هي انعكاسات تياراته
في الادب المصرى خلال فترتنا ؟ هذا ما سنحاول التطرق اليه في الباب الثالث
من هذا البحث .

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى ابي العلاء ، (مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ،
١٩٣٧) ، ص ٥٧ .

الباب الثالث

لمحة من أثر الثقافتين في الادب المصرى الحديث

الباب الثالث

لمحة من أثر الثقافتين في الادب المصري الحديث

الفصل الاول

ظهور الأثر الغربي في الجو الفكري العام

بينما في الفصول السابقة كيف ان الثقافة الغربية بدأت تتسرب الى مصر منذ اوائل القرن الماضي ، ولكنها انحصرت ، في بدايته ، بالاتجاه العلمي العملي . وكانت الوسيلة الاولى الى ادخال عناصر هذه الثقافة ، التعليم والبعثات العلمية ، ثم حركة الترجمة التي بدأت رسمية علمية محصورة في نطاق الاغراض العملية ، ولكنها ما لبثت ان اتسعت فأصبحت اهلية فردية وخرجت عن الحدود التي قيدتها في أول نشأتها . ورافق حركة التعليم والترجمة وسائل مساعدة أسهمت في انتشار الاتجاه الجديد وفي دخول النهضة الحديثة الى مصر .

تحدثنا عن كل هذا بالتفصيل في الفصول السابقة ، وبهنا الآن أن نوضح الأثر الذي تركه هذا الاتجاه نحو الغرب والمناخ الثقافي العام الذي عاشت فيه مصر عندما استوعبت الاتجاهات الثقافية الغربية وعاشت معها .

لم يكن غريبا ان يتأخر ظهور تأثير الحضارة الاوروبية في الروح والعقل والمجتمع ، عن تأثيره المباشر في مناهج التعليم وممارسة العلوم التطبيقية . ذلك ان الاتصال الاول بقي محصورا في تدريس العلوم التطبيقية ولم يخرج الى المجالات التي يمكنها ان تترك أثرا في التطور النفسي والعقلي للشعب ، ثم ان عملية استيعاب المفاهيم الجديدة وتقبلها تحتاج الى مرور فترة من الزمن يعطي الاتصال الاول خلالها نتائج ونماره . ولقد بقي هذا الاتصال مقفرا طوال عصر محمد علي وخليفته عباس وسعيد ، بالرغم من تأثر خريجي مدارس

الحتمي بما فتح امامهم من آفاق في الحضارة الجديدة . فتقليد النماذج الأوروبية لا ينتج عن تعرف صريح الى الحضارة التي أنتجتها ، بل يتطلب مرور فترة من الزمن تتم خلالها عملية هضم هذه الحضارة لتصبح في بعض مظاهرها على الأقل ، جزءا من العقل الحديث . لذلك فان أثر دخول الثقافة الغربية بقي طوال الفترة الاولى وحتى بداية عصر اسماعيل يلتمس في الحركة التعليمية وحركة الترجمة الرسمية قبل كل شيء ، وبقي الادب العربي في مصر بعيدا عن هذه التيارات الجديدة التي بدأت تهدد سيطرة الثقافة التقليدية . يقول جب : " يجب ان نعترف بأن النتاج الادبي في هذا القرن (أى القرن التاسع عشر) كان ذا قيمة ضئيلة في ذاته ويقتصر خطره على أثره في هذا الاتجاه أو ذاك " (١) . والحقيقة ان الاسلوب الادبي بقي ركيزا في مطلع عصر النهضة ، وهو من مخلفات عصور الانحطاط ، تشهد على ذلك مقالات " الرقائع المصرية " ولغة الجبرتي في تاريخه وأساليب الترجمات الاولى (٢) . كذلك بقي الشعر ضعيفا يعتمد على الألفاظ اللفظية والبديعية دون الالتفات الى المعنى ، ومن يطالع شعر هذه الفترة (٣) يتضح له اقتصار الموضوعات الشعرية على المدح والتمنئة والتعزية وغير ذلك من المناسبات البعيدة عن نفس الشاعر كما تواجهه التشطيرات والتخميمات والالغاز . وهكذا فان أثر دخول الثقافة الغربية الى مصر لم يكن فوريا ، وكان علينا ان ننتظر عصر اسماعيل الذي يصفه جب بأنه " الموجة الثانية من موجات التغريب " (٤).

(١) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٣٥ .

(٢) أورد جاك تاجر في كتابه حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر نماذج من هذه الترجمات . هي ؟

(٣) من شعراء هذه الفترة السيد علي درويش ومحمد شهاب الدين والشيخ اسماعيل الخشاب وغيرهم .

(٤) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٢١ .

حتى تبدأ انعكاسات الحضارة الغربية في الحياة المصرية كما كان علينا أن ننتظر مطلع القرن الحالي لتظهر الآثار الثقافية في الادب المصرى الحديث .

يقول جمال محمد احمد في تقويمه لعصر اسماعيل " بالرغم من ان التحسينات المادية كلفت ديونا مرهقة وضرائب ثقيلة وفقرا زراعيا ، وبالرغم من ان الدافع الذى دفعه (أى اسماعيل) لم يكن مصلحة مصر بقدر ما كان صورة عظمتها وعظمته الشخصية ، بالرغم من ذلك فان اخفاقه ونجاحه أسهما في اعادة تكوين المجتمع المصرى " (١) ويتفق لويس برهيه مع جمال احمد في ذلك فيقول : " مهما تكن اخطاء اسماعيل فان مصر قد أصابها تطور كبير في عصره " (٢) .

ولعل أهم مظهر من مظاهر هذا التطور في هذه المرحلة ، وأعمقها أننا في المراحل التالية ، كان دخول التيار الغربي الى مصر من الباب الواسع ، وتركه على أسس متينة وتأثره العميق في الموضوعات الادبية والاساليب الكتابية . لكن هذا التيار الغربي كاد ينحصر ، حتى عصر اسماعيل ، بفرنسا لولا بعض المحاولات البسيطة لادخال الثقافة الانجليزية (٣) التي لم تترك أننا يذكر امام اتجاه مصر نحو فرنسا وزخم اندفاع التيار الفرنسي في مجرى الحياة الفكرية بمصر . يقول لويس برهيه في مقدمة كتابه عن مصر انها كانت أول وأجمل المستعمرات الفرنسية منذ خسارة كندا ، وقد جاء العلماء والمهندسون والتجار اليها بأنفسهم دون تشجيع السلطة ، وفي بعض الاحيان رغما عنها . ويضيف : " صحيح ان الفرنسيين لم يكونوا وحدهم في القدوم الى القاهرة

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ١٥ .

(٢) برهيه ، مصر من ١٢٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ١٢٢ .

(٣) أشرنا اليها سابقا .

والاسكندرية ، لكهم من بين جميع الاوروبيين الذين ساعدوا محمد علي وسلالته على خلق مصر المعاصرة هم الذين تركوا الأثر الأعمق " (١) . ويقول برهيه في مكان آخر : " ان فرنسا هي الاولى تاريخيا في الاسهام في ايقاظ مصر وازدهارها للعالم المتعدن ، ولكن الحكومة الفرنسية ما لبثت ان أهملت قضية مصر ، غير ان ما أهملت الحكومات اهتم به الافراد ، فقد ثقف الفرنسيون مصر . واذا كانت المدن المصرية اليوم تشبه مدن اوروبا ، واذا كانت مصر قد امتلأت بالثقافة والطرق والاقنية والسكك الحديدية ، فان الفضل في ذلك يعود كله الى الفرنسيين ؛ فالبعثات الفرنسية هي التي تولت نشر التعليم بين الفلاحين المصريين ، والاطباء الفرنسيون ، والفرنسيات المتدينات ، هم الذين أقاموا مستشفيات حديثة في مصر . ان آثار الفرنسيين تلمس أينما كان في مصر . . . ان فرنسا لم ترسل مدافع ولا جنودا الى مصر ولكنها ربطت مصر بفرنسا بروابط أوثق من روابط الفتوح ؛ لقد أدخلت الحضارة الأوروبية الى مصر " (٢) .

ومع ان لويس برهيه فرنسي يدخل طرفا في الصراع على مصر الا ان حكمه هنا ليس فيه الكثير من المبالغة ، ذلك ان الثقافة الفرنسية توغلت في مصر توغلا عميقا وأثرت في الاجيال المثقفة تأثيرا بعيدا ، تعدى التعلق المصلحي بها الى التعلق الثقافي والفكري ، نعني بذلك انه عندما لم تعد الفرنسية اللغة الاجنبية الاولى في البلاد ، بقي أثرها واضحا في الحياة الفكرية . وعندما أراد الانجليز بعد الاحتلال البريطاني منافستها واحلال لغتهم مكانها ، وجدوا في ذلك صعوبة كبيرة ؛ حتى انهم ، وان استطاعوا ادخال التيار الثقافي الانجليزي الى مصر ، لم يستطيعوا القضاء على التيار الفرنسي كما

(١) برهيه ، مصر من ١٧٩٨ - ١٩٠٠ ، ص ٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١١ - ٣١٣ .

كانوا يقصدون . وقد اتضحت الصعوبة التي لاقاها الانجليز في فرض التيسار الانجليزى من الملاحظات العابرة التي ذكرها المسؤولون البريطانيون عن شؤون مصر . وقد ذكرنا كثيرا منها في حديثنا عن دخول الثقافة الانجليزية ، الا اننا نشير هنا الى ان هذه الاعترافات الصريحة من جانب مندوبي الاحتلال البريطاني تشير الى مدى تغلغل التأثير الفرنسي في مصر (١) .

وهناك اسباب اخرى تفسر تغلغل الأثر الفرنسي في الحياة المصرية لا تعود الى المناخ الطبيعي أو جاذبية الثقافة الفرنسية فحسب ، بل تعود الى عوامل سياسية رافقت دخول الثقافتين الى مصر وظروفها . فلقد كانت فرنسا بالنسبة للمصريين في مطلع القرن الماضي المعين الأكبر في نهوضهم من كبوتهم ، وكانت مساعداتها تبدو لهم دون غايات سياسية مباشرة ، وبالرغم من ان أول لقاء بينهم وبين فرنسا كان لقاء عسكريا ، فان ذلك على ما يبدو لم يترك أثرا عميقا في قلوبهم ، وعندما عاد زمام أمورهم الى أيديهم عادوا يتوجهون الى فرنسا من أجل المساعدة العلمية والثقافية . هذه المساعدة التي استمرت زهاء قرن ، لم يشبها ما يبعث الشكوك في عقول المصريين المستفيدين منها .

ثم ان فرنسا ارتبطت بحركة التحرر المصرية بعد الاحتلال البريطاني ، واعتمد عليها بعض المصريين ولا سيما الزعيم مصطفى كامل في المعركة السياسية التي كانت دائرة مع الاحتلال مما قرب الروابط الروحية بينها وبين المصريين الذين نظروا اليها نظرة المنقذ احيانا ، وقد ظل الامر كذلك حتى وقّع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤ ، فخابت آمال المصريين السياسية ولكن الجذور الثقافية لم يكن من الطبيعي ان تنقطع مع هذه الخيبة . أضف الى ذلك ان الثقافة الانجليزية عندما أرادت تثبيت جذورها في مصر ، خلقت تيارين متصارعين : التيار الانجليزى يقابله التيار الفرنسي والعربي معا .

فقد واجه الاحتلال البريطاني في مصر حركة ثقافية مرتبطة بالثقافة الفرنسية ،
بحكم التاريخ والعلاقات ، ورأى انه لن يتمكن من التأثير الثقافي في مصر الا
اذا قام الثقافة الفرنسية ، بل تطرق بذلك الى مقاومة الثقافة الوطنية واللغة
العربية لاحتلال اللغة الانجليزية وثقافتها مكانهما (١) . لذلك كان من
الطبيعي ان يرتبط الاتجاه الوطني بالاتجاه الفرنسي في مواجهة التيسار
الانجليزي ، وان تتفق مصالحهما في مقاومة الدخيل الجديد .

كل هذا لا يعني ان فرنسا لم تكن ترمي الى غايات سياسية أو مكاسب
اقتصادية كما كانت انجلترا ، الا ان السياسة لا تعني هنا الا بقدر ما
أثرت في الحياة الثقافية . وقد عرفت فرنسا منذ البدء ان سبيل التريسة
الثقافية أنجع السبل وأبعدها مدى في توجيه ولايات الشعوب الفكرية وربطهم
روحيا بالثقافة المعطية (٢) . اما انجلترا فقد جاء فهمها لهذه الظاهرة
متأخرا واتخذ طابعا عدوانيا . وقد دخلت الثقافة الانجليزية الى مصر بحماية
الاحتلال العسكري ، مما كره الشعب فيها ونفره منها . ومع ذلك ، فرض الاحتلال
نظامه التعليمي وعنه ، فكان لا بد ان يترك أثرا بعد ان أنتج هذا النظام
ثماره . وهكذا وجد لمصر جيل من الادباء الناشئين المتأثرين بالثقافة
الانجليزية .

لقد حاول الانجليز مقاومة الاتجاه الفرنسي في مصر فلم ينجحوا في اضعاف
أثره ولكنهم نجحوا في خلق تيار انجليزي كان له أثره في الحركة الثقافية بمصر
منذ مطلع هذا القرن . وهكذا لا يسع المؤرخ الأدبي الا ان يصنف ادباء

(١) تحدثنا عن كل ذلك بشيء من التفصيل في باب التعليم .

(٢) أشرنا في باب التعليم الى اعتماد فرنسا على الارشاليات الكاثوليكية في
بث ثقافتها .

مصر المتأثرين بالثقافة الغربية الى فريقين : فريق المتأثرين بالثقافة الفرنسية ومن اقطابهم طه حسين ومحمد حسين هيكل وخليل مطران ومحمود تيمور وفريق المتأثرين بالثقافة الانجليزية ومن اقطابهم عبد الرحمن شكرى وابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد . هؤلاء الاقطاب ستكون لنا عودة اليهم فسي فصلين لاحقين .

وسنرى في هذا الفصل كيف سيطر التيار الفرنسي على جو الحركة الفكرية العامة . الا ان هناك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا هي ان أقطاب التيار الانجليزي (١) دخلوا الحياة الادبية في مطلع هذا القرن بجرأة وقوة مما قوى أثرهم وأسهم في اندفاع تيارهم بوضوح في الحركة الثقافية العامة بالرغم من حداثة عهدهم .

هذان التياران ، الفرنسي والانجليزي لم يكونا في صراع أو قل في تجاذب دائم بل لقد تصارعا حيناً واضطرا الى الوقوف في صف واحد احيانا بحكم بعض القواعد الفكرية المشتركة بينهما ولمواجهة تيار معاكس قوى هو تيار القديم الذي اعترض سبيل تقدمهما في كثير من المجالات .

ففي مطلع هذا القرن كانت ثمار الثقافة الغربية باتجاهيها الانجليزي والفرنسي قد بدأت تظهر في مصر ، وولدت روح جديدة انعكست في النشاطين السياسي والفكري .

(١) نذكر بشكل خاص العقاد والمازني .

ففي الحقل السياسي جاءت حادثة دنشواى (١) الشهيرة لتترك أثرا كبيرا في التفكير السياسي بمصر فكانت سببا لسلسلة مقالات كتبها الشيخ علي يوسف في المؤيد ومقالات اخرى كتبها مصطفى كامل ، كما كانت مصدر وحي لأكثر شعراء ذلك العصر ؛ وكانت هذه الحادثة منعطفا في الحياة السياسية غيرت اتجاه الكثيرين نحو الاهتمام بأموال مصر الداخلية ومشكلاتها الخاصة .

وفي هذه الفترة أيضا كانت الدعوة الاسلامية (Pan-Islamism) قد انتشرت في مصر وأصبح لها الكثير من المؤيدين وهكذا اشتدت حركة الاستعداد لمقاومة الاحتلال البريطاني بين حادثة دنشواى والحرب العالمية الاولى .

والنضال السياسي لا يعنينا هنا الا بقدر ما كان الوعي الذي أنتجته أثرا من آثار الثقافة الغربية . فقد نشأ جيل جديد من المثقفين اتصلوا اتصالا وثيقا بنهضة أوروبا الفكرية في القرن التاسع عشر وأفادوا منها ، فدخلت أسس التحرر الاوروبي الى مصر على أيديهم .

في ظل هذه الاوضاع نشأت في مصر ثلاث فرق كانت نتيجة لدخول الافكار الغربية . فقد قام اصحاب الثقافة الغربية يدعون للأخذ بأساليب الحضارة الغربية في جميع مجالات الحياة ، ووقف اصحاب الثقافة الاسلامية موقف المعادى لهذا التيار الجديد متمسكين بتقاليدهم القديمة . ونشأت بين هاتين الفرقتين فرقة ثالثة ترى ان النهضة الحقيقية لا يمكن ان تقوم الا على اساس تنقيسية

(١) حادثة دنشواى هي الحادثة التي قتل فيها ضابط وجنود بريطانيون اثناء رحلة صيد فوجئت سلطة الاحتلال انها مها الى اهالي القرية فأعدمت عددا منهم وسجنوا بعضهم . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفس الشعب المصري والروح الوطنية التي شعرت بالاهانة والضعف .

الدين من الشوائب ثم توجيه العناية الى الاصلاح المدني بعدما تكون الامة قد فهمت دينها ووعت حقيقته .

يعلق كاتبنا " قصة الادب في العالم " على هذا الوضع بقولهما : ...
" وبعبارة اخرى كان هناك احتكاك في الامة الواحدة بين طائفتين ومدنيتين وعقليتين " (١) . ويصف جب هذه الظاهرة نفسها فيقول : " والحقيقة ان الخصوم على كلا هذين الطرفين كانوا جميعا في موقف غير طبيعي . فأنصار القديم كانوا بمنأى عن التطورات التي كانت تهز الفكر المعاصر من جذوره . وكانوا يلاقون القبول لدى فئة محدودة ممن يماثلونهم في النزعة والروح . ولذا فانهم كانوا يخوضون معركة خاسرة ، اذا هم استمروا على التثبيت بموقفهم المحافظ . اما دعاة الحركة الجديدة ، في الطرف الآخر ، فشأنهم شأن الجماعات الصغيرة ، انساقوا أو اضطروا الى الاندفاع في التيار مجاوزين الحدود المعقولة . وهم حين حاولوا ان يجذوا صلتهم بالماضي ، فانما كانوا يحاولون قطع جذورهم نفسها . ولا يرجى منهم في هذه المرحلة ان ينتجوا أى أثر أدبي يتسم بالابداع ، اذ كانوا ما يزالون يتخبطون في الحيرة وفي الاضطراب العقلي اللذين نتجا عن هذه الثورة المفاجئة . وقد انتحلوا الافكار الغربية في سرعة متسعة من العسير ان تتجاوز السطح الى ما هو أعمق " (٢) . ويتحدث جب عن هذه الظاهرة الهامة مرة اخرى فيشير الى انه حدث اضطراب فكري بين مقاييس الثقافة الغربية الجديدة ومقاييس التربية التقليدية القديمة ، وان الكتاب كانوا يتأرجحون بين النظامين باضطراب . ويرى جب

(١) احمد امين وزكي نجيب محمود ، قصة الادب في العالم ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٨) ج ٣ ، قسم ١ ، ص ٢٨٣ .
(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٢٢ .

ان هذه الازدواجية بقيت طوال القرن التاسع عشر وكانت بذورها في المدارس حيث يعلم الشيخ خريج الازهر مع العالم خريج المدارس الاوروبية جنبا الى جنب . ويضيف الكاتب انه لهذه الاسباب ، وحتى عام ١٩١٤ لم يستطع سوى نسبة ضئيلة من الطلاب التخلص من العبء الذي فرضته عليهم تربيتهم الاولى ، ولذلك تسلم زعامة الحركة الادبية حتى هذا التاريخ السوريون الذين كانوا قد تنقفوا منذ البدء وفق التربية الغربية (١) .

هذه الظاهرة ستتضح عندما نعرض لتطور الفنون الادبية بشكل عام ، غير انه لا بد هنا من الاشارة الى ما نوهنا به من اسهام المدرسة السورية المتمصرة في حركة الترجمة العامة في الفترة التي تلت الاحتلال البريطاني مباشرة ، زد على ذلك ان السوريين سيطروا على الحركة الصحفية التي كانت جزاء هاما من الحركة الثقافية في السنوات العشر الاخيرة من القرن الماضي والسنوات العشر الاولى من هذا القرن . فبين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩٠٠ كانت معظم الصحف الهامة في أيديهم (٢) من ذلك " المقطم " و " المقتطف " و " الهلال " و " الجامعة " و " الاهرام " و " الضياء " . وقد عنيت هذه الصحف بنشر العلوم والآداب ونقل التراث الغربي الى اللغة العربية ، وقد كانت عنايته هؤلاء السوريين متجهة في أكثرها نحو القصة والمسرح كما اهتم بعضهم بالنواحي العلمية كشبلي الشميل وأصحاب المقتطف وعلى رأسهم يعقوب صروف . يقول هنري بيريس (Henri Peres) في فضل المدرسة السورية على الصحافة والحركة الثقافية عامة : " ان الصحافة نفسها تغذيها كليا تقريبا مقالات السوريين . ويكفي ان نعدد الاسماء المشهورة امثال سليم النقاش واديب

(١) جيب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٢٦ .

(٢) كراتشكوفسكي ، " في الادب العربي الحديث " ، الرسالة ، ص ١٦٢٧ .

اسحق وسليم نقلا ونجيب الحداد وبشارة نقلا ونجيب طراد وجرجي زيدان ونقولا رزق الله وطانيوس عبده حتى نعرف الدور الثقافي الذي قام به المهاجرون السوريون في حقل الصحافة ، كما في حقل الآداب " (١) .

بقيت زعامة الحركة الثقافية من ترجمة وتأليف وصحافة في أيدي السوريين حتى بدأت بذور الاتجاهات الفكرية الغربية التي دخلت مصر عن طريق التعليم والترجمة تثمر بين صفوف المصريين . وكان هؤلاء قد تخطوا فترة القلق والحيرة بين تربيتهم الأساسية التقليدية والأفكار الجديدة التي تسربت اليهم بعد ذلك .

يتفق معظم دارسي هذه الفترة من تاريخ مصر الثقافي على ان المدرسة المصرية الجديدة بدأت بوادرها عام ١٩٠٢ عندما تألف حزب الأمة وأصبحت " الجريدة " لسان حاله (٢) . فقد تولى /لطفى السيد/ فتح أعينها لحركات الإصلاح الاجتماعية والأدبية في ذلك العصر .

واحمد لطفى السيد هو وليد تيارين من تيارات التجديد التي هبت على مصر ، فهو نتاج الثقافة الفرنسية من جهة ، وتلميذ من أبرز تلامذة الامام محمد عبده .

ففي سنة ١٨٧١ عاد (٢) جمال الدين الافغانى الى مصر حاملا معه

(١) هنرى بيريس ، " الرواية والحكاية والخبر في الادب العربي الحديث " ، حوليات مؤسسة الدراسات الشرقية ، ص ٢٦٨ .

Henri Pérés, "Le roman, le conte et la nouvelle dans la littérature arabe moderne", Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, (Université d'Alger, Alger, 1937), v.III, p. 268 .

(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٥٠ .

و كراتشكوفسكي ، " في الادب العربي الحديث " ، الرسالة ، ص ١٦٦٢ .

(٣) كان جمال الدين قد زار مصر سنة ١٨٦٩ ولكنه عاد سنة ١٨٧١ ليبقى حتى سنة ١٨٧٩ .

آراء ثورية جديدة أخذ يزرعها في أرض مصر ، بواسطة حلقاته الخاصة التي كان يجتمع فيها كل من أعجب بشخصية الشيخ القوية . يقول ألبرت حوراني : " ان فكرة الحضارة هي بدون شك واحدة من الافكار الاساسية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ووصلت هذه الفكرة الى العالم الاسلامي بواسطة الافغاني قبل كل شيء " . فقد أعطاها جيزو تعبيرها الكلاسيكي في محاضراته عن تاريخ الحضارة في أوروبا وكان الافغاني قد قرأ جيزو وتأثر به " (١) .

ونعت الافغاني في مصر روحا ثورية جديدة كانت عاملا خطيرا اشترك مع العوامل الاخرى التي أشرفنا اليها في بحث الحيوية والتقدم في عصر النهضة منذ عصر اسماعيل . ولئن اضطر الافغاني الى مغادرة مصر عام ١٨٧٩ فقد خلف وراءه تيارا قويا قام بدور هام في توجيه الحركة الفكرية ، لأنه كان أحد المؤثرات الكبرى في مفكرى هذا العصر وقادته .

تزعم هذا التيار الجديد الشيخ محمد عبده فخلق مدرسة فكرية تركت أثرها في معظم مفكرى النهضة . يقول تشارلز ادمس " . . . وفي الحق ان النهضة الادبية الحديثة لم تبلغ غايتها الا بعد الحرب العظمى ، ومع هذا فان حركة الشيخ محمد عبده زادت من قوة العوامل التي كانت موجودة من قبل ، وكان لها حظ قوى في بعث روح النهضة ، فهي لم تمتد لها بالكتاب والعلماء القادرين فحسب ، بل انها خلقت جوا صالحا يمكن ان ينشأ فيه عهد من الكتابة جديد . وان الجهود التي بذلها الشيخ محمد عبده في سبيل تحرير

(١) ألبرت حوراني ، الفكر العربي في العصر التحرري ١٧٩٨ - ١٩٤٩ ، ص ١١٤ .

Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798 - 1939, (London & Oxford University Press, 1962), p. 114 .

العقول في مصر من أغلال التقليد ، وفي التوفيق بين دين الاسلام وثقافته ، وبين ما وصلت اليه المدنية الحديثة ، سهلت على الادب العربي في عصرنا الحاضر سبل التجديد دون ان تنفصم الروابط التي وصلت بين حاضره وماضيه في الاسلام . وليس من شك في ان الجيل الحديث من كتاب المسلمين — يدينون بهذا الفضل للاستاذ الامام * (١) . ويقول كراتشكوفسكي عن الامام : " ... فبفضل جهوده ، استقر رأى المسلمين على السير في طريق التجديد وازداد نفوذ الحركة الادبية شيئا فشيئا بحيث أثر على الشطر الاكبر من المصريين * (٢) . أما جب فيقول : " بين هذين الفريقين المتخاصمين من المجددين والمحافظةين قام فريق ثالث ينتمي اليه أكثر الادباء البارزين اليوم ، وكلهم يعتبرون ريثا لمحمد عبده على تفاوت فيما بينهم وقد استطاع هو أكثر مما استطاع غيره ان يوجد للفكر المصري الحديث محورا يدور من حوله . وجعل مكان الكتابات المبعثرة أدبا يتطلع نحو افكار تقدمية معينة ، ضمن الاطرار الاسلامي * (٣) .

وقد واجهت مدرسة محمد عبده هذه معارضة مريرة من قبل المحافظين المتعصبين ، ولكن الغلبة في النهاية كانت لهذا التيار الذي أقبل عليه أولئك الذين نشأوا على اساليب التربية الأوروبية وفي طليعتهم ، كما قلنا ،

(١) تشارلز آدمس ، الاسلام والتجديد في مصر ، تعريب عباس محمود ،

(مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٣٥) ، ص ٢١٠ .

(٢) كراتشكوفسكي ، " في الادب العربي الحديث " ، الرسالة ، ص ١٦٦٢ .

(٣) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٣١ .

احمد لطفي السيد الذي لقب " باستاذ الجيل " (١) .

لم يكن احمد لطفي السيد صاحب نظرية فلسفية ، بل كان مفكرا استخلص افكاره في الاصلاح السياسي والاجتماعي من دروس استاذة محمد عبده من جهة ، ومن مؤلفات الاوروبيين الليبراليين من جهة اخرى (٢) .

(١) وكان ممن حضر دروس محمد عبده الخاصة وتأثر به أيضا اسماعيل صبري ، احمد تيمور ، مصطفى لطفي المنفلوطي ، حافظ ابراهيم ومن أبرز تلاميذه : قاسم امين ، (خاصة في كتابه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة) محمد فريد وجدي (في كتابه المدنية والاسلام) مصطفى عبد الرازق (في كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية) علي عبد الرازق (وفي كتابه الاسلام واصول الحكم) والدكتور منصور فهمي (في رسالته المرأة في الاسلام) ويقول عنه تشارلز آدمس في كتابه الاسلام والتجديد في مصر ، ص ٢٤٣ ، انه ربما يكون الاقرب الى روح محمد عبده من غيره .

كذلك يشير تشارلز آدمس الى ان محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ، وابراهيم عبد القادر المازني ربما يكونون قد تأثروا أيضا بحركة الامام عن طريق غير مباشرة اما بعطفهم على بعض وجوه الحركة ، كما هي الحال مع هيكل ، أو بالاتصال بجماعة الامام (الاسلام والتجديد ص ٢٤٢ - ٢٤٣) . ولن نتعرض في هذا البحث الى جميع هؤلاء لضيق المجال انما سنشير سنكتفي بالحديث عن احمد لطفي السيد الذي ترك أثرا كبيرا بل خلق جوا فكريا ولذلك سمي " باستاذ الجيل " .

(٢) جمال محمد احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٩٠ .

فقد حمل احمد لطفي السيد في ذهنه تعاليم محمد عبده عندما توجه لدراسة نتائج الفكر الاوروبي . ولعل ذلك كان مسببا هاما في امتداد اتجاهاته التجديدية . ثم انه كان نتاج التيار الفرنسي في الثقافة الاوروبية فركز أكثر قراءاته على النتائج الفرنسي وقرأ روسو (Rousseau) وفولتير (Voltaire) وكونت (Comte) ودوركهيم (Durkheim) . لكنه لم يحصر نفسه في الفكر الفرنسي ، بل قرأ عن طريق الفرنسية ، لجون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) ولسوك (Locke) وهوبز (Hobbes) . وقرأ كذلك لتولستوى (Tolstoy) وقد أعجب في البدء على ما يبدو بآراء روسو ووجد فيها منطلقا فكريا جيدا ولكنه ما لبث ان وجد انه رومنطقي جدا . ويشير جمال محمد احمد الى ان لطفي السيد أعجب بتولستوى الى درجة أراد معها الانسحاب الى قريته ، لولا اقناع صديقه ، عبد العزيز فهمي له ، بالحدول عن ذلك (١) .

وقد ظهر تأثير لطفي السيد بالفكر الغربي واضحا في مقالاته التي ظهرت في " الجريدة " ، فهو في الفكر الاجتماعي متأثر بالحضارة الغربية بشكل عام ، ومن يطلع على سلسلة مقالاته الاولى في الجريدة يجد تركيزه على موضوعات كانت قد أصبحت جزءا طبيعيا من المجتمع الاوروبي وقد حاول هو ادخالها الى مصر بهدوء وروية . من هذه الموضوعات مثلا تعليم الفتاة وتثقيفها دون ان تقطع صلتها بثقافة عائلتها (٢) . ومنها البحث على الكرامة الشخصية

(١) جمال محمد احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٨٢ .

(٢) من ذلك مقالاته " بناتنا وابناؤنا " الجريدة عدد ٣٨٣ ، ١١ يونيه سنة ١٩٠٨ " لا تضيقوا عليهن " الجريدة ، العدد ٤١٠ ، ١٣ يوليه سنة ١٩٠٨ ، " بناتنا وامهاتنا " ، الجريدة ، العدد ٦١٢ ، ٢٢ مارس سنة ١٩٠٩ ، " تربية البنات " ، الجريدة ، العدد ٦٠١٢٨٦ ، يونيه ١٩١١ وغيرها كثير لا نستطيع حصره هنا . وقد جمعت جميع هذه المقالات المذكورة في المنتخبات ، (مكتبة الإحلام المصرية ، القاهرة ، دون تاريخ) ج ١ .

والوطنية (١) والتخلي عن " كواذب الاخلاق " (٢) ، وقد كان لطفي السيد/ أول من آمن بأن تعليم المصريين وتوعيتهم هما السبيل الانجع لنيل الاستقلال واعداد جيل واع مثقف لتسلم دولة الاستقلال هذه . وقد عالج هذا الموضوع أيضا ضمن موضوعاته الاجتماعية التي كتبها في مطلع حياة " الجريدة " (٣) . ولا يسعنا أن نذكر جميع ما تطرق له قلم لطفي السيد في هذا النوع من الموضوعات ، التي كانت البلاد آنذاك بحاجة اليها ، لتستكمل صورة النهضة الاجتماعية وتتفتح في هذا المجال على آفاق أوسع من تلك التي ورثتها . فلقد كانت للطفي السيد آراء في التقدم وفي تربية الاخلاق والتعليم والتربية اعتمدها من الثقافة الغربية بشكل عام وقد أثرت فيه المدارس الفكرية الفرنسية والمدارس الفكرية الانجليزية .

ولعل أثر مطالعته الغربية يبرز بشكل أوضح في مقالاته التي عالج فيها الموضوعات السياسية الاجتماعية ، نعني بذلك ، عندما تطرق الى مبادئ فكرية واضحة كانت احيانا المنطلق الاساسي لفلسفته السياسية الاجتماعية (٤) ، وأول هذه الافكار فكرة الحرية التي عالجها المفكرون الغربيون بكثرة فهو يستمد فكرة الحرية مما وجدته عند لسوك وميل ، ويعتقد معهما انها صفة ضرورية ملازمة

(١) من ذلك مقالات : " حدود الطاعة " الجريدة ، عدد ٥٠٣ ، ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، " الشرف " ، الجريدة ، عدد ٥٣٧ ، ١٣ ديسمبر ١٩٠٨ ، " اطلبوا الحرية اطلبوا الاستقلال " ، الجريدة ، عدد ٨٤٧ ، ٢١ ديسمبر ١٩٠٩ . وقد جمعت المقالات المذكورة في المنتخبات ، ج ١ .

(٢) انظر المقال بهذا العنوان الجريدة ، عدد ٥١٦ ، ١٧ نوفمبر ١٩٠٨ .
أو في المنتخبات ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٣) راجع مثلا مقالاته عن " الجامعة المصرية " المنتخبات ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧٦ .

(٤) راجع مقالاته السياسية - الاجتماعية في المنتخبات (مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، دون تاريخ) ج ٢ . و تأملات ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

للإنسان ، وقد ناقض لطفي السيد نظرية هوبز في الطبيعة البشرية وقال ان في الإنسان طيبة اساسية ، وان النفس الانسانية لها أصول مقدسة ، وان المساوئ التي تظهر في هذه النفس ما هي الا نتيجة الامراض الاجتماعية ، ولعلنا نلمح هنا أثر لروسو ، الذي يعتقد ان المجتمع يفسد الإنسان ، وان الطبيعة هي المكان الذي يجب ان ينشأ فيه لكي يتخلص من هذه المساوئ . ولكن لطفي السيد في ايمانه بأن في النفس الانسانية طيبة اساسية لم ينحرف الى حد المثالية التي صورها روسو ، بل لقد اقترب من آراء بنتام (Bentham) وميل (Mill) الأكثر واقعية ، وقد كان يؤمن معهما بأن الإنسان هو أصلاً عقلاني فاذا ما وجه نحو مصلحته الحقيقية تبعها ، وكان أبرز أثر في لطفي السيد هو أثر ستيورت ميل - وهو من أبرز دعاة مذهب المنفعة (Utilitarianism) - في آرائه السياسية والاخلاقية .

وآمن احمد لطفي السيد بالتطور التدريجي ، وبأن مصر يجب ان تبدأ بتطوير الخلق المصري قبل الاتجاه بمثل هذا العنف نحو هدف سياسي (١) .

ولحل ذلك الايمان بالتطور التدريجي في تطوير عادات الفكر وصفات الاخلاق ، يبرز تأثره بمذهب كونت وهو من أبرز دعاة مذهب الوضعيين الفرنسيين وقاعدته في تطور الإنسان المبنية على مراحل ثلاث (٢) .

ومن فكرة الحرية ، وفكرة التطور التدريجي للمحلل والمجتمع ، تطرق احمد لطفي السيد الى فكرة الدولة وواجباتها ، وهنا أيضاً تأثر بالفكر الغربي فكانت

(١) لعله كان يشير الى دعوة مصطفى كامل .

(٢) مراحل التطور الثلاث في رأى كونت هي : الدينية ، الميتافيزيقية والعلمية .

آراء فولتير وجون ستيورت ميل ملهمة له في هذا الحقل ، كما انه تأثر
" بروح الشرائع " لمونتسكيو . ومن هنا كانت دعوته للمطالبة بالدستور والمطالبة
بالديموقراطية (١) المبنية على العلم والوعي .

وهكذا كان احمد لطفي السيد متأثرا بالفكر الغربي ، متجها بشكل خاص
نحو الآراء التي نبعت منها الثورة الفرنسية ونحو مذهب الوضعيين الفرنسيين
وخاصة اوغوست كونت ثم نحو مذهب المنفعة الذي خص فيه بوضوح جـون
ستيورت ميل . لكن لطفي السيد لم يكن المقتبس الاعمى لمبادئ الغرب هذه ،
فهو تلميذ محمد عبده ، وهو يعي أهمية الروابط التي يجب ان تبقى مع
الماضي ، لذلك رأيناه يطبق ما استلهمه من الغرب على مصر وأوضاعها رافضا
احيانا ما لا يتفق مع هذه الاوضاع . يقول جمال احمد : " مع ان الوضعية
الفرنسية والنفعية الانجليزية هما بالاجمال مبدآن غير دينيين ، فهو لم يتأثر
بمذه الناحية فيهما ، فهنا كما في قضايا اخرى ، طبق لطفي السيد القواعد
العامة للتحرر الغربي ، لكي تندمج مع متطلبات الوضع العقلي الذي كان
يحاول تغييره " (٢) . وقد كان لطفي السيد في مناقشته لمبادئ هــــــــــــــــــــــ
المفكرين ، أو نقضه لها ، يعتمد اسلوبهم في التفكير ، فقد رفض نظرية
" دين الانسانية " (Religion of Humanity) التي دعا اليها الوضعيون
معتمدا في ذلك على اساس من أسس المعرفة عند الوضعيين انفسهم ، وهو
المراقبة ، قائلا ان المراقبة أو الملاحظة تظهر ان الانسان دون دين يتوه
ويضلح .

فلطفي السيد كان يضع نصب عينيه أوضاع مصر الفكرية والاجتماعية

(١) راجع بعض مقالاته في هذا الموضوع في تأملات .

(٢) احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٩٠ .

والاخلاقية قبل ان ينقل قواعد الفكر الغربي . وقد كانت له آراء خاصة لعلها مستمدة من هذا الواقع ناقش فيها هؤلاء المفكرين الذين كانوا مصدر تفتحهم العقلي .

ولم يقتصر اسهام لطفي السيد على نقل الفكر الاجتماعي السياسي الفلسفي في انجلترا وفرنسا اثناء القرون الثلاثة التي سبقت عصره وعصر الجريدة ، بل رجع الى المصدر الذي غذى الفكر الاوربي لفترة طويلة نعني به أرسطو . فقد كان ارسطو احدى الدعائم التي قام عليها الفكر الاوربي . وقد شعر احمد لطفي السيد بأثر أرسطو في هذا الفكر عندما اطلع عليه عن كتب كما رأى أهمية التراث الذي تركه ارسطو فقرر نقله الى مصر ليساعد في نهضتها الفكرية وهكذا ترجم احمد لطفي السيد كتاب " الكون والفساد " و " علم الاخلاق الى نيقوماخوس " و " علم الطبيعة " و " السياسة " .

لقد أسهم احمد لطفي السيد بما حمله من الفكر الغربي في ترويض الحركة الفكرية ، بمواد رئيسية هامة تكون قاعدتها المتينة في بناء صرحها الجديد ، ومع انه لم يعن عناية مباشرة بالادب نفسه ، فانه قد غذى الحركة الادبية بالمادة الفكرية الضرورية من أجل جعلها حركة فكرية عميقة تعكس التطور الفكري العام . بالاضافة الى ذلك فتح احمد لطفي السيد أعمدة " الجريدة " لتكون مجالاً للكتاب المحدثين قدربوا اقلامهم وصقلوا افكارهم قبل ان تبلور دعواتهم الادبية . وبذلك اجتمع حول احمد لطفي السيد ، وحول " الجريدة " ، شبان الجيل الجديد من الذين نشأوا على اساليب التربية الغربية وتعمقوا فيها أكثر من سابقهم فتشربوا الروح الحضارية الغربية ، وخاصة الفرنسية منها ، بعد أن اتصلوا بها اتصالاً مباشراً . وقد كان لطفي السيد المشجع الاول لهؤلاء الادباء الناشئين يدفعهم الى الكتابة في قضايا المجتمع والفكر ويشعرهم

بقيمة الغرب ووجوب الافادة من تراثه الفكرى . يقول شوقي ضيف في تقويمه لجهود لطفي السيد في هذا المجال ، انه يعد أفضل مفكر من مفكرى أول هذا القرن في اعداد المصريين لنمو حياتهم العقلية هذا النمو الذى سيكون من آثاره هيكل ، وطه حسين والمازني وغيرهم (١) .

وكان لاحد لطفي السيد والمدرسة التي خلقها حوله أثر هام آخر في تحديد المبادئ والمثل التي يجب ان تكون قاعدة الصراع الفكرى ، لتقابل الاجنبى بمعتقداتها الجديدة بقوة ، وعلى أسس متينة . لكن هذه المدرسة الجديدة لم ترد ان تقطع صلاتها بماضيها ولم يكن هذا الماضي مرضيا ، لذلك أرادت ان تنهض بالبلاد الى مستواها اللائق عن طريق الاصلاح والتعليم التدريجي (٢) . ولعل هذا الهدف كان وراء جميع الجهود التي بذلها احمد لطفي السيد في جميع مجالات نشاطه .

وهكذا " وضع لطفي ومدرسته أسس النهضة الادبية والاجتماعية والسياسية في مصر . لم يؤلف لطفي كتباً ، ولكن جميع المؤلفين يعترفون انه " صنع " الجيل الجديد من الكتاب عن طريق عمله في " الجريدة " وعن طريق عمله الطويل في الجامعة المصرية . لذلك لقب احمد لطفي السيد " بامتاز الجيل " وكان علما بارزا في حركة التطور الفكرى المصرى ، حتى وصفه جمال محمد احمد بأنه " يمكن ان يعتبر الشخصية الرئيسية في حركة التجديد المصرية بعد وفاة محمد عبده " (٣) .

(١) شوقي ضيف ، الادب العربى المعاصر ، ص ٢٦١ .

(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٢٠ ،

(٣) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ٨٦ .

مع ولادة " الجريدة " اذاً ، ولدت الحركة الادبية الحديثة بين المصريين فتطلع أقطابها بجرأة نحو الغرب ، يأخذون عنه تراثه الفكري ويفيدون منه . وقد قدر لهذه الحركة الادبية الحديثة ان تنمو وتزدهر بعد تجمعها الاول حول احمد لطفي السيد وحول " الجريدة " فتقفز الى قيادة حركة النهضة الادبية وتطبع هذه الفترة بطابعها ، ولكن ذلك لم يتسن لها قبل بداية الحرب العالمية الاولى . وجاء نتائجها الاقوى والاعمق في السنوات التي تلت نهاية هذه الحرب . فحتى سنة ١٩١٤ كانت الزعامة الادبية في أيدي السوريين وكان نشاط هؤلاء يخيم على نشاط المدرسة المصرية الحديثة التي كانت لا تزال في طفولتها بعد ، ولكن سنوات الحرب وما بعدها شهدت نضوج هذه الحركة . واذا كانت الجريدة قد توقفت عن الصدور عندما جاءت الحرب ، فان صحيفة السفور الاسبوعية التي صدرت عام ١٩١٢ ورؤس تحريرها عبد الحميد حمدي - وقد كان سكرتير تحرير " الجريدة " - استطاعت ان تحل محلها وان تجمع حولها ادياء مصر المجددين الناشئين . وقد التف حول " السفور " محمد حسين هيكل وطه حسين واحمد ضيف والشيخ مصطفى عبد الرازق وعلي عبد الرازق وغيرهم . وتابعت " السفور " رسالة " الجريدة " ، فدعت الى الاخذ بالمذاهب الاوروبية في الادب ، ودعت الى التحرر من قيود التقليد وتطوير الاسلوب العربي بما يناسب متطلبات الحياة الحديثة . وفسوق ذلك كله دعت " السفور " الى ايجاد أدب مصري قوى مستمد من حياة مصر الصميمة مقتبسا من الادب الغربي وفنونه . ولكن " السفور " لم تعمر طويلا ، وما لبثت الكتاب المجددون ان التفوا حول جريدة " السياسة " التي صدرت عام ١٩٢٢ ، ناطقة بلسان حزب الاحرار الدستوريين ، ورؤس تحريرها احد هؤلاء المجددين محمد حسين هيكل . وخطا نضوج الحركة الادبية والفكرية خطوة جديدة مع " السياسة " . فقد اهتمت بالنقد وتاريخ الادب ، كما سعت لخلق

أدب مصرى ينبع من حاجات البيئة المصرية وظروفها ، غير مهمة الافادة من
الأدب الغربي لاجراج الاشكال القديمة التي عرفها الادب العربي بصورة
جديدة ، ولاقتباس الاشكال التي لم يعرفها الادب العربي من قبل . يقول
جب ان هنالك عاملين اساسيين ساعدا على تطور الحركة الادبية الجديدة
الاول هو اعادة تنظيم الجامعة المصرية بإدارة احمد لطفي السيد والثاني هو
انشاء حزب الاحرار الدستوريين وحريته السياسة عام ١٩٢٢ " فيفضل هاتين
المؤسستين اللتين كانتا وثيقتي الصلة ، تمنى لقوى التربية والاصلاح المبعثرة
أن تتجمع وتتعاون وأن يكون لهما بفضل ذلك كله تأثير على الرأي العام
المصرى يزداد يوما بعد يوم " (١) .

وهكذا كانت الاحزاب السياسية احيانا (٢) وصدقها مسرعا لتجميع القوى
الجديدة في الحركة الفكرية ، تلك القوى ، التي نشأت نتيجة الاتصال بالغرب
سواء من طريق التعليم والاتصال المباشر ، أو عن طريق الترجمة ، فاستطاعت
هذه القوى الجديدة بذلك ان تحتل مركز الزعامة في الحياة الفكرية في مصر ،
وان تكون لها الغلبة على تيار الثقافة الاسلامية التقليدية الذي واجهها بعنف
بلغ حد الاضطهاد احيانا .

وتتناول عناصر التجديد التي جاء بها الادباء المحدثون ، وتأثير الثقافة
الغربية في الادب المصرى في هذه الفترة ، بشكل أوسع ، عندما نتعرض للحديث
من أقطاب الفنون الادبية القديمة وولادة الفنون الجديدة . اما هنا فنستقدم
لمحة عن الصراع بين القديم والحديث ، كما انعكس في الصورة الادبية ، لكي

(١) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٥٢ .

(٢) نشير هنا بشكل خاص الى حزب الامة ، وحزب الاحرار الدستوريين .

تكتمل صورة الجو الادبي العام في تلك الفترة .

لقد انعكس التردد بين المحافظة على التقاليد الموروثة أو الاخذ بالاساليب الحديثة في مجال الفكر عامة ، والادب بشكل خاص ، فأصبح في مصر في مطلع القرن العشرين مدرستان متنازعتان : فالاولى مدرسة القديم الموروث التي تستوحى اساليبها من ادباء القرن الرابع الهجرى وما بعده ، فتقيد بأساليب البديع والبيان ، وتكره أى خروج عن هذه المقدسات الموروثة سواء في المعنى أو في المبنى . ومن أبرز أقطاب هذه المدرسة شيوخ الازهر يتزعمهم الشيخ حمزة فتح الله ، ويتبعهم مصطفى صادق الرافعي ، والثانية مدرسة المحدثين الذين نشأوا على الفكر الغربي واساليبه . وكان بعضهم قد تعلم على أيسر المستشرقين في الجامعة الاهلية ، ومن أبرز أقطاب هذه المدرسة طه حسين وهيكال والمازني والعقاد .

وقد اتخذت معركة القديم والحديث هذه صورا مختلفة ومرت بمراحل مختلفة ، فالمحافظون كانوا يحاولون منع دخول الجديد من جهتهم متطرفين في ذلك احيانا رافضين كل جديد رفضا اساسيا . وكان بين المحدثين من تطرفوا بدورهم فحاولوا قطع صلتهم بماضيهم محتقرين الماضي كله معتبرين الغرب مصدرهم ووجهتهم (١) غير انه كان هنالك اتجاه معتدل حاول تجديد الاساليب

(١) في مطلع هذا القرن كانت هذه الحركة متمثلة بالمدرسة السورية المتأركة التي تطلع اليها المحدثون المتطرفون . اما من المصريين فلمثل أبرز مثل على هذه الفئة سلامة موسى الذي دعا الى قطع كل صلة بالماضي والى تسيير الفكر العربي في طريق الفكر الغربي كليا . وقد دعا سلامة موسى أيضا الى اعتماد العامية لغة الكتابة والتعبير الادبي .

القديمة والفنون الموروثة وادخال الفنون الجديدة متخذاً من الحضارة الأوروبية وسيلة (١) . يصف حسب هذه الظاهرة فيقول : " لا يمكن اعتبار الادب العربي الحديث وريثاً للادب العربي القديم الا في نطاق ضيق ، بل يبدو احياناً انه متجه الى قطع الصلة بهذا التراث بشكل بات ، فأعلامه هم في الاكثر ممن نهل من منابع اخرى وهم ينظرون الى الحياة نظرة مختلفة . على ان القديم ما يزال ذا أثر في تكوينهم العقلي ، وئمة طائفة منهم لا يزال للقديم عليهم سلطان لا تزعمه المؤثرات الحديثة (٢) .

ولكن الصراع بين القديم والحديث لم يتوقف في حقل الادب عند هذا الحد بل اتخذ طابعاً أشد عنفاً وضراوة (٣) . لم يبرز الى العلن الا بعيد فترة بحثنا ، فمن بين العديد من المؤلفات والمقالات التي ظهرت في ذلك العصر والتي كانت تمثل الاتجاهات المختلفة ، وتعدس التقدم الثقافي السريع والفيليان الفكرى الذى كانت مصر وعاءه ، اتفق الدارسون على ان كتابي " في الشعر الجاهلي " لطف حسين " و " الاسلام واصل الحكم " لعلي عبد الرازق (٤)

(١) أبرز من أسهم في هذا الاتجاه تلاميذ محمد عبده أو من تأثر بهم كأحمد

لطفى السيد ، مصطفى عبد الرازق ، محمد حسين هيكل .

(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣١٩ .

(٣) في خارج حقل الادب برزت ضراوة حملة المحافظين عندما صدر كتاب قاسم أمين في تحرير المرأة فوجه برد فعل واستنكار عنيفين .

(٤) صدر الاول عام ١٩٢٦ والثاني بعد هذا التاريخ بقليل ، ولكننا نشير اليهما هنا لأنهما نتاج الحركة الفكرية في الربع الاول من القرن الحالي وهما أعنف مظهر من مظاهر الصراع بين القديم والحديث ويمثلان خلاصة التيار الفكرى التحررى الذى كان قد بدأ تحركه في مصر بنتيجة اتصالها بالغرب في تلك الفترة كما يعكس عنف الحركة المحافظة التي جوبه بها هذا التيار ..

كانا أول قفزة حاسمة في الانفصال عن القديم ومن أعرق ما ترك أثرا في حياة مصر الفكرية خلال العشرينات ، وفي طليعة الدارسين الذين يرون هذا الرأي جمال احمد الذى يقول ان هذين الكتابين تركا أثرا في الحياة الفكرية فسي مصر يضاهي الاثر الذى تركه زغلول في الحياة السياسية (١) .

وقد أثار هذان الكتابان صراعا فكريا كبيرا ، مما زاد في تيمة أثرهما وأسهم في نمو الحركة الثقافية ولن نتحدث في هذا المجال بالتفصيل عن الكتابين لأن ما يعنينا هنا هو الإشارة الى ذلك الجو الذى خلقاه .

كتب طه حسين كتابه " في الشعر الجاهلي " مناقشا فكرة الوحي مثيرا شكوكه حول القرآن نفسه وحول صحة رواياته التاريخية ، وطلب الى القراء أن يضعوا شعورهم الديني جانبا عندما يقبلون على قراءة الكتاب لأنه طالب أدب ولن يجعل إبعائه تتأثر بمعتقداته الاسلامية . أما علي عبد الرازق ، فقد أراد من وراء كتابه أن يظهر ان الاسلام دعوة دينية وليست دنيوية ، لذلك رفض حكم السلطان على اساس الوحدة في شؤون الدنيا ، وقال ان الوحدة التي أرادها الاسلام كانت وحدة الايمان وليست السياسة ويتطرق عبد الرازق الى الحديث عن الخلافة فيرى انها تركت أثرا فاجعا في تطور المسلمين وكانت مصدر شر وفساد واداة خراب في التفكير الصحيح في أمور الحكم .

اعتبر كتاب طه حسين خطرا على المجتمع لأنه يمثل في نظر المدرسة المحافظة دخول بعض الآراء الفكرية من الغرب هذه الآراء المبهمة وغير المقبولة لأنها تقصد الى تفكيك المجتمع . ووصلت حالة استنكار هذا الكتاب الى

(١) احمد ، الاصول الفكرية ، ص ١١٧ .

حد رفع قضيته الى البرلمان ثم منعه ومصادرته .

وأثار كتاب علي عبد الرازق أيضا المخاوف واعتبر اشارة الى الانحراف وربما الى الكفر لأنه انتقد الخلافة بهذه القسوة وفصل الاسلام عن الامور الدنيوية . ولكن وطأة " الاسلام واصل الحكم " كانت أخف من وطأة " في الشعر الجاهلي " لأن الوضع الفكري كان قد تطور عند نشر الكتاب ، وكانت الصلة بين مصر وتركيا قد قطعت بعد اعلان الحرب العالمية ، وكانت فكرة القومية قد أخذت تتمح . لذلك لم يكن مصيره كمصير رفيقه .

ومن حسن الحظ ان الصراع على هذين الكتابين دخل الى مجال الصحافة فأصبح بذلك سببا للحركة الفكرية التي أشرفنا اليها ، انتقل هذا الصراع الى معركة بين مجلة " الفتح " التي تجتمع حولها المحافظون والشيخ ومجلة " السياسة " التي فتحت صفحاتها امام الفريق الآخر من رجالات الاتجاه الجديد يردون فيها على حملات " الفتح " .

لقد رأى المحافظون في الكتابين الثوريين اداة لتحطيم المجتمع المصري ، واعتبر الازهرى ان الشباب معبرين عن الآراء الأوروبية ، ومن الرغبة في تدوير أسس الحياة المصرية بالفكر الغربي . ولكن طه حسين ورفاقه ردوا على هذه الحملات بسعة أفق واطلاع مما جعل من هذا النقاش الحاد منعطفًا هامًا في الحياة الفكرية المصرية عامة وفي الأثر الغربي في هذه الحياة بشكل خاص .

هكذا ولد في مصر ، بدخول الثقافة الغربية ، مدرستان اساسيتان متصارعتان ابدا هما مدرسة القديم ومدرسة الحديث . ولكن المدرسة الغربية الحديثة نفسها انقسمت بدورها الى فئتين : فئة المتأثرين بالثقافة الانجلو سكسونية وفئة المتأثرين بالثقافة اللاتينية . فمنذ مطلع القرن العشرين بدأ نظام التعليم الانجليزي يعطي ثماره في الادب وظهرت المدرسة ذات الاتجاهات

الانجلوسكسونية التي أخذت تنافس المدرسة اللاتينية في زعامة الحركة الادبية الجديدة . واذا كانت هاتان المدرستان قد التقتا في محاربة القديم والوقوف في وجهه ، فان نقاشا داخليا دار بينهما حول بعض المقاييس أو المفاهيم الادبية أسهم في انعاش الحركة الادبية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان النزاع بين المدرستين لم يتخذ الطابع الذي اتخذه في التعليم ، وانما بقي على صعيد المناقشة الفكرية في معظم الاحيان . ولم نشهد حتى نهاية فترة بحثنا نزاعا واضحا بين الاتجاهين (١) . يتحدث احمد امين عن الفرق فسي

(١) ربما كان هذا الشعور بالتنافس على زعامة الحركة الادبية ونشر الآراء الخاصة بالمدرسة كامنا حتى نهاية فترة البحث ، ذلك ان المظهر العنيف الذي اتخذه العقاد والمازني في "الديوان" مثلا ، وان كان موجها فسي أكثره نحو المدرسة القديمة ، يبرز اندفاع هذين القطبين من اقطاب الثقافة الانجلوسكسونية من أجل نشر الاسس التي أعجبا بها . ويظهر ان التجاذب بين الانكلوسكسونيين واللاتينيين كان كامنا ، طوال فترتنا ، ولم يتخذ الشكل المكشوف . الا اننا نسمح لانفسنا بتجاوز هذه الفترة قليلا لنعطي مثالا على هذا التنافس بين الفئتين . هذا المثل يأتي بشكل واضح عام ١٩٣٣ يوم نقد العقاد كتاب انطون الجميل عن شوقي في جريدة الجهاد (عدد ١٧ يناير) وتحدث فيه عما أسماه نقد اللاتينيين ونقد السكسونيين فعزا بعض تقصيرات الجميل الى انه ينتمي الى المدرسة اللاتينية في النقد . وقد تصدى طه حسين للعقاد في مجلة الرسالة (سنة ١ ، عدد ٢) فنفى أن يكون هنالك مذهب لللاتينيين وآخر للسكسونيين في النقد وان المذهب الاول يمتاز بالاناقة والثاني بالبساطة والغمطرة . فاللاتيني "يومي" ايماء خفيا الى بعض العيوب "على سبيل التماس العذر في حين ان الانجلوسكسوني لا يهتم بهذه الاعتبارات ويتصدى للنقد قورا . ومعنى ذلك ان "النقد اللاتيني سطحي مخالف لأصول العلم ونقد السكسونيين هو النقد العلمي الصحيح الذي نجد فيه الفائدة ونجد فيه الغناء" . ويرفض طه حسين هذه النظرية بشدة ويستشهد بمؤلفات منت بوف وبرونثير ويقول ان النقد الحديث انما نشأ وآتى أطيب الثمر وأصحه وألذه في فرنسا وفي فرنسا وحدها . وبعد ان يدافع طه حسين عن النقد اللاتيني يرجو ألا يعتبر دفاعه على حساب الثقافات الاخرى أو لانه من ذوي الثقافة اللاتينية . هذا النقاش أوردناه بشكل مختصر لكي نوضح انه ، وان لم يظهر النقاش واضحا جليا بين الثقافتين الغربيتين حتى نهاية فترة بحثنا ، فانه كان كامنا وكان لكل من الفئتين مأخذ على الاخرى .

معالجة المواضيع بين المدرسة الانجلوسكسونية والمدرسة الفرنسية فيقول : " ان أصحاب الثقافة الانجلوسكسونية يتميزون بالاعتصاب والدخول في صلب الموضوع دون مقدمات واطناب وباهمال التعابير اما اصحاب الثقافة اللاتينية فهم على العكس يتميزون بتفصيل مقدماتهم قبل الدخول في الموضوع نفسه ، وبعنايتهم الخاصة بالاسلوب^(١) . اما اتجاهات أقباط كل من هاتين المدرستين فمستتبع لنا فيما بعد .

هذه لمحة خاطفة عن الجو الفكري العام الذي ولده دخول الثقافة الغربية الى مصر ، ولكن ما هي الآثار التي تركها دخول هذه الثقافة في الادب وفنونه ؟ هذا ما سنتعرض له بشكل عام لنبرز معالم الحياة الادبية في مصر بعد ان أثمر الاتصال مع الغرب . ومعلوم ان التطور الذي حدث في كل فن من الفنون الادبية ، سواء في شكله أو مضمونه ، يشكل موضوعا مستقلا كبيرا ، الا اننا نحاول هنا تحديد الخطوط العامة البارزة التي نشأت عن هذا التفاعل الحضارى تاركين لبحوث لاحقة ان تتخصص في كل فن على حدة .

(١) احمد امين ، مجلة القاهرة ، " خمسون سنة من الادب المصرى " ،

الفصل الثاني

أثر الثقافة الغربية في الفنون الأدبية

الاتجاهات العامة في الجو الأدبي :

انعكس تأثير الثقافة الغربية في الأدب في مجالات كثيرة ، كان لها كلها آثار رئيسية في تغيير المادة الأدبية ببل الغاية الأدبية .

أول هذه المظاهر الاقتباس من معاني الأدب الغربي وأغراضه . وكانت الترجمة قد قطعت شوطا كبيرا في تعريف المصريين الى أغراض جديدة للأدب وأعدت عقولهم لتقبل معان غير تلك التي ألفوها في المدح والرثاء والتهنئة والتعزية . . ومن هنا انطلق الأدباء نحو تجديد القوالب الأدبية التي عرفها المصريون من قبل وعملوا على ادخال فنون أدبية أخرى كانوا قد بدأوا يشعرون بوجودها دون ان تكون قد أصبحت جزءا حقيقيا من حياتهم الأدبية . وهكذا وسع مفهوم الشعر التقليدي وأغراضه ليشمل حقولا أبعد مما عرفه في الماضي ، فنشأ الشعر القصصي بمعناه الحديث وأعد الجو لولادة المسرحية الشعرية . اما القصيدة الشعرية نفسها فقد اتضحت فيها الوحدة في النظم والتنظيم المتسلسل كما خرج الشعراء عن التقيد بما ورثوه من قيود صارمة وأصبحوا أكثر حرية في التعبير والخراج .

أما النثر فقد حظي بتطور يفوق تطور الشعر . ولعل في طبيعة اسباب ذلك ما أشرنا اليه سابقا من ان وجود الشعر كمؤسسة مستقلة في الأدب العربي لها قواعدها وأصولها وموضوعاتها وقف ، في البدء ، في طريق تطور الشعر الحديث . ثم ان شعراء النهضة عندما التفتوا الى الشعر توجهوا قبل كسل شيء الى احياء الشعر العربي في عصوره الذهبية ثم أخذوا ينسجون على منواله .

وأبرز مثال على ذلك شعر البارودي ثم شوقي وحافظ . كذلك ساعدت الصحافة على دفع النثر في طريق التطور وعلى تجديد فنونه . ثم ان النثر لا تقيده اشكال صارمة ، كما تقيد الشعر ، وقد كان النثر في مطلع عصر النهضة بحاجة الى التحرر من القيود اللفظية والمحسنات البديعية فتم له ذلك على يد الصحافة . وهكذا تحرر النثر من قيوده فاستطاع استيعاب فنون جديدة وآراء حديثة ، اما الشعر فقد كان اتصاله بشكله الخارجي ولغته الخاصة أعمق جذورا وأبعد تأصلا ، فحد هذا من سرعة تطوره احيانا . أضف الى ذلك ان الترجمة الشعرية كانت قليلة بالنسبة للترجمة النثرية ، وان المصريين أقبلوا على ما ترجم من نثر أكثر من اقبالهم على ما ترجم من الشعر ، لأن الموضوعات النثرية كانت أقرب الى العقلية المصرية من معاني الشعر المترجمة التي كانت تتطلب مستوى أبعد من التطور النفسي والفكري من جهة ، والتي كانت اذا أرادت أن تقرأ الشعر توجهت صوب الشعر القديم . وليست هذه الظاهرة جديدة على الاقتباس الثقافي عند العرب . فقد رأيناها تبرز بشكل أمد وأوضح في عصور النهضة العربية الاولى يوم كانت فارسي واليونان مصدرى الالهام . لقد كان النثر اذا أبرز تطورا من الشعر في عصر النهضة وحتى نهاية فترة البحث ، وهكذا ظهرت القصة المصرية بمفهومها الحديث وثبتت المسرحية أقدامها وظهر فن المقالة الحديثة كما تطورت مقاييس النقد الادبي متخذة من الفكر الاوروبي وقواعده اصولا لها . فتأثير الثقافة الغربية اذا تجدد الاسلوب الانشائي الحربي ليستوعب فكرا جديدا من جهة ، وفنونا جديدة من جهة اخرى . وبدأ الشعر يتأثر بالمذاهب الاوروبية النقدية التي دخلت الى مصر ، وتأثير الترجمات الشعرية التي حملت قوالب جديدة ومعاني جديدة وأغراضا مختلفة يبرز مظاهر حديثة ، من وحدة موضوعية الى الاهتمام بالسمو الخيالي والعناية بأساليب التعبير والتغني بها . ففي فنون النثر الجديدة لم يكن للكاتب سوى النمـاـج الاوروبية يحتذيها ، اما في الشعر فقد قيدته نمازجه القديمة كلما حاول

التجديد الكامل .

وقبل ان نتعرض الى هذه الفنون كلا على حدة ، لنبين أثر الثقافة الأوروبية فيها ، لا بد من ذكر الاتجاهات والمدارس الأدبية التي انسابت الى الأدب العربي من الأدب الغربي فكان لبعضها أثر واضح في توجيه المدارس الأدبية العربية .

وفي طبيعة هذه المدارس المدرسة الرومنطيقية التي كان لها أوضح الأثر في أدب مصر الحديث حتى نهاية فترتها ، لأسباب عديدة منها ما يتعلق بطبيعة الحركة الرومنطيقية نفسها وفترة وجودها التاريخي ، ومنها ما يتعلق بالظروف التي أحاطت بمصر وأدبائها . وقد رأينا في دراستنا لحركة الترجمة كيف تركز الاختيار في المرحلة الأولى وخاصة في الترجمة القصصية عن الفرنسية على الحركة الرومنطيقية . كذلك اتجه النقاد في كثير من الأحيان نحو مقاييس الحركة الرومنطيقية كما سنرى فيما بعد . أما في الشعر فقد احتل الشعراء الرومنطيقيون الغربيون مركزاً مفضلاً وتأثر النتاج الشعري بهم .

هذه الأمور ستظهر بشكل أوضح عندما نتعرض لدراسة اقطاب الفنون الأدبية عامة . ولكننا سنحاول هنا إبراز بعض الظواهر التي كانت ، حسب اعتقادنا ، اسباباً في بروز التأثير الرومنطقي في أدب النهضة حتى نهاية فترة البحث .

نشأت الرومنطيقية الأوروبية في اوائل القرن التاسع عشر ، واستمر عهدها الأول في بريطانيا حتى نهاية الثلث الأول من القرن نفسه ، وفي فرنسا حتى منتصف هذا القرن ، وفي القسم الباقي من القرن استمرت الحركة الرومنطيقية في سيرها ، إلا أنها بدأت تميل نحو شيء من النضوج اذا صح هذا التعبير أو

قل ان شيئا من الاتجاه الواقعي بدأ يخالطها ، وهو الاتجاه الذى سوف يخلق الحركة الرومنطيقية . وقد رافق نشأة الرومنطيقية الأوروبية شيء من القلق والاضطراب وخيبة الامل على أثر اخفاق مبادئ الثورة الفرنسية في تطبيق مبادئها وما تبع ذلك من اضطرابات في أوروبا كلها حتى أصبح الشعور بعدم الاستقرار والاضطراب الدائم وخيبة الامل ، بل الحزن المحبب الى النفس عند الشعراء والكتاب ، ما سمي بمرض العصر (١) . من هنا انطلقت الحركة الرومنطيقية تعبيرا حرا صادقا عن هذه النفوس المضطربة وردة فعل للقواء الاستقرائية الصارمة التي كانت الكلاسيكية قد وضعتها .

ووجدت الحركة الرومنطيقية أرضا خصبة في نفوس ادياء مصر وشعرائها في السنوات الاخيرة من القرن الماضي والربع الاول من هذا القرن . ذلك ان مصر قد مرت بظروف سياسية محلية وعالمية بعثت الاضطراب وقلعة الايمان وخيبة الامل في كثير من الاحيان . فمن ناحية الاحتلال البريطاني للبلاد تم توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا الذى خيب آمال المصريين في الاعتماد على فرنسا من أجل استقلال بلادهم ، ثم حادثة دنشواى التي كانت صفة لكرامة المصريين ، جاء بعدها فرض الحماية على مصر والتضييق الذى فرض على حرية الرأي ، ثم الحرب العالمية الاولى ، وكذلك اخفاق الوفد في الحصول على الاستقلال . كل هذه العوامل أسهمت في جعل الجيل الجديد من المصريين قلقا غير موءن بالمستقبل يخشى على كرامته المهددة فينتوى على ذاته يعكس ما فيها من هذه الآلام احيانا حالما بمستقبل أزهى احيانا اخرى .

هذه الاسباب النفسية التي ساعدت في سيطرة المدرسة الرومنطيقية

(١) مرض العصر أو "Le Mal du Siècle" ولعل شاتوبريان أبرز من يمثل .

تضافرت معها ظروف واسباب اخرى . فالرومنطيقية مدرسة الحرية في التعبير والحرية في الاسلوب ، وقد سئم المصريون ما ورثوه من قيود في النثر والشعر ، سواء في المباني أو المعاني ، ولذا كان الجو الذي ولدته الرومنطيقية أحب الى قلوب المحدثين . ثم ان الرومنطيقية كانت مدرسة الشعب بعد ان كانت الكلاسيكية مدرسة الارستقراطيين . فهي أقل صرامة من الكلاسيكية وأكثر قربا من نفس الشعب وشعوره . وقد راقى الرومنطيقية للشعب المصري في هذه الفترة بالذات لأنه كان لا يزال في بداية تفدحه الادبي الجديد ووعيه لرسالة جديدة ومضامين جديدة لهذا الادب . واخيرا فان الادب الرومنطقي كان أدب معظم القرن التاسع عشر في اوروبا وهو أدب الساعة الخربي بالنسبة لمصر .

كل هذه العوامل تضافرت لتجعل من الرومنطيقية الحركة الأبعد أثرا في الادب المصري في هذه الفترة . يصف جمال احمد هذه الظاهرة في الادب المصري في فترة ما بعد الحرب الكبرى فيقول : " اما الكتاب المتحررون ... فقد واصلوا طريقهم بهدوء ولكنهم مالوا نحو رومنطيقية معذبة طردت التفاؤل والواقعية التي طبعت سني ما قبل الحرب ... كانت رومنطيقيتهم سطحية انعكست بوضوح في أشهر أثر كتبه هيكل نفسه وهو قصة زينب التي تعتبر صورة رومنطيقية للفلاح ولكنها لا تعكس الكثير " (١) . أما جب فيقول : " وليس لنا ان ننتظر أى ميل طبيعي من المصريين نحو المدرسة الكلاسيكية ، بينما على النقيض من ذلك ، هنالك وشائج حقيقية بين روح الادب العربي ، وأثار الكتاب الرومنطقيين " (٢) .

(١) جمال احمد ، الاصول الفكرية ، ص ١١٩ .

(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٦٤ .

لكن الرومنطيقية لم تكن الحركة الغربية الوحيدة التي تركت أثرا في أدب مصر في هذه الفترة ، ذلك ان الحركة الواقعية التي خلفت الرومنطيقية فسي القصص الاوروبي ، وكانت ردة فعل لاسراف الرومنطيقيين في خيالهم ، وجدت لها مجالا في مصر ، وأثرت في بعض ادبائها ، فكان اهتمامهم الاول ابراز حقائق الحياة كما هي بلا مبالغة . ولكهم احيانا تخلوا حتى عن الجمال الفني في سبيل هذه الواقعية (١) .

* * *

بعد ان تعرضنا للاتجاهات العامة التي سادت الجو الادبي بتأثير دخول الثقافة الغربية نستطيع ان ننقل الآن الى التعرض الخاطف لتطور الفنون الادبية .

القصة :

لم تكن القصة كما عرفها المصريون في عصر نهضتهم فنا موروثا أسهمت النهضة في انعاشه ، بل لقد جاءت القصة بتأثير الاطلاع على أدب الغرب ، وتأثير الترجمات القصصية التي رأينا انها استأثرت بمعظم نشاط المترجمين واهتمامهم ، وأثارت رغبة القراء في مطالعة هذا الفن والاقبال عليه مما شجع الادباء على التأليف القصصي .

وقد جاءت أول محاولة مصرية لتأليف القصة الحديثة عندما وضع محمد المويلحي قصته " حديث عيسى بن هشام " (٢) ، ولكن هذه القصة بقيت متأثرة

(١) هذا الاتهام يوجهه اليهم محمد حسين هيكل في كتابه ثورة الادب ، ص ١١٢ - ١١٨ .

(٢) صدرت أول طبعة لها عام ١٩٠٢ .

باسلوب المقامة العربية وطريقتها وشكلها . وهي ، وان كانت تصور لنا مصر في فترة الانتقال بين عصر محمد علي وعصر الاحتلال الا انه ليس فيها مسن التأثر الغني بالغرب ما يجعلها تدخل في بحثنا .

وقد صدر بعد هذه القصة كتب قصصية سارت على الخطوط الفنية نفسها ، ومن أبرزها " ليالي سطيج " (١) لحافظ ابراهيم . يقول جب : " يمكننا ان نلمس في هذه المؤلفات جميعا ، جهدا متأزرا لخلق نوع جديد من الادب يلبي حاجات الطبقة الجديدة من القراء ويمت ببعض الصلة الى مشكلاتهم ونزعاتهم ولا يشق فهمه عليهم ، وعلاوة على ذلك كله ، يثير اهتمامهم ويلائم خيالهم . على انهم في الحقيقة لم يوفقوا الى حل المشكلة بنجاح وكانوا جميعا يتبنون نظرة القرون الوسطى الى الادب باعتباره مظهرا من مظاهر الزمن الفكري أو وسيلة من وسائل الاصلاح " (٢) . وقد بقي النتاج القصصي في مصر ملتصقا اما في المترجمات القصصية التي تحدثنا عنها في الباب السابق ، أو في نتاج المدرسة السورية المتمصرة ، التي برز تأثرها بالغرب .

وكان أبرز المساهمين في تطوير النهضة القصصية من السوريين جرجسي زيدان الذي عني بالقصص التاريخي واخرج أكثر من عشرين قصة في سلسلة تاريخ الاسلام . وليس يعنينا ونحن نلقي نظرة خاطفة على الأثر الغربي في تطور فن القصة ان تعرض لما وجه اليه زيدان القصصي من نقد سواء من ناحية الحكمة أو الشخصيات أو المعالجة التاريخية ، وانما يهمنا ان نشير الى ان زيدان كان رائدا في ادخال القصص التاريخي الى مصر ، بل لعله كان رائدا فسي

(١) صدرت عام ١٩٠٢ .

(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٢٨ .

ادخال الفن القصصي الحديث المؤلف عامة . ولم يكن في الادب العربي مثال يحتذيه زيدان في تأليف سلسلة رواياته التاريخية . لذلك استوحى زيدان طريقته من الادب الغربي متأثراً قبل كل شيء بما كتبه والتر سكوت من قصص تاريخية حول بلاده سكوتلندا بأسلوب رومنطيقى . الا ان والتر سكوت لجأ أحياناً الى الاعتماد على عوامل ما وراء الطبيعة وهذا ما لم يفعله زيدان . يقول محمد نجم : " لم يعتمد زيدان في قصصه على العنصر الغيبي أو عالم ما وراء الطبيعة كما كان يفعل والتر سكوت بل سار على هدى دوماس الاب ، والترم الواقع ما وسعه ذلك ، فكان في قصته يرسم التاريخ وعصوره في صور مبكرة تجمع أبهى المناظر وأهم المظاهر يوشىها بما يشوق القارئ الى مطالعة التاريخ واستطلاع أحوال العصر أو الفترة ، والتعرف على عادات الامة وتقاليدها التي تحيط بالوقائع . ويختلف زيدان عن دوماس بشدة التزامه بحوادث التاريخ وحقائقه . اما زيدان فكان همه الاول تعليم التاريخ وتشويق القارئ الى مطالعته فكان يبقي الحوادث التاريخية على حالها كما هي ثم يربط اجزاءها المتناثرة بقصة غرامية فيشوق القارئ بذلك ويستحضر الحلقات المفقودة التي يربط بها اجزاء القصة " (١) . ونشير هنا الى ان زيدان ، وان كان قد مال نحو دوماس في واقعيته التاريخية ، الا اننا نعتقد انه تأثر بأسلوب معالجة والتر سكوت لموضوعاته التاريخية وبتصوره الرومنطيقى للتاريخ ومحاولة احياؤه في ذهن القارئ . ثم ان زيدان متأثر بالتر سكوت في تكديس الحوادث والاعتماد عليها كأساس لقصته . ومن يقرأ إحدى قصص زيدان في سلسلته المشهورة واحدى قصص سكوت (٢) تبرز له هذه الظاهرة . وعلى كل حال فان دوماس وسكوت كليهما من المدرسة الرومنطيقية ، فلم يكن بينهما كبير اختلاف في المبادئ

(١) نجم ، القصة ، ص ١٩١ .

(٢) راجع مثلاً قصة " ارماتوسة المصرية " لزيدان و " الطلمس " لسكوت .

العامة ، وقد تأثر بهما زيدان فلم يكن في تأثره هذا أى تنافر (١) .

أما من ذوى الاتجاه الفرنسى من السوريين المتصرين الذين كان لهم أثر في ادخال الفكر الغربى عن طريق الفن القصصى فأول من يطالعنا فرح انطون .

عند فرح انطون تبرز آثار الثقافة الغربية بشكل واضح ومتشعب ، فقد جاءت قصصه " تحمل فكرة عميقة طريفة لا لمجرد التسلية ، بل لتحمل رسالة اجتماعية " (٢) ، هذه الرسالة الاجتماعية جاءت أكثر عناصرها من ثقافة فرح انطون الغربية عامة والفرنسية خاصة . ففي قصصه " الوحش ، الوحش ، الوحش " و " الديي والعلم والمال " وفي " أورشليم الجديدة " مقاطع طويلة ينمى فيها الكاتب انه يتحدث على لسان احد أبطاله وينصرف الى بث آرائه الاجتماعية والسياسية .

يقول عبد المحسن طه بدر : " كان فرح انطون يدين بالولاء الكامل للحضارة الغربية وافكارها وينقل عنها في مجلته " الجامعة " مذاهبها فـسي الاصلاح الاجتماعى ويناقش الافكار الاشتراكية والشيوعية في هذا الوقت المبكر حين كان المجتمع غير مستعد بأى صورة من الصور لتقبل مثل هذه الافكار " (٣) .

ويقول لوى شيخو " أخذ يدرس تأليف الكتبة المتطرفين في آرائهم الدينية والشيوعية من فرنساويين وروسيين وجرمانيين كرينان وكارل ماركس وتولستوى

(١) بعد جرجي زيدان أخذت القصة التاريخية تعمق على يدى محمد فريد

أبي حديد الذى استطاع ان يجعل القصة التاريخية أشد تماسكا وان يتعمق في ابراز شخصياته ، ومن أوائل قصصه " ابنة الملوك " .

(٢) نجم ، القصة ، ص ٨١ .

(٣) عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر من سنة

١٨٧٠ - ١٩٣٨ ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٨٤ .

ونيتشه فحشنت افكارهم في دماغه فصار يجاريهم في كتاباته" (١) .

والحقيقة ان روايات فرح انطون عكست تأثيرات غربية قطعت احيانا الصلة بينه وبين المجتمع الذي ، لم يكن مستعدا لقبولها ، كما قال بدر . ولعل أبرز هذه الآراء ما ظهر في رواية " الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث " حيث يعرض لخلافات العمال واصحاب العمل وتوزيع الدخل ، ويتضح منها تأثيره بآراء كارل ماركس التي يعرضها على لسان العمال . وفي هذه الرواية أيضا يظهر تأثير فرح انطون بآراء رينان فيدعو الى انهاء الخلاف بين الدين والعلم بالفصل بينهما . وهذا الرأي لم يكن رأى رينان وحده ، فقد كان مبدأ فصل السلطات مطروحا في اوروبا في ذلك العصر . وكان كتاب مونتسكيو ، " روح الشرائع " أحد المؤثرات التي أثارت هذا النقاش وقد تأثر به فرح انطون ، كما تأثر بغيره من فلاسفة الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية وكانت من مسبباتها الفكرية امثال فولتير . وقد ظهر أثر مونتسكيو وأثر رينان وأثر الثورة الفرنسية وما بثته من فكر متحرر في قصة اخرى من قصص فرح انطون وهي " اورشليم الجديدة " حيث يفرد فرح انطون مقطعا طويلا يوضح فيه آراءه الاجتماعية والسياسية التي حملها من قراءاته في الغرب .

ولم يكن تأثير فرح انطون بالثقافة الغربية محصورا في ذلك بل لقد أكثر من قراءة الكتاب الرومنطقيين على ما يبدو وتأثر بأسلوب روسو وحبه للطبيعة ودعوته للعودة اليها ، كما تأثر ببرناردان دو سان بيير الذي كان على ما يبدو من أكثر الرومنطقيين تأثيرا في الحياة الادبية المصرية خاصة في أول تفتحها . وظهر تأثير فرح انطون بالرومنطقيين في دعوته الى الخير والحق والجمال وايمانه بأن هذه العوامل كانت من اسباب ازدهار اوروبا ورفيها . وقد أوضح هذه

الآراء في مقدمة "أورشليم الجديدة" (١) كذلك اتضح تأثره بآراء روسو في التربية (٢) في قصة "الوحش الوحش الوحش" عندما تحدث عن الوحش الكامن في الانسان .

هكذا كان فرح انطون صورة متطرفة للتأثر بالغرب ، وإذا كان لم يتأثر في اسلوب القصة وتطوير الفن القصصي فقد استعمل هذا الفن اسلوبا لنقل الافكار الغربية الى مصر .

"فإذا كان جرجي زيدان قد استعان بثقافته الانجليزية ليستلهم اسلوبا في الفن القصصي فان فرح انطون استعان بالفن القصصي ليحمل الى قرائه بأسلوب سهل الاستيعاب الآراء الاجتماعية والفكرية والسياسية التي كانت تشغل الأوروبيين . ففي قصصه وفي مقالاته عبر عن الفكر الأوروبي المتطور في عصره فكان هذا سببا جعله يصطدم بمحمد عبده ورشيد رضا" (٣) .

ولم يكن اسهام جرجي زيدان وفرح انطون (٤) سوى جزء من اسهام السوريين المتصربين في فن القصة ، وفي طبيعتهم نقولا الحداد ويعقوب صروف ونسيب مشعلاني وغيرهم ، فقد بقي الفن القصصي في أيدي السوريين المتصربين بعد ان أسهموا في ادخاله الى الادب العربي عن طريق الترجمة ، ثم تصدوا للتأليف فيه ، حتى ظهرت "زينب" لمحمد حسين هيكل عام ١٩١٤ فاعتبرت أول قصة مصرية تبعتها محاولات مصرية اخرى استطاعت ان تنافس السوريين في

(١) فرح انطون ، أورشليم الجديدة ، (الاسكندرية ، ١٩٠٤) ، ص ب .

(٢) هذه الآراء عرضها روسو في كتاب "اميل" (Emile)

(٣) حوراني ، الفكر العربي ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٤) اخترنا زيدان ممثلا للتيار الانجليزي وانطون ممثلا للتيار الفرنسي .

زعامتهم لهذا الفن ، ولكن ذلك بعد فترة بحثنا .

ولن نتعرض في هذا المجال الى قصة " زينب " والمؤثرات الغربية التي ظهرت فيها لأننا سنتحدث عن ذلك عندما نعرض لهيكل كواحد من اقطاب الادباء المصريين ذوي الاتجاه الفرنسي ، انما يعنينا هنا ان نذكر ان فن القصة دخل الى مصر نتيجة للأثر الثقافي الغربي وبصورة خاصة نتيجة للترجمات القصصية العديدة التي تدفقت منذ مطلع القرن الحالي . وقد جاءت مبادرة اقتباس هذا الفن عن الغرب من السوريين المتمصرين ولم يقدم المصريون ما يمكن ان يعتبر قصة بالمقاييس الفنية الحديثة الا عندما جاءت " زينب " . ويعلل جب تأخير مصر في حقل التأليف الفني القصصي بأسباب عدة ، منها ان في الادب العربي القديم تنوعا وغنى قد يكونان لعبا دورهما في هذا ويضيف : " على اننا قد نرد بعد ذلك الى ان تلك الفئات القليلة من الجمهور المصري التي نالت حظا من التعليم الحديث ، كانت قادرة على ان تجد لنفسها كل ما تبتغيه في الادب الفرنسي (وفي الادب الانجليزي الى حد ما) . ولذا لم تتوافر في الاوساط الادبية الدوافع التي تغري بتأليف كتب مشابهة باللغة العربية . وعندما ازداد الطلب ، كان من الطبيعي مد الحاجة بترجمة القصص الفرنسية والانجليزية بدلا من التوافر على انشاء أدب قصصي محلي قد لا يقابل بالتقدير ، وهذا يعني خلق فن من فنون الكتابة جديد كل الجدة " (١) .

بعد " زينب " لم نشهد في فترة بحثنا قصة مصرية اخرى انعكست فيها آثار الثقافة الغربية وانفق النقاد على اعتبارها محطة جديدة في تطور الفن القصصي المصري ، ولم يأت مثل هذه القصة الا عام ١٩٣١ عندما صدرت قصة " ابراهيم الكاتب " للمازني وهي تخرج عن نطاق بحثنا .

(١) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٧٣ .

وقبل أن ننهي حديثنا عن الفن القصصي نشير الى ان فترتنا عرفت مولد فن الاقصوصة في مطلع هذا القرن ، وقد بدأ هذه الحركة الجديدة كاتب من ذوى الاتجاه الفرنسي ، الا انه متصل اتصالاً وثيقاً بالثقافة القومية . هذا الكاتب هو محمد تيمور الذى سعى الى خلق اقصوصة ذات طابع محلي متأثراً بالمذهب الواقعي في الادب الغربي . فقد استطاع ان يستمد الصورة المحلية من واقعها بعد ان اجتاز فترة عاطفية ورمزية متأثرة بالمنفلوطي وبالرومانسية الغربية^(١) ، وستكون لنا عودة الى اسهام محمد تيمور في الحركة الادبية عندما نعود الى الحديث عنه كقطب من اقطاب الاتجاه الفرنسي . الا اننا نود ان نشير في هذه العجالة الى ان تطور فن الاقصوصة لم يأت الا بعد فترة بحثنا . وقد كان على رأسه محمود تيمور أخو محمد الذى بدأ اسهامه الفعلي في هذا الحقل عندما أصدر أول مجموعة له ، وهي " الشيخ جمعة وقصص اخرى " عام ١٩٢٥ . وقد أسهم معه في تطوير هذا الفن عدد من الكتاب بدأت مشاركتهم اثناء فترة بحثنا ولكن نتائجهم الاساسي جاء بعد سنة ١٩٢٥ . ومن أبرز هؤلاء عيسى عبيد^(٢) ، وهو من ذوى الاتجاه الفرنسي ، ومحمود طاهر

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٢١٩ .

(٢) أصدر مجموعة " احسان هانم " عام ١٩٢١ ومجموعة " ثريا " . يقول يحيى

حقي انها صدرت ١٩٢٢ ويؤكد عبد المحسن بدر انها صدرت سنة ١٩٢٢ .

راجع يحيى حقي ، فجر القصة المصرية ، (سلسلة المكتبة الثقافية ، اصدار وزارة الارشاد القومي ، الادارة العامة للثقافة ، دار القلم - دار النهضة ، القاهرة ، ص ١٠٢ - ١٠٧ .

وعبد المحسن بدر ، تطور الرواية الحديثة ، ص ٢١١ - ٢٢٢ .

لاشين وهو من المتأثرين بالثقافة الانجليزية (١) .

المسرح

لا يعنينا في حديثنا عن المسرح ان نتطرق الى تاريخ نشوء الفرق المسرحية وتشعبها ، على ارتباط هذا الموضوع بموضوع التأليف المسرحي ، انما نحن بصدد اظهار الأثر الغربي بشكل عام في نشأة التأليف المسرحي وتطوره .

لم تبتسح المسرحية العربية في مصر من التراث العربي ، شأنها في ذلك شأن القصة ، واذا كان التراث العربي قد عرف بعض ملامح قصصية في القصص الشعبي وفي المقامات فان الادب التمثيلي كان غائبا عنه تماما . لذلك فان منبت المسرحية جاء نتيجة الأثر الثقافي الغربي في مصر .

دخل فن التمثيل الى مصر في عصر اسماعيل ، فقد انشأ يعقوب صنوع مسرحا عام ١٨٧٠ ، وجاءت فرقة سليم النقاش الى مصر عام ١٨٧٦ ، وبدأت الفرق بعد ذلك تنفذ الى مصر أو تتشكل فيها حتى كان عندنا العديد من الفرق الشهيرة والتي لا تزال اسماؤها على الألسن (٢) . وكانت هذه الفرق تعتمد على التمثيلات المترجمة في أكثر الاحيان ، وغالبا ما كانت هذه الترجمات منقولة عن الفرنسية أو مقتبسة عنها . وقد أسهم يعقوب صنوع في التأليف المسرحي في مطلع هذه الحركة حتى بلغ عدد مسرحياته اثنين وثلاثين مسرحية (٣)

(١) لم مجموعة " سخرية الناي " ومجموعة " يحكى ان " ، راجع يحيى حقي ،

فجر القصة المصرية ، ص ٨٢ - ٨٥ .

وعبد المحسن بدر ، تطور الرواية الحديثة ، ص ٢١١ - ٢٢٢ .

(٢) راجع نجم ، المسرحية .

(٣) نجم ، المسرحية ، ص ٨٥ .

مكتوبة بالحامية ، وقد أطلق عليه اسم " موليير " مصر

غير ان الاسهام الاكبر في التأليف المسرحي جاء على أيدي السوريين المتمصرين كما كانت الحال مع التأليف القصصي . وفي طليعة هؤلاء نجيب الحداد الذي ترك ست عشرة رواية مسرحية أكثرها مقتبس عن مؤلفات الفرنسيين أمثال كورني وهيجو ودومان ، ولكن الخور على اصولها متعذر في كثير من الأحيان . كذلك ترك الحداد مآسي من تأليفه ، منها " عمرو بن عدى " و " صلاح الدين " و " المهدي " . وقد أقبل الجمهور على هذه المسرحيات . وان كان الاوروبيون يعتبرونها فطرية وغير متناسقة مع حاجات المسرح " (١) .

لكن الاسهام الأهم جاء على يد فرح انطون الذي بدأ تأليف المسرحيات الاجتماعية الواقعية عام ١٩١٣ عندما وضع مسرحية " مصر الجديدة ومصر القديمة " ، ثم وضع عام ١٩١٤ مسرحيتي " السلطان صلاح الدين " و " مملكة اورشليم " . وقد ظهر في هذه المسرحية الاخيرة - مملكة اورشليم - تأثير فرح انطون بالثقافة الغربية ، وقد عرضنا لأهم عناصرها في حديثنا عن اسهامه في حقل التأليف القصصي .

يقدم محمود شوكت عمل فرح انطون المسرحي بقوله : " تناول فرح انطون فكرة المسرحية الاجتماعية بالعرض الوافي المحكم ووهبها كيانا فنيا ، وقد تيسر له ذلك لاطلاعه على المسرحيات الغربية " (٢) . ويقول عن مسرحية مصر الجديدة ومصر القديمة انها " تضع بداية مرحلة جديدة في تطور المسرح العام

(١) اغناطيوس كراتشكوفسكي ، " الادب العربي الحديث " ، ص ١٦٦٢ .

(٢) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٣٢٥ .

سببه تطور فكري في مصر وعودة بعثات فنية في التمثيل ، وسببه زيادة الاطلاع على المسرحيات الغربية " (١) .

• جاء اسهام فرح انطون في الحقل المسرحي قبيل الحرب الكبرى الاولى . وقد سار بعده على النهج نفسه ، نهج المسرح الاجتماعي الواقعي ، محمد تيمور الذي كان له الأثر الأكبر في التأليف المسرحي الواقعي في فترتنا هذه . وسنبحث في مسرح محمد تيمور فيما بعد . الا ان هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا ، وهي ان التأليف المسرحي تأثر ، في الاكثر ، بالاتجاه الفرنسي لأن السوريين الذين قادوا هذه الحركة في مطلعها كانوا من ذوى الثقافة الفرنسية امثال اديب اسحلق وسليم نقاش وفرح انطون ونجيب الخداد ، ولأن محمد تيمور أهم من تسلم هذه الرسالة المسرحية من المصريين ، كان من المتأثرين بالثقافة الفرنسية أيضا . كذلك كان القيمون على الفرق المسرحية وموجهوها ، ومن أبرزهم جورج ابيض الذي تخصص في فرنسا ، وقد كــان لمسرحياته أثر في أوساط الطبقة المثقفة (٢) . وقد كانت مترجمة الى لغة عربية صحيحة واسلوب رفيع قوى فحرفت الجمهور المصري الى فن المأساة الحقيقية ومستواه الرفيع سواء من ناحية الاداء أو الاخراج (٣) .

النقد :

لعل النقد أوضح ما يبرز الأثر الغربي بشكل ملموس محسوس ، ذلك انه بني على قواعد واضحة بينة تجعله أقرب من غيره من فنون الادب ، الى العلم ، وتجعل التغيير فيه أوضح . ثم ان النقد لم يكن فنا ادبيا جديدا في الادب

(١) شوكت ، الفن القصصي ، ص ٣٢٥ .

(٢) عبد الرحمن صدقي ، " الفن المسرحي " ، مجلة القاهرة ، ص ١٦٢ .

(٣) المرجع نفسه .

الحربي وقد عرفه العرب وكتبوا فيه منذ بداية نهضتهم الاولى ، الا انه كان مبنيا على قواعد معنوية ولغظية ولغوية شكلية كان المصريون لا يزالون يعتمدونها عندما بدأت الثقافة الغربية تتسرب اليهم في القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن .

حملت الثقافة الغربية ، انجليزية وفرنسية ، مقاييس جديدة للنقد الادبي تعتمد وظيفة الادب ودوره ومغناه من جهة ودراسة الادب وبيئته وعصره من جهة ثانية . من هنا ظهر التباين بين مقاييس النقد القديمة والمقاييس الحديثة وتجلي الصراع بين القديم والحديث بشكل واضح .

وكان النقد كذلك مجالا ظهر فيه بوضوح وجود ثقافتين غريبتين مؤثرتين ، الثقافة الانجليزية التي أنتجت مدرسة النقد الانجليزية ومن أقطابها العقاد وشكري والمازني . والثقافة الفرنسية التي أنتجت مدرسة النقد الفرنسي ومن أقطابها طه حسين وهيكل .

لكن مدرسة النقد الفرنسي كانت أعم وأشمل في الحركة الادبية ، نعني بذلك انها كانت تضم عددا من النقاد والادباء الذين نشأوا على الثقافة الفرنسية امثال انتون الجميل وزكي مبارك واحمد ضيف وكانت أعمق جذورا من مدرسة النقد الانجليزي^(١) التي كانت حديثة النشوء في فترة بحثنا . ولم تعرف نقادا ، متأثرين بالثقافة الانجليزية ، تركوا أثرا قويا في حركة النقد الحديث في مصر غير مثلث العقاد وشكري والمازني . وقد كانت جرأة هذا المثلث وشجاعته عاملا في تثبيت دعائم هذه المدرسة بقوة في الحركة النقدية الحديثة ، ولولا العنف والمواجهة الصريحة التي سار عليها هؤلاء النقاد ، ل بقيت حركة النقد الفرنسي

(١) لعل السبب الاول في ذلك اتجاهات الجامعة الاهلية نفسها وارسال مبعوثيها الى فرنسا في الغالب وهم الذين عادوا ليتزعموا الحركة الادبية فيما بعد .

مسيطرة على الحركة النقدية العامة .

لكن الخلاف بين هاتين المدرستين لم يكن خلافا رئيسيا ، انما هو اختلاف في تطبيق مذاهب معينة كانت لها قواعد مشتركة نابعة من الثقافة الغربية العامة . ففي الربع الاول من هذا القرن كان النقاد لا يزالون منقسمين الى مدرستين رئيسيتين : المدرسة القديمة التي تعنى بالنقد اللغوي ، والمدرسة الحديثة التي تهتم بالتجربة الشعرية والصياغة الفنية قبل كل شيء (١) .

كان النقد القديم في مطلع القرن الماضي الصورة الوحيدة للنقد الادبي في مصر ، وكان نتيجة لمناهج التدريس واساليبها التي كان الازهر يتبعها ، فلم يكن الناقد يعنى الا بالمناقشات اللغوية نحوية ولغوية . وقد ظل هذا الاتجاه مسيطرا على الحركة النقدية حتى بدأت معاهد التعليم الحديث توجه طلابها اتجاهات جديدة في العلم والآداب والفنون . ولما أثرت اساليب هذا التعليم أفادت النقد الادبي بتفتيح العقول وتطوير التذوق الادبي مما فسح المجال امام حركة النقد الحديثة ، خاصة بعد ان بدأت الجامعة الاهلية تخرج طلابها . يلخص عز الدين الامين اثر معاهد التعليم الحديثة وما يتصل بها ، في النقد بقوله ان المدارس التي اثرت في النهضة الحديثة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة هي مدرسة الطب البشري ، لأنها أحيت اللغة العربية بادخالها التعابير العلمية اليها عن طريق الترجمات التي بدأت مع مطلع النهضة فربطت بذلك اللغة العربية بالعلم الغربية . هنالك أيضا مدرسة الألسن التي ترجم

(١) راجع عز الدين الامين ، نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ،

(مكتبة نهضة مصر بالجيزة ، ١٩٦٢) ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

خريجوها عددا من الكتب في العلم والآداب والفنون مما ساعد في تسهيل الأسلوب العربي القديم وجعله قابلا لاستيعاب الأفكار الجديدة ، وأغنى مضمون التراث العربي في عصر النهضة . أضف الى ذلك دار العلم التي لعبت دورا هاما في تجديد أساليب الدراسة العربية ، ودار الكتب التي يسّرت المطالعة ، والجمعيات العلمية المختلفة التي أثرت في التوعية العلمية والفنية . وفوق ذلك كله هناك الدور الذي لعبته الجامعة الأهلية بارسالها البعث الى أوروبا لاعداد هيئتها التعليمية واستقدامها المستشرقين والعلماء الاجانب للتدريس فيها مما أثر تأثيرا مباشرا في عقول خريجيها ونظرتهم الى الادب ورسائله ووسائله (١) .

وقد كان أثر البعثات العلمية الى أوروبا في مطلع القرن الحالي أوضح الآثار في توجيه حركة النقد الحديثة ، فقد عاد هؤلاء المبعوثون أمثال احمد ضيف وطه حسين وزكي مبارك وغيرهم من أوروبا متأثرين بمذاهب النقد الغربية واتجاهاتها وراحوا يدعون لها بقوة وجراءة . ولعل أبرز ما يشكل عناصر هذا النقد الحديث هو الاتجاه الجديد نحو دراسة النتاج الكامل للأدب لكي تتضح صورته الكاملة ، ودراسة شخصيته وبيئته وعصره من جميع نواحيها الثقافية والسياسية والاقتصادية . ولا يقف النقد الحديث عند هذا ، بل يتعرض للدراسة الفنية للأدب فيعالج أسلوبه ومضمونه وعاطفته وخياله . ولكي يقوم الناقد بذلك كله يجب عليه ان يلجأ الى علوم وفنون تساعده في فهمه لجميع هذه العناصر .

ومقابل هذا الاتجاه الجديد في النقد ، كان هنالك الاتجاه التقليدي الذي نستطيع ان نستخلص اتجاهاته في هذه الفترة من خلال استعراضنا السريع

(١) الامين ، نشأة النقد الادبي ، ص ٤١ - ٦٠ .

لأهم المبادئ التي سار عليها اقطابه .

وأبرز من يمثل النقد التقليدي في هذه الفترة الشيخ حمزة فتح الله الذي وضع كتاب " المواهب الفتحية " ، وهو عبارة عن محاضرات القاها الناقد في دار العلوم . والشيخ سيد بن علي المرصفي الذي كان نقده يقوم على : " ايثار للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلف بمناحي الاعراب في فنون القول ، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق ، وبغض شديد لحكم الضرورة في الشعر ، ولللفظ السهل المهمل يقع بيسر — الالفاظ الجزلة الفخمة ، الى غير ذلك مما هو الى مذهب القدماء من ائمة اللغة ورواة الشعر أدنى منه الى مذهب المحدثين من الادباء والنقاد " (١) .

وهناك أيضا الشيخ حسين المرصفي في كتابه " الوسيلة الادبية " ، وهو يرى ، مع ابن خلدون ، ان صناعة الشعر يجب ان تلزم مذهب القصيدة العربية القديمة مع التزام للبحر الواحد والقافية الواحدة (٢) .

وهناك أيضا مصطفى صادق الرافعي الذي حمل راية النقد القديم وخاض خصومات عنيفة مع اصحاب مذهب التجديد . وهو يرى ان الشاعر يجب ان يحتذى حذو فحول الشعراء الاقدمين ، وان يكون شعره مصقولا بالحكمة واضحا ، كما يرى ان جودة الادب عامة تكون في نظرتة الشاملة وحسن لفظه وفصاحته ودقة تأليفه ، كما انه يجب أن يعنى بالصفة البيانية على غير تكلف (٣) . وبالجملـة فان النقد القديم كان يعتبر الادب العربي القديم وخاصة الادب الجاهلي مثله

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ٥ - ٦ .

(٢) راجع الامين ، نشأة النقد الادبي ، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

الأعلى ، فلا يخرج في بناء قصيدته عن البناء القديم سواء من ناحية الفرض أو الوزن أو القافية ، كما يجب ان يستوفي شروط البلاغة والفصاحة .

هذه المبادئ العامة للنقد التقليدي تبرز مع المقاييس الجديدة التي تحدثنا عنها على طرفي نقيض . ومن هنا نشأ الصراع الحاد بين القديم والحديث في مجال النقد كما في كل مجال . إلا انه ربما كان هنا أكثر افادة من المجالات الأخرى ، فقد أثار الصراع بين القديم والحديث بحث موضوعات جديدة في الأدب كان لها أثر هام في تنشيط حركة النقد وتغذية الحركة الأدبية بأراء جديدة .

في هذه المعركة ثار الجدل حول الوزن والقافية في الشعر . فقد طالب بعض النقاد المحدثين بتنويع الوزن والقافية في القصيدة الواحدة والتجديد في موسيقى الشعر ، كما تجدد في الموسيقى العادية (١) فيما تمسك النقاد التقليديون بشكل القصيدة العربية التقليدية بوزنها الواحد وقافيتها الواحدة (٢) .

كذلك ثار نقاش حول المعنى واللفظ فاذا بالنقاد ينقسمون الى مؤيد للمعنى ومؤيد للفظ . كما أثارت مناقشات حول مشكلة العامية والفصحى ، وقد أيد النقاد التقليديون بالطبع الفصحى لأنها مرتبطة بالقرآن ويجب ألا تنس لغة القرآن (٣) ، وانقسم المحدثون بين من أيد استعمال الفصحى (٤) ومن أيد

(١) راجع مثلاً مقالة " الشعر والموسيقى " لامين واصف ، المقتطف ، مايو ١٩٢٠ ، ص ١٨٦ .

(٢) راجع مثلاً مقالة " ارتقاء اللغة العربية " لجبر ضومط ، الهلال ، مايو ١٩٢١ ، ص ٢٥٢ .

(٣) من أبرز هؤلاء مصطفى صادق الرافعي ، راجع رأيه في " الهلال " سنة ١٩٢٠ ، ص ٣٩٩ .

(٤) من أبرز هؤلاء محمد حسين هيكل ، راجع رأيه في كتابه ثورة الأدب ، ص ٦ .

استعمال العامة (١) ، ومن وقف موقفا وسطا بين الاتجاهين فرأى ان التعليم يضيّق الهوة بين العامة والفصحى فتتسأ جملة جديدة تستطيع استيعاب الفكر الجديد متخلصة من قيود الجملة القديمة غير هابطة الى مستوى الجملة العامة (٢) .

ومن الموضوعات الهامة التي تناولها النقاد في هذه المعارك الادبية قضية اقسام الشعر . فقد تعرف النقاد المحدثون الى الشعر الغربي ورأوا فيه ابوابا لم يعهدوها في ادبهم القديم ، لقد رأوا الشعر مقسما الى غنائي وقصصي ومسرحي وملحمي فحاولوا نقل هذا التقسيم الى الادب العربي . ومن هنا نشأ خلاف حول وجود الادب القصصي والادب الملحمي في الشعر العربي نتجت عنه ابحاث عديدة كانت عاملا مساعدا آخر في انعاش الحركة النقدية وحركة تأريخ الادب . وقد أثار النقاد المحدثون أيضا قضية اخرى لعلها ترتبط بموضوع وظيفة الشعر ودوره . فقد هاجموا شعر المناسبات لأنه يخرج عن نطاق نفس الشاعر والالهام الشعري الحقيقي .

هكذا كان للصراع بين القديم والحديث دور ايجابي ، هذه المرة ، في تنشيط الحركة النقدية عامة واثارة موضوعات رئيسية في الادب .

وانذا كان النقد الادبي قد اتخذ شكل الصراع بين القديم والحديث بشكل مباشر أو غير مباشر حتى نهاية فترة بحثنا ، فان النقد الحديث — استطاع تثبيت أصوله بقوة في الحركة الادبية حتى ضمن زعامة هذه الحركة . وسنتمعرض

(١) في طليعة هؤلاء سلامة موسى ، راجع رأيه في الهلال سنة ١٩٢٦ ، ص ١٠٧٤

(٢) في طليعة من رأى هذا الرأي انطون الجميل ، راجع رأيه في الهلال

سنة ١٩٢٠ ، ص ٥٨٢ .

لعناصر هذا النقد الحديث ونبرز تأثيره بالمدرستين الغربيتين الفرنسية والانجليزية عندما ندرس اقطاب كل من المدرستين . ولكننا لا نستطيع ان نترك الحديث عن هذا النقد وتأثيره بالثقافة الغربية دون ان نتحدث عن ^{اسرها} نقاد تأثروا بالثقافة الغربية ونقلوا عنها مقاييس جديدة للنقد كانت تمهيدا لبعض آراء زعماء النقد الحديث في هذه الفترة .

قلنا ان مدرسة النقد الحديث المتأثرة بالثقافة الفرنسية كانت المسيطرة في حقل النقد الادبي العام وذلك بفضل الجامعة الاهلية وبعونها ، ولكننا نلمح بداية للحركة النقدية على أيدي السوريين المتصرين سواء أكانوا من ذوى الاتجاهات الفرنسية او من ذوى الاتجاهات الانجليزية . يقول محمد نجم " وعلى صفحات مجلاتهم وصحفهم خرجت أول حركة منظمة لنقد الشعر ، تأثرت بالقديم تأثر ولاء واخلاص ، وأخذت من الجديد كل مفيد نافع لهذه النهضة . وكادت آراؤهم في النقد تستقيم على طريقة وتجري على نمق ، بحيث يكونون مدرسة نقدية ، تمثلوا كتاباتهم افرادا ومجتمعين . وخير من يمثل هذه المدرسة نجيب الحداد وامين الحداد وابراهيم اليازجي وخليل خوري وسليمان البستاني ويعقوب صروف وجرجي زيدان وعيسى اسكندر المعلوف . وقد نشروا نتائجهم النقدي على صفحات المقتطف ، والهلال والبيان والضياء والزهور ومجلة سركيس والمقتبس وسواها . وشملت مقالاتهم تلك أبحاثنا في قضية اللفظ والمعنى والصدق والقصد والطبيعة وعدم التكلف ، ومكانة الخيال والعاطفة والاسلوب في الاثر الادبي " (١).

وجاء أكبر اسهام قدمه السوريون المنصرون في النقد عام ١٩٠٣ عندما

(١) نجم ، " الفنون الادبية " ، الادب العربي في آثار الدارسين (دار العلم

أصدر سليمان البستاني " مقدمة الياندة هوميروس " ، فقد جاءت هذه الدراسة أول محاولة من نوعها في دراسة الادب والاحاطة بمناهجه والمقارنة بين الادب العربي والادب اليوناني .

هكذا كان السوريون ، هنا أيضا ، أول من مهد السبيل امام حركة النقد ، ولكن المصريين سرعان ما تقدموا الى الطليعة في هذا المجال بفضل جهود الجامعة الاهلية ، كما ذكرنا .

وكان احمد ضيف احد خريجي الجامعة الذين أسهموا في حركة النقد . تخرج احمد ضيف من دار العلم عام ١٩٠٩ ، ثم أوفدته الجامعة المصرية في بعثة دراسية الى فرنسا حيث حصل على درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩١٨ وعاد الى مصر ليدير من الادب العربي في الجامعة .

تأثر احمد ضيف اذا بالثقافة الفرنسية والنقاد الفرنسيين . ودرس أشهر نقاد فرنسا فعارض مذهب تين (Taine) واعتبره مردودا ، وقال ان أهم عيوب هذا المذهب هو انه يتجاهل شخصية الاديب ، وان كان بالامكان اعتباره مقدمة لمعرفة الاشخاص وهو مذهب يمكن ان يعتمد للحكم على أمة وليس على افراد (١) .

ويتحدث عن سانت بيف (Sainte Beuve) فيعتبر مذهبه أفضل المذاهب (٢) . كما يرى في مذهب جول لومتر (Jules Lemaitre) القائم على التأثير والانفعال مذهباً يعتمد على الذوق المذهب بالعلم (٣) ، وهو لذلك له أهميته في بحثه

(١) احمد ضيف ، مقدمة لدراسة يلافة العرب ، (القاهرة ، ١٩٢١) ، ص ١١٨ - ١٢٣

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٥ - ١١٦

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٠ - ١٥٧

من مواضع الجمال . اما مذهب برونشيير (Brunetiere) فقد رأى فيه مذهباً فيما يساعد على درس تاريخ الادب ، الا انه يجعل النقد علماً لا فنا ولذلك يصعب تحقيقه لان الادب فن لا علم (١) . كل هذه الآراء عرضها احمد ضيف في كتابه " مقدمة لدراسة بلاغة العرب " الذي اصدره عام ١٩٢١ ، وقد اتبعه بكتاب آخر هو " بلاغة العرب في الاندلس " اصدره عام ١٩٢٤ واتبع فيه الطريقة نفسها في التعرض للمذاهب النقدية الفرنسية .

يصف عز الدين الامين اسهام احمد ضيف في حركة النقد الحديث فيقول :
" كان في كتابي احمد ضيف ، " مقدمة لدراسة بلاغة العرب " و " بلاغة العرب في الاندلس " ، منهج جديد لدراسة الادب فان عرضه ودعوته لمذاهب النقد بفرنسا ولكثير من المسائل النقدية الغربية يعتبر اول جديد في هذا البحث لاستاذ جامعي بمصر ويعتبر اول ما عرف الدارسون منه في مصر بطريقة نظامية تقريرية باللغة العربية (٢) .

لكن اثر دعوة احمد ضيف هذه انحصر في تلاميذه ولم ينتشر خارج الجامعة ، وكان علينا ان ننتظر طه حسين الذي عرف كيف يهيء لهذه الدعوة ، التي تتوجه نحو مذاهب النقد الفرنسية . ويلاحظ عز الدين الامين اننا نجد كثيراً من آراء احمد ضيف عند طه حسين كالحديث عن تقديس القدماء ، ونقد المصادر القديمة ، وخلود الادب الذي يعبر عن العواطف العامة ، والحديث عن عدم وجود الشعر القصصي والتمثيلي في الادب العربي القديم ، بالاضافة الى

(١) احمد ضيف ، مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ١٤٣ - ١٤٩

(٢) الامين ، نشأة النقد الادبي ص ٣٥٣ .

الحديث عن المذاهب الادبية والنقدية في فرنسا (١).

لقد كان النقد اوضح مجال تجلت فيه آثار الثقافة الغربية ، والمجال الذي توضحت فيه الخطوط العامة للاتجاهات التي تطورت فيما بعد ، ذلك ان النتاج النقدي ، حتى نهاية فترة بحثنا ، يكفي لان يلقي ضوءا واضحا على هذه الاتجاهات . وبينما نرى القصة المترجمة تسيطر على هذه الفترة بوجه عام ، ولا نشهد طلائع القصة المصرية الا سنة ١٩١٤ ، كما يسيطر المسرح المترجم في الاكثر ، نجد النتاج النقدي نتاجا واضحا بارزا وضعت اسمه وبدأ البناء فوقها .

الشعر :

لعل الشعر ابطأ فنونا الادبية تأثرا بالثقافة الغربية . فهو ، كما ذكرنا في فصل الترجمة ، فن معروف عند العرب ، بل هو الفن الادبي الذي يفخرون به ، وقد كانت له قواعده واصوله القديمة التي اصبحت تتمتع بحرمة خاصة قل من الشعراء من استطاع تجاوزها دون ان يتعرض للاتهامات الشديدة . والشعر ايضا فن يتطلب نشأة حضارية معينة ، يتطلب نمو جيل كامل في اوضاع فكرية ونفسية معينة ، لانه نتيجة التطور النفسي والعقلي معا .

هذا الوضع بالاضافة الى قلة الترجمات الشعرية التي كانت هي نفسها نتيجة له ، كل ذلك من الاسباب التي اخرت تطور الشعر وفق الاتجاهات الغربية الجديدة التي دخلت الى مصر من الباب الواسع .

(١) الامين ، نشأة النقد الادبي ، ص ٣٥٣ .

في النصف الاول من القرن الماضي ، اذاً ، كان الشعر المصري لا يزال تقليداً للشعر القديم ، وكان الشعراء لا يزالون يؤمنون ان الشعر " قدرة على النظم وتوليد المعاني او الاخيلة دون ان يكون مرآة لجوهر نفسي ومزاج خاص ونظرة متميزة للحياة (١) " ، بل لقد تطرف شعراء هذا العصر في تقييد قصائدهم بالقيود البيانية ، فاهتموا بالشكل اكثر من اهتمامهم بالمعاني التي انخفضت مستواها بانخفاض المستوى الثقافي العام في البلاد ، حتى قال العقاد ان الشعر عند مدرسة الجيل الماضي " مغالبة لسانية ومساجلة كلامية ولباقة ، ومنطق وسرعة جواب وارتجال (٢) " ، ولعل شعراء هذه الفترة (٣) لم يستوحوا في تقليدهم للشعر القديم امراء امثال المتنبي والبحتري وابي تمام وابي نواس فلم يستطيعوا الافادة من المعاني او الصور الشعرية عند هؤلاء .

ولكن النهضة المصرية كانت قد بدأت تتسع في منتصف القرن الماضي وبنأت المطابع تنشر دواوين كبار الشعراء كالمتنبي والبحتري وابن الرومي وابي نواس فتعرف المصريون الى الشعر العربي بسمو معانيه ورفي صوره وخلوه من التكلف المصرف . وكان ابرز من افاد من هذا اللقاء مع امراء الشعر القديم محمود سامي البارودي الذي استطاع ان يعيد الى الشعر العربي حيويته . ولكن البارودي بقي بعيداً عن التأثير بالخطوط الفنية الغربية ولذلك فهو يبقـى خارج بحثنا . وقد نشأت بعد البارودي مدرسة الشعراء المعتدلين التي

(١) ماهر حسن فهمي ، تطور الشعر العربي الحديث من ١٩٠٠ - ١٩٥٠

(مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٠

(٢) العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم ، ص ٨٩

(٣) من ابرز شعراء هذه الفترة : مجدى ، عبد المطلب ، الساعاتي ، فكرى .

تأثرت بالتراث العربي واصابها احيانا نفحات من الحضارة الجديدة . ومن اقطاب هذه المدرسة ، احمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبرى وخليل مطران

الغربة

ولعل مطران بين هؤلاء الشعراء اكثر المتأثرين بالثقافة / بل لعله من اوائل الذين دعوا الى تغيير مقاييس الشعر وتطويره لذلك منعوه اليه فسي حديثنا عن اقطاب الاتجاه الغربي .

اما حافظ فان طابع الشعر العربي القديم قد غلب عليه ، ولم يتأثر بالحضارة الغربية الا بطرق غير مباشرة ، وعن طريق الوعي الاجتماعي اكثر منه عن طريق الوعي الفني .

وغلب الطابع التقليدي على شعر شوقي وتأثر بالتراث الاسلامي فاستلهم منه الكثير من الصور ، وبقيت الخطوط الفنية لشعره هي نفسها الخطوط التقليدية للشعر العربي القديم . الا ان شوقي تأثر بالثقافة الغربية عندما خرج عن الموضوعات التقليدية ، فحاول تقليد شعر لافونتين ، مقتبسا بعض شعره الخرافي احيانا ناظما على نمطه احيانا اخرى . وتأثر شوقي بالمسرح الفرنسي عندما كان في فرنسا فحاول ان يصمم في نقل هذا الفن الى مصر ولكن مسرح شوقي يخرج عن فترة بحثنا الزمنية ولذلك لن نتعرض له .

يبقى بين زعماء الشعر في هذه الفترة اسماعيل صبرى . وصبرى هو من ذوى الثقافة الفرنسية ، وقد درس في فرنسا واحتك احتكاكا مباشرا بحضارتها ، الا ان تأثره بها لم يبرز واضحا في شعره حتى اختلف النقاد ومؤرخو الادب حول ما اذا كانت آثار هذه الثقافة قد برزت في شعره ام لا . وقد حاول

محمد صبرى في كتابه (١) عن الشاعر ان يتلمس آثار الثقافة الفرنسية في شعره ويورد على ذلك امثلة عديدة (٢) . كذلك يورد محمد مندور رأيا للعقاد يربط فيه بين شعر صبرى وشعر لامرتين يقول العقاد : " ولما تمهياً لاسماعيل صبرى ان يتلقى العلم في فرنسا ويطلع على آدابها وآداب الاوروبيين في لغتها، كان من الاتفاق العجيب ان اطلع على الآداب الفرنسية وهي في حالة تشبه حالة الذوق الفاهري في بعض الوجوه ، لانها كانت تدب على الاكثر الاغلب بتلك الرفاهية الباكية التي كان يمثلها لامرتين واخوانه الارقاء الناعمون (٣) . . ويؤيد رأى العقاد في ان رقة اسماعيل صبرى تأثرت بالادب الفرنسي محمد صبرى الذى يعتقد ان شاعرنا اخذ عن الحياة الفرنسية حب حياة الصالون فلما عاد الى مصر كانت داره " تذكرنا بالاندية التي يرجع اليها الفضل في تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة لان السيدات كن فيها الآمات الناهيات يحاسبن على كل لفظة ويتلطف في الخطاب (٤) . .

(١) راجع كتاب محمد صبرى ، اسماعيل صبرى : حياته وشعره ، (مطبعة الشباب

القاهرة ، ١٩٢٣) .

(٢) لعل ابرز مثل يورده صبرى تشبيهه قول اسماعيل صبرى

وتر الوجود يشق عندك لكي ارى

غضب اللطيف ورحمة الجبار

يقول لا مرتين :

Et j'ai monte devant sa face
Et la nature m'a dit passe
Ton sort est sublime, il t'a vu

في المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

(٣) ورد الاقتباس عند محمد مندور ، محاضرات عن اسماعيل صبرى ، (معهد

الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٥٦) ص ٨ - ٩

(٤) محمد صبرى ، ادب وتاريخ واجتماع ، (مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٠)

ص ١٢٠ .

ويرى محمد حسين هيكل ان شعر شاعرنا تأثر في السنوات الاخيرة بالشعر الفرنسي (١).

اما من النقاد ومؤرخي الادب الذين لا يعتقدون بتأثر اسماعيل صبرى بالثقافة الفرنسية فنذكر عمر الدسوقي الذى يرى ان صبرى " لم يقد من معرفته بالفرنسية الا قليلا جدا يتمثل في الروح العامة لبعض المقطوعات ، فلا هو من الذين جددوا في القالب الشعرى فأتى بقصص او ملاحم او مسرحيات ، ولا هو بالذى جدد في المعاني او الصور او الخيالات على نحو ما نرى عند مطران الذى تأثر كثيرا بالادب الفرنسي (٢) . لذلك فان الدسوقي يعد اسماعيل صبرى من شعراء المدرسة التقليدية ، وان ما افاده من الشعر الفرنسي قد يكون صقل ذوقه . ويضيف الدسوقي " وقد يكون هذا طبيعة فيه لا مكتسبا من اقامته بفرنسا (٣) .

ويشارك محمد مندور الدسوقي في رأيه ، فمندور يجد صلات قليلة بين شعر صبرى وثقافته الفرنسية ، ويعتقد ان النقاد اخذوا يتعسفون عندما راحوا يلتمسون شيئا قريبا او بعيدا بين بيت عربي وآخر افرنسي (٤).

ويورد مندور (٥) نقاطا قليلة تشير الى امكانية تأثر صبرى بمعرفته بالفرنسية

(١) محمد حسين هيكل ، تراجم مصرية وغربية ، (مطبعة السياسة والسياسة

الاسبوعية ، القاهرة ، ١٩٢٩) ، ص ١٨٤ .

(٢) الدسوقي ، في الادب الحديث ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٤) لعله يشير الى محاولات الدكتور محمد صبرى وقد اشرنا الى مثال منها

سابقا .

(٥) مندور ، محاضرات من اسماعيل صبرى ، ص ١٦

ولكن بشكل سطحي فهناك المقارنة بين بيت صبرى

اوآه لو علم الشبـ
وهو مأخوذ من المعنى الفرنسى

Ah, si jeunesse savait, et si vieillesse pouvait

كذلك يشير مندور الى ما ورد في ديوان صبري من انه استوحى مقطوعته
 " الساعة " من عبارة قرأها على احدى ساعات كيسة رمن بفرنسا وتقول العبارة
 " كلهن جارحات والاخيرة القاتلة " . والملاحظة الاخيرة التي يوردها مندور ليربط
 بين ثقافة صبرى الفرنسية وشعره هو ترجمة صبرى - كما فعل شوقي - لاقصوصة
 " الثعلب والغراب " من لافونتين .

ومهما يكن من اختلاف النقاد حول تأثير الثقافة الفرنسية في شعر صبرى فان ما يهمنا هو ان نلاحظ ان هذا التأثير بقي - حتى بشهادة اولئك الذين اصرروا على وجوده - سطحيا لم يكشف عن تيار شعري او نقدي معين . وقد عمد اكر النقاد الذين عرضوا لشعر صبرى الى الاستشهاد بقصيدة " لواء الحسن " (١) وحدها تقريبا (٢) ، واخذوا يشيرون الى ملامح عامة قد تكون نتيجة تأثير صبرى بالحياة الفرنسية (٣) . كما عرضوا الى رقة شعر صبرى التي عزوها الى تأثره

(١) راجع ديوان صبرى (مطبعة لجنة التأليف والترقيم والنشر، القاهرة،

١٠٧ (١٩٣٨) ص

(٢) يشير الى ذلك مندور في محاضرات عن اسماعيل صبرى ، ص ٨ .

(٣) نشير هنا الى موضوع خاص هو موضوع الخلاف حول بيت من ابیات القصيدة يقول فيه صبرى : وانزعي عن جسمك الثوب بين للملا تكوين سكان السماء وهو البيت الذى رأى فيه الدسوقي والعقاد نزعة مادية متأثرة بالثقافة الفرنسية والنظرة الى المحبوبة في حين انكر محمد مندور ذلك ودافع عن الثقافة الفرنسية .

بالطبائع الفرنسية ، وهذا غير مؤكد فقد تكون رفته طبيعة فيه كما ذكر الدسوقي .

قلنا ان تأثير الثقافة الفرنسية في شعر صبرى بقيت سطحية او عامة ، واذا صح انها اثرت في رقة الفاظه وانسياب ابياته وتدفق عاطفته فان ذلك لم يؤد به الى اتباع خطوط فنية فرنسية واضحة او صور شعرية او معان ادبية مستوحاة من هذه الثقافة .

وهكذا لم يكن لصبرى اثر في تطوير الشعر المصرى الحديث نحو مقاييسه الجديدة ولم يتم بالدور الذى قام به خليل مطران ممن تأثروا بالثقافة الفرنسية وشكرى والمازينى والعقاد ممن تأثروا بالثقافة الانجليزية وسيكون لنا بحث فسي اثرهم جميعا فيما بعد .

هذه لمحات خاطفة عن أثر دخول الثقافة الغربية الى مصر وما أثارته من حركة فكرية انعكست في الحياة الاجتماعية والادبية ، وكان لها ، ولما حملته من مفاهيم جديدة ومقاييس حديثة أثر في تطور الفنون الادبية .

ولقد كانت هذه الحركة أوسع وأشمل من ان تحصر كلها في صفحات معدودات ، لأن كل مظهر من مظاهرها يصلح موضوعا لدراسة واسعة شاملة تمكن نموا حضاريا معيناً وتفاعلا فكريا وقطورا أدبيا . الا اننا عرضنا لها بشكل سريع لنلقي ضوءا عاما على ما تركته الثقافة الغربية في مصر بعد ان اثر أثرها في التعليم ، وأثر أثرها في الترجمة ، وكان لهذه الثمار جميعا أثرها في الحياة الفكرية والاجتماعية العامة .

وقد عرضنا في هذا الفصل الى تطور الفنون الادبية بشكل عام ، وسنعرض
لاقطاب الاتجاهات الادبية وتأثرهم بالثقافة التي مالوا نحوها في فصلنا اللاحق
لكي نبرز آثار الثقافة الغربية في الادب بشكل ملموس .

الفصل الثالث اقطاب المدرسة الحديثة

مقدمة :

تحدثنا في الفصل السابق عن المناخ الفكري الذي اثاره دخول الثقافة الغربية ، بجناحيها الانجليزى الفرنسى ، الى مصر ، ومن اثرها العام في تطوير الفنون الادبية . وقد لاحظنا كيف عمل الاتجاهان معا في مقاومة تيار القديم وادخال المقاييس والاعول الجديدة الى الحياة الاجتماعية والفكرية في مصر وتوطيد دعائم النهضة الحديثة .

لكن الحديث عن صراع الثقافة الغربية مع القديم ، وتأثير تيارها في الحياة الفكرية لم يبرز لنا سوى ملامح التيارين الغربيين اللذين نتجا عن تسرب هذه الثقافة من منبعين رئيسيين ، فالثقافة الغربية في معركتها لتوطيد دعائمها والصمود في وجه التيار المعاكس اعتمدت على الاسس المشتركة بين تيارها ، هذه الاسس التي كانت قاعدة التحرر العام في اوروبا والتي اصبحت جزءا من التراث الفكري الاوروبي اكثر منها تراثا فكريا اقليميا .

لكن صورة هذه الملامح تتضح بشكل ملموس عندما ندخل ميدان الادب .

ومع ان النتاج التأليفي الادبي بقي غيق النطاق حتى نهاية فترة بحثنا اذا قيس بما ظهر في اواخر العشرينات وخلاف الثلاثينات ، فان دراستنا لبعض اقطاب الاتجاهين الفرنسي والانجليزى تظهر الخطوط الادبية التي بدأوا فيها اثناء فترة بحثنا ، واستمروا عليها بعد ذلك متأثرين بالمنبع الاوروبى الاساسى الذى استقوا منه ، وبنشأتهم التعليمية والنظام الدراسى الذى ساروا عليه . لذلك رايانا ان نختار نفرا من ابرز ادباء الاتجاهين لنوضح من خلالهم الاثر الثقافى الغربى الفرنسى ، والانكليزى ، فى ادب النهضة المصرية . ولعل ابرز من يمثل الاتجاه الفرنسى فى الادب محمد حسين هيكل وطه حسين ومحمد تيمور وخليل مطران اما الاتجاه الانجليزى فابرز من يمثله فى هذه الفترة عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكرى .

ولكن قبل ان نتحدث عن تاثير كل من هؤلاء الاقطاب بالثقافة الغربية لا بد من ابداء ملاحظة هامة وهي ان المدرسة الفرنسية كانت اوسع انتشارا واعمق جذورا من المدرسة الانجليزية وقد رايانا فى الفصل السابق كيف ان معظم اقطاب حركة التجديد كانوا من ذوى الثقافة الفرنسية او المتأثرين بهم وفى طليعة هؤلاء تلامذة محمد عبده ومعظم اعضاء مدرسة الجريدة . واصحاب الثقافة الفرنسية كانوا يسيطرون على الجريدتين المصريتين الأبعد اثرا فى الحياة الثقافية نعني بها " الجريدة " التى رئيس تحريرها محمد حسين هيكل . احمد لطفي السيد و " السياسة " التى رئيس تحريرها محمد حسين هيكل .

ثم ان ذوى الثقافة الفرنسية كانوا هم المسيطرين على ادارة الجامعة
الاهلية وتوجيهها ، وقد وجهوا بعثاتهم العلمية الى فرنسا فعاد اساتذة
الجامعة الاولى من اعضاء هذه البعثات وقد تلجعوا بالثقافة الفرنسية امثال
احمد ضيف وطه حسين وغيرهما •

وفوق ذلك كله فان ادباء الاتجاه الفرنسي اسهموا في فترة بحثنا
في معظم الفنون الادبية ، وان بقي النتاج محدودا ، فكان لهم اسهام في
القصة والاتصوفة والمسرح والنقد والشعر في حين انحصر اسهام المدرسة
الانجليزية او كاد حتى نهاية فترة البحث في النقد والشعر • ومع ذلك
فقد برزت الآثار الخيرية بوضوح • وهذا ما سنحاول ابرازه في ما يلي •

اقتطاب الاتجاه الفرنسي

محمد حسين هيكل^(١) : ولد هيكل عام ١٨٨٨ وبدأ دراسته الاولى في الكتاب ثم انتقل الى مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية وفي عام ١٩٠٥^(٢) انضم الى مدرسة الحقوق ، التي تخرج منها عام ١٩٠٩^(٣) . ثم سافر الى باريس حيث التحق بجامعة باريس وحاز على درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام ١٩١٣ - ١٩١٤ . وقد اتصل محمد حسين هيكل بلطفي السيد ، كما راينا ، فاناح له هذا ان يكتب في " الجريدة " وشجعه على ذلك . ولان لهذا اللقاء مع " استاذ الجيل " اثر في حياة هيكل الفكرية ظهر في نتاجه الادبي فظهرت

(١) راجع عن هيكل المراجع التالية :

- ١ - الامين ، نشأة النقد الحديث .
- ٢ - جب ، دراسات في حضارة الاسلام .
- ٣ - حقي ، فجر القصة المصرية .

(٢) تجدر الملاحظة انه في هذه السنة زاد عدد طلاب القسم الانجليزي في مدرسة الحقوق عن عدد طلاب القسم الفرنسي لأول مرة منذ بدأ القسم الانجليزي عمله عام ١٩٠٠ (راجع فصل التعليم في عصر الاحتلال : مدرسة الحقوق) .

(٣) وهي السنة السابقه لالخاء القسم الفرنسي ليا في مدرسة الحقوق .

دعوته الى الادب القومي وبدأت نزفته نحو الافادة من الفكر الغربي .
ومن الجريدة انتقل هيكل ليعمل في "النفور" وعام ١٩٢٢ تسلم رئاسة
تحرير " السياسة" التي اسسها حزب الاحرار الدستوريين وانضم اليه
واحد من اعمدة الاتجاه الفرنسي في الادب ، طه حسين . وقد قام هيكل
في عمله " بالسياسة " ثم " بالسياسة الاسبوعية " منذ عام ١٩٢٦ بدور كبير
في حركة النهضة الادبية .

هذه اهم معالم حياة هيكل ، التي كان لها اثر في نتاجه الادبي
حتى نهاية فترة بحثنا ، ولم يكن هذا النتاج كبيرا ، فقد اصدر قصة " زينب "
عام ١٩١٤ ثم اصدر الجزء الاول من كتاب عن جان جاك روسو اتبعه بالجزء
الثاني عام ١٩٢٤ ، وفي نهاية فترة بحثنا اى عام ١٩٢٥ اصدر " في اوقات
الفراغ " فظهرت بعض نظرياته النقدية التي كان لها ان تتبلور فيما بعد
عندما اصدر " ثورة الادب " .

يبرز هيكل امامنا ممثلا للاتجاه الفرنسي في فنيين من فنون الادب
الحديث ، النقد والفن القصصي وقبل ان نعرض الى هذين الفنين نشير الى
ميله نحو الثقافة الفرنسية بشكل عام . يذكر هيكل نفسه في مقدمة قصة
" زينب " انه عندما ذهب الى فرنسا اعجب بالادب الفرنسي فضله على غيره

من الاداب ، سواء العربية او الانجليزية ، ووجد فيه سوا ادبيا وسهولة
في الاسلوب والمعاني (١) وقد اطلع هيكل على الاداب الانجليزية ايضا
الا انه لم يتأثر بها تأثره بالاداب الفرنسية (٢) على ما يبدو من حديثه
هو . ويشير يحي حقي الى ذلك فيقول : " فلم تكن رحلته الى باريس
منشئة ، بل كاشفة له ان مزاجه اشد قربا الى الادب الفرنسي منه الى
الادب الانجليزى رغم كثرة ما حصله منه ، ومن المغالطة ان نزع ان الذى
اخر عنده التأثير بالادب الانجليزى انه ادب الدولة المحتلة للوطن وانما
السبب راجع الى هذا التقارب الخفي بين التيارات الثقافية في حوض البحر
الابيض ، تقف فيها انجلترا بمعزل بجزيرتها وضبابها ، والى ان الجيل
الذى سبق هيكل تلقى علومه في فرنسا وترجم عنها وبقيت واسب هذه
الثقافة متشبهه بارض مصر لا يفلح الانجليز في اقتلاعها بتحويل **المتيار** التعليم
والبعثات من فرنسا الى انجلترا ، ولم يبدأ الادب الانجليزى يزاحم الادب
الفرنسي الا حين تخرج طلبة المدارس الثانوية والعالية المعتمدة

(١) محمد حسين هيكل ، زينب ، (الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ،
١٩٥٨) ص ١٠ .

(٢) عز الدين الامين ، نشأة النقد ، ص ٢١٤ .

مناهجها اللغة الانجليزية (١) .

تأثر هيكل اذا بالثقافة الفرنسية وظهر ذلك فيما اسهم به في النقد
والقصة .

لحقني النقد قدم هيكل حتى نهاية فترتنا كتابا واحدا هو " في اوقات
الفراغ " الذي اصدره عام ١٩٢٥ وبرز فيه تأثيره بالثقافة الفرنسية .

يقول هيكل في حديثه عن تين (Taine) احد اعمدة النقد
التاريخي الفرنسي في القرن التاسع عشر " وعندي ان مذهبه في النقد
اقرب الى الدقة من كل مذهب سواه فهو اشد المذاهب امعانا في " الموضوعية " .
وهو اذا عرّض لكتاب او مؤلف لم يعرّض له من جهة تقديره الشخصي للكتاب
او لصاحبه ولكن بعد تحليل كل ما احاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف وبعد
مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته بمن عاصره ورمى الى مثل غرضه (٢) .
ويقول ايضا " ولكي ما ازال اشعر حتى اليوم حين اعرض لقراءة كتاب

(١) حقي ، فجر القصة المصرية ، ص ٤٢ .

(٢) هيكل ، تراجم مصرية وغربية ، ص ٢٧٠ .

وحين افكر في نقده ولو لنفسي ومن غير اى فكره في الكتابة عنه ، على الطريقة التي احبتها نفسي منذ قراءة تين (١) .

هكذا صنف هيكل نفسه مع المدرسة الموضوعية العلمية في النقد مبتعدا عن المدرسة التي تقابلها وهي مدرسة النقد التأثري ، فاذا هو نصير سنت بييف (Sainte Beuve) وتين وبرونتيير (Brunetiere) مبتعدا عن جول لومتر (Jules Le maitre) او انا تول لمرانس .

ووقع اختيار هيكل في المدرسة الموضوعية العلمية على تين الذى فضله على غيره من النقاد ودرس مؤلفاته على ما يبدو درسا دقيقا متأثر بنظرياته وواقفه على تفصيل طريقته العلمية ، بل انه ذهب معه الى الامتناد بحتمية التطور التاريخي . وفي كتاب " في اوقات الفراغ " يبرز تأثير هيكل بتين بشكل واضح يخفي في كثير من الاحيان تأثيره بغيره من النقاد . فما هي نظرية تين هذه التي طبقها هيكل ؟ يشرح تين نظريته النقدية في مقدمة كتابه " دراسات في النقد والتاريخ " (٢) محاولا تبسيطها وتلخيصها .

(١) هيكل ، تراجم مصرية وغربية ، ص ٢٧١ .

(٢) راجع الكتاب ومقدمته :

تين ، دراسات في النقد والتاريخ ،

H.A. Taine, Essais de critique et d'Histoire, (Paris, Hachette, 1894).

يقول تين انه اذا اردنا دراسة كاتب او شاعر او فيلسوف كان علينا ان
نقسم اثارة الى اقسامها الطبيعية (١) فنصنفها حسب الموضوعات التي
يعالجها ثم نأخذ كل اثر على حدة وندرسه كما نسجل الخصائص
التي يتميز بها الكاتب والملاحج العامة — والمظاهر المسيطرة (٢)
ثم لا نلبيث ان نرى جملة واحدة توضح اماننا الحالة النفسية الخاصة التي
تعرض لها الكاتب (٣) . ثم ويوصي تين بعد ذلك بمقارنة هذه التلخيصات
مضيف اليها حياة الكاتب وفلسفته في الحياة ، وعلى الناقد بعد هذا ان
يقرب بين الاف الملاحظات والاحكام التي وضعها فاذا كانت ملاحظاته
دقيقه وجد لديه سبعة استنتاجات او ثمانية يتعلق الواحد منها بالآخر
حتى اذا كان الاستنتاج الاول بشكل معين كان محتما على الاستنتاجات التالية
ان تأتي بشكل معين ايضا . وعند ذلك يجد الناقد انه يستطيع ان
يظهر بطريقة منطقية ان خاصية معينة استنتجها في احدى مراحل البحث
تسيطر على الخصائص الاخرى ، وقد تكون هذه الخاصة عذف الخيال او هدوء

(١) Groupes Naturels.

(٢) Particularités, traits dominants, qualites, Propres de
L'auteur.

(٣) Etat Psychologique de l'auteur.

الطباع وقد تكون القابلية الخطابية او الخنائية ، واذا تابع الناقد عملية الاستنتاج المنطقي استطاع ان يكشف الميول (١) الغالبة عند الكاتب الذي يدرس .

ولا يحصر تين نظريته هذه في دراسة الافراد بل يتعداها الى دراسة عصور او مدارس ادبية وفنية او حضارات قديمة وبذلك نشأت عنده نظرية الجنس (٢) الذي يمثل النزعات الخاصة عند الكاتب الفرد والمحيط (٣) اى خصائص العصر بنامله وما سبقه من العصور التي اثرت فيه ، والفترة الزمنية (٤) اى كون هذا العصر قد جاء في وقت سببته مؤثرات معينة ومصور سابقة .

ولعل نظرية تين هذه منبثقة من افتراض اولي هو ان الاشياء المعنوية كالأشياء المادية لها ظروفها وارتباطاتها وبذلك يصبح العصر مرتبطا بما سبقه من عصور وتصبح خصائص العصر السابق مسببات لخصائص العصر اللاحق .

(١) Inclinations gouvernantes

(٢) La race

(٣) Le milieu

(٤) Le moment

من هنا ، انبثق تفسير تين للتاريخ ، ونظرية الحتمية ^(١) التي تجعس
باستطاعة الدارس المتعمق ان يتكشف مراحل المستقبل اذا ما عرف المسببات
التاريخية او الحوادث والعوامل التي حدثت في العصور الماضية .

تعرضنا لشرح نظرية تين هذه لما لها من اثر مباشر وتفصيلي في
نظرة هيكل الى النقد والتاريخ ، هذا الاثر الذي برز بوضوح في كتاب
هيكل " في اوقات الفراغ " . حاول هيكل ان يطبق نظرية تين في جميع
معالجاته النقدية في دراسته لشوقي ، للبارودي ، لقاسم امين ، لشلي لبيتهوفن
ولنيرهم يقول في مطلع دراسته لقاسم امين : " من اجل درس رجل من
الرجال ، فيلسوفا او كاتباً او شاعراً يجب قبل كل شيء تعرف الوسط الذي
عاش فيه والحال النفسية الخاصة به حتى يعلم تأثير هذه البيئة المعينه
على هاته النفس المعينه فاذا تم ذلك تفسر الفيلسوف او الكاتب او الشاعر
الى حد كبير " ^(٢) وقد طبق هيكل هذا القول في دراسته لقاسم امين
فقال انه سيبدأ اولا بدراسة حال الوسط الذي عاش فيه والاطراف الاخرى

(١) Determinisme

(٢) هيكل ، في اوقات الفراغ ، (المطبعة العصرية ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ١٠٣)

التي اثرت في حياته ، ويدرس الوسط الطبيعي لمصر وخصائصه ثم
يدرس الوسط الاجتماعي ؛ ويعتبر للوسط الطبيعي السلطة والاثري في
توجيه الوسط الاجتماعي ، ويظهر اثر تين عندما يجعل هيكل حاسية
قاسم امين و "عصبته الهادئة" وسرعة تأثره سببا دفعه الى كل
ما فعل .

وفي حديثه عن قاسم امين اينما يذكر هيكل نظرية تين التي عالجها
في مقدمة كتابه " تاريخ الاداب الانجليزية فيقول : " لقد ظهر للمؤرخين ان
الاثري الادبي ليس مجرد حرية خيالية ولا هو شهوة مساعة لرأس صامية ،
ولكنه صورة من الاخلاق واثري من اثار الحال النفسية التي تحيط به . ومن
الخطأ درس الاثري الادبي على انه عمل قائم بذاته ، فما اى الايمان
بشيء لذاته ، وانما هي اثار الذين وضعوها وانما يكون التاريخ الحق حين
يبدأ الرجل من خلال غيابات الزمن ويميزه حيا عاملا لدا شهوات وعوائد
مسموع الصوت منظور الوجه ، ويرى اشارته وملابسه ويحيط به واضحا تاملا
كأنما كان معه في الطريق ولم يكده يتركه " (١)

ويعود اثر تين في هيكل الى الظهور عندما يؤيد ناقدنا طه حسين
في دراسته لابي العلاء المعري ولابن خلدون لانه يعتبر للوسط الزماني

(١) هيكل ، في اوقات الفراغ ، ص ٩٨ .

والوسط المناني الاثر الخبير ويقول في ذلك : " وهي الطريقة العلمية التي تبعث للنفس صورة صحيحة عن شخص الشاعر او الكاتب او الفيلسوف الذي يراء تحليله . ذلك بان الفرد لا وجود له بذاته وانما وجوده بالوسط الذي يعيش فيه . فتفهم ومعرفة البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية والحالة التاريخيه ، وما كان على اثر ذلك من عقائد ونوائد وافكار ومواقف واتجاهات ذلك كله وذلك وحده هو الذي يسمح لنا بفهم اى كاتب او شاعر او فيلسوف واى رجل اخبر له صلة بالمجموع فتأثر به واثر فيه (١) . "

اما في نظرية التمية التاريخيه فقد برز تأثير هيكل بتين عندما تحدث عن جرجي زيدان فقال : " . . . فقد اثبتت التجارب ان الناس يسيرون في طريق مرسوم لهم بالحوادث والاشياء المحيطة بهم ، وليس ينبغي ان يريدوا تغيير هذا الطريق ليتغير (٢) . " ويقول ايضا ان التاريخ يجب ان تكون الغاية منه معرفة حقائق دون ان ننظر الى ابعد من ذلك لان ذلك تعب فئاع ولكن على المؤرخين ان " يتقّبوا عن الحقائق الماضيه من اجل نفع الحاضر والمستقبل ، اى لتبين لهم سلسلة حياة امة من الامم او سلسلة

(١) هيكل ، في اوقات الفراغ ، ص ١٨٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٤ .

حياة الانسانية فيستطيعون ان يذبحوا لها طريقها الممكن اتباعه في الحاضر للوصول الى اكبر قسم من السعادة لاعظم عدد من الناس وليكونوا على علم بما سيكون في المستقبل حتى لا يكون عملهم الحاضر سببا في سوء مهال الاجيال المقبلة (١) .

كما ما اوردناه امثله واضحه ليس من تـاثير هيكل بتين فحسب بل من تطبيق ناقدنا لنظرية تين كما هي دون ان يستعين بغيرها من النظريات او يعدلها بما يتفق ونظرته الخاصة للنقد والادب .

ويظهر الفرق بين تطبيق تين لنظريته هذه وتطبيق هيكل لها عندما نقرأ معالجة نقدية لكل من الكاتبين فالفرق بين الناقدين هو الفرق بين خالق يعرف تفاصيل مخلوقه وجميع جوانبه الرئيسيه والثانوية ، ومعجب يتوق الى كمال الخالق ويحاول ان يتمشى على طريقه . فنظرية تين تنسجم مع منحـسـى تفكيره العام والخاص في اى موضوع من موضوعات الفكر او الفن او الحياة ، فهي جزء من نظام عام ، وان لم يشأ هو ان يدنو نظاما ففضل كلمة اسلوب

(١) هيكل ، في اوقات الفراغ ، ص ٢٣٥ .

او طريقه . اما هيكل وهو المعجب باستاذة ، فقد حاول بكل جد
واخلاص اتباع اسلوب هذا الاستاذ ونجح الى حد كبير لولا بقايا ملامح
من اعطذاع لهذا التفسير او ذاك الاستنتاج . والمقارن لدراسة هيكل
لقاسم امين مثلا ودراسة تين للافونتين يجد الفرق في العمق بالامام
بتفاصيل هذه النظرية وحواشيها . فتين يذهب الى ابعد من المحيط
المباشر والى اعمق من دراسة خاصة واحدة في الرجل الذي يدرس .
فاكتشاف الخاصة المسيطرة عند من يدرس تأتي عند تين نتيجة طبيعيه
ومنطقيه لدراسته التفصيليه لجميع المراحل التي طلب الى النقاد ان
يمروا بها ، اما عند هيكل فتأتي لانها منفصله عن سائر مراحل البحث
تأتي وكأن هيكل يحاول معها ان يخلق مرحلة جديدة مستقلة عن غيرها
من مراحل عملية النقد .

وهكذا برز اثر نظرية تين في هيكل الذي لم يحاول استيعاب
النظرية مع غيرها ويخرج بمنهج يوفق فيه بين عدد من النظريات وثقافته الخاصة
كما فعل طه حسين مثلا ، بل اقتبس النظرية كما هي ، او لنقل اعجب بها
فطبقها دون تعديل .

ومع ان نظرية تين قد سيطرت على ما قدمه هيكل في " في اوقات الفراغ " فاننا نستطيع ان نلمس اثارا لبعض النقاد الاخرين . فهنالـك مثـلا انسـجام بين نظـرة هـيكل الى الادب ورسالة ونظرة برونـتير . فهـيكل يـرى ان رسـالة الادب ملتزمة لتوجيه الجماعة وحققها ورفع مستواها (١) ، وبرونـتير يـرى انـسـها رسـالة اخلاقـيه (٢) .

كذلك نلمح اثرا لروسو في اراء هيكل النقدية ولعله يؤمن مع روسو بان المدنية مفسده للعبقريه الطبيعيه عندنا ، فهو يعجب بثقافة اليونان القديمه ويقرر ان سبب عظمه شكسبير وراسين وكورني يرجع الى "عظمه ذلك الوحي اليوناني او الروماني الذي كان يدهم " بالانفاة الى العبقريه الطبيعيه ويضيف " وليس في مقدور عصورنا الحاضرة ، عصور التحليل الدقيق وفحص الخلايا وتعرف الجزئيات والبحث وراء النتائج بعد استقضاء المسببات ، اقول ليس في مقدور عصورنا التي هجرت البساطه الطبيعيه العظيمة وارتكبت فضلا عن ذلك فيما هي فيه من ترف مفسد مذل ان ترقى مراقي ايسكولـدس

(١) راجع " في اوقات الفراغ " ص ٢٨ ، ١٠٢ ، وغيرهما .

(٢) راجع مثـلا لبرونـتير ، دراسات نقدية في تاريخ الادب الفرنسي ،

Etudes critiques sur l'histoire de la litterature Francaise

(Paris, Hachette, 1926 - 32).

وسوفوكليس^(١) . ولعل في ذلك ما يتفق مع آراء روسو^(٢) في المدينة الحديثة وإيثاره الطبيعى منبعاً للعبقريّة الطبيعىة والنشأة غير المعقّدة .

ثم إن هنالك عدداً من آراء هيكل النقدية التي تتطرق إلى مختلف الموضوعات لا يهمننا منها في هذا المجال سوى دعوته لإنشاء الأدب القومي^(٣) التي نرى فيها إفادة مباشرة من آراء استاذة أحمد لطفي السيد^(٤) الذى حمل أثر الفكر الأوروبى إلى مصر ، وتجاوبا مع صوت القومية الذى كان قد بدأ يعم أوروبا بعد أن زال عنها شبح بونابارت ، ووجد هذا الصوت صدى له في مصر حيث كان الفليان السياسى والاتجاهات المختلفة في الدعوة الإسلامية (**Pan Islamism**) إلى الارتباط بالدولة العثمانية إلى الاستقلال الداخلى إلى القومية المنفصلة وقد حمل لواء هذه الأخيرة المثقفون ثقافة أوروبية .

(١) هيكل ، في أوقات الفراغ ، ص ١١٨ .

(٢) راجع روسو ، أمييل .

(٣) هيكل ، في أوقات الفراغ ، ص ٣٦٤ .

(٤) انظر في هذا العدد مقالات أحمد لطفي السيد في تأملات .

لم يقتصر تأثير هيدل بالثقافة الفرنسية على النقد فحسب ،
فقد اثرنا الى انه اسهم لمرافىي حقد القصة عندما أصدر "زينب" عام
١٩١٤ فاعتبرت اول قصة مصرية صحيحة (١) .

وليس ينبغي ان ننقد " زينب " من ناحية بنائها القصصي لاننا
معنيون هنا في الاثر الخري فيها فقط . يقول جيب : " وقد كانت
" زينب " من حيث اللغة والاسلوب والمونوع منبتة العملة بطل ما ظهر
قبلها في الادب العربي ، فليس بينها وبين قصص زيدان التاريخيه
وقصص فرح انطون الاجتماعيه اية وشيجه بل انها وضعت ، لما يدل
عنوانها لتصوير الحياة الاجتماعيه في ريف مصر ، في سلسلة
فن الاحداث التي تتصل بمصير احدى الفلاحات (٢) . " زينب " هي
اثر من اثار الثقافة الفرنسيه في ثقافة هيكل ، وقد كتبها يوم كان
لا يزال في باريس (٣) وقد اعجب بأدب فرنسا وسلاسته وسهولته

(١) راجع جيب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٧٩ .
وحقي ، فجر القمة المصرية ، ولطيفه الزيات ، حركة الترجمة عن
الانجليزيه .

(٢) جيب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٧٩ .

(٣) كتب هيكل زينب ما بين عامي ١٩١٠ - ١٩١١ .

كما اعترف هو في مقدمة الطبعة الثانية من " زينب " (١) . ولعل ابرز ما يتضح من اثر غربي في قصة " زينب " هو تأثير هيكل بالمذهب الرومانسي الى ابعاد الحدود وتأثره ايضا بالمذهب الواقعي . وكذلك تأثره بالقصة التحليلية الفرنسية باعترافه هو في مقدمة الطبعة الثانية من " زينب " ايضا (٢) . فكيف ظهرت هذه التأثيرات في " زينب " .

اول ما يلفت انتباهنا عندما نقرأ القصة هو الطابع الرومنطيقي الذي يسيطر عليها . فهناك مقاطع عديدة وطويلة ينصرف فيها الكاتب الى وصف الطبيعة وصفا يظهر تعلقه الشديد بها فهيكل يرى في الطبيعة الخير الكامل والصفاء التام وهو يلجأ اليها على لسان " حامد " بطل قصته ليفضي اليها باسواره لانها وحدها التي تستطيع ان تفهم هذا القلب الحائر ، وقد نالت الطبيعة وسيلة عند هيكل كما كانت عند اساتذته الرومنطيين (٣) لتمجيد الخالق والشعور بعظمته .

(١) هيكل ، زينب ، ص ١٠ .

(٢) جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٨٢ .

(٣) لعل اكثرهم تأثيرا فيه هو جان جاك روسو . وقد الف منه كتابا
كما راينا .

وتظهر النزعة الرومانطيقية عند هيكل في وصفه «خائل القلوب وارتعاشاتها ويتجلى ذلك عندما يحاول وصف حالة حامد النفسية او اضطرابات "زينب" في نزاعها بين الحب والواجب . اما الواقعيه فقد ظهر اثرها في "زينب" بشكل محدود عندما عرض الكاتب لمور الريف في طبيعته وحياته عرضا صادقا وظهر صورة حية لذلك ، لذلك برز اثر الواقعيه عند هيكل في «لواره» ، فهو يحيي شخصياته في هذا الحوار ولا يستنكف عن استعمال الالفاظ العاميه والاسلوب العامي زيادة في واقعيه الحوار .

اما المنحى التحليلي الذي يعترف هيكل بانه افاد منه فقد برز في وصفه لصراع كل من حامد وزينب مع عواطفهما ، هذا الصراع الذي كان اساس مأساه كل منهما ، فادى في النهاية الى اختفاء حامد وموت زينب . لكننا مع ذلك لا نرى الاثر التحليلي قويا في قصة هيكل هذه بل ان شخصياته بقيت — باستثناء حامد وزينب — غير بارزه اجمالا ، بل حتى مناجاة حامد لنفسه وللطبيعة كانت احيانا نوعا من الانطلاق الرومانطيسي اكثر منها تحليلا نفسيا عميقا .

اما الاسلوب فقد ظهر اثر اللغة الفرنسيه فيه في الجملة الطويله

المعقده وكثرة الجمل الاعتراضيه (١) .

بقيت هنالك الاشارة الى الاثر الاوروبي الفكري العام الذي ساد الحركة الفكرية المتأثرة بالفكر الاوروبي وقد ظهر في قصة هيكل هذه .
ففي زينب تتجلى الدعوة التي اثارها قاسم امين لتحرير المرأة ، على لسان حامد الذي يرى في حجاب ابنة خالته عزيزه وبنات المدينة عامسة سجنفا يطوق المرأة وينطلق من هذا الموضوع للدعوة الى تحرير المرأة من قيودها وجعلها عنصرا فعالا في المجتمع . كذلك برز في القصة تأثير هيكل بآراء احمد لطفي السيد حول العائلة وتنظيمها وتربية الفتيات الخاطئة وفكرة الزواج والمشاركة الزوجية ودور العائلة في المجتمع (٢) ، كل ذلك على لسان حامد الشاب المثقف ، وهي آراء المثقفين في ذلك العصر الذين نشأوا على المثالييس الاوروبية الحديثه .

(١) جيب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٨١ .

(٢) انظر في هذا العدد مقالات احمد لطفي السيد في المنتخبات

طه حسين^(١) لعل بين أقطاب أدب مصر الحديث ليس هناك من هو أوسع شهرة من طه حسين ، ولعل نشاطه في مجال الجامعة وما تفرع عنه من توجيه فكري وأدبي أسهم في جعله أحد الاقطاب الذين تركوا أثرهم الواضح في تطوير الدراسة الادبية .

ولد طه حسين عام ١٨٨٩ وتلقى دراسته الابتدائية في كتاب القرية ثم دخل الازهر من أجل متابعة دراسته العالية ف قضى فيه عشر سنوات ، يتابع مناهج الدراسة التقليدية ، وما ان فتحت الجامعة الاهلية ابوابها عام ١٩٠٨ حتى التحق بها وبدأ يستمع لمحاضرات المستشرقين الذين استقدمتهم الجامعة للتدريس فيها امثال نللينو وجويدى وغيرهما حتى نال درجة الدكتوراة سنة ١٩١٤ فقررت الجامعة ارساله الى فرنسا .

وفي فرنسا قضى طه حسين أربعة أعوام " قررت مستقبل فكره ، فقرأ اناتول فرانس وحضر دروس دوركايم . وكتب اطروحة عن ابن خلدون وتزوج المرأة التي أصبحت عينيه " (٢) .

عاد طه حسين الى مصر في أعقاب الحرب العالمية الاولى وبدأ يدرس في الجامعة وعندما أصدر حزب الاحرار الدستوريين جريدته " السياسة " سنة

(١) راجع عن طه حسين المراجع التالية :

١- ألبرت حوراني ، الفكر العربي ،

٢- بيير كاشيا : طه حسين ، مركزه في النهضة الادبية المصرية

Pierre Cachia, Taha Hussein, His Place In the Egyptian Literary Renaissance, (London, Luzac & Company Ltd., 1956.)

(٢) حوراني ، الفكر العربي ، ص ٣٢٦ .

١٩٢٢ ، أصبح طه حسين محررها الادبي فكان ينشر يوم الاحد قصة ملخصة
عن الادب الفرنسي ، وينشر يوم الاربعاء بحثا في الشعر العربي .

هذه أهم معالم حياة طه حسين التي أثرت في حياته الفكرية حتى نهاية
الربيع الاول من القرن الحالي . ولكن ما هي المؤثرات التي قامت بدورها فـي
توجيه ميوله الفكرية والادبية ؟

قلنا انه عندما التحق طه حسين بالجامعة درس على المستشرقين . وقد
تركت هذه الدراسة في عقله أثرا كبيرا . يقول في مقدمة تجديد ذكرى أبيي
العلاء : " انشئ قسم الآداب في الجامعة ، ودعي اليها جملة الاساتذة من
المستشرقين في ايطاليا وفرنسا والمانيا ، وانتسبت لهذا القسم ، وأخذت أسمع
الدروس فيه . فاذا ألوان من الدروس لم أعرفها من قبل . واذا فنون من
النقد لم يكن لي بها عهد واذا الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه أن
يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب ، بل لا بد له ان يلم عاما بعلوم الفلسفة
والدين ، ولا بد له من ان يدرس التاريخ وتقويم البلدان درسا مفصلا . واذا
الباحث من تاريخ الآداب لا يكفيه من درس اللغة حسن البحث عما في القاموس
واللسان وما في المخصص والمحكم ، واذا الباحث من تاريخ الآداب لا بد
له من ان يدرس علم النفس للأفراد والجماعات اذا أراد ان يتقن الفهم لما ترك
الكاتب أو الشاعر من الآثار . واذا اللغة العربية وحدها لا تكفي لمن أراد
أن يكون ادبيا أو مؤرخا للآداب حقا ، ان لا بد له من درس الآداب الحديثة
في أوروبا ، ودرس مناهج البحث عند الفرنج ، بله ما كتب الاساتذة الاوروبيون
في لغاتهم المختلفة عما للعرب من ادب وفلسفة ومن حضارة ودين . كل هذه
عقبات ظهرت لي حين سمعت دروس الاساتذة المستشرقين في الجامعة " (١) .

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى أبيي العلاء ، (مطبعة المعارف ومكتبتها ،
القاهرة ، ١٩٣٢) ، ص ٧ .

ولعل في طبيعة هؤلاء المستشرقين نالينو الذى كان يدرس الادب القديم بمنهج جديد هو الذى فتح آفاق طه حسين . ولقنه اساليب النقد الادبي والدراسة الادبية على أسس غربية جديدة .

كانت نتيجة هذه الدراسة الجامعية صدور رسالة عن أبي العلاء المعرى طبق فيها الأسس الجديدة التي لقنته اياها الجامعة ، وكتب لها مقدمة شرح فيها الفرق بين الدراسة القديمة المتمثلة باستاذة سيد بن علي المرصفي (١) .

وبالاضافة الى أثر المستشرقين في الجامعة كان طه حسين قد اتصل . بالمجديدين السوريين والمصريين ، فقد كانت صحافة السوريين في تلك الفترة تكون ما يشبه المدرسة في نقل بعض مظاهر الفكر الغربي ، وكان المصريون قد بدأوا يبرزون في هذا المجال وعلى رأسهم احمد لطفي السيد الذى جمع هؤلاء الادباء الناشئين - وكان بينهم طه حسين - ووجه ثقافتهم وهدى خطاهم وأتاح لهم ان ينشروا نتائجهم في جريدة " الجريدة " ، وهكذا أسهمت صحافة السوريين ومدرسة المجديدين المصريين في توسيع آفاق الاديب الشاب وتوعيته لقضايا فكرية واجتماعية كان غافلا عنها من قبل .

وفي أوروبا تعرف طه حسين الى الثقافة الغربية عن كتب فقد " ملكة عليه أوروبا خياله طوال سنوات الابداع عنده " (٢) . وكانت أوروبا بالنسبة له ، تمثل ثلاثة اشياء : الثقافة الانسانية ، والفضائل الوطنية والديموقراطية (٣) وهي

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، (مطبعة المعارف ومكتبتها ،

القاهرة ، ١٩٣٧) ، ص ٥ - ١١ .

(٢) حوراني ، الفكر العربي ، ص ٣٢٨ .

(٣) المرجع نفسه .

تمثل " أرفع درجات التطور في تحديق التوازن المثالي بين العقل والدين ،
تاركة العقل حرا في حكم العالم الاجتماعي ، لاختضاع الطبيعة بتطبيق العلم ،
ووضع الشرائع من اجل سعادة الانسان " (١) .

ولما عاد من اوربا في أعقاب الحرب العالمية الاولى بدأ يدرس في
الجامعة مركزا محاضراته على تاريخ اليونان وآدابهم ، وكأنه بتأثره بالحضارة
الغربية وتقدمها أراد ان ينقل الاسس التي قامت عليها هذه النهضة ، التي
مصر ، لكي تبني عليها هي ايضا ، دعائم نهضتها العتيدة . وما لبث ان
أخرج كتابين عن الحضارة اليونانية القديمة هما " صحف مختارة من الشعر
التشيلي عند اليونان " و " نظام الاثينيين " لارسطو ، وقد نقل فيما بعد
تمثيلات سوفوكليس وسأها " من الادب التشيلي اليوناني " .

وبعد ان نقل طه حسين الى كرسي الادب العربي استمر يطبق اساليب
الغرب التي تلقاها في فرنسا على دراسة الادب العربي ونقده ، وبدأ يستعين
بمذهب ديكرت في رفض المسلمات الماضية ، ليبني نتائجه على منهج دراسي
جديد ، وكانت قمة هذا المنهج ، يوم أصدر كتابه " في الشعر الجاهلي " ،
فأثار النقمة الكبرى في صفوف المحافظين .

تحدثنا عن ثقافة طه حسين الغربية وعواملها لما لها من أثر عام غير
محدد في اتجاهات طه حسين وثورته في جميع مناحي التعليم والتأليف والنقد .
ولعل أبرز مجال يوضح تأثر طه حسين بالثقافة الغربية بشكل محسوس هو مجال
الدراسة الادبية والنقد يقول بيير كاشيا : " يجب أن نتذكر ، ان الادب كان
أول مجال وجد فيه قلبه النائر عزاءه ، وان شهرته الاولى جاءت من كونه

ناقدا . (١)

ومع ذلك فان طه حسين لم يكن صاحب مذهب نقدي محدد ولم يحاول ان يقيد نقده بمذهب معين وقواعد محددة . انما يمكن ان تستشف آراؤه النقدية وانعكاسات ثقافته الغربية فيها من نقده التطبيقي وأحكامه المفردة .

أصدر طه حسين من الكتب النقدية في فترتنا رسالته التي نال عليها درجة الدكتوراة من الجامعة الاهلية وهي " تاريخ أبي العلاء المعري " ، عام ١٩١٤ وأعاد طبعها عام ١٩٢٢ بعنوان " تجديد ذكرى أبي العلاء " . كذلك أصدر الجزئين الاولين من " حديث الاربعاء " عام ١٩٢٥ وهما عبارة من مقالات نشرت في صحيفتي السياسة والجهاد بين عام ١٩٢٢ و ١٩٢٤ . ولعلنا نستطيع ان نشير بشكل سريع أيضا الى كتاب " في الشعر الجاهلي " وان كان قد صدر عام ١٩٢٦ لأنه يشكل قمة تدريج طه حسين نحو اتباع المذاهب النقدية الأوروبية عامة ومذهب ديكارت خاصة ، وهو المذهب الذي سار عليه في تدريسه بالجامعة .

ولا يعني ان نعرض لآراء طه حسين النقدية في هذا المجال الا بقدر ما تعكس هذه الآراء تأثير ناقدنا بالثقافة الأوروبية عامة وبمذاهبها النقدية خاصة .

يتحدث طه حسين في مقدمة كتابه " في الادب الجاهلي " (٢) عن الشقاد الفرنسيين الذين ظهوروا في فرنسا ابان القرن الماضي ، وأولهم سانت بوف الذي يعتمد في نقده على دراسة الشخصيات ونفسياتها وتبين الذي

(١) بيير كاشيا : طه حسين ، ومركزه في النهضة الادبية المصرية ، ص ١٣١ .

(٢) طه حسين ، في الادب الجاهلي ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٢٢) ، ص ٥٣ - ٦١ .

يعتمد على تأثيرات الجنس والبيئة والزمان . وبرونتيير الذى حاول اخضاع الفنون لنظرية التطور والارتقاء على مذهب داروين . فما هو حظ طه حسين من التأثير بمؤلاء النقاد ؟ وكيف ظهر هذا الأثر في نقده التطبيقي ؟

قبل أن نشير الى هذا الأثر نلاحظ ان مقياس طه حسين في الدراسة الادبية قد تطور حتى ضمن فترتنا القصيرة ، ومع انه متأثر بالثقافة الفرنسية في جميع مراحل تطوره فانه بدأ متمسكا بالمقاييس العلمية البحت ، ثم مال عنها قليلا للاخذ بأكثر من مذهب في وقت واحد ولاعتماد الذوق الشخصي كأساس من أسس النقد . وسيتضح ذلك في ما يلي .

كان أول نتاج لطله حسين في الدراسة الادبية دراسته لأبي العلاء المعرى " تاريخ أبي العلاء المعرى " أو " تجديد ذكرى أبي العلاء " التي نال عليها درجة الدكتوراة من الجامعة المصرية وفي هذه الدراسة يبرز تأثير طه حسين الواضح بآراء تين النقدية (١) . فقد درس أبا العلاء من حيث زمانه ومكانه وشعبه وهي الاسس الثلاثة التي تقوم عليها نظرية تين . ولم يكتف طه حسين بالمبادئ العامة لهذه النظرية بل طبق تفاصيلها . ففي تمهيد الكتاب يعرض طه حسين النظرية النقدية التي سببني عليها بحثه فاذا هي شرح مفصل لنظرية تين . يقول مثلا : " ... انما الرجل وما له من آثار واطوار نتيجة لازمة ، وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه من غير ان يكون له عليها سيطرة أو سلطان " (٢) . هذه العلل يراها طه حسين كما يراها تين تنحصر في المكان والزمان والجنس . وقد حاول ان يدرس أبا العلاء

(١) فصلنا نظرية تين في حديثنا عن هيكل .

(٢) طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ١٦ .

منطلقا من هذه المؤثرات الثلاث فكانت المقالة الاولى (١) في الكتاب عن زمان أبي العلاء ومكانه وشعبه ، واذنا قلنا شعبه فاننا نشير الى عنصر الجنس الذي تحدث عنه تين ، فطه حسين يحاول أن يحلل التقلب الجنسي وامتزاج الدم العربي بغيره (٢) في حديثه عن الشعب الذي نشأ فيه المعري ويقول : " فأبو العلاء ثمرة من ثمرات عصره قد عمل في انضاجها المكان والزمان (٣) . ويتفق ناقدنا مع تين في قضية تعيين الخاصة المسيطرة عند الكاتب أو الشعائر واستنتاجها من بين أشباهها ونظائرها . يقول : " ... وانما سبيلنا فيه سبيل الباحث المحقق والدارس المستقصي يجمع الاشياء الى نظائرها والاشياء الى قرائنها ليستنبط منها قضية مجهولة أو يوضح بها حكما فامضا أو يستظهر بها على اثبات خبر مشكوك فيه " (٤) .

كذلك يتضح في هذا الكتاب ايمان طه حسين بنظرية تين في الحتمية التاريخية : " ... لأن الكائن المستقل هذا الاستقلال لا عهد له بهذا العالم . انما يأتلف هذا العالم من اشياء يتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض ومن هنا لم يكن بين أحكام العقل أصدق من القضية القائلة : بأن المصادفة محال وان ليس في هذا العالم شيء الا وهو نتيجة من جهة وعلة من جهة اخرى ، نتيجة لعلة سبقتة ومقدمة لأثر يتلوه . ولولا ذلك لما اتصلت اجزاء العالم ولما كان بين قديمتها وحديثها سبب ولما شملتها أحكام عامة ... وليس للمؤرخ المجيد عمل الا البحث عن هذه العلل والكشف عما بينها من صلة أو نسبة . فعمله في الحقيقة وصفي لا وضعي " (٥) . ويقول أيضا " يدل ما

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ٣٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٢ .

قدمناه على اننا نرى الجبر في التاريخ ، أى ان الحياة الاجتماعية انما تأخذ اشكالها المختلفة ، وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العزل والاسباب التي لا يملكها الانسان ولا يستطيع لها دفعا ولا اكسابا * (١) . ولم يقتصر تأثر طه حسين بنظرية تين على شرحه لهذه النظرية في تمهيد كتابه بل طبق ما فيها فسي دراسته لأبي العلاء ، فاذا به يقسم الدراسة الى مقالات تعنى الاولى بزمان أبي العلاء ومكانه (٢) والثانية بقبيلة أبي العلاء وأسرته وحياته فيستنتج اخلاقه وصفاته العامة . وبعد ان يدرس هذه المؤثرات ينطلق الى دراسة أدب أبي العلاء وفلسفته وعلمه معتمدا في توضيح دراسته لهذا النتاج على استنتاجاته الاولى .

هكذا كان طه حسين في أول نتاج له متأثرا بمدرسة النقد العلمي وبشكل خاص بنظرية تين التي شرحها وطبقها تطبيقا عمليا .

ففي " تجديد ذكرى أبي العلاء " كان طه حسين لا يزال يتلمس قواعد النقدية وقد رأى في المدرسة الموضوعية العلمية أسسا واضحة ومركزة للنقد الادبي تسهل الدراسة الادبية وتوضح خطوطها العامة لذلك لجأ اليها بشكل واضح ملموس ورأى ان الحقائق الادبية مثل الحقائق العلمية يمكن ان تخضع لهذه القواعد ؛ " انما حقائق العلم في انفسها قديمة ثابتة واجبة ، فاما الحادث العارض فعلم الانسان بها واهتداؤه اليها ، سواء في ذلك حقائق اللغة والادب وأصول الفلسفة والحكمة " (٣) .

لكن هذا الرأي الذي عرضه طه حسين وطبقه بحماسة في دراسته لأبي

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ١٩ .

(٢) وهي عند تين *Le milieu et le moment*

(٣) طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ١٢ .

العلاء (١) وكأنه الاساس الوحيد للدراسة الادبية ، لم يبق معه طويلا ، أو قل لم يبق وحده . ولعل طه حسين بعد عودته من فرنسا ، وكان قد زاد اطلاعه على الآداب الفرنسية ، واليونانية ، وبعد ان بدأ يعلم في الجامعة الاهلية لم يعد بحاجة الى أسس واضحة يتمسك بها في دراساته ، وكانت آفاقه قد اتسعت فأصبح يستطيع الافادة من مختلف المذاهب النقدية دون ان يضيع اتجاهه .

قلنا ان طه حسين عمل بعد عودته من فرنسا في " السياسة " وفي عام ١٩٢٥ جمع ما نشره بين عام ١٩٢٢ و ١٩٢٤ في " السياسة " و " الجهاد " وأصدرها في كتاب " حديث الاربعاء " في جزأين .

واسم الكتاب يذكرنا باسم كتاب مماثل للناقد الفرنسي سانت بوف فقد أصدر سانت بوف مقالاته الاسبوعية في النقد التي كان ينشرها في المجلات الادبية باسم " أحاديث الاثنين " .

وفي " حديث الاربعاء " يخرج طه حسين عن تمسكه الشديد بنظرية تسين وتبدأ عنده الاستعانة بنظريات نقدية اخرى في دراسة الاديب .

ففي دراسته لطرفة بن العبد مثلا نجده يميل الى مذهب سنت بوف التاريخي وهو المذهب الذي يدعو الى دراسة الاديب ونفسيته والظروف السيتي عملت فيه لكي يفهم الأثر الادبي من خلال ذلك فصانت بوف في مجموعته

(١) طبق طه حسين هذه النظرية ايضا في دراسته لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية التي نال عليها درجة الدكتوراة في فرنسا وقد أخضع آراء ابن خلدون وافكاره وأساليبه الى الوسط الزمني والمكاني الذي عاش فيه .

" صور أدبية " و " صور معاصرة " (١) ، دروس الادباء واحدا واحدا محللا شخصية كل من تناوله ونفسيته تحليلا مرتكزا الى حياته وظروفه التي خلقت اديبه . وقد دفع سانت بوف مذهبه هذا الى أبعد من ذلك فأخذ يقسم رجال الادب الى أنواع وفرق (٢) وجعل كل مجموعة منهم تنتمي الى فرقة معينة تتمتع بصفات ومميزات ، لأنه كان يعتقد انه مهما اختلفت الامزجة فلا بد ان يكون بينها عنصر مشترك ، وهكذا يصبح الناقد قادرا على توزيع الكتاب على الفرق التي ينتمون اليها . وبعد ان توصل سانت بوف الى هذه المرحلة في نقده أخذ يدرس كل أديب على حدة موضحا مميزات الخاصة (٣) وهكذا كان نقد سانت بوف نقدا تاريخيا طبيعيا .

وقد نحا طه حسين في " حديث الاربعاء " منحى اقترب به من مذهب سانت بوف دون ان يصح بنظريات في الدراسة الادبية كما فعل عندما أوضح نظرية تسين في مقدمته لدراسة أبي العلاء . في " حديث الاربعاء " ، يقترب طه حسين تطبيقيا من نظرية سانت بوف فاذا به يدرس طرفة بن العبد مثلا محللا الظروف التي أحاطت بحياته الخاصة ملتقيا اضواء على حياة عصره . يقول : " أعرفت الآن هذا الشاعر في نفسه ، وفي قومه ، وفي أسرته الادنيين ، في جده وفي لهوه وفي عمله وفي فراغه ، واذن فلا بأس عليك من ان تمنح في

(١) راجع سانت بوف :
1. Sainte Beuve, Portraits Littéraires
2. Portraits Contemporains

(٢) فعل ذلك في كتابه " بوررويال " (Port Royal)

(٣) فعل سانت بوف ذلك في كتابيه : " احاديث الاثنين " ، " الاثنين

الجديدة " . (Nouveaux Lundis) ، (Causeries du Lundi)

معرفته امعانا ، ومن ان ترى مجالسه حين يلهم وينفق في اوقات الفراغ وهو يجد شيئا من اللذة في التحدث اليك بهذا (١) .

فناقدنا يدرس طرفه من خلال نفسيته ورغباته وتصرفاته وشخصيته وكذلك من خلال قومه واسرته ويعكس كل ذلك على الاثر الادبي لان هذه الظروف كان لها دورها في انتاج هذا الاثر . وهو يقول في دراسته هذه :

" فواضح جدا ان المثل العليا تتغير بتغير البيئات والعصور ، ولكن واضح ايضا ان الاشخاص كذلك يتغيرون بتغير البيئات والعصور ، فلو عاش طرفه في بيئة غير بيئته او عصر غير عصره ، لما كان طرفه ولكان كغيره فلسفته نتيجة لتفسير شخصيته (٢) . "

كذلك يفعل طه حسين في درسه للغزليين العرب فقد درس ظروف الحياة التي نشأ فيها الغزل الاباحي والغزل العذري وجعل هذه الظروف سببا في نشأة كل من الفنين لما عرض لظروف نشأة الشاعر نفسه وحلل شخصيته التي تركت آثارها في شعره (٣) . واعتماد طه حسين على المذهب التاريخي النفسي يجره الى الدعوة الى اعتبار حياة القدماء ملكا للتاريخ ولذلك يجسب ان ينفخ عنها هذا التقديس الذي يحيط بكل ما هو قديم (٤) .

(١) طه حسين ، حديث الاربعاء ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣) ج ١ ، ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٣) راجع مثالا دراسة لقيس بن ذريح وجميل بن معمر وعمر بن ابي ربيعة في حديث الاربعاء ، ج ١ .

(٤) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج ١ ، ص ٨٥ - ٨٠ . لحل هذه الدعوة تابشيرما سيدعو اليه طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي "

ثم ان طه حسين يبدو وكأنه تخلى عما قاله في مقدمة دراسته لابي العلاء من ان الفنون الادبية تخضع لقوانين الحقائق العلمية اذ نلج عنده في مقالات " حديث الاربعاء " نقدا تأثريا هو اقرب الى نقد اناطول فرانس منه لاي نقد آخر . في نقده التأثري هذا يطلق طه حسين احكامه بناء على تذوق شخصي دون اعتماد اساس نقدي معين وكان قاعدته الوحيدة في ذلك قاعدة التأثيرين الثالثة " ان اهم عدة بل العدة الوحيدة اللازمة للناقد هي احساسه . والقوة على الانفعال العميق بوجود اشياء جميلة (١) "

من الامثلة على هذا النقد التأثري قوله : عن سويد بن ابي كاهل :
" ثم يعضي في هذا الفخر الجميل بنفسه ، وفي هذا الوصف الرائع لعدد (٢) " . او قوله عن طرفة : " وانظر الى قوله الذي تعرفونه " فانسى ارى فيه جمالا لا يعد له جمال (٣) " . او قوله عن قصيدة جميل بن معمر " اما انا فارى ان هذه القصيدة آية من آيات الغزل العربي فيها جمال اللفظ ورضانته وفيها جلال المعنى وسعامة (٤) " ومثل هذه الاقوال تكثر في " حديث الاربعاء " وهي تظهر ان طه حسين لم يعد متقيدا بالقواعد العلمية الشديدة كما كان في السابق بل اخذ يميل نحو النقد التأثري الذي دفعه احيانا الى اطلاق التعميمات النقدية كأن يقول عن عمر بن ابي ربيعة انه " زعيم الغزليين

(١) راجع كتاب النقد الادبي لوليم ويمست وكلينث بروك ص ٤٩٤ الى ٤٩٥

William K. Wimsatt Jr. & Cleaneth Brooks, New York, Literary Criticism - A Short History (Alfred Knopf Inc., 1952.)

(٢) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ .

في الادب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين اطواره منذ كان الشعر العربي الى الآن . (١)

وهكذا في حديث الاربعاء يتخلل طه حسين عن تمسكه العتيق بنظرية تين ويميل نحو سنت بوف في نقده التاريخي كما انه يطلق لذوقه الفني حريته فيأخذ بمبدأ النقاد التأثيريين وعلى رأسهم اناتول فرانس .

وتبدأ مرحلة جديدة عن تطور النقد عند طه حسين مع " في الشعر الجاهلي " فهذا الكتاب جاء قمة الآراء النقدية التي كونها طه حسين واخذ يبشر بها في دروسه الجامعية لذلك نسمح لهذا البحث بالاشارة السريعة اليه بالرغم من انه صدر بعيد الفترة التي يشملها ، اى عام ١٩٢٦ ، فهو يوضح الاتجاهات النقدية التي نمت تدريجيا في طه حسين نتيجة معاشرته العميقة للادب الفرنسي .

مع كتاب " في الادب الجاهلي " بدا واضحا الميل الذي ظهرت ملامحه في " حديث الاربعاء " عن النقد العلمي البحث الى النقد التأثري ، وافصح طه حسين بوضوح عن ان مبادئ النقد العلمي وحدها لا يمكن ان تكون كافية قال : " ... ذلك لان تاريخ الادب لا يستطيع ان يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها ، وانما هو مضطر معها الى الذوق ، هو مضطر معها الى هذه الملكات الشخصية الفردية التي يجتهد العالم في ان يتحلل منها فتاريخ الادب ان ادب في نفسه من جهة لانه يتأثر بما يتأثر به مأثور الكلام من الذوق وهذه المؤثرات الفنية المختلفة . وتاريخ الادب علم من جهة اخرى . ولكنه لا يستطيع ان يكون علما كالعلوم الطبيعية والرياضية لانه متأثر بهذه الشخصية . ولانه لا يستطيع ان يكون بحثا موضوعيا **Objectif** كما يقول اصحاب

العلم . وانما هو بحث ذاتي Subjectif من وجوه كثيرة (١) .

ويقول ايضا " وبينما الادب الانشائي فن كله يفسده العلم - او كساد يفسده ان دخل فيه ، نرى الادب الوصفي يحاول ان يكون علما كله ، ولكنه لا يوفق فيضطر عند المعتدلين ان يكون مزاجا حسنا ، العلم والفن او قل من البحث والذوق يفسد عند المتطرفين فسادا لا غناء فيه (٢) . فهو هنا لا يعيل فقط نحو النقد التأثري بل يحكم على النقد العلمي بالاخفاق اذا لم يلجأ الى حكم الذوق .

ثم ان طه حسين يتحدث عن نقاد الاتجاه العلمي الثلاثة سنت بوفوتين وبرونتيير ويقول انهم لم يوفقوا في محاولاتهم للاسباب التي اشرنا اليها .

وفي هذا الكتاب يتضح رأى آخر كان طه حسين قد اشار اليه فـي " حديث الاربعاء " وهو ان صفة التقديس يجب ان تنزع عن القديم لكي يبحث الاديب فيه بحرية وعلمية ، ولكن طه حسين لا يكتفي هنا بذلك ، بل يجعله مقدمة لاعلان مذهب جديد في النقد لم تعرفه مصر من قبل هو مذهب الشك المستوحى من الفيلسوف الفرنسي ديكارت . فديكارت يريد ان يمحو جميع معلوماته (٣) ليجود الى بنائها من جديد على اساس علمي ، وطه حسين يريد ان يمحو جميع ما قيل في الشعر القديم وخاصة في الشعر الجاهلي ليبدأ نقده خالي الذهن من جميع الرواسب . يقول : " نحن بين اثنين : اما ان نقبل في الادب وتاريخه

(١) طه حسين ، في الادب الجاهلي ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٢٧) ،

ص ٤١

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٢

(٣) Faire Table Rase de ses Connaissances

ما قال القدماء ، لا نتناول ذلك في النقد الا بهذا المقدار اليسير الذي يخلو منه كل بحث واما ان نضع علم المتقدمين كله موضع البحث . لقد انسيت فلست اريد ان اقول البحث ، وانما اريد ان اقول الشك (١) . ويمضي ليقول : اريد ان اصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه " ديكارت " للبحث عن حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا انفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل . . . ثم يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها وان ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها . . . يجب الا نتقيد بشيء ولا ندعم لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح (٢) .

وقد اثار هذا المنهج الجديد المحافظين لانهم خشوا من ان يتعرض لمعتقداتهم وتقاليدهم ، لكننا لن نتعرض هنا لهذه الضجة التي قامت حول الكتاب فنحن بصدد ابراز الملامح الغربية التي برزت عند طه حسين نتيجة ثقافته الفرنسية .

ملاحظة اخيرة حول طه حسين ، هي ان الثقافة الغربية دخلت في ثقافته عميقا وتركت آثارا يمكن ان تلمس في كل ما كتب ، فقد استطاع ان يهضم عناصرها ويفهمها ، وعندما انتج كانت ثقافته الغربية اساسا لكل نتاجه . الا اننا فسي هذا البحث تعرضنا لبعض الاتجاهات الواضحة واللامح الملموسة التي ظهرت عند طه حسين . وقد حصرننا البحث في موضوع النقد لان طه حسين عرف قبل كل شيء بنقده واثرا عميق التأثير بواسطة هذا النقد ، ولان النتاج الذي ظهر له

(١) طه حسين ، في الادب الجاهلي ، ص ٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ .

حتى نهاية فترة بحثنا - في ما عدا الترجمات عن الفرنسية والادب اليوناني - كان نتاجا نقديا

خليل مطران (١)؛

" اذا عد البارودي رائد الشعراء المحافظين وشوقي رائد الشعراء المعتدلين فان مطرانا يعد رائدا للشعراء العصريين (٢) " .

" لعل عبقرية مطران هي التي كانت نقطة البدء في تطور الشعر العربي الحديث وتنوع فنونه وتجديد معانيه واتجاهاته (٣) " . ان الاجماع يكاد ينعقد على ان خليل مطران يعتبر رائدا للمدرسة الجديدة في الشعر العربي المعاصر (٤) " .
" كان لمطران تأثير بالغ في شعراء عصره ويسميه الدكتور احمد زكي ابو شادي " المعلم الاول " الذي ولدت الرومنطيقية العربية على يديه قبل مطلع القرن العشرين (٥) " .

(١) راجع عن مطران المراجع التالية :

- اسماعيل ادهم ، خليل مطران شاعر الاقطار العربية - اصدار ١٩٢٩
- جمال الدين الرمادي ، خليل مطران شاعر الاقطار العربية (دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٠)
- محمد مندور ، ١ ، محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي (معهد الدراسات العربية العالية) جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥)
- محاضرات من خليل مطران (معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤)
- (٢) فلهي ، تطور الشعر العربي الحديث ، ص ١٢٧ .
- (٣) محمد مندور ، محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي ، (معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥) ص ٨٩ .
- (٤) مندور ، محاضرات عن خليل مطران ، (معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤) ص ١١ .
- (٥) عيسى يوسف بلاطه ، الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث ، (١٩٦٠) ص ١١٩ .

هكذا يكاد النقاد يجمعون على ان مطرانا كان اول من سار بالشعر العربي الحديث في طريق التطور والتجديد . فعندما ظهر مطران كان الشعر العربي في اوج تقليده لامرأته السابقين وكان البارودي قد انعش هذه الحركة بعد ان تعرف الى التراث القديم ، يحمل راية الشعر في تلك الفترة ناسجا على منوال اقطابه السالطين . ولكن حركة البارودي ومن نهج نهجه ما كانت سوى صلة وصل بين التراث الشعري الكبير الذي احبته المطبعة في عصر النهضة بعد ان كاد ينسى وبين الحركات التجديدية في الشعر الحديث الذي نشأ عن تصرب الثقافة الغربية الى مصر . وقد ضرب اول معول في حركة التجديد هذه خليل مطران .

ولد مطران في لبنان عام ١٨٧٢ وتلقى علومه الابتدائية في الكلية الشرقية بزحلة ثم اتم دراسته في مدرسة البطريركية للروم الكاثوليك حيث درس على الشيخ ابراهيم اليازجي والشيخ خليل اليازجي كما اتقن الفرنسية على استاذ فرنسي . وقبل ان يستقر في مصر ، ذهب الى فرنسا ولعله اتصل هناك بالثقافة الفرنسية عن كتب وفكري ثقافته الفرنسية التي كان قد اخذ اصولها في " البطريركية " . مكث مطران في فرنسا عامين عاد بعدها ليستقر في مصر وبطلح على العرب بالجزء الاول من ديوانه عام ١٩٠٨ واعيا كل الوعي لما سيلقيه هذا الديوان من انكار بسبب نزعاته التجديدية (١) .

يقول مطران في مقدمة الطبعة الاولى من الجزء الاول من ديوانه :
قال بعض المتعنتين الجامدين من المتطسمين الناقدين ان هذا شعر عصرى

(١) فهمي ، تطور الشعر العربي الحديث ، ص ١٧٧ .

وهتموا بالابتسام . توهم ان من بوارق اسرتهم ما يكون أشد من وقع السهام .
فيا هؤلاء نعم . هذا شعر عصرى وفخره انه عصرى وله على سابق الشعرية
زمانه على سالف الدهر . (١) . ويضيف مطران : على انني اصرح غير هائب ان
شعر هذه الطريقة - ولا اعني منظوماتي الضعيفة - هو شعر المستقبل لأنه
شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا . (٢) .

فما هو شعر هذه الطريقة ، وما هو الجديد الذي جاء به مطران ؟

يشبه محمد مندور مدرسة مطران بمدرسة الكلاسيكية الجديدة التي دعا
اليها اندريه شنيه (Andre Chenier) في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية
وقبل ان تبرز المدرسة الرومنطيقية ، ويلخص دعوته بيت من الشعر يقول لنبني
أبياتا قديمة فوق افكار جديدة .

Sur des Pensers nouveaux, faisons des vers antiques (٣)

والحقيقة ان تجديد مطران لم يأت " بطفرة " تجديدية في الشعر
الحربي ، ومن يقرأ الاجزاء الاربعة من ديوانه يرى انه حافظ على الاوزان
الشعرية القديمة ، واذا ما خرج عنها فليبقى داخل الدائرة التي عرفها القدماء
فينظم على طريقة الموشح أو غيره من النظم الشعرية التي عرفها العرب . كذلك
حافظ مطران على اللفظ الفصيح واللغة السليمة ومثانة التركيب التي عرف بها
الشعر العربي . الا انه في تشبيهاته وصوره الشعرية كان يعبر عما في نفسه
متحررا من سلطة القدماء ، متأثرا بثقافته الحديثة التي اعتمدت اعتمادا اساسيا
على الثقافة الفرنسية .

(١) خليل مطران ، ديوان الخليل ، (مطبعة دار الهلال ، القاهرة ، بدون

تاريخ لعله ١٩٤٩) ، ص ٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩ - ١٠ .

(٣) مندور ، محاضرات عن خليل مطران ، ص ١١ .

يقول في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه : " أتابع السابقين في الاحتفاظ بأصول اللغة ، وعدم التفريط فيها ، واستيحاء الفطرة الصحيحة . وأتوسع نفسي مذاهب البيان مجارة لما اقتضاه العصر ، كما فعل العرب من قبلي .

أما الامنية الكبرى التي كانت تجيش بي فهي ان أدخل كل جديد نفسي شعرا العربي بحيث لا ينكره ، وان استطيع اقناع الجامدين بأن لغتنا ام اللغات اذا حفظت وخدمت حق خدمتها " (١) .

أول مظاهر هذا الجديد الذي نتج عن تأثره بالثقافة الفرنسية ظهر في دعوته الى وحدة القصيدة وتماسك اجزائها ، لأنه لم يجد في الشعر العربي ارتباطا بين معاني القصيدة الواحدة ولا قاسما مشتركا يربط القصيدة بوحدة موضوعية . يقول في مقدمة الجزء الاول من ديوانه : " هذا شعر ليس ناظمه بعبد . ولا تحمله ضرورات الوزن أو الكافية على غير قصده . يقال فيه المعنى الصحيح . باللفظ اللصيق . ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد . . . بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه والى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشغوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه علس قدر " (٢) .

لم تبق هذه الدعوة عند مطران نظرية بل طبقها في قصائده فربط بين معانيها وجعل الوحدة قائمة على وحدة الموضوع لا على وحدة البيت . ولعل

(١) مطران ، ديوان الخليل ، (دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٤٨) ، ج ٢ ، المقدمة .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٩ .

أبرز القصائد التي تتجلى فيها هذه الوحدة الموضوعية هي قصائده القصصية - نذكر منها " مقتل بزرجمهر " (١) و " فنجان قهوه " (٢) و " الجنين الشهيد " (٣) . وهناك أيضا قصائد في مناجاة النفس برزت فيها الوحدة الموضوعية بشكل واضح ، في طليعة هذه القصائد " المساء " (٤) التي قالها يعلى نفسه وهو مريض في الاسكندرية . ففي هذه القصائد جميعا رباط معنوي يربط الابيات بعضها بالآخر بشكل متصل متسلسل يجعل من البيت مكملا لسابقه ويجعل الابيات كلها عناصر لازمة في تكوين البناء الكامل وهو القصيدة . وقد لقيت دعوة خليل مطران التجديدية مؤيدين لها في صفوف ذوي الاتجاه الانجليزي وعلى رأسهم العقاد (٥) وشكري .

ولم تتوقف مظاهر التجديد لدى مطران عند هذا الحد ، وإذا كانت الدعوة الى الوحدة الموضوعية دعوة تجديدية مقصودة واعية ، فان هناك من مظاهر

- (١) انظر ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
- (٢) انظر المرجع نفسه ، ص ١٤٨ .
- (٣) انظر المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ .
- (٤) انظر المرجع نفسه ، ص ١٤٤ .
- (٥) العقاد ينكر ان يكون قد تأثر هو أو اعضاء مدرسة بمطران ويقول ان اعضاء هذه المدرسة كانوا يطلعون على الادب الاوربي لا سيما الانجليزي في مصادره . راجع في ذلك العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

وقد ذهب الى مثل هذا الرأي عبد الرحمن شكري في رد له على احد قراء الرسالة / رادا في الوقت نفسه على الدكتور اسماعيل أدهم الذي ذهب الى ان خليل مطران تملك أثرا كبيرا في شكري ، قال شكري " قال الدكتور أدهم اني تأثرت بطريقة خليل بك مطران . وهذا يشرفني لو كان الحقيقة لكنه ليست الحقيقة فاني لم اتأثر بطريقة خليل بك لا في قليل ولا في كثير ثم يأتي بثمانى حجج تنقض هذا الزعم .

انظر الرسالة ، ع ٣٠٢ ، السنة السابعة ، ١٧ أبريل ١٩٣٩ ، ص ٢٩٢

التأثر بالثقافة الفرنسية ما برز في شعر مطران ولم يكن دائما اراديا نعني بذلك هذه النزعة الرومانسية التي طبعت شعره وأظهرت تأثره بمدرسة الشعر الرومانسي الفرنسي .

تتجلى النزعة الرومانسية عند مطران في أكثر من مظهر .

أول هذه المظاهر وجود الطبيعة في شعر مطران وجودا حيا ، أى ان الطبيعة عند مطران ليست صورة جامدة انما فيها نبض حياة . فقصيدة " وردة ماتت " وقصيدة " نرجسة " و " بنغمجة في عروة " تعكس انسجام الشاعر مع الطبيعة انسجاما معنويا كبيرا فاذا به محلا للاحاسيس أكثر منه واصفا لمناظر يقول مندور عن هذه الظاهرة : " . . . أو شكت نظرتة الى الطبيعة ان تكون نظرة شاعر كبودليير الذى كان يقول " ان الاشياء تفكر خلالي كما أفكر خلالها " (١) .

والدمع من جفني يسيل مشعشعا
بسنى الشعاع الغارب المترائي
والشمس في شفق يسيل نضاره
فوق الحقيق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تحدرا
وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد
مزجت بآخر أدمعي لرنائي (٢)

(١) مندور ، محاضرات عن خليل مطران ، ص ٣٢ .

(٢) مطران ، " المساء " ، ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

أليس في هذه الابيات اندماج كلي بين الشاعر والطبيعة ، يذكرنا بما عرفناه عند الرومانسيين الفرنسيين بل يفوق ذلك . أليس فيها نغمة تذكرنا " بليالي " ألفرد دو موسيه (Alfred de Musset) وخاصة " ليلة كانسون الأول " (١) .

والطبيعة عند مطران كما يقول مندور " كائنات مفكرة " (٢) ، فهو يبحث فيها الحياة ويجعلها تشعر كما يشعر هو . وتكون لها آلامها فيشاركها فيها بل وشخصيتها التي تفرضها على الشاعر :

تفقدتها والفجر يفتح جفنه
كما انتبه الوسمان والجفن منقل
فطفت على الازهار في آن نومها
انبهها جذبا الي فتجفـل
أحاول سلوانا بتشكيل طاقة
فاعتل منها ما اشاء واشكـل
الى ان بدت لي وردة مستكنة
كأن دموع الفجر فيها تهلل
لها طلعة البهاء الموءتل والصبي
وفي الوجه تقطيب لمن يتأمل
تلوح عليها للكتابة والاسى
مخايل دقت ان ترى فتخيـل (٣)

(١) قصيدة من سلسلة قصائد لموسيه اسمها " الليالي " (Les Nuits) وهي تشتمل على قصائد ترتبط كل واحدة بليلة من ليالي احد الشهور فتعكس وضعا نفسيا معيناً .

(٢) مندور ، محاضرات عن خليل مطران ، ص ٢٢ .

(٣) مطران ، ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

هذه المعاني لم نألّفها في الشعر العربي قبل مطران وهي تذكرنا بجو الطبيعة عند لامارتين ، وتوحي لنا بالحساسية العميقة نفسها والهدوء نفسه الذي نلمسه عند لامارتين . وقد كان هذا الشاعر الرومنطيقي يقول : " ان فن الكتابة الحقيقي ، ليس فنا ، انه روح " وقد انعكست هذه الروح في شعر لامارتين كما انعكست في شعر مطران ، وليس أفضل من قصيدة " المساء " شاهداً على ذلك . وهي تذكرنا في بعض مقاطعها بقصيدة " البحيرة " الشهيرة للامارتين ، فقد لجأ مطران الى البحر يشكو له " اضطراب خواطره " ولجأ لامارتين الى " البحيرة " يشكو همومه وفقدانه الحبيبة . وكلا الشاعرين وحيد يتألم لوحده ولا يريد غير الطبيعة شريكاً له في أحزانه .

ويشترك مطران مع لامارتين في الاندماج بالطبيعة وبث الحياة فيها حتى تصبح وكأنها تفكر وتحس . فلامارتين لا يصف الطبيعة من أجل وصفها ، وهو لم يعن برسم لوحات جميلة للطبيعة بل كان يتصل فيها اتصالاً وثيقاً ويهدد آماله وآلامه فيها " ولكن الطبيعة هنا تدعوك وتحبك ، فاغرق نفسك في صدرها الذي تفتح لك دائماً " . هكذا قال لامارتين وفعل وهكذا فعل مطران عندما توجه الى الطبيعة فافرق نفسه في صدرها وأراح صدره من آلامه :

شاك الى البحر اضطراب خواطري

فيجيبني برياحه الهوجاء

ثأو على صخر أصم وليت لــــي

قلبا كهذي الصخرة الصماء (١)

وليست الطبيعة وحدها مظهرها من مظاهر الرومنطيقية التي برزت عند مطران فهناك الآلام النفسية التي تنعكس في قصائده من حب ومرض وشهـور بالغيرة والوحشة .

ولعل الحب أبرز هذه الآلام التي عاناها مطران ، فقد أحب شاعرا لكنه لم يسعد في حبه ومع انه لم يتحدث عن تجربة الحب العائر هذا مباشرة الى ان كثيرا من النقاد (١) يرون ان قصيدة " حكاية عاشقين " (٢) هي حكاية هو مع تجربته العاطفية المؤلمة ، وان لم يرد الافصاح عن هذه التجربة بصراحة وحرية .

ويعتقد محمد مندور ان ما سماه بصفة " المعاودة ومحاسبة النفس " عند مطران قد أخفى الكثير من عواطفه " حتى ليكاد يختفي الضمير " انا " من شعره (٣) ولولا ذلك " لأسمعنا أروع الشعر الرومنطقي تخليدا لغرامه العائر الذي نلمح آثاره وجروحه في نفسه خلال الكثير من قصائده مثل " قصة عاشقين " (٤) . لكن عواطف مطران تتسرب بالرغم من محاولة السيطرة عليها وتبرز رومنطيقته واضحة في قصائد الحب التي كتبها كقصيدة " حكاية عاشقين " الطويلة (٤) ، حيث يبرز الحب الذي يشير الآلام فيذكرنا بحب موسيه وألمه وخاصة بقصيدة " رسالة

(١) من هؤلاء : محمد مندور في محاضرات عن خليل مطران ، ص ٦ و ١٤ .

وعيسى يوسف بلاطه في ، الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث ، ص ١١٢ .

(٢) راجع ديوان الخليل ، ج ١ ص ١٨٥ - ٢٢٢ .

(٣) مندور ، محاضرات عن خليل مطران ، ص ٥ .

(٤) المرجع نفسه ، راجع ديوان خليل ، ج ١ ص ١٨٥ .

الى لامارتين * (١). ولعل شعر الحب عند مطران يبرز بشكل واضح التقارب في الاحساس بينه وبين موسيه . فموسيه عرف بأنه شاعر الحب والألم والاخلاص . ومطران أحب فأخلص ولم يسعد .

يشير اسماعيل أدهم الى ظاهرة اللقاء هذه بين الشاعرين التي جعلت من موسيه شاعر مطران المفضل حتى أقبل على شعره بما يشبه الادمان . ويقول عن شعر مطران : * على انك بعد ذلك تجد في هذا الشعر ارسالاً للشاعر والخلجات من القلب مترعة بالحياة والاحساس الزاخر ، وهي تعيد للذهن ارسال ألفريد دي موسيه خلجات قلبه ونبضات وجدانه مترعة بالحن الفني والشعور الزاخر . ومن هنا ينبع الاتصال بين مطران في شعره الوجداني الصافي وبين شعر ألفريد دي موسيه شاعر الاحساس . وهذا الاتصال يرجع في الاصل الى اتفاق المشارب والاحساس بين الشاعرين العربي والفرنسي والافنا الذي كان يضطر مطران الى ادمان شعر موسيه حتى يهضمه ويمثله فتظهر في شعره ابدان هذا التأثير . لا ريب ان مطران وجد في موسيه وشعره الشيء الكثير مما في نفسه وما في مشاعره ، ومن هنا كانت نقطة الاتصال ، وهو اتصال قوى في الواقع لا تجد له مثيلاً بين شاعر عربي وشاعر افرنجي آخر في نفس هذه الصورة والقوة . ولا سيما في الفترة الاولى من حياة مطران كما يدل على ذلك تأثر شعر الخليل في ذلك الحين بنسج موسيه الشعري (٢) .

(١) La Lettre a Lamartine - وفيها يشير الى ان الوقت يجفئ

الدمع ويشفي القلب ولكن الروح تبقى ابداً تتذكر .

(٢) اسماعيل أدهم ، خليل مطران ، ص ١١٥ - ١١٦ .

ويلتقي مطران مع موسيه في كثير من معاني الحب والذكريات ، بقصيدة
حكاية عاشقين في بعض مقاطعها خاصة تلك التي تجيء بعد موت الحبيبة تذكرنا
بقصيدة الذكرى (Le Souvenir) لموسيه ، حيث يتفجر الالم الوجداني الحنيف .

قال موسيه :

وقلت لنفسي فقط : في هذه الساعة وفي هذا المكان كنت يوما
محبوبا ، كنت أحب ، وكانت جميلة سأخيه ، هذا الكنز في روحي
الخالدة وأحمله الى الله .

وهذه الابيات تذكرنا بقصيدة " شقاء الحب " (١) وهي نشيد من القصيدة
الطويلة " حكاية عاشقين " . قالها مطران عندما نعتت اليه حبيبته فمطران حمل
معه صور موسيه عندما كان يلجأ الى نفسه ليعبر عن مشاعره ومواقفه فأخرجها
صورا تعبر عما أراد ان ينقل من احساس . وقد نقلها في ثوب عربي فكانت
تعبيرا وجدانيا جديدا لم يعرفه الشعر العربي من قبل ، تعبيرا تذوب فيه
الصورة بنفس الشاعر وآلامها ، فاذا هذه الصورة عصارة من وجدان الشاعر لا
تتفصل عنه .

ويشير اسماعيل أدهم الى قصيدتي " مشاكة " و " النجمتان " عند
مطران ويقول ان فيهما تأثرا واضحا بقصيدة Ballade a la lune (اغنية للقمر)
لموسيه (٢) .

ولعل مطرانا عايش الشعراء الرومنطيقيين عن كثب عندما نظم قصائد في

(١) انظر ديوان الخليل ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢) اسماعيل أدهم ، خليل مطران ، ص ١٩٧ .

بعضهم امثال لامارتنين وفيكاتور هوجو والفرد دي موسيه . يقول جمال الدين الرمادى : " وتعد هذه القصائد من خير ما كتب مطران لأنه عندما كان يكتب عن الشاعر أو الكاتب كان يستوعب أدبه وفنه ويعرفه معرفة واضحة أكيدة لا غموض فيها ولا ابهام " (١) .

لكن مطرانا على ما يبدو كان أقرب الى موسيه من غيره من شـعـراء الرومنطيقية . وقد ظهر ذلك في معاشيته الحميمة له في قصة حبه مع جورج صاند عندما كتب قصيدته عنه . ولحل عنصر الالم الذى رافق تجربتهما في الحب كان اساسا مشتركا لهذا التقارب وقد وجد مطران عند موسيه جوا يتجاوب مع جـوـه النفسى (٢) .

ولم تقتصر النزعة الرومنطيقية على قصائد مطران الوجدانية بل ظهرت واضحة في شعره القصصى كما في قصيدة " الجنين الشهيد " مثلا .

والحديث عن شعر مطران القصصى يقودنا الى هذه الظاهرة الجديدة من ظواهر التجديد عنده . وهي هذا الفن القصصى الذى أدخله الى الشعر العربى الحديث . والنقاد يختلفون حول عنصر التجديد هذا لأن بعضهم يرى ان الشعر العربى لا يخلو من هذا الفن ، ولسنا هنا في مجال ايراد وجهة نظر كل من الفريقين حول الشعر القديم انما نود ان نشير مع محمد مندور (٣)

(١) جمال الدين الرمادى ، خليل مطران شاعر الاقطار العربية ، ص ٢٤٧ .

(٢) لعل المقارنة تصح هنا بين " حكاية عاشقين " و " ليلة تشرين الاول " من ليالى موسيه ، ففي القصيدتين اجواء مختلفة بين المرح والامل ثم الخيبة والفشل . والقصيدتان تتمتعان باسلوب كلاسيكى صاف .

(٣) مندور ، محاضرات في الشعر المصرى بعد شوقي ، ص ٣٨ .

الى ان الشعر القصصي عند مطران خرج عن نطاق الذاتية الى الموضوعية ،
نعني بذلك ان القصص لم يكن عنده وسيلة لخبره من غزل أو فخر انما كان
لذاته لا يرتبط بحياة الشاعر وتجاربه المباشرة ، ونستدرك لنضيف ان العنصر
الذاتي لم يختلف تماما من شعر مطران القصصي ، واذا كانت " فتاة الجبل
الاسود " (١) أو " مقتل بزرجمهر " أو " الجذنين الشهيد " لا تروى تجربة
شخصية مباشرة فانها تعبر عن جو شعري معين يظهر عاطفة الشاعر وتفاعله
النفسي مع شخصياته . ويؤيد اسماعيل أدهم هذا الرأي بقوله : " . . . بل
ان وجدان القصص عند مطران أروع من حيث انه أعمق في التعبير عن النفس
وأرحب في الدلالة على الوجدان الانساني من وجدان الفناء عنده " (٢) .

خاصة اخرى من خصائص شعر مطران القصصي هي ان القصيدة القصصية
عنده أصبحت أشد تماسكا مما عرف عند العرب - اذا سلمنا ان ما عرفناه في
تراثنا كان فنا قصصيا - فقد فهم مطران بتأثير ثقافته الغربية طبيعة هذا
الفن فأصبح أكثر تحديدا عنده وأشد وضوحا وأستقلالا .

وهناك ظاهرة اخرى تستطيع ان تشير اليها ، في شعر مطران القصصي
هي ما يسميه شوقي ضيف " بالنزعة الرمزية " (٣) ، ذلك ان قصائده القصصية
تصور حياة الشعوب العربية في كثير من صورها في عصور الظلم العثماني ، ولعل
قصيدتي " فيرون " و " مقتل بزرجمهر " من أوضح الامثلة على ذلك . هذه
" النزعة الرمزية " عند الخليل تذكرنا بنزعة مشابهة عند احد اقطاب الشعر

(١) مطران ، ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٢) أدهم ، خليل مطران ، ص ٢٠٠ .

(٣) ضيف ، الادب العربي المعاصر ، ص ١٢٢ .

الرومنطيقى الفرنسى وهو ألفرد دو فينيى (Alfred de Vigny) (١) . وان كانت
نزعة فينيى تميل نحو التأملات الفلسفية المجردة ، فانها تحمل في معانيها ما
هو ابعد من القصة المقصودة .

وقبل ان نترك موضوع المؤثرات الاجنبية التي اثرت في مطران لا بد
من ان نشير الى ما ذكره اسماعيل ادهم من ان مطران بدأ في شعره المتأخر
يميل نحو الكلاسيكية وكان قد نضج وهدأت عواطفه الجياشة واصبح " لا يستأثر
الا بالفكرة والخيال القوى وهذا متوفر في شعر كورنيى وراسين (٢) " الا ان فترة
نضج مطران الكامل جاءت بعد فترة بحثنا .

في هذا المجال ارى ضروريا ان اشير الى ان حساسية الخليل الاساسية
وطبيعته قد اسههما بالدرجة الاولى في توجيهه الوجهة الرومنطيقية في الشعر
الا ان ثقافته الفرنسية اوجدت له مجالا استطاع فيه ان يغني وجدانه بصور
جديدة وتفاعلات عاطفية فنية فكان ان اتصل هذا الاتصال الوثيق بالرومنطيقين
الفرنسيين ولم يكن مقلدا بل مستوحيا .

ظاهرة اخيرة نود الاشارة اليها ، تتعلق بالشكل ، هي تلك السهولة في
الالفاظ والسلاسة في التعبير . وربما يكون مطران قد مال اليها بسبب ميله
الى التعبير الطبيعي عن احساسه ولكن ثقافته الفرنسية وقراءاته المطولة لشعر

(١) من قصائد دو فينيى مثلا " موت الذئب " (La Mort du Loup)

" زجاجة في البحر " (La Bouteille a la Mer)

(٢) ادهم ، خليل مطران ، ص ٢١٥ .

الرومنطقيين المتدفق البسيط لا بد ان تكونا قد تركتا أثرا في أسلوبه .
" فالرومنطقيون - وقد ناروا على البلاغة القديمة - لم يضعوا اصولا تخلفها
واكتفوا بأن أطلقوا لكل كاتب حريته في التصوير واختيار الالفاظ وصياغة المعاني
على ان يكون صادق التعبير فيما يشعر به وفيما يفكر فيه (١) . " وقد أثرت
هذه النزعة في مطران الذى كان تراثه الشعرى تقيد قیود الأسلوب والالفاظ
فتحرر منه . يروى جمال الدين الرمادى حديثا تحدث به مطران لمارى كاترين
بولاد في الكتاب الذهبي الذى صدر عام ١٩٤٩ يحكى تأثر مطران بالأسلوب
الفرنسي بالكتابة : " تقول مارى كاترين : حدثني انه كان يكتب بالفرنسية ،
وكان يعرض انتاجه على استاذة الفرنسي غير ان هذا الاستاذ كان يقول له :
ان انتاجك هذا يعتبر لا شيء لانه يسرف في الغنى ويسرف في الابهة
والزينة ، وأهم ما يميز الادب الفرنسي انه أدب يهتم بالرقعة والبساطة . . .
والسهولة والعلامة . ومنذ ذلك الوقت حرص مطران على الرقعة ، في أسلوبه ان
انه اعتقد كما كان يقول استاذة ان التقدم في لغة يدفع الى التقدم في اخرى " (٢) .

ان ما قلناه عن مطران من نزعات التجديد المتأثرة بثقافته الفرنسية لا
يعني انه لم يكن لشاعرنا شعر مناسبات كما كان لسائر شعراء عصره ومن يتصفح
اجزاء دواوينه الاربعة يدهشه هذا العدد من قصائد المناسبات . الا ان مطرانا
بقصائده الشخصية كان أول من رفع راية الجديد في الشعر العربي الحديث وترك
أثرا في تطور خطوط هذا الشعر الفنية . " فكل التطورات التي لحقت الادب
العربي ، وعلى وجه خاص الشعر ، كانت تتناول الشكل الخارجى ، وهو يتغير
بتغير الزمان والمكان ، وليس في هذا أى جديد حتى كان عصر النهضة الاخيرة
فظهر مطران محاولا نقل الشعر العربي من الدائرة الذاتية الفردية التي كان

(١) محمد غنيمي هلال ، الرومنطكية ، (مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، دون

تاريخ) ، ص ١٨٢ .

(٢) الرمادى ، خليل مطران شاعر الاقطار العربية ، ٢٤١ - ٢٤٢ .

يدور فيها من قبل ، الى دائرة اوسع وارحب ، هي دائرة الحياة كلها ، والتي دارت فيها الآداب الأوروبية من قبل ٠٠٠ فنجح في كسر الحدود الذاتية الفردية فانساب بعض الشعر العربي في اتجاه جديد يعتبر مطران نقطة التحول فيه (١) .

محمد تيمور (٢) : ومن اقطاب الاتجاه الفرنسي في هذه الفترة محمد تيمور .

وهو ينتمي الى اسرة اشتهرت بالعلم والادب . فوالده احمد تيمور كان عالما محققا ترك عددا من المؤلفات ، وجمع في حياته مكتبة كبيرة من المطبوعات والمخطوطات وعمته عائشة كانت احدى شاعرات عصر النهضة وقد تركت ديوانا كما اسمعت في الحركة القصصية في عصرها بكتابها " نتائج الاحوال في الاقوال والافعال " ، واخوه الاصغر محمود احد اقطاب الفن القصصي الحديث ، وهو استاذ جيل كامل من كتاب الاقصوصة .

ولد محمد سنة ١٨٩٢ ، واتم تعليمه الابتدائي والثانوي في مصر ، ثم سافر سنة ١٩١١ الى باريس لدراسة الحقوق . وعاد منها سنة ١٩١٤ ولم يعد اليها بسبب الحرب . وهذه السنة توخ بداية نشاطه الادبي والفني الذي استمر فترة قصيرة وانتهى بوفاته سنة ١٩٢١ .

(١) ادهم ، خليل مطران ، ص ٢١٨ .

(٢) رجعنا في دراسة تيمور الى كتبه :

١ - حياتنا التمثيلية ، (مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٢٢) .

٢ - المسرح المصري ، (المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ) .

٣ - وميض الروح ، (المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٢) . محاضرات

الدكتور محمد نجم عن " المسرحية في الادب العربي الحديث " .

وهذه الفترة تعتبر من اهم الفترات الثقافية في حياة مصر ، اذ بدأ فيها النشاط الادبي الذي بعثته الاحزاب سنة ١٩٠٧ بالنضج ، كما استقرت فيها الدعوة الى الادب القومي التي بدأها احمد لطفي السيد وتلاميذه على صفحات الجريدة . واتخذ المسرح سبيله الى النضج على يدى جورج ابيش الذى استهل نشاطه التمثيلي على المسرح العربي سنة ١٩١٢ .

وقد شارك محمد تيمور في النشاط الادبي والفني الذى عاصره ، وكانت مشاركته قوية مؤثرة ، اذ طرق فنونا جديدة ، وعالج فنونا اخرى بأسلوب جديد وشارك في الحركة المسرحية مؤلفا وممثلا وناقدا .

وينقسم نتاجه الادبي الى ثلاثة اقسام كبرى هي

١ - الادب المسرحي

٢ - القصص

٣ - القطع الوجدانية

وسنتحدث عن كل قسم من هذه الاقسام على حدة ، ونحاول ان نبين في كل منها اثر الثقافة الفرنسية .

الادب المسرحي :

عاصر تيمور في باريس فترة انتقال في تاريخ المسرح الفرنسي ، تمثلت في الاخراج والتمثيل والتأليف . ففي الاخراج والتمثيل كانت جهود اندريه انتوان (١٨٥٨ - ١٩٤٣) في المسرح الحر (*Theatre Libre*) (١٨٨٧ - ١٨٩٧) في نقل الاخراج من اسلوب الرومنطيقيين القائم على المبالغة والتكلف في الاداء ، والاستعراضات الحافلة بالتزيين والالوان في المشاهد والملابس . وقد سيطر اسلوب انتوان الواقعي على المسرح الفرنسي اكثر من ربح

قرن ، ووجد له مقلدين في موسكو وبرلين ولندن ، وتأثر به اكبر مخرجي الواقعية
قسطنطين ستانيسلافسكي (١٨٦٣ - ١٩٣٨) .

الى جانب هذا التحول من الرومنطيقية الى الواقعية في الاخراج والاداء
نرى تحولا نحو الواقعية والموضوعات الاجتماعية في الادب المسرحي . فبعد ان
وضع يوجين سكريب (١٧٩١ - ١٨٦١) اصول بناء المسرحية المحكمة ، استطاع
تلاميذه امثال فكتوريان ساردو (١٨٣١ - ١٩٠٨) واميل اوجييه (١٨٢٠ - ١٨٨٩)
وديمان الابن (١٨٢٤ - ١٨٩٥) ان ينتقلوا بها خطوة نحو المسرح الاجتماعي
الذي يعالج المشكلات المعاصرة ، بثالوثها السحري : الزوج والزوجة والعشيق .

وقد اثر هؤلاء الكتاب في التيار المسرحي بوجه عام وظلت مسرحياتهم
تتألق على المسارح حتى ظهور الموجة الرمزية التي مثلتها مترلك . والى جانب
هؤلاء الكتاب الذين غدوا المسرح باكثر مسرحياته شهرة ونجاحا ، ظهر علود من
الكتاب الواقعيين الذين اهتموا بهديهم ورفعوا منار المسرحية الاجتماعية
والمسرحية الهادفة عاليا . ومنهم بول هرفيو وهنرى بيك ويوجين بريو . واشتهر
في مطلع القرن جيل آخر من كتاب المسرح الاجتماعي امثال هنرى كشمياكرز ،
الفرنسي البلجيكي وهنرى برنشتين وهنرى باتاي واوكتاف ميربو .

في هذه الفترة تعرف محمد تيمور الى المسرح الفرنسي . شهد
انتصارات الواقعية المسرحية التي ظلت مجلجلة في كل مكان ، حتى هزمها
تيار لوني - بو (Lugné-Poe) الرمزي . وعاصر شهرة المسرحية الاجتماعية
المحلية ، التي كانت اكثر المسرحيات رواجاً آنذاك . وعاد الى مصر سنة ١٩١٤
فماذا وجد .

كان جورج ابيضر قد انتهى موسمه الاولين ١٩١٢ - ١٩١٣ ،
١٩١٣ - ١٩١٤ ، باخفاق تلو اخفاق ، لانه كان يمثل مسرحيات غريبة على
البيئة ، مثل عطيل ولويس الحادى عشر واوديب ، مما اضطره ان يشترك مع بطل
المسرح الغنائي الشيخ سلامة حجازى في فرقة واحدة مثلت موسمين ١٩١٥-١٩١٦
١٩١٦ - ١٩١٧ . وشهد ورثة الشيخ سلامة الذين كانوا يلوكون مسرحياته
الغنائية التي بليت على المسرح ، باصوات كريهة ، وكان منهم اولاد عكاشة ومصطفى
امين .

وسرعان ما اكتشف تيمور ضعف المسرح المصرى . انه ضعف ذو شقين :
مسرحية مترجمة بلغة ركيكة في الاغلب ، وهي لا تمت الى البيئة بصلة وخاصة
في فترة التفجر الثورى التي سبقت ثورة ١٩١٩ ، وتمثيل غير قائم على اصول
يرتاده كل عاطل ويحاوله كل مغرور ، فكان جورج ابيضر كان غريبا في ذلك العصر
يجار بصوته المجلجل في واد ، وسائر الممثلين والمخرجين في واد آخر .

ومنذ ذلك الحين اخذ تيمور على عاتقه معالجة هذا الوضع المتخلف .
فبدأ بنشر مقالات فنية في مجلة " ^{المسرح} المنفور " تحدث فيها عن تاريخ التمثيل فسي
فرنسا وفي مصر ، موضحا اتجاهاته ومعالمه ، وعن التمثيل الفنى واللافنى ، ونقد
المؤلفين والمخرجين والممثلين الذين كانوا يتألقون على مسارح ذلك العهد .
اما المسرحية ، فرأى ان علاجها لا يتم بالنظريات والنقد فقط ، بل ينبغى ان
يضع بين ايدي النابذ النموذج السليم الذى يصبون عليه .

كانت المسرحية المحلية قد بدأت تظهر في ذلك الحين ، خائفة وجلبة
تخشى ان تتراحم الروائع العالمية التي تترجم للمسرح ، وان كانت لغة الترجمة

ركيكة ، وموضوع المسرحية غريبا . حاول مثل هذه المسرحية فرح انطون فألف مسرحية " مصر الجديدة ومصر القديمة " (١٩١٣) ، ولكنها كانت اشبه بالمشاهد المرقعة ، وكانت لغتها الفصحى ، لا تتفق مع نظرية تيمور في المسرح الاجتماعي . وحاولها محمد لطفي جمعة في " قلب المرأة " (١٩١٥) ، ولكنها كانت تدور حول تجربة زعم المؤلف انها حدثت له في جنيف حين كان يدرس الحقوق ، ولذا جاء جوها اجنبيا غريبا ، ولغته الفصحى زادت الطين بلة .

هاتان المحاولتان وغيرهما لم تروقا لتيمور ، ولذا اقدم على التأليف بنفسه ، فألف واقتبس عددا من المسرحيات استوحى روحها واتجاهها من المسرحية الفرنسية التي شاهدها في باريس اثناء اقامته فيها ، او التي قرأها في السدس المسرحية الفرنسية وخاصة سلسلة (La Petite Illustration) . وقد الف تيمور للمسرح المسرحيات الاجتماعية التالية :

(١) العصفور في القفص - كوميديا في ٤ فصول ، مثلتها فرقة عبد الرحمن رشدي ١٩١٨ .

وموضوعها تسلط الاباء على الابناء ، والزواج غير المتكافئ وسوء التربية ، وبيئتها اسرة من الاعيان .

(٢) عبد الستار افندي - كوميديا في ٤ فصول اخرجها عزيز عيد ١٩١٨ .
وموضوعها سوء التربية ، وانقسام الاسرة الى حزبين متخاصمين بسبب تسلط المرأة ، وبيئتها اسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة .

(٣) الهاوية - كوميديا في ٣ فصول مثلتها شركة ترقية التمثيل العربي بحمد وفاته ١٩٢١ .

وموضوعها اثر الافيون والمخدرات في هدم الاسرة ، وتدور في نطاق اسر الطبقة الوسطى .

وقد كتب تيمور جميع هذه المسرحيات باللغة العامية ، تحقيقا لدعوته

الى الادب القومي .

واقترن مسرحية " العشرة الطيبة " عن مسرحية " ذى اللحية الزرقاء " (Barbe Bleue) لما تزلزلت وقد لحنها سيد درويش وقدمت سنة ١٩٢٠ . وترجم مسرحيتي اللغز (L'enigme) والاب ليونار ولكهما لم تنشرا (١).

بالاضافة الى هذا النشاط التأليفى ، شارك تيمور في تمثيل بعض المسرحيات التي كانت تعتبرها " جمعية انصار التمثيل " مثل عزة بنت الخليفة " والعرائس لبيير وولف .

في هذا النتاج المسرحي الذى تحدثنا عنه ، من نقد وتأليف وترجمة واقتباس ، تأثر تيمور تأثرا واضحا بثقافته الفرنسية . فمقالاته عن تاريخ المسرح الفرنسى وتطوره مستمدة من المراجع الفرنسية . ومقالاته في نقد الممثلين والمؤلفين المصريين ، تحتوى على مقارنات كثيرة مع الممثلين والمؤلفين الفرنسيين . ومسرحياته التي ألفها او اقتبسها او ترجمها اصولها جميعا فرنسية . وقد اشار في مذكراته ورسائله الى تردده على المسرح الباريسى واعجابه به (٢).

وقد اشار اخوه محمود الى اثر المسرح الفرنسى في تطور آرائه عن المسرح ، فقال :

" اما افكاره وآراؤه في التمثيل فقد تطورت كطور افكاره في الادب ،

(١) وميض الروح - " المقدمة " ، ص ٣١ بقلم اخيه محمود

(٢) انظر خاصة : وميض الروح ، ص ٣٨٩ - ٣٩٤ ، ٤١٦ - ٤٢٧ .

(٣) تيمور ، وميض الروح ، " المقدمة " ص ١٦ - ١٧ .

وازداد شغفه وميله اليه بعد ان رأى اهمية ذلك الفن في فرنسا ، ومقام
القائمين به ممثلين كانوا او مؤلفين . وامل ان يرى في مصر عهدا جديدا
للمثيل ، فكان يطلب مني دائما ان اوافيه في خطباتي عن الحركة التمثيلية
في مصر والروايات الجديدة التي الفت او عريت * .

القصص :

وكما عرف محمد تيمور في تاريخ النهضة المسرحية بانه اول ناقد
مسرحي اصولي واول من كتب المسرحية الاجتماعية المحلية ، باللغة العامية كذلك
عرف بانه رائد الاقصوصة المصرية .

عرف الادب المصرى الحديث عددا من كتاب الاقصوصة قبل محمد تيمور ،
منهم لبببة هاشم ، ونسيب مشعلاني وابراهيم بركات ، وسواهم من ادباء المدرسة
السورية المتصورة . ولكن هؤلاء الكتاب كانوا يعالجون في اقاصيصهم مشكلات
ضعيفة الصلة بالبيئة المصرية المحلية ، كما كانت اكثر اقاصيصهم مترجمة . اما
محمد تيمور ، فقد عالج كتابة الاقصوصة المصرية ذات الصبغة المحلية البحت وكان
ينشرها في مجلة السفور سنة ١٩١٧^{من} .

تأثر محمد تيمور في اقاصيصه تلك بفن موباسان زعيم الاقصوصة الاكبر
على حد قول شقيقه محمود (١) حتى انه عرب احدى اقاصيصه " في ضوء القمر "
وسماها " رب لمن خلقت هذا النعيم " ، وقدمها بقوله :

" هذه القصة لموباسان الكاتب الفرنسي الشهير بدل المعرب اشخاصها
وزمانها ومكانها وموضوعها مصرا كل شيء فيها فلم يبق من الاصل الا روح الكاتب .

(١) مقدمة فرعون الصغير وقصص اخرى ص ١٨ .

واتبع المعرب في ذلك خطة تولستوى في قصصه التي نقلها عن موبسان .

وقد امتازت اقاصيه باتجاهها الواقعي وبلونها المحلي الذي يعكس البيئة المصرية بمختلف مناظرها واشخاصها ، وامتازت فوق ذلك كله بالبناء المحكم في عرض الموضوع وسياقته ، وتصوير الشخصيات بلمسات سريعة قوية دالة ، ويتسلسل الحوادث في وضوح واتزان حتى تبلغ نهايتها التي تكون عادة مفاجئة . وقد نشأت المدرسة القصصية الجديدة متأثرة بروح تيمور ، فتأثر به اخوه محمود ، وعيسى عبيد وشحاتة عبيد وطاهر لاشين واحمد خيرى سعيد وسعيد عبده وغيرهم من الشبان الذين اسسوا مدرسة الآداب الجديدة التي اصدرت منذ ١٩٢٥ صحيفة الفجر القصصية ، صحيفة الهدم والبناء . وقد اعترف بذلك احمد خيرى سعيد وعزا الفضل الى تيمور في انشاء هذه المدرسة الادبية المجددة وفي تشجيعها وتقديم النموذج الصالح لها (١) .

ولتيمور محاولات قصصية اخرى لم تتم ، منها رواية مصرية قصصية بالفرنسية عنوانها " الفتوة " ، لم يتم منها الا الفصل الاول . ورواية " الشباب الضائع " التي اتم منها فصولا (٢) ، نشرت في كتابه " وميض الروح " (٣) .

القطع الوجدانية :

كتب محمد تيمور عددا من القطع الوجدانية النثرية التي قلد فيها طريقة المهجريين وخاصة جبران (٤) ، ومنها : " عودة الموجة " ، " متى انساها "

(١) احمد خيرى سعيد ، " تيمور ومدرسة الآداب الجديدة " ، مرائي المرحوم محمد بك تيمور - (مطبعة الاعتماد القاهرة ، ١٩٢٢) ، ص ٧١ - ٧٦ .

(٢) في وميض الروح ص ٢٧٢ - ٣٤٨ .

(٣) انظر وميض الروح ، ص ٣١ - ٣٩ .

(٤) كان محمد تيمور معجبا بجبران ، والمهجرين عامة ، وقد كتب مقاليتين عن قصيدة المواكب . انظر وميض الروح ص ١٩٣ - ٢٠٢ .

" الماضي " ، " الشاعر والليل " ، " حديث زهرة " (١) . والف عدداً من القصائد الوصفية والغزلية ، تفيض بالشكوى والحزن والانين ، وتصور نفسه ملتاعة غامضها الحب ، وعذبتها الحياة والقت بها المقادير في خضم من البؤس والالم وفيها بيدوتيمور رومطيقيا حتى اطراف اصابعه . ويصف اخوه محمود شخصيته التي اتضحت في شعره ، بقوله :

" ولكن تيمور الذي كان يجالس الناس ويسامرهم ويضاحكهم بحديشه الطلي الساحر ، لم يكن الا الفتى المتألم الكاره للحياة الواجد على الدنيا حينما يأتيه وحي الشعر الجليل . كانت له نفس باطنة خفية لم تكن تظهر الا اذا كان منفردا ينظم عواطفه في قصائده ويسكب نفسه على قسطاسه . ولذا تسمع من معظم شعره نغمة حزينة مبللة بالدموع ، هي زنين اتار قلبه المتوجع . وما قصائده " يا موت " و " عرش الحداد " و " الشاعر الغضبان " و " القلب " وغيرها الاصوات فؤاده الذي يحادثك ويناجيك عن آلام خفية لم يعرف مصدرها ولكنه يشعر بها في نفسه " (٢) .

وقد عبر اخوه وتلميذه محمود عن اثر اقامته في فرنسا في تطوره الفكري بقوله :

" ان تلك السنين التي صرفتها تيمور في اوروبا وبالاخص في فرنسا كانت ذات اهمية كبرى في تكوينه النفسي . ولا نخطئ اذا عددناها بعصر انتقاله . ان البيئة التي عاش فيها - بيئة الحرية والديموقراطية والمساواة ، بيئة الاستقلال في الرأي والعمل والاعتماد على النفس ، بيئة الثورة الفكرية والعلم والنقد الصحيح

(١) تيمور، وميض الروح ، ص ١٤٧ - ١٦٤ .

(٢) تيمور، وميض الروح ، ص ٣٤ .

مزوجة بتلك المناظر الرائعة التي لا عهد له بها - قد اثرت فيه تأثيرا شديدا قامت على اثرها في نفسه ثورة فكرية هائلة انتهت بذلك التطور الجديد الذى ظهر في كتاباته نشرًا ونظمًا فيما بعد . والذى ساعد على تلك الثورة الفكرية انصرافه بشغف شديد للمطالعة في آداب اللغة الفرنسية . كان قلبه في ذلك الوقت يلتهب بنار الاصلاح للادب والمسرح المصرى ، وكانت خطاباته الي مفعمة بآرائه وامياله في سبيل ذلك . تفتحت عيناه فرأى بعين غير عين امس ذلك النقص الهائل في الادب العربي والمسرح المصرى ، فغير كثيرا من مذاهبه القديمة تيقن بخطئها وذلك ما دعاه لاهمال كتاباته في طوره الاول لانها كانت تحوى بعض آراء وافكار دون فكه في عصره الجديد . وان اهم فكرة اختمرت في رأسه وما زالت تكبر وتنسج " فكرة تمصير الآداب " اى ان تكون ذات صبغة مصرية واللوان محلية بحتة . والذى يقرأ قطعة النثرية ورواياته المسرحية يجد الصبغة المصرية فيها ظاهرة للعيان . (١) .

(١) تيمور ، وميشال الروح ، ص ١٦

اقطاب الاتجاه الانجليزي

مقدمة : عندما نتعمد لدراسة اقطاب الاتجاه الانجليزي تواجهنا ظاهرة لم نجد لها في دراستنا لاقطاب الاتجاه الفرنسي . ذلك ان زعماء المدرسة الانجليزية الثلاثة في هذه الفترة ، العقاد وشكري والمازني ، كانوا ينتمون بالفعل الى مدرسة ادبية واحدة بمقاييسها واحكامها واتجاهاتها . ولم يكن سبب ذلك انهم توجهوا في ثقافتهم الادبية نحو مشارب واحدة فحسب بل كانت لهم حتى سنة ١٩١٧ صلات شخصية وحياة مشتركة ادت الى توحيد اتجاهاتهم ومقاييسهم .

فقد التقى شكري والمازني يوم كانا طالبين في مدرسة المعلمين الخديوية العالية ، ثم افترقا بعد تخرجهما عام ١٩٠٩ عندما عين المازني في سلك التعليم ، وارسل شكري في بعثة دراسية الى انجلترا ليتخصص في الادب الانجليزي .

ولما عاد شكري الى مصر عام ١٩١٢ عادت صداقته مع المازني وانضم اليهما العقاد وبدأ الثلاثة يكتبون في " البيان " و " الجريدة " ، وبدأوا حملاتهم لتوجيه مقاييس النقد الادبي وجهة جديدة .

ودامت رفقة النقاد الثلاثة حتى عام ١٩١٢ عندما اشار شكري الى سرقات المازني الشعرية فحدث القطيعة بين الرفاق الثلاثة وكان العقاد والمازني في جهة وشكري في جهة اخرى .

قبل هذه القطيعة يمكن القول ان المبادئ النقدية للاتطاب الثلاثة كانت واحدة في غايتها ومراميها . ولعل شكبي كان المحرك الاول لها، ذلك انه كان قد تخصص في الادب الانجليزى ووسع اتاقه في شيفيلد ، ولعله وضع معلوماته في خدمة المدرسة الجديدة واهدافها .

واستمر العقاد والمازني في حملتهما الداعية الى التجديد وايضاح العيوب في الاسس القديمة والنقد والشعر بعد القطيعة مع شكبي ، اما هو فقد انكفأ على ذاته وانصرف عن دفاعه الادبي بعد ان اسماه المازني ، في فصلين من فصول " الديوان " (١) ، " صنم الالاعيب " .

غير ان نشاط " مدرسة التجديد " هذه — كما اراد الاقطاب الثلاثة ان يسموا انفسهم — لم تسهم في فترة بحثنا الا في حقل النقد — وعلى الاخص النقد الشعري — والشعر . بل حتى هذا الاسهام نفسه بقي ضيق النطاق الى ما بعد الربيع الاول من هذا القرن، وانحصر في الاغلب بمقالات متفرقة ومؤلفات محدودة او مقدمات لدواوين شعرية شرح فيها هؤلاء الاقطاب دعوتهم وتفاصيلها .

اتجه اعضاء " مدرسة التجديد " الى الادب الانجليزى فانادوا من قراءاتهم فيه في النقد والشعر .

(١) عباس محمود العقاد و ابراهيم عبد القادر المازني ، الديوان ، (مكتبة السعادة ، القاهرة ١٩٢١) ، ج ١ ، ص ٤٨ — ٦٢ .

يقول العقاد : " فالجيل الناشئ بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الادب العربي الحديث ، فهي مدرسة اوغلت في القراءة الانجليزية ولم تقتصر قراءتها على اطراف من الادب الفرنسي كما كان يغلب على ادباء الشرق الناشئين في اواخر القرن العابر . وهي على اتصالها بالادباء والشعراء الانجليز عن طريق مطالعاتها لم تنس الالمان والطيان والروس والاسبان واليونان واللاتين الاقدمين ، ولعلمها استفادت من النقد الانجليزي فوق فائدها من الشعر وفنون الكتابة الاخرى . ولا اخطىء اذا قلت ان هازلت هو امام هذه المدرسة في النقد لانه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون واغراخ الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد " (١)

بذلك يحدد العقاد الفن الذي ظهرت فيه اثار ثقافة مدرسة التجديد الانجليزية بل يحدد المصدر الاساسي الذي اثر في تحديد مقاييسها النقدية .

واذا كان اعتراف العقاد واضحا في تعيين المؤثر الرئيسي فانه اهمل المؤثرات الانجليزية الاخرى التي برزت في مقاييس " مدرسة التجديد " والتي جاءت عن طريق قراءة النقد الانجليزي بشكل عام ونقد المدرسة الرومنطيقية بشكل خاص .

ولم تبق اراء " مدرسة التجديد " في حدود النظريات ، بل لقد حاولوا تطبيقها بممارسة النقد التطبيقي من جهة وبكتابة الشعر من جهة اخرى . ولعل

(١) العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم ، ص ١٩٢

ابرزهم في ميدان الشعر عبد الرحمن شكري الذي صرف همه للتعبير عن ذاته تعبيراً
وجدانياً رومنطقياً ، في حين انصرف المازني والعقاد للنقد التطبيقي ، على انهما لم
يهملا الشعر وان لم يصلا فيه الى مرتبة شكري .

قلنا ان هنالك عناصر كثيرة مشتركة في المقاييس بين اعضاء هذه المدرسة ،
خاصة في الفترة الاولى التي سبقت القطيعة . وبعد القطيعة حمل المازني والعقاد
آراء نقدية واحدة او متقاربة ، في حين توقف شكري لفترة عن الاسهام في الحركة النقدية
بعد ان كان قد مدها بالاسس الاولى .

ولا يعنينا من الآراء النقدية في هذا المجال الا ان نستقصي بعض ملامح
اثر الثقافة الانجليزية فيها . لذلك سنعرض لشكري والعقاد ، اما المازني فقد اتفق
مع العقاد وتشابه معه الى حد بعيد في المقاييس والمصادر ، ولذا فلن نعرض له خشية
ان نقع في التكرار الذي لا فائدة منه هنا ، ما دام الامر امر تمثيل واستشهاد لا استقصاء
وتتبع ، وما دنا لا نسعى الى تحديد المذاهب الكاملة لكل من اقطاب " مدرسة
التجديد " ولا لآراء المدرسة كاملة . وقد كتب عن ذلك الكثير . انما نحن كما قلنا
بصدد توضيح بعض الخطوط العامة التي تبرز اثر الثقافة الانجليزية في النقد المصري ،
وعلى الاخص نقد الشعر ، لانه كان المجال الاوضح لهذا الاثر حتى نهاية فترة البحث .
زد على ذلك ان اسهام ^١ اقطاب الاتجاه الانجليزي في مجالات اخرى لم يأت الا بعد
نهاية فترة البحث ولعل ابرز ما قدموه كان قصص ابراهيم عبد القادر المازني .

كل ذلك يقودنا الى القول ان الحديث عن المدرسة الانجليزية في الادب لا يزال في هذه المرحلة حديثا عن بعض ملامح كثير منها مشتركة بين اقطابها الثلاثة او متشابهة ، ولا يظهر بالتحديد والوضوح الذي ظهر فيه تأثير اقطاب الاتجاه الفرنسي بالثقافة الفرنسية ، وهذا متوقع وطبيعي لان اقطاب المدرسة الفرنسية يتمتعون باسس ثقافية بعيدة الجذور تعود الى قرن كامل . اما اقطاب المدرسة الانجليزية فقد كانوا هم الدفعة الاولى التي حاولت تثبيت نفسها ووضع قواعدها واصولها .

وقبل ان نعرض لملامح تأثير كل من شكسبير والعقاد بالثقافة الانجليزية نشير الى اهم المبادئ المشتركة بين الاقطاب الثلاثة . في طبيعة هذه المبادئ الايمان بوحدة القصيدة . وهذه الدعوة شاهدنا بوادرها مع خليل مطران الا ان " مدرسة التجديد " دفعت بها الى ابعد من حدود مطران ، فلم تقف عند وحدة القصيدة في موضوعها وتماست اجزائها بل دعت الى ما اسمته بالوحدة العضوية وهي اعتبار كل بيت في القصيدة ~~الجزء~~ جزءا من كل فقط بل جزءا من كائن حي له مكانه الخاص كاليد او العين او الرأس في الانسان . (١)

هذا الايمان بوحدة القصيدة جاء الى الاقطاب الثلاثة عن طريق مطالعاتهم المستمرة في الشعر الانجليزي وخاصة في " الذخيرة الذهبية " (The Golden Treasury) التي يقول عنها نقولا يوسف في مقدمته لديوان شكسبير انها كانت " انجيل " مدرسة التجديد . وفي قراءاتهم لكولردج والنقاد الانجليز الذين عاصروه ومن

(١) راجع العقاد ، الديوان ، ج ٤ ، ص ٤٦

وعبد الرحمن شكسبير ، ديوان عبد الرحمن شكسبير ، ج ٥ ، ص ٣٦٦

ومن قراءاتهم في " الذخيرة الذهبية " اعجب هؤلاء الاقطاب بالشعر الذي يعبر عن
نفس صاحبه وانطلقوا يهاجمون شعر المناسبات ، كما تأثروا بالاوزان الشعرية الغربية
فحاولوا في البدء التحرر من القافية الملزمة على طريقة شعراء " الذخيرة " ^{والتمتع} القافية
الغربية التي تعطي حرية اكبر للشاعر .

هذه اهم الآراء النقدية التي اندفع نقادنا الثلاثة يدعون اليها متأثرين بثقافتهم
الانجليزية ، ولكن هذا الاثر سيظهر بشكل اوضح اذا ما انطلقنا الى شيء من التحديد .

عبد الرحمن شكري (١) : لعل أبرز اثر تركه عبد الرحمن شكري واضح فيه

آراءه النقدية هو مقدمة الجزء الخامس من ديوانه بعنوان "في الشعر ومذاهبه" .

في هذه المقدمة يحدد شكري مهمة الشعر بأنه " ما اشعرنا وجعلنا تحس عواطف

النفس احساسا شديدا لا ما كان لغزا منطقيا او خيالا من خيالات معاقري الحشيش" (٢)

وحدد شكري منبع الشعر بقوله " ينبغي للشاعر ان يتذكر - كي يجي شعره عظيما -

انه لا يكتب للعامة ولا لقرية ولا لأمة وانما يكتب للعقل البشري ونفس الانسان اين كان ،

وهو لا يكتب لليم الذي يعيش فيه انما يكتب لكل يوم ولكل دهر " (٣) . ولان

العقبى قد يغرى باستخراج الصلات المتينة بين الاشياء فتقصر اذهان العامة عن ادراكها " (٤) .

(١) رجعت في دراسة آراء شكري النقدية الى المراجع التالية :

- شكري ، ديوان عبد الرحمن شكري ، المقدمة ، ص ٥ ، (جمع وتحقيق نقولا

يوسف ، الاسكندرية ١٩٦٠) .

- شكري ، مقدمة ج ٤ من ديوانه .

- محمد نجم ، الفنون الادبية " الادب العربي في آثار الدارسين .

(٢) شكري ، ديوان عبد الرحمن شكري ، ص ٥ ، ص ٣٦٤

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٦٠

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٦٦

هذه الآراء النقدية تذكرنا بآراء كولردج في كيفية صدور الشعر عن الشاعر فهو يرى ان هذه العملية تتم ليس بعملية تذكر للاحاسيس فحسب بل بدمج العواطف والعمل الارادي المتعقل (١) ، هذا العمل الارادي المتعقل عند كولردج هو عند شكبي استخراج الصلات المتينة التي تربط الاشياء بعضها ببعض الآخر .

من هذه الفكرة انطلق شكبي ليفيد من نظرية اخرى من نظريات كولردج هي التفريق بين التخيل (Imagination) والتوهم (Fancy) يقول : " ان التخيل هو ان يظهر الشاعر الصلات بين الاشياء والحقائق ، والتوهم هو ان يتوهم الشاعر بين شيئين صلة لا وجود لها وهذا ما يخفي الشعراء الصغار عادة ولم يسلم منه الشعراء الكبار " (٢) .

ونعود باصول هذا التفريق بين الخيال والتوهم عند شكبي الى ما شرحه كولردج في ال (Biographia Literaria) . فقد قسم الخيال الى ثلاثة اقسام هي الخيال البدائي وهو موهبة طبيعية عند الانسان ، والخيال الثانوي الذي يختلف في وظيفته عن النوع الاول لان دوره في خلق الشعر هو دور الخلق والتصوير ، والنوع الثالث وهو الوهم (Fancy) وهو الذي تكون مهمته جمع المعلومات وتنسيقها بطريقة التداعي .

(١) راجع ال Biographia Literaria لكولردج حيث يعرض آراءه النقدية في منبع الشعر ومهمته واسلوبه .

(٢) شكبي ، ديوان عبد الرحمن شكبي ، ج ٥ ، ص ٣٦٥

اتفق شكبي ، او قل تأثر شكبي بآراء كولردج في منبع الشعر اما في وظيفته
فقد كان اقرب الى آراء وردزورث منه الى آراء كولردج . فوردزورث يرى ان وظيفة
الشعر هي عرض الحقيقة عرضا يستطيع ان يخلق اللذة ، والحقيقة التي يعرضها الشاعر
هي الحقيقة المطلقة العالمية العامة لا الحقيقة الفردية . ومبد الرحمن شكبي
يرى ان الشاعر لا يكتب لقرية او فئة او امة انما يخاطب العقل البشري والنفس الانسانية
اينما كانت . يقول " فليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر لها ، وليس
حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة في مكانها " (١) .
ويقول ايضا : " ان وظيفة الشاعر في الابانة عن الصلات التي تربط اعضاء الوجود ومظاهره .
والشعر يرجع الى طبيعة التأليف بين الحقائق . ومن اجل ذلك ينبغي ان يكون الشاعر
بعيد النظرة ، غير آخذ رواء المظاهر ، مأخذه نور الحق " (٢) . في هذا الرأي
مخالفة صريحة لرأي كولردج في ان غاية الشعر الاساسية هي خلق اللذة لا الحقيقة ،
لان هذه الاخيرة متروكة للعلم والتاريخ ، واقترب واضح من آراء وردزورث التي اشرنا اليها .
ويتفق شكبي مع وردزورث في مخالفة كولردج على لغة الشعر والقاموس الشعري . فشكبي
لم يكن ممن يهتمون باختيار الالفاظ الخاصة ، بل احب البساطة في التعبير وفي استعمال
الكلمات المألوفة . يقول : " وجدت بعض الادباء يقسم الكلمات الى شريفة ووضيعة ويحسب
ان كل كلمة كثر استعمالها صارت وضیعة وكل كلمة قل استعمالها صارت شريفة ، وهذا

(١) شكبي ، ديوان عبد الرحمن شكبي ، ج ٥ ، ص ٣٦٢

(٢) المرجع نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٨٧

يؤدي الى شيق الذوق وفوضى الآراء في الادب " (١) . فشكبي هنا يتفق مع
ورد زورث في عدم الايمان " بالقاموس الشعري " والاكتفاء باختيار لغة الحياة لغة
للشعر على ان يكون هذا الاختيار قائما على الذوق والاحساس . (٢)

وشكبي متأثر بورد زورث ايضا في نظريته الى عناصر الشعر ودورها ، يقول شكبي :
” سئل ورد زورث الشاعر الانجليزي عن شعر شاعر ، فقال انه ليس من الحتم في شيء ،
فكانه يقول ان اجل الشعر ما يخاله المرء قطعة من القضاء لا بد من حدوثها فاذا
اردت ان تميز بين جلاله الشعر وحقارته ، فخذ ديوانا واقراه . فاذا رأيت ان
شعره جزء من الطبيعة مثل النجم او السماء او البحر ، فاعلم انه خير الشعر ، واما
اذا رأيت واكثره صنعة كاذبة فاعلم انه شر الشعر فالشعر هو ما اتفق على نسجه الخيال
والفكر ايضا حا لكللمات النفس وتفسيرا لها . (٣) ويضيف شكبي ” فالشعر هو كلمات
العواطف والخيال والذوق السليم . فاصوله ثلاثة متزاوجة فمن كان غثيل الخيال اتى شعره
غثيل الشأن ، ومن كان ضعيف العواطف اتى شعره ميتا لا حياة له . . . ومن كان سقيم
الذوق اتى شعره كالجنين ناقص الخلقة ” (٤) .

(١) شكبي ، ديوان عبد الرحمن شكبي ، ج ٥ ، ص ٢٦٨

(٢) راجع مقدمة الحكايات الغنائية Lyrical Ballads الطبعة الثانية .

(٣) شكبي ، ديوان عبد الرحمن شكبي ، ج ٤ ، ص ٢٨٨

(٤) المرجع نفسه .

انحصرت نظريات شكبي النقدية في نقد الشعر لانه كان بالدرجة الاولى شاعرا
تأثر بثقافته الانجليزية التي ارهفت حسه وغيّرت مقاييسه فاراد ان تطبق المقاييس
الجديدة على الشعر العربي وقد عرضنا لاهم آراء شكبي النقدية التي عكست تأثره
بثقافته الانجليزية ورأينا كيف افاد من تجربة المدرسة الرومنطيقية الشعرية التي ظهر
اثرها ابرز من اي تأثير آخر . وانعكس تأثره بالمدرسة الرومنطيقية في شعره بوجه عام
فطبق فيه المقاييس التي ذكرنا ، حتى لكان ايمانه بهذه المقاييس النقدية دفاع عن شعره
الحديث ، قبل ان يكون هذا الشعر تطبيقا لنظرية نقدية . كذلك تأثر شكبي بالجو
العام للشعر الرومنطقي وهو شعر الطبيعة والالام والحب والخلجات النفسية ، فساد
شعره جوّاً من التشاؤم الذي يسود شعر الرومنطقيين في ساعات تأملهم الواسع بالام
الانسانية وامالها المخذولة . (١) فالمعاني الشعرية التي تبرز في دواوين شكبي
الخمسة هي الحديث عن خواطره وآرائه وتجاربه ، ومعالجة احساسات نفسه والتعبير عن
عواطفه ، وهي تعكس المثل الرومنطيقية المعروفة .

(١) راجع الجزء الاول من ديوان عبد الرحمن شكبي ، "ضوء الفجر" فهو يعكس

هذه الصور في مختلف قصائده .

عباس محمود العقاد (١) : القطب الرئيسي الثاني من اقطاب مدرسة التجديد
هو عباس محمود العقاد .

لم يكن العقاد في هذه الفترة بمستوى شكبي ثقافيا ، وقد كان اطلعه على
الآداب الانجليزية اطلاقا شخصا لم يتدرب فيه على استاذ او جامعة . ومع ذلك
فقد استطاع ان يستوعب مفاهيم النقد الحديث وان يكون ابرز اعضاء " مدرسة التجديد "
واكثرهم صمودا في دعوته من اجل المقاييس الجديدة .

ترت العقاد حتى نهاية فترة هذا البحث عددا من المؤلفات النقدية لم تشكل
سوى البداية في مذهبه النقدي الجديد . ومع ذلك فهي توضح الاثر الانجليزي في
ثقافته وتبرز اتجاهاته . وبخلاف عبد الرحمن شكبي الذي اتضحت اتجاهاته النقدية
الجديدة من خلال مقدمات الدواوين والمقالات المختلفة ، فان العقاد كان قد نشر
عددا من المقالات والكتب التي نشر فيها آراءه النقدية .

(١) رجعنا في استخلاص آراء العقاد النقدية الى المؤلفات التالية :

— الديوان ،

— الفصول ، (القاهرة ١٩٢٢)

— مطالعات في الكتب والحياة ، (القاهرة ١٩٢٤)

— مراجعات في الآداب والفنون ، (القاهرة ١٩٢٥)

— مقدمة ديوان عبد الرحمن شكبي ، (ج ٢) .

ابرز ما يظهر اثر ثقافة العقاد الانجليزية في نقده تأثره الواضح بالناقد الانجليزي هازلت ، وقبل ان نتطرق الى الآراء النقدية التي تأثر بها العقاد نشير الى ظاهرة طريفة هي هذا التشابه بين الناقدين ، من حيث الثقافة الخاصة واسلوب عرض الآراء النقدية .

فهازلت لم يكن مثقفا ثقافة جامعية مثل العقاد ، وقد كانت دراسته على نفسه وجأت تنمية ذوقه تنمية شخصية .

وهازلت ينقد بعنف وتحد بقوة تماما كما فعل العقاد في الديوان في نقده لشوقي وفي نقده للمنفلوطي .

اما في المبادئ النقدية فقد بدا واضحا تأثر العقاد بهازلت في اكثر من مجال . فنظرة هازلت الى الشعر التي بسطها في مقدمة كتابه " محاضرات عن الشعراء الانجليز " والتي تحدث فيها عن "الشعر عامة" هي النظرة التي حملها العقاد . فهازلت يرى " ان الشعر لغة الخيال والعواطف " (١) " وهو لغة عالمية بين القلب والطبيعة " (٢) . والعقاد يؤكد في جميع اثاره النقدية ان الشعر قيمة

(١) ولیم هازلٹ ، محاضرات عن الشعراء الانجليز ، ص ١

W. Hazlitt, Lectures on the English Poets, (London, J.M. Dent & Sons Ltd., 1910).

(٢) المرجع نفسه .

انسانية عامة تتعدى القيمة اللسانية . وهذا تقارب واضح في النظر الى وظيفة الشعر ومنبعه .

ويتفق العقاد مع هازلت في الاعتماد على دراسة الاديب ودراسة نفسيته للوصول الى فهم فنه وتفسير هذا الفن . وقد لمع العقاد في دراسته للاديب كما في دراسته لابن الرومي مثلاً (١) كما وفق هازلت في دراسة شخصيات الادباء الذين تحدث عنهم امثال سبنسر وتشوسر وشكسبير وغيرهم . يقول عز الدين الامين : " كان اكثر ابداع هازلت حينما يعمد الى نقد شاعر معين او مؤلف خاص ، والعقاد يلتقي معه في ذلك ايضا ويشبهه في تلك الخصوبة النقدية العظيمة التي امتلكها هازلت فانتجت تراثا ضخما " (٢) . ويثبت هذا الرأي طه حسين عندما يقابل بين طريقة المازني والعقاد في النقد وطريقته هو ، فيقول انهما افادا من الدراسات النفسية وانهما يعنيان بالشاعر اكثر من شعره ، " اما انا فربما عنيت بالشعر اكثر من عنايتي بالشاعر وربما اتخذت الشاعر وسيلة الى فهم الشعر " (٣) .

(١) جاء هذا البحث بعد فترتنا المحددة .

(٢) الامين ، نشأة النقد الادبي ، ص ٢٠٣

(٣) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، (دار المعارف ، القاهرة ، دون تلخيص) ،

ويتأثر العقاد من جديد بهازلت في نظريته الى مهمة الشعر والشاعر ،
فالعقاد يقول في نقده لشعر شوقي : " اعلم ايها الشاعر العظيم ان الشاعر من
يشعر بجوهر الاشياء لا من يعددها ويحصى اشكالها والوانها ، وان ليست مزية
الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبهه ، انما مزيته ان يقول ما هو ويكشف
لك عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس من القصيد ان يتسابقوا في اشواط
البصر والسمع وانما همهم ان يتعاطفوا ويودع احسهم واعطفهم في نفس اخوانه زبدة
ما رآه من التشبيه " (١) . ويقول هازلت ان الشعر " هو لغة الخيال ، والخيال
هو الموهبة التي تصور الاشياء لا كما هي بنفسها بل كما صاغت افكار واحاسيس اخرى
في اشكال مختلفة لا تحصى " (٢) .

والشعر عند العقاد " حقيقة الحقائق ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ما له
ظاهر في تناول الحواس والعقول ، وهو ترجمان النفس والتأمل الامين عن لسانها " (٣) .
وهذه النظرة تقترب اقترابا واضحا ليس فقط من نظرة هازلت بل من نظرة ورد زورث ايضا
الى الشعر ، ونظرة العديد من الرومنطيقيين وخاصة في كون الشعر لسان النفس
والمعبر عنها .

(١) العقاد ، الديوان ، ج ١ ، ص ١٦ - ١٧

(٢) هازلت ، محاضرات عن الشعراء الانجليز ، ص ٤

(٣) العقاد ، ديوان عبد الرحمن شكري ، " المقدمة " ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

وتأثر العقاد بهازلت في اختيار الموضوعات الشعرية . يقول هازلت :
" وليس هنالك فكرة او احساس يمكن ان يكون قد دخل عقل الانسان ، ويود ان
ينقله الى غيره فيسربه الا ويصلح لان يكون عنوانا للشعر " (١) . كذلك يعتقد
العقاد في انه ليس هنالك حدود معينة لاختيار الموضوعات الشعرية ، فليست
البساتين او النجوم او البحار وحدها موضوعات للشعر بل كل ما نصب عليه احساسنا
وخيالنا ونبعث فيه عواطفنا يمكن ان يكون موضوعا لشعرنا ، وقد حاول العقاد تطبيق
هذه النظرية في ديوانه " عابر سبيل " الذي صدر بعد فترة بحثنا .

في هذا الرأي يتفق العقاد مع وردزورث ايضا في اختيار الموضوعات الشعرية
من الحياة اليومية العادية ، وان كان العقاد قد تطرف في ذلك عندما جاء الى التطبيق .
غير ان العقاد يتفق مع وردزورث في مواقف اخرى . فوردزورث يؤمن بان مهمة
الشعر كشف الحقائق الطبيعية كثفا يثير اللذة والمتعة ، والعقاد يرى ان مزية الشاعر
" لا ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه
وصلة الحياة به " (٢) .

(١) هازلت ، محاضرات عن الشعراء الانجليز ، ص ٢

(٢) العقاد ، الديوان ، ج ١ ، ص ١٦ .

والعقاد متأثر بورد زورث في نظرتة الى الطبيعة وهو يرى ان الشاعر العظيم هو من تتجلى في شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وعظمتها واسرارها ومكوناتها (١) . وهذه نظرة الرومنطيقين عامة الى الشعر ، وخاصة مذهب ورد زورث الذي حددته في مقدمة الحكايات الغنائية .

لعل هذه الخطوط العامة التي ابرزناها عن تأثر اقصاب " مدرسة التجديد " بثقافتهم الانجليزية توضح بشكل ملموس الصلة بين هؤلاء الاقصاب ومن تأثروا بهم من الشعراء والنقاد الغربيين ، الا انها لا تحصر هذا التأثير ، فثقافة هؤلاء الاقصاب اتجهت بكليتها نحو الثقافة الانجليزية فانادوا عن طريق مطالعاتهم ، ليس للمؤلفات النقدية فحسب ، بل للمؤلفات الشعرية والقصصية ، مبادئ عامة لا يمكن حصرها باثر شخصية واحدة بل هي اثر الثقافة الانجليزية عامة . وعندما التفتوا الى الادب العربي وجدوا مجالا فسيحا لتطبيق هذه الاراء العامة التي التقطوها من قراءاتهم المختلفة لقضية المبالغة في الشعر ، وكرههم لشعر المناسبات والوحدة العضوية في القصيدة وغير ذلك من المبادئ النقدية الهامة التي لم نشر اليها لانها لا ترتبط بشكل ملموس بشخصية نقدية انجليزية كبرى او بمؤلف نقدي خطير . وتبقى هذه المهمة ، مهمة تحديد المذهب النقدي بتفاصيله لكل من اقصاب مدرسة التجديد والاثر الغربي العام الناتج عن الاتجاه الثقافي الشامل من مهمة بحث متخصص آخر . فالحقيقة ان هؤلاء الكتاب كانوا

(١) راجع رأي العقاد في هذا كما بسطه في اكثر من موضع فن كتابه مطالعات في الكتب والحياة .

في هذه الفترة التي حصرنا بها بحثنا ، في طور الاستعداد والتثقف ، وهذا الطور عادة يمتاز بكثرة الاخذ وقلة الابداع ، وبحسبي انني اشرت الى الاصول الثقافية لهذه المدرسة ، اما ما كان منها بعد ذلك ، فهو مختلف ، في التفاصيل والتطبيق في الاكثر وفي اتساع نطاق الثقافة بحيث لم تنقيد بالادب الانجليزي وحسب ، بل تعدته الى الآداب الانسانية عامة .

خلاصة

في اثر الثقافة الغربية في الادب المصري الحديث .

كان الفصل الاول من هذا الباب محاولة لتوضيح اثار دخول الثقافة الغربية الى مصر واسطدامها بالامواج الفكرية والاجتماعية التي كانت قائمة في البلاد . وهو بمثابة تلخيص لملامح هذه الآثار في مختلف الميادين الفكرية والاجتماعية ، لذلك فهو يغنينا عن إعادة الإشارة الى هذه الآثار .

غير ان هنالك بعض الملاحظات التي لا بد من الإشارة اليها ، خاصة في ما انعكس منها في الحياة الادبية المصرية في عصر النهضة .

اول هذه الملاحظات ان نتاج التأثير الغربي بدأت ثماره على ايدي السوريين المتمصرين قبل ان تبدأ على ايدي المصريين انفسهم . وقد رأينا الدور الذي لعبه هؤلاء في حقل الترجمة ونقل الافكار الغربية بحقولها المختلفة الى مصر . ولما بدأ النتاج التألفي كان السوريون اول من اسهم به في حقل القصة والمسرحية والمقالات النقدية فادخلوا الى مصر فنون الادب الغربي بعد ان كانوا قد مهدوا السبيل لها بواسطة ترجماتهم . والواقع ان اثر المدرسة السورية المتصورة كان متشعب الجذور ممتدا الى مختلف النشاطات الثقافية ، فهم الذين اسهموا في تطوير الحركة الصحفية وعلى صفحات صحفهم نشرت اول القصص المترجمة والمقالات النقدية والمعلومات العلمية .

غير ان هذه المدرسة لم تكن اثرا من آثار دخول الثقافة الغربية الى مصر بل عاملا مساعدا لهذه الثقافة على الانتشار والتأثير . فهوؤلاء السوريون لم يكونوا من نتاج نظم التعليم الغربية الجديدة ، ولا كانوا من الفريق الذي افاد من حركة الترجمة الواسعة بل كانوا على العكس والمساهمين في ايجادها . وقد حملوا معهم من بلادهم الافكار الغربية التي تلقوها في مدارسها لينشروها في مصر فتكون بين الامس الهامة التي اسهمت في تركيز النهضة على دعائم الفكر الغربي .

وقد شكل السوريون بطبيعة ثقافتهم وطبيعة الفترة التاريخية التي جاء فيها معظم نتاجهم مدرسة مميزة ، على اختلاف مشاربهم الثقافية . وقد استطاعت هذه المدرسة ان تترك اثرا هاما في تطوير الحركة الفكرية والادبية في مصر فتدخل اليها الفنون الادبية الجديدة وتزرع فيها بذور الافكار الغربية .

الملاحظة الثانية هي ان بداية المدرسة المصرية الحديثة لم تأت قبل عام ١٩٠٧ وكانت آثار الثقافة الغربية قد بدأت تعطي ثمارها الفكرية ، تساعد عوامل اخرى من اثر السوريين المتمصرين الى قدم جمال الدين الافغاني وبدء دعوة محمد عبده الى الظروف السياسية والوطنية التي سيطرت على البلاد .

لكن المدرسة المصرية الحديثة انقسمت بسبب المنبئيين الرئيسيين اللذين جاءت منهما الى مدرسة ادبية ذات اتجاه فرنسي واخرى ذات اتجاه انجليزي . هذه الملاحظة تقودنا الى ملاحظة هامة هي ان المدرسة الفرنسية كانت صاحبة الاثر الاقوى في الحياة

الادبية والفكرية المصرية طوال فترة بحثنا وقد اتضح ذلك في الفصل الاول من هذا الباب ، ولم يكن ذلك غريبا وقد علمنا ان الثقافة الفرنسية قد تمكنت بفضل السبق التاريخي من تثبيت جذورها واستطاعت بفضل الظروف العديدة التي رافقت تطور الاوضاع السياسية والعلمية في مصر ان تبقى الثقافة المفضلة طوال فترة طويلة وان تصمد للمقاومات المقصودة . اما الثقافة الانجليزية فانها كانت بحاجة الى مرور فترة زمنية لتمكن جذورها في مصر ولتستطيع تخرج زعماء يتولون قيادة الحركة الادبية الى جانب زعماء المدرسة الفرنسية . وحتى نهاية فترة بحثنا كانت الثقافة الانجليزية لا تزال في المرحلة الاولى من هذا العمل ، وقد كان ابرز اقطابها اعضاء مدرسة التجديد الثلاثة الذين لم يبرز لهم اثر واضح الا في مجال النقد الادبي حتى ما بعد الربع الاول من القرن الحالي .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان الصراع الذي تجلى في حقل التعليم بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية لم يبرز في حقل الترجمة ولا في حقل الادب حتى نهاية فترة البحث ، الا انه اخذ بالظهور بعدما ركزت الثقافة الانجليزية دعائمها ووسعت انتشارها في مصر واسهامها في مختلف النشاطات الفكرية ، وهذا ما لم يأت الا بعد نهاية الربع الاول من هذا القرن . اما في فترة بحثنا هذه فان الثقافتين وجدتا انهما مضطرتان الى التحالف في كثير من الاحيان للوقوف في وجه التيار القديم العنيف الذي واجههما والذي جعل من صراع القديم والحديث صبغة رئيسية لهذه الفترة .

كشاف المراجع

المراجع العربية

المراجع المخطوطة :

الزيات ، لطيفة ،

حركة الترجمة من الانجليزية الى العربية في مصر في
الفترة ما بين ١٨٨٢ - ١٩٢٥ ومدى ارتباطها
بصحافة هذه الفترة ، اطروحة مقدمة لكلية الآداب في
جامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه ، ١٩٥٢ .

حسن ، محمد الطيب ،

أثر الثقافة الغربية في الادب المصرى الحديث ، رسالة
مقدمة الى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٤٤ ،
لنيل درجة الماجستير ، ١٩٤٠ .

نجم ، محمد ،

محاضرات عن المسرحية في الادب العربي الحديث .

المراجع المطبوعة :

آدمس ، تشارلز ،

الاسلام والتجديد في مصر ، تعريب عباس محمود ،
مطبعة الافتاد ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

أدهم ، اسماعيل ،

خليل مطران ، نشر المقتطف ، القاهرة ، ١٩٣٩ .

أمين ، أحمد ومحمود ، زكي نجيب ،

قصة الادب في العالم ، ج ٣ ، لجنة التأليف والنشر ،

القاهرة ، ١٩٤٨ .

الأُميين ، عز الدين ،

نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ، مكتبة نهضة

مصر بالجالة ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

أُميين ، قاسم ،

تحرير المرأة ، مكتبة الترقى ، القاهرة ، ١٨٩٩ .

انطون ، فرح ،

أوروشليم الجديدة ، الاسكندرية ، ١٩٠٤ .

بـسـدر ، عبد المحسن طه ،

تطور الرواية الحديثة في مصر من سنة ١٨٧٠ - ١٩٣٨ ،

دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

بـسـدوى ، احمد احمد ،

رفاعة الطهطاوى بك ، لجنة البيان العربى ، القاهرة ،

١٩٥٠ .

بـسـلاطه ، عيسى يوسف ،

الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربى الحديث .

تـسـاجر ، جان

حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، دار

المعارف بمصر ، ١٩٤٥ .

تـيـمـسـور ، محمد ،

حياتنا التمثيلية ، مطبعة الاعتاد ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

المسرح المصرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

وميض الروح ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩١٢ .

جـسـب ، هاملتون ،

دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة احسان عباس

ومحمد نجم ومحمود زايد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤

الجـبـرتي ، عبد الرحمن ،

عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، ٣ اجزاء ، القاهرة ،

١٢٣٦ هـ .

جـلـال ، محمد عثمان ،

العيون اليواقظ في الامثال والمواقظ ، مصر ، ١٢٧٤ هـ .

حـسـين ، طه ،

تجديد ذكرى أبي العلاء ، مطبعة المعارف ومكتبته

بمصر ، ١٩٣٧ .

حافظ وشوقي ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

حديث الاربعاء ، ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

في الادب الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٢٧ .

مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة المعارف ومكتبته

بالقاهرة ، ١٩٣٨ .

من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، القاهرة ،

بدون تاريخ .

حـقـي ، يحيى ،

فجر القصة المصرية ، سلسلة المكتبة الثقافية ، اصدار

وزارة الارشاد القومي ، الادارة العامة للثقافة ، دار

القلم - دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

حمـزة ، عبد اللطيف ،

أدب المقالة الصحفية ، ج ١ ، دار الفكر العربي ،

القاهرة ، ١٩٥٠ .

الصحافة والادب في مصر ، معهد الدراسات العربية

العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

الدسوقي ، عمر ،

في الادب الحديث ، ج ١ ، الطبعة الثالثة ، دار

الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

في الادب الحديث ، ج ٢ ، الطبعة الثانية ، دار

الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥١ .

ديمـولان ، ادمون ،

سر تقدم الانجليز السكسونيين ، ترجمة فتحي زغلول ،

الناشر عبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ، ١٩١٦ .

الرافعي ، عبد الرحمن ،

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ،

٣ اجزاء ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٢٨ -

١٩٣٠ .

رضـوان ، أبو الفتوح ،

تاريخ مطبعة بولاق ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ،

١٩٥٣ .

الرمـادى ، جمال الدين ،

خليل مطران شاعر الاقطار العربية ، دار المعارف ،

القاهرة ، ١٩٦٠ .

زيـدـان ، جرجي ،

أرمانوسة المصرية ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، دار الهلال ،

القاهرة ، ١٩٥٢ - ١٩٥٨ .

سـامي ، أمين ،

التعليم في مصر ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩١٢ .

سعيد ، أمين ،

تاريخ مصر السياسي ، دار احياء الكتب العربية ،
القاهرة ، ١٩٥٩ .

السيد ، احمد لطفي ،

تأملات في الفلسفة والادب والسياسة والاجتماع ، دار
المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

المنتخبات ، ج ١ ، مكتبة الانجلومصرية ، القاهرة ،
بدون تاريخ .

شفيق ، أحمد

مذكراتي في نصف قرن ، ٣ اجزاء ، مطبعة مصر ،
القاهرة ، ١٩٣٤ - ١٩٣٦ .

شكري ، عبد الرحمن ،

ديوان عبد الرحمن شكري ، ٨ اجزاء ، جمع وتحقيق
نقولا يوسف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠ .

شوكت ، محمود حامد ،

الفن القصصي في الادب المصري الحديث ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

الششال ، جمال الدين ،

تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ،
دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ،
دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥١ .

شسيخو ، لويس ،

الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، جزآن ^{مطبعة} ، الآباء
اليمسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨ - ١٩١٠ .

شـيخو ، لويس ،

تاريخ الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين ،

مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٦ .

ضـيف ، شوقي ،

الادب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف ،

القاهرة ، ١٩٦٠ .

الطهطاوى ، رفاة رافع ،

تلخيص الابريز في تلخيص باريز ، القاهرة ، ١٢٥٦ هـ .

طومسون ، الامير عمر ،

البعثات العلمية في عهد محمد علي ، مطبعة صلاح

الدين ، الاسكندرية ، ١٩٣٤ .

عبد الكريم ، احمد عزت ،

تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، مكتبة النهضة

المصرية ، ١٩٣٨ .

تاريخ التعليم في مصر من نهاية حكم محمد علي الى

اوائل حكم توفيق ، ٣ اجزاء ، وزارة المعارف العمومية ،

ومطبعة النصر ، ١٩٤٥ .

عـبد ، ابراهيم ،

تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضة الفكرية

والاجتماعية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

العقـاد ، عباس محمود ،

شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، مكتبة النهضة

المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

العقاد ، عباس محمود ،

الديوان ، ج ١ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

الفصول ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

مطالعات في الكتب والحياة ، المطبعة التجارية ،

القاهرة ، ١٩٢٤ .

مراجعات في الادب والفنون ، المطبعة العصرية ،

القاهرة ، ١٩٢٥ .

عقيقي ، نجيب ،

المستشرقون ، بيروت ، ١٩٣٧ .

فهمي ، ماهر حسن ،

تطور الشعر العربي الحديث من ١٩٠٠ - ١٩٥٠ ،

مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

قـدري ، باشا ،

الدر النفيس في لغة العرب والفرنسيين ، القاهرة ،

(بدون تاريخ) .

كراتشكوفسكي ، اغناطيوس ،

الادب العربي الحديث ، ترجمة أمين حسونة ، الرسالة ،

السنة الرابعة ، المجلد ٢ .

مطـران ، خليل ،

ديوان الخليل ، مطبعة دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

المقدسي ، أنيس الخوري ،

الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، دار

العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٠ .

مسدور ، محمد ،

محاضرات عن خليل مطران ، معهد الدراسات العربية
العالية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٥٤ .
محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي ، معهد
الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ،
١٩٥٥ .

نجم ، محمد يوسف ،

"الفنون الادبية" ، الادب العربي في آثار الدارسين ،
دار العلم للعلايين ، بيروت ، ١٩٦١ .
القصة في الادب العربي الحديث ، دار مصر للطباعة ،
القاهرة ، ١٩٥٢ .
المسرحية في الادب العربي الحديث ، دار بيروت ،
بيروت ، ١٩٥٠ .

هيكسل ، محمد حسين ،

تراجم مصرية وفربية ، مطبعة المياسة والسياسة
الاسبوعية ، القاهرة ، ١٩٢٩ .
ثورة الادب ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
زينب ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ،
١٩٥٨ .
في أوقات الفراغ ، المطبعة العصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

الصحف والمجلات :

- مجلة "البيان"
- مجلة "الجامعة"
- مجلة "الجريدة"
- مجلة "الرسالة"
- مجلة "الزهور"
- مجلة "السفور"
- مجلة "الضياء"
- مجلة "المؤيد"
- مجلة "المقتطف"
- مجلة "الهلال"

La Revue du Caire : "Cinquante Ans De Littérature Egyptienne",
Février 1953.

المراجع الاجنبية

المراجع المخطوطة :

Cromer, (Earl of),

Rapport de Lord Cromer sur l'Egypte et le Soudan pour
l'année 1906.

Dunlop, Douglas,

Annexe Au Rapport de Lord Cromer sur l'Egypte et le
Soudan, (signé Douglas Dunlop).

Note on the Progress and Condition of Public Instruction
in Egypt from 1900 - 1913, (13 Vols.).

المراجع المطبوعة :

Artin, Yacoub,

Considerations sur l'Instruction Publique en Egypte,
Le Caire, 1894.

L'Instruction Publique en Egypte, Paris, 1890.

Brehier, Louis,

L'Egypte de 1798 à 1900, ed. Combet & Cie, Paris, Librairie
Furne, 1900.

Brunetiere, F.,

Etudes Critiques sur l'histoire de la litterature francaise,
Paris, Hachette, 1926 - 32.

Cachia, Pierre,

Taha Hussein, His Place in the Egyptian Literary Renaissance,
London, Luzac and Co. Ltd., 1956.

Cromer, (The Earl of),

Modern Egypt, London, MacMillan & Co., 1911.

Cunningham, Alfred,

Today in Egypt - The Administration, People and Politics,
Hurst and Blackett Limited, London, 1912.

Dor Bey,

L'Instruction Publique en Egypte, Paris, Lacroix, 1872.

Elgood, L.,

The Transit of Egypt, London, 1928.

Galt, Russel,

The Conflict of French and English Philosophy in Egypt,
Cairo, American University, 1937.

Haglitt, W.,

Lectures on the English Poets, London, J.M. Dent. & Sons Ltd,
1910.

Herzworth - Dunne, J.,

An Introduction to the History of Education in Modern Egypt,
London, Luzac, 1938.

El-Hilali, Najib Pasha,

Report on Educational Reform in Egypt, Cairo, Dec. 1943.

Hourani, Albert,

Arabic Thought in the Liberal Age, 1798 - 1939, London, Oxford
University Press, 1962.

El-Kabbani, Ismail,

A Hundred Years of Education in Egypt, Cairo, 1948.

Metin, Albert,

La Transformation de l'Egypte, Felix Alcan, ed., Paris, 1903.

Milner, Alfred,

England in Egypt, 3rd. edition, Edward Arnold, London, 1893.

Ministry of Education,

Final Report of the University Commission, Cairo, Government Press, 1921.

Ministère de l'Instruction Publique,

Exposé des Réformes Effectuées pendant l'Année 1885.

Pérès, Henri, "Le roman, le conte et la nouvelle dans la littérature Arabe moderne",

Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Université d'Alger, Alger, 1937, (V. III).

Said, Mohammed,

De l'Instruction En Egypte et des Réformes à y Introduire,
Le Caire, 1888.

Taine, H.A.,

Essais de Critique et d'Histoire, Paris, Hachette, 1894.

Wimsatt, William K. Jr., and Brooks, Cleanth,

Literary Criticism, A Short History, New York, Alfred Knopf,
1957.

Young, George,

Egypt, London, 1924.